دراسات أدبية

جدل الرؤى المتغايرة

دراسات ومتابعات
لندوات الأدب وقضايا العقل العربي

د . صبري حافظ

دراسات
أدبية

جدل الرؤى المتغايرة

دراسات ومتابعات
لندوات الأدب وقضايا العقل العربي

تأليف

د. صبري حافظ

الهيئة المصرية العامة للكتاب

١٩٩٣

●●● إهــــداء

الى والدى ،

بعض فضلهما على ،

فطالما أسعدهما أن يسافر ابنهما فى العالم ٠

● مقـــدمة

جـدل الرؤى المتغايرة

للسفر فى العالم سحر خاص ومتعة متجددة ، ليس هو سحر الجديد أو التغيير فحسب ، ولكنه سحر السفر فى حد ذاته ، وانفتاح مساحات شاسعة من التوقعات والاحتمالات • مساحات بسعة الحلم ، وبسعة الرغبة فى التجاوز والتخطى • ونادرا ما يكون السفر بالنسبة لنا ، وربما لمعظم كتاب العالم الثالث ، من أجل المتعة وحدها ، ولكنه عادة ما يمتزج بهدف ، أو يختلط بغاية أو بأداء مهمة • فالكاتب لا يستطيع أن يترك مشاغل الكتابة وراء ظهره كلما ارتحل ، ولكنه يصحب معه هذه المشاغل التى ما تلبث أن تفرض نفسها على كل ما يفعله ، وأن تصبغ بألوانها كل ما يشاهده • وجل السفرات التى أتيح لى أن أسافرها كانت من هذا النوع الذى احتلت فيه المهمة الثقافية مكان المقدمة • اذ كانت المرة الأولى التى سافرت فيها خارج مصر من أجل المشاركة فى مهرجان أبى تمام بالموصل ، وتتابعت بعدها السفرات ، وكانت فى أغلبها من أجل المشاركة فى مؤتمر أو الاسهام فى ندوة • حتى تلك السفرة الكبرى التى غبت فيها عن الوطن أعواما للتحصيل والدراسة فى بريطانيا ، بدأت هى الأخرى على هيئة سفرة محدودة للمشاركة فى مؤتمر للأدب العربى بها ، ولكنها سرعان ما تحولت الى رحلة للدرس والتحصيل ، والانفتاح على جوانب جديدة من الخبرة المعرفية والانسانية على السواء •

وهذا الكتاب هو حصاد بعض السفرات التى اشتركت عبرها فى عدد من مؤتمرات الأدب وندواته • بعضها سفرات الى مؤتمر فى داخل مصر ، أو الى مهرجان أو ندوة فى احدى حواضر الوطن العربى ، وبعضها أخذنى الى أوروبا أو الولايات المتحدة • وكما أن هذه المهرجانات والندوات تتباين جغرافيا ، فانها تتفاوت من حيث الحجم والمدى ما بين المؤتمرات الدولية الضخمة الى المؤتمرات الاقليمية الكبيرة وحتى الندوات الجامعية المحدودة ، ومن معرض الكتاب الى الاستطلاع الثقافى أو الرحلة المتشوفة الى المعرفة • ولكنها كلها سفرات من أجل الحوار العقلى مع رؤى الآخرين المتغايرة دوما ، المتحولة أبدا • ولأننى كنت أشعر دائما أننى أسافر من

أجل القيام بمهمة نيابة عن الواقع الثقافى الذى خرجت منه ، حتى ولو لم ينبن هذا الواقع عنه مباشرة ، فقد ألقى على عاتقى احساس الكاتب العام بمسئولية هذه الانابة ، فقد حاولت فى أحيان كثيرة ، وكلمات توفرت لى فرصة الكتابة عما دار فى تلك النـدوات أو المؤتمـرات ، أن أكتب للقارىء العربى عما دار فيهـا • وهى كتابة تقع فى المسـاحة الممتدة بين الكتابة النقدية ، وهى نص على نص ، والكتابة الابداعية أو الوصفيـة ، وهى نص على واقع • لأنها نص على نصوص الأبحاث ، ونص على وقائع الحدث الثقافى معا • انها مزيج من النقد والوصف ، قد يزيد حظها من احدهما على حساب الآخر ، وقد يحدث العكس • يمتزج فيها حديث الرحلة بهموم الوطن ومشاغل الذات المرتحلة فى المكان والزمان فى آن • ويختلط فيها الهاجس العام بشجون النفس وهى تتأمل مفارقات واقع الآخر وهو يتبدى على مرايا واقعها ، وعبر همومها •

وللمؤتمرات الأدباء وندواتهم مجموعة من الوظائف التى تخدم هذه الجماعة الأدبية الخاصة ، والتى تهم المهتمين بنشاطاتها فى المحل الأول ، ولكن فيها أيضا الكثير من الأمور التى تهم جمهور القراء العام • فاللقاءات الأدبية ترهف وعى الكاتب بذاته ، وتحدد مكان اجتهاداته ومكانتها فى الواقع الأدبى والثقافى الذى يعمل فيه ويتوجه باستقصاءاته اليه • ولكنها أيضا تتيح له فرصة الاحتكاك برؤى الآخرين ، واختبار أفكاره ورؤاه من خلال الحوار معهم • والجدل مع تصوراتهم • والواقع أن المشاركة فى بعض المؤتمرات قد تفتح آفاق شباب الأدباء للتعرف على فرص جـديدة للدرس والتحصيل ، وقد تغير هذه الفرصة مستقبلهم • وكان هذا هو ما حدث لى عنـدما دعيت الى المشاركة فى مؤتمر للأدب العـربى بجامعة لندن • وأتـاح لى الوجود هناك من التقـدم لمواصلـة الدراسة فى تلك الجامعة • لكن المؤتمرات والندوات والمهرجانات من مجالات العمل الثقافى الهامة التى لم نحاول الاهتمام بها فى ثقافتنا بعد • صحيح أننا نعقد الكثير من الندوات ونقيم العديد من المهرجانات بشكل دورى ، ولكن أين هو الكتاب الذى حاول أن يتناول هذا المجال الهام من مجالات العمل الثقافى بالدرس أو المتابعة أو التحليل • لذلك كلما انعقد مؤتمر أدبى تكررت فيه الكثير من عثرات المؤتمرات السابقة • لأن تراث الخبرات الثقافية فى تنظيم تلك المؤتمرات وفى الاستفادة منها لم يناقش ولم يبلور ، ولم تتراكم فيه الخبرات المكتوبة بالصورة التى يستطيع فيها من يفكر فى عقد مؤتمر أو تنظيم ندوة أن يراجع هذا التراث من الخبرات المتراكمة ، وأن يستفيد منه ، فيتجنب سلبيات التجارب السابقة ويستفيد من ايجابياتها• فلم يؤد تراكم الحوارات والخبرات الى بلورة مجموعة من القضايا التى

صاغها جدل الرؤى المتغايرة فى حواراتها المستمرة حول قضايا العقل العربى • ولم نحاول أن نتتبع هذا الجدل وأن نتعرف على ثماره • وأن نوظفها فى خدمة الواقع الثقافى بشكل عام •

وهذا الكتاب محاولة لجمع المتابعات والمقالات التى كتبتها حول هذا الموضوع على امتداد ربع قرن من الانشغال بهموم الأدب والثقافة • وفى سفرات هذا الكتاب وأسفاره ، وقد آثرت استخدام كلمة سفر فى الترقيم بدلا من الفصول ، لأن ما أقدمه ليس فصولا فى كتاب بنى بهذا الشكل المنطقى ، ولكنه مجموعة سفرات فى الزمان والمكان وفى الهموم الثقافية والأدبية العربية أساسا ، حتى ولو بدا أن الموضوع أبعد ما يكون عنها • وكل سفرة من هذه السفرات انجبت سفرها « أى فصلها » الذى يختلف من حيث طبيعة الهم ،والتناول عن غيره من الأسفار • وهناك سفرات لم تنجب أسفارا ، يتذكرها الانسان الآن بشىء من الأسف للتقاعس عن الكتابة عنها ، فربما كانت الأسفار التى لم أكتب عنها أقدر من تلك التى تناولتها بالافصاح عن بعد من أبعاد الهم الثقافى المشترك ، أو الهم القومى العام • لكن الذى لا ريب فيه هو أن القلم تناول تلك السفرات بعد أن مرت كل تفاصيلها عبر مرشح ثقافته وانشغالاته ورؤاه • وبعد أن بلور ملامح الاحتكاك العلمى والمباشر مع الآخرين ، من منطلق يدرك أهمية هذا الاحتكاك لتعميق فهمه وارهاف رؤيته للواقع الأدبى العربى الذى يطمح الى معرفة أعمق بقضاياه وأسراره •

وقد فضلت أن أرتب هذه المقالات ترتيبا تاريخيا ، على أن الترتيب نفسه يوحى بنوع من التطور فى طـرح القضايا ،أو التتابـع فى الموقف منها • وآثرت أن أنهى الكتاب بالمقالتين الأخيرتين لأن احداهما تشكل دعوة لعقد مؤتمر أمثل لحوار العقل العربى ، بينما تضع الثانية المثقف العربى فى قلب القضية الأساسية التى لابد لكل منتدى أو مؤتمر أدبى أو ثقافى أن يأخذها فى الاعتبار وهى قضية علاقات السيطـرة وصورة العالـم ، ومكاننا منهـا ، فاذا استطاع هذا الكتاب أن يذكرك ، يا قارئى العزيز ، ببعض ندوات الأدب ، وأن يطـرح عليـك بعض مشاغله فانه يكون قد حقق شطرا كبيرا من مطامحه ، أما اذا أثار مع ذلك بعض قضايا العقل العربى ، وبعض رؤى المثقفين المتغايرة منها بغية ارهاف قدرتك على الجدل والحوار ، وتعزيز مقدرتك على التعامل مع مؤتمرات الأدب ومهرجاناته بشكل نقدى ، فان هذا هو أقصى ما يصبو اليه •

القاهرة ــ أكتوبر ١٩٩٠   صبرى حافظ

● السفر الأول

أبعاد الرؤية الشابة للواقع الأدبى

ابعاد الرؤية الشابة للواقع الأدبي

لاشك في أن مبادرة أمانة الشباب في الاتحاد الاشتراكي العربي بالاهتمام بالنشاطات النوعية للشبان ومحاولتها لربط الشباب بقضايا الواقع السياسي من خلال الاهتمام بمجالات نشاطهم والتعرف على ملامح رؤيتهم للقضايا والمشكلات المثارة في المجال النوعي الذي يهتمون به أو يعملون فيه واحدة من أرقى صور العمل السياسي وأعمقها أثرا ٠ وعلامة طيبة تؤكد أن ثمة تغيرا حقيقيا في أسلوب العمل السياسي بين الشباب في مصر ، وارهاصا بقدرة هذا الجهاز السياسي على استيعاب طاقات الشباب واحتواء مختلف نشاطاته والعمل على توجيهها لخدمة المعركة المصرية التي تعيشها أمتنا بمختلف أبعادها العسكرية والسياسية والفكرية والحضارية ٠ وقد بدأت هذه المبادرات الطيبة بعقد أمانة الشباب لمؤتمر السينمائيين الشبان قبل بضعة شهور في مدينة الاسكندرية ٠ ثم تبنت بعده معرضا موسعا لانتاج الفنانين التشكيليين الشبان طافت به عددا من المحافظات ٠ ثم جاء أخيرا هذا المؤتمر الأول للأدباء الشبان تتويجا لكل هذه المبادرات وتأكيدا لها ٠

وقد انعقد هذا المؤتمر بمدينة الزقازيق عاصمة محافظة الشرقية في الفترة من ٤ الى ٨ ديسمبر ١٩٦٩ ٠ وكان اختيار محافظة الشرقية دون غيرها من المحافظات مكانا لانعقاد المؤتمر ، راجعا الى وقوع هذه المحافظة لصق جبهة القتال ، حتى يكون المؤتمر صدى حقيقيا للرصاصات التي تنطلق على مقربة منه الى صدر العدو ٠ وقد استطاع المؤتمر بالفعل أن يكون بالوعي والجدية على مستوى اللحظة التي دار فيها والآمال التي عقدت عليه ٠ وأن يكون تأصيلا حقيقيا للحركة الأدبية الشابة التي فرضت نفسها على اهتمام واقعنا الثقافي بصورة واضحة طوال السنوات الأخيرة ، بعدما تشخصت ملامحها كحركة لها رؤيتها الجديدة للواقع وأساليبها

الجديدة للتعبير عن هذه الرؤية • كما كان تجميعا كاملا لطاقات هذه الحركة الجديدة فى مختلف فروع الأدب من شعر ونقد ورواية واقصوصة• ومحاولة واعية للتعرف على أبعاد رؤيتها لواقعنا الادبى والحضارى على السواء • واستطاع الى جانب كل هذا ومن خلاله أن يقدم صورة كاملة وواضحة لرؤية الكتاب الشبان لمختلف قضايا واقعنا الثقافى ولأهم مشاكله • ولتصورهم لأكثر الأساليب ملاءمة لعلاج هذه المشاكل ولتحقيق الظروف القادرة على افساح المجال أمام الكلمة لممارسة دورها بفعالية فى التعبير عن كل ما يمور فى داخل الوجدان المصرى وفى تغييره معا • واستطاع المؤتمر أن يحقق كل هذه الاهداف الطموحة باقتدار ونجاح وأن يقدم تفاصيل هذه الصورة العريضة لعدة عوامل هامة •

أولها طبيعة الاعداد المدروس لهذا المؤتمر ونوعية العناصر التى قادت عملية الاعداد له ، والتى تكونت منها لجنته التحضيرية • فقد تكونت هذه اللجنة التى قادت عملية التحضير للمؤتمر واختارت أعضاء لجانه النوعية من نجيب محفوظ (أمينا عاما للمؤتمر) والدكتور على الراعى (أمينا مساعدا) والدكتور يوسف ادريس (مقررا للجنة القصة القصيرة) وصلاح عبد الصبور (مقررا للجنة الشعر) وأحمد عباس صالح (مقررا للجنة النقد) وفاروق خورشيد (مقررا للجنة الرواية) وأحمد رشدى صالح (مقررا للجنة الأدب الشعبى والشعر العامى) والدكتور عبد الغفار مكاوى (مقررا للجنة الصياغة والأبحاث) وعباس أحمد (مقررا للجنة البرامج التليفزيونية) ويوسف الحطاب (مقررا للجنة البرامج الاذاعية) والفريد فرج (مقررا للجنة المسرح) •• واستطاعت هذه اللجنة التحضيرية أن تكون اللجان النوعية الثمانية التى عملت على الاعداد للمؤتمر من أبرز العناصر الشابة فى كل ميدان من هذه الميادين • وطعمت هذه العناصر فى كل لجنة من اللجان بعدد من كتاب الأجيال السابقة الذين يتمتعون بروح شابة وبفكر متحرر من العقد والتقاليد الجامدة ، والذين يقتربون كثيرا من جوهر الرؤية الجديدة التى يعتنقها الكتاب الشبان ويصدرون عنها ، أو يحومون على الأقل بالقرب من مواقعها ، أو لا يختلفون معها بشكل جذرى فى أضعف الحالات •

وقد بلغ عدد أعضاء هذه اللجان النوعية الثمانية أكثر من ستين كاتبا وأديبا استطاعوا مع مقررى اللجان من أعضاء اللجنة التحضيرية الاعداد للمؤتمر ، وبذل جهد كبير فى التمهيد له طوال الشهر السابق على انعقاده • وانقسم عملهم فى هذا المجل الى شقين : أولهما عقد عدد كبير من المؤتمرات الأقليمية التمهيدية والندوات الأدبية فى كل محافظات

الجمهورية ، يتراوح عددها بين مؤتمر واحد وأربعة مؤتمرات فى كل محافظة وفقا لحجم الحركة الأدبية بها ، ولطبيعة القضايا التى تطرحها تجمعاتها • وسافر أعضاء هذه اللجان النوعية الى مختلف المحافظات والتقوا مع كل المهتمين بالأدب والممارسين له فيها ، يشرحون لهم فكرة المؤتمر وما يريدون طرحه عليه من مشكلات وقضايا • وعقد من هذه المؤتمرات الاقليمية التمهيدية والندوات الأدبية التي صاحبتها حتى موعد عقد المؤتمر العام أكثر من سبعين مؤتمرا وندوة • استطاعت أن تحرث كل أنحاء الجمهورية بحثا عن الرؤى والقضايا المطروحة فيها ، وأن تجوب كل بقاعها الأدبية والثقافية بغية ادارة حوار عميق حول المؤتمر بين كل التجمعات الأدبية الاقليمية • وأن تتعرف على مختلف التصورات وتتلقى أهم القضايا والهواجس التى ترى هذه التجمعات طرحها على المؤتمر ، وتبلور أهم المشكلات التى تحول دون هذه الطاقات الشابة الجديدة والمساهمة بفعالية واضحة فى التعبير عن الوجدان القومى والمشاركة فى صياغته • ومن جماع مادار فى هذه المؤتمرات التمهيدية استطاعت اللجنة التحضيرية للمؤتمر أن تصوغ التقرير الافتتاحى الذى طرح عليه ، وأن تعد القضايا والموضوعات التى شكلت جدول أعماله ، حتى يكون هذا الجدول تعبيرا عن مشاغل هذا الواقع ، وصياغة لبعض ما يلح عليه من أسئلة • كما استطاعت هذه المؤتمرات أن تشارك فى التغلب على صعوبة اختيار ممثلى المحافظات فى المؤتمر • تلك الصعوبة الناجمة عن غياب التجمعات المشروعة والمنظمة للأدباء الشبان فيها • وعن افتقاد الأجهزة الرسمية أو السياسية الى الخبرة الحقيقية بواقع الحركة الأدبية فى كل محافظة • ومن ثم كان للحوار الذى دار فى هذه المؤتمرات الاقليمية التمهيدية ، وللأعمال الأدبية التى عرضت على الندوات المصاحبة لها ، دور كبير فى ابراز أكثر العناصر قدرة على التعبير عن جوهر القضايا التى تدور فى واقعهم ، وأصلها تمرسا بالعمل الأدبى وانتاجا فيه •

أما الشق الثانى من عمل هذه اللجان النوعية التى أعدت للمؤتمر فقد تمثل فى فحص الانتاج الغزير الذى قدم للمسابقة الأدبية المرافقة للمؤتمر • والحقيقة أن لهذه المسابقة أهمية كبيرة فى الكشف عن أكثر العناصر الشابة نضجا وأصالة وفى تقديمها الى الواقع الأدبى بصورة تؤكد تكريس هذه العناصر وتاكيدها • خاصة وأن هذا المؤتمر ليس مؤتمرا لمناقشة قضايا الأدباء الشبان فحسب ، بقدر ما هو مؤتمر لتقديم جيل جديد من الكتاب الشبان الذين فرضت أعمالهم نفسها على واقعنا الثقافى باقتدار وأصالة • ومن هنا كانت المسابقة جزءا مكملا للمؤتمر • على عكس ما رأى البعض من أنها زائدة ملحقة به لا أهمية لها • وبرغم أهمية هذه

المسابقة فى اعتقادى كجزء أساسى من بنية المؤتمر • يستهدف تقديم رؤية الجيل الشاب لقضـايا الواقع لا كشىء مجرد ولكن فى ارتباطها بأعمال العناصر الأصيلة والناضجة فى هذا الجيل • أقول برغم أهمية هذه المسابقة اتسمت بقدر من التعجيل والارتجال فى التخطيط لها وفى فحص الأعمال المقسمة اليها • ويرجع هذا القصور فى اعتقادى الى افتقار الجهاز الادارى الذى تولى الاشراف على المؤتمر الى الخبرة فى هذا المجال من جهة والى أن اللجنة التحضيرية للمؤتمر لم تول موضوع المسابقة الاهتمام الجدير به من جهة أخرى • ولكن المسابقة استطاعت برغم هذه العثرات أن تبرز بالفعل بعض العناصر الأصيلة فى مختلف المجالات الأدبية وأن تشير الى بعضها الاخر •

واذا كان هذا الاعـداد المدروس للمؤتمر هو أول عوامل نجاحـه الهامة • فان العامل التالى له فى الأهمية هو اعتماد المؤتمر فى مختلف مراحله على العناصر الشابة الناضجة فى واقعنا الأدبى والتى بذلت للمؤتمر من نفسها وجهدها حتى جعلته على مستوى المسئولية الملقاة عليه ، والتى كانت على قدر كبير من الادراك والوعى ، طوال المناقشات التى دارت فيه أو التى مهدت له ، بطبيعة ما يدور فى واقعنا وبطبيعة المعركة المصيرية التى تعيشها أمتنا وبدور الأديب الشاب فيها وفى المعركة الحضارية الشاملة التى تحتويها ، والتى تخوضهـا بلادنا فى سعيهـا الحثيث الى مستقبل أفضـل ، وفى تشوفها الظـامىء الى التخلص من كل القيود التى تعوق انطلاقها اليه • كما استطاعت هذه العناصر الشابة الأصيلة أن تفرض على مناقشات المؤتمر روح الشجاعة والتعقـل وأن تفرض أيضا سيادة روح الديموقراطية المنفتحة على كل الموضوعات والقضايا التى نوقشت فيه • مما حـال دون مصـادرة أى رأى من الآراء بغير الاقناع الحـر والمناقشة المفتوحة • كما حطمت هذه الروح الديموقراطية الشجاعة قضبان الرهبة التى تحيط ببعض القيـم والتى تحول دون مناقشة بعض الموضوعات • وان أشارت هذه الروح التى سادت كل جلسات المؤتمر الى شىء فانمـا تشير الى وعى الكتاب الشبان بأبعاد اللحظة الحاسمة التى تعيشها أمتنا ، والى ايمانهم بقدرتهم على اجتيازها ودورهم فى تخطيها •

أما العامل الثالث الذى مكن المؤتمر من تحقيق أهدافـه الطموحـة تلك ، فراجـع الى أن هذا المؤتمر كان تلبية فعليـة لحاجـة أساسية فى الواقع • فقد استطاعت الحركة الأدبية الشابة كما ذكرت أن تفرض نفسها منذ عدة سنوات على اهتمام واقعنا الثقافى ، وأن تضيف شيئا ملموسا الى ضميرنا الأدبى ، وأن تضخ الشباب فى عروق بعض الأجناس الأدبية التى أصيبت بالشحوب • ومن ثم كانت هناك ضرورة موضوعية لعقـد

مؤتمر يضم كل هذه الجهود الشابة والمبعثرة · ويحقق لقاء عميقا بينها ـ ويتعرف على تفاصيل رؤيتها لبعض القضايا والمشكلات · ويبلور الحلول التى ترتضيها هذه الكفاءات الشابة الجديدة ، ويضعها تحت أعين الجهات القادرة على تحقيقهـا · ومن هنا كان حـرص المشتركين فى المؤتمر على نجاحه واضحا · وكانت جهودهم كلها مركزة لتحقيق أهدافه · وقد تجلى هذا الحرص فى الأعمال الجادة والمتواصلة للجـان المؤتمر طوال أيامـه الأربعة · وفى طبيعة التوصيات التى صدرت عنه والتى حرصت على أن تتيح لنفسها قدرا كبيرا من الواقعية واتساع الأفق · وأن تصدر عن تفهم عميق للمناخ الذى تظهر فيه ولقدرته على الحركة ولمداها · وفى رغبة المؤتمرين ألا يكون مؤتمرهم هذا هو المؤتمر الأول والأخير · وعملهم على تحقيق الضمانات التى تكفل له الاستمرار والدورية · وكفاحهم من أجل انشـاء سكرتارية دائمة له ، تتولى العمل على تنفيـذ توصياته والاعداد لمؤتمر جديد ·

لهذه العوامل الثلاثة استطاع المؤتمر أن يحقق أغلب ما صبا اليه من أهداف · وأن يناقش بتفهم وشجاعة عددا من أهم القضايا المثارة فى ضمير واقعنا الثقافى · وأن يؤكد منذ اللحظة الأولى لافتتاحه تقديره العميق للأجيال السابقة التى مهدت أمامه الطريق ، والتى رفعت لواء الثقافـة الجادة المخلصة منذ فجر النهضة العربية حتى اليوم · فنفى بذلك تهمة العقوق التى ألصقت دائما بكتاب هذا الجيل ظلما أو عن سوء طوية · وأكد اعترافه بالبنوة الوفية لكل الأقلام الشريفة التى أضافت الى ثقافتنا الحديثة ووسعت أفقها · وقد تبلور كل هذا فى ارسال المؤتمر ساعـة افتتاحه برقية تقدير ووفاء واعتزاز للدكتور طه حسين باعتباره تجسيدا حيا لقيمة الكلمة الأدبية العربية النظيفة ولقدرتها ، ورائدا للأدباء بقيادته حركة التجديد والتجريب والابداع فى ثقافتنا الحديثة لما يقرب من نصف قرن · متمنيا له بمناسبة بلوغه الثمانين الصحة والتوفيق والسعادة · وبعد هذه اللفتة الكبيرة الدالة وفى ضوء معانيها بدأ المؤتمر فى مناقشة قضاياه ، مجمعا على أهمية الدور الذى تطلع به الكلمة الشريفة والشجاعة فى مجتمع تتربص به قوى الاستعمار الضارية من كل جانب · وعلى عدم الانفصام بين دور الأديب فى المعركة الراهنة التى تخوضها أمتنا العربية فى واحدة من أشرس حلقات صراعها الطويل مع الاستعمار والصهيونية · ودوره فى المعركة الكيانية التى يخوضها مجتمعه من أجل غد أفضل · رابطا بين قضايا التحرير والحرية والاشتراكية مؤكدا تشابكها وتفاعلها معـا ·

وفوق هذه الأرضية انطلق المؤتمر يناقش قضاياه ويبلور أبعـاد الرؤية الشابة للواقع الأدبى ، ونبوءاتها التحذيرية مما يتربص به من

أخطار . وكان في مقدمة القضايا التي ناقشهـا المؤتمر والتي ربط بهـا أغلب قضاياه الاخرى . قضية انشاء اتحاد عام للادباء له شخصيته الاعتبارية المستقلة القادرة على رعاية الاحتياجات الاساسية والدائمة لجميع أدباء مصر ، وعلى حمايتهم . سواء أكانت هذه الأحتياجات مادية أو ثقافيـة أو صحية . وقادر على العمل على توفير المناخ الملائم لعلمهم ، والضمانات الكافية لحريتهم في التعبير والاجتهاد والتجريب ، وعلى حمـاية كلماتهم الشريفة الصادقة من الضياع أو التبعثر .

وقد أكـد المؤتمرون على أن الاتحاد الذى ينشدونـه ليس اتحادا للأدباء الشبان وحـــدهم ، ولا هو اتحـــاد لأدباء الاقاليم فقط ، وليس انشقاقا على تنظيمات راهنة ، ولكنه مطلب جوهرى وجماهيرى عام لجميع الأدباء الحقيقين في مصر . وأنه ليس تكرارا للتجارب السابقة او للجمعيات الأدبية القائمة ، ولكنه تجاوز لها نحو آفاق أوسع تستطيع أن تحتضن كل الاتجاهات الفنية والفكريـة المختلفة ، وان تتيــح لها الفرصــة للتحقق والازدهار في مساحة كافية من الحرية ، وان تحقق تمثيلا صحيحا للأقاليم . مما يضمن تمثيل كل منهم بما يتوافق مع حجمه ووزنه الحقيقى . وأن يستفيد هذا الاتحاد ، الذى ألح المؤتمر على ضرورته العاجلة – بالتعاون والتفاهم والتقدير – من الأجهزة السياسية والتنفيذية ، دون أن ينضوى تحت أى منها . وأكدوا قدرة هذا الاتحاد عند تكوينه على حماية مصالحهم ، وعلى تخليصهم من جزء كبير من المشكلات التي يعانون منها ، وعلى ابراز وجهة نظرهم في مختلف الأمور والتعبير عنها بصورة مشروعة لها قيمتها وفعاليتها . وكان وعى الأدباء الشبان بأهميــة هذا الاتحاد كمنبر مهنى يضمن لهم الحد الأدنى من الحقوق الأدبية والسياسية المشروعة ، هو الذى ارتفع بهذا المطلب فوق الخلافات السياسية والاهتمامات العمرية . وجعله مطلبا عاما لأدباء مصر لأول مرة في تاريخها الثقافى الطويل ، والذى عرف الكثير من التجمعات والروابط بين الكتاب والمثقفين ذوى المشارب الفكرية المتماثلة ، ولكنه لم يعرف أبدا وعاء تنظيميا مهنيا واحدا يضم بين جوانبه كل الكتاب والأدباء الذين جعلوا من الاشتغال بالكلمـة غايتهـم ، ومن الحفاظ على دورها والاعتزاز بمكانتها وكرامتها بغيتهم .

ثم ناقش المؤتمر بقية موضوعات جـدول أعمـاله . مبتدئا بمشـاكل النشر وعلاقة الأديب الشاب بالأجهزة الثقافية . وبعد أن قدر للدولة دورها في مسألة النشر ، وأكد أن ما تبذله من جهد ومال كاف لحل هذه المشكلة لو توفرت له القيادات القادرة على التخطيط السليم للنشر وعلى تحكيم المعايير الموضوعية المتفهمة لما يدور في واقعنا الثقافى من قضايا وتيارات ، رأى ضرورة وضع خطة شاملة لكل التشكيلات الثقافية في ميدان النشر .

وأكد أهمية تمثيل الادباء الشبان فى مجالس ادارات وسائل النشر المختلفة، ولجان القراءة فى المجلات الثقافية ودور النشر • كما طالب باصدار مجلات متخصصه للنشر والنقد والقصه تكون على مستوى الحركة الأدبية الشابة بكل تفتحها وتقدمها وازدهارها • بل وقادرة على قيادتها نحو آفاق أوسع من المغامرة والتجريب • كما أومأ الى ضرورة تقوية موجة البرنامج الثانى بالاذاعة والى زيادة ساعات ارساله لما له من دور فعال فى ترقية الذوق الثقافى ، وفى متابعة التيارات الجادة والجديـدة فى الثقافـة العربيـة والعالمية ، والى تدعيم البرامج الثقافية بالاذاعة وبرامـج الأدباء الشبان منها بصفة خاصة ، والى أهمية التوسع فى انشاء الاذاعات الأقليمية •

ثم انتقل بعد ذلك الى قضايا الترجمة • فأوصى بانشاء مجلس أعلى للترجمة يقوم بمهمة التخطيط الشامل والواعى لكل ما يترجم من اللغات الأجنبية • ووضع أولويات لحركة الترجمة تتمشى مع حاجة مجتمعنا الى مواكبة تيارات الحداثة في مختلف الثقافات العالمية ، والى التعرف على أمهات الكتب فى شتى المجالات • فالترجمة هى الباب الذى تنفتح عبره الثقافة على شتى منجزات الأدب الانسانى ، وهو الباب الذى تدير عبره حوارا خلاقا مع اجتهادات العقل الانسانى فى مختلف بقاع العالـم • كما أنها الأداة التى ترهف بها وعيها بغاياتها هى وبنوعية الآفاق التى تريد أن تفتحها أمام قرائها وأدبائها المحتملين ، وبطبيعـة الروافد الناضبة التى تريد أن تجنب طاقات كتابها من الانسراب فى فيافيها • ولم يتوقف وعى المؤتمر بأهمية الترجمة على فتح نوافذ على منجزات الثقافة الغربية كما كان الحال فى الماضى ، وانما طالب بأن يكون لآداب العالم الثالث نصيب كبير من اهتمامات هذا المجلس المرتقب • وأن يكون الاهتمام بترجمـة آدابنا الى لغات العالم الآخرى من بين الأهداف التى يناط بهذا المجلس العمل على تحقيقها • فقد طالب بأن يشمل هذا التخطيط أيضا ما يترجم من آدابنا العربية الى اللغات الأخرى ، مع العمل على تنشيط حركة هذه الترجمة ، وتشجيع كل المبادرات الراغبة فى ترجمة آدابنا الى أى لغة من اللغات الأخرى • وألـح المؤتمر على ضرورة التوسع فى توفير الكتب والدوريات الثقافية العالمية فى السوق المحلية بانتظام • مع اعفائها من الرسوم الجمركية وتبسيط اجراءات استيرادها • ورأى كذلك ضرورة بذل جهد خاص لترجمة أدب العدو الصهيونى ونقده وتقييمه ، تمكينـا لمحاربينا وجمـاهيرنا من التعرف على وجـدان العـدو وأسـاليب تفكيره العنصرى البغيض •

ثم بحث المؤتمر بعد ذلك موضع الرقابة ، فرأى ضرورة وضع معايير واضحة للرقابة على المطبوعات والمصنفات الفنية بحيث لا ينبغى أن يتعدى

الحظر الذى تفرضه الرقابة ضرورات الأمن العسكرى وحده · وأن ينصرف جهد الرقابة الأساسى الى تدعيم الخط الثورى ، ومحاربة السموم الاستعمارية · وذلك ايمانا منه بأن تحرير الأرض رهن بتحرير الفكر · وأكد أهمية تكوين رأى عام حر وقوى يثريه الجدل المفتوح · والنقاش المتحرر من كل قيد أو خوف · ورأى ضرورة انشاء لجنة من الأدباء والفنانين يمكن الاحتكام اليها عند الخلاف مع الرقابة أسوة بما هو معمول به فى الرقابة على السينما ·

ثم انتقل المؤتمر بعد ذلك الى بحث قضية التفرغ ، فأكد أن نظام التفرغ من أكثر النظم ايجابية لاتاحة الفرصة للأبداع الفنى والخلق الفكرى · وأهاب بوزارة الثقافة أن تتوسع فيه حتى يستوعب أكبر عدد من الأدباء · كما طالب بالعمل على أن يكون قرار التفرغ ملزما للجهة التى يعمل بها الأديب حتى تسمح له بالتفرغ · ولفت النظر الى أهمية تحمل الجهة التى يعمل بها الأديب مرتب تفرغه ، حتى تشارك المؤسسات الاقتصادية والأجهزة الادارية فى حل مشاكل الانتاج الفكرى والأدبى مع وزارة الثقافة · كما رأى أن يتسع نظام التفرغ حتى يشمل كل فروع الأدب سواء منها الشعر أو النقد أو الأقصوصة ، وأن تعمل وزارة الثقافة على انشاء بيوت ابداع فنى وأدبى فى مختلف بيئات الجمهورية ، حتى يستطيع الأديب أن يتفرغ فيها لعمله ، وأن يخبر بيئات المجتمع المختلفة ويتأثر بها ·

هذه هى أهم النقاط التى دارت حولها المناقشات فى المؤتمر الأول للأدباء الشبان · وهى نقاط تمس الوضع الأدبى عامة ، ولا يقتصر مجالها على الحركة الشابة وحدها · أرادت بها الحركة الأدبية الشابة أن تسجل فى مؤتمرها الأول طموحها واحساسها بوثاقة الارتباط بينها وبين الحركة الأدبية عامة ، وبأنها جزء من واقع كلى حاولت أن تقدم الأبعاد العامة لرؤيتها له وأن تطرح تفاصيل هذه الرؤية فى بعض قضاياه ·وقد قدر لكاتب هذه السطور ان يشارك فى هذا المؤتمر منذ بداية الاعداد له ، وحتى نهاية جلسته الختامية ، ومن ثم فقد استطاع أن يلمس كل الظروف التى دار فيها ، وان يتعرف على الأسباب التى نشأت منها عثراته · وبالرغم من اقتناعى بمشاركة كثير من الظروف فى صياغة هذه العثرات الا أننى لا اعتبر هذا تبريرا كافيا للسكوت عنها · ومن ثم فاننى اختتم مقال هذا ببعض الملاحظات النابعة من ادراك للظروف التى تحرك فيها المؤتمر وللمطامح التى رغب فى تحقيقها ·

ومن هذه الملاحظات غياب عدد من الوجوه الهامة من الجيل القديم

وخاصة تلك الوجوه الحبيبة التي وقفت كثيرا الى جانب قضية الأدباء الشبان وبذلت من نفسها وجهدها ورعايتها لهم الكثير · والتى كان على المؤتمر أن يدعوها ليستأنس برأيها ويستضيء بخبرتها · وفي مقدمتهم أستاذنا الكبير يحى حقى ،وراعي الحركة الادبية وموجهها الكبير عبد الفتاح الجمل · وكذلك غياب عدد من الوجوه الشابة الجادة والناضجة عنه ، تقاعسا منها أو اهمالا من المؤتمر فى دعوتها · وكذلك غياب وزير الثقافة ووزارة الثقافة عن المؤتمر كجهاز له ثقله ومسئولياته ازاء منتجى الثقافة ومستهلكيها ، وله الهيمنة الأدارية على هذا المجال النوعى من النشاط الثقافى خاصة · وقد كان جزء كبير من توصيات المؤتمر موجها الى هذا الجهاز · ومن ثم كان ضروريا أن يكون ممثلا بثقل واضح فيه ، يمكنه من المشاركة مع المؤتمر بعرائض الاسترحام كما يحدث فى قصص كافكا ·

ومن هذه الملاحظات كذلك أنه قد فات المؤتمر ان يكلف أعضاء لجانه النوعية قبل انعقاده بوقت طويل باعداد أبحاث متخصصة تدرس الواقع الراهن فى كل مجال من هذه المجالات ، وتقدم خلاصة تصورها للهموم والمشكلات التى يعانى منها كل فن من هذه الفنون ، ونوعية الحلول التى ترتئيها حتى يدور حولها النقاش من أجل ارهافها وتوسع مجال فاعليتها ، وحتى تكون هذه الدراسات أرضية مدروسة تقف فوقها مناقشات اللجان وتنطلق منها · كما فات المؤتمر كذلك أن يدعو عددا من الأدباء الشبان فى مختلف مناحى الوطن العربى ، فالأدباء الشبان فى مصر من أكثر أجيال المثقفين فيها وعيا بأهمية البعد العربى لهويتها ومجال حركتها وفاعليتها الثقافية · كما أن الحركة الأدبية الشابة فى مصر لا تنهض بمعزل عن حركة الشباب الأدبى فى مختلف البلدان العربية ، ولا تنغلق على ظروفها الذاتية ، ولكنها شديدة التفاعل مع كل تيارات التجديد فى البلدان العربية · ومن هنا كان ضروريا أن يدعو المؤتمر عددا من شباب البلدان العربية الناضجين ، والذين قدموا بالفعل اسهامات حقيقية فى هذا المجال لتوسيع أفق رؤيته ولتعميق مختلف قضاياه · فحلم الجيل الجديد من الأدباء بالمستقبل لا ينفصل عن تفاصيل المشروع العربى الكبير وصبواته المستقبلية فى سائر أرجاء الوطن العربى ·

أما على الصعيد الاجرائى فقد كانت هناك مجموعة أخرى من الملاحظات أهمها أن اختيار أعضاء الوفود فى المؤتمر – من ممثلى المحافظات وحتى أعضاء لجانه النوعية – قد شابه بعض القصور ، الناجم ربما من أولية التجربة ، فاختفت وجوه كان يجب أن تظهر · وظهرت وجوه كان الأحرى أن تتجاهل ، واستفحل هذا القصور فى بعض المحافظات بصورة سيطرت معها اعتبارات غير فنية أو غير أدبية على الاطلاق فى اختيار ممثليها · وقد

أدى هذا الخلل فى بعض الاختيارات الى ظهور هاجس أرق البعض من أن غاية المؤتمر أو على الأقل بعض مراكز القوى منه هى استيعاب حركة الأدب الجديدة ، أو احتواء بعض عناصرها • وهو هاجس خلق بطبيعته المريبة بعض العوائق بين طموحات المؤتمر وغايات بعض القوى منه ، وأثار بعض المخاوف بين عدد من الكتاب الشبان أنفسهم من أن يتبدد جهدهم فيه فى الفراغ ، فتضيع على مصر ، وعلى الحركة الثقافية العربية ككل ، فرصة لا تعوض فى رأب صدوع البيت الأدبى ، والاستفادة من طاقات الأدب الخلاقة فى معركة أمتنا مع الأعداء الذين يتربصون بها • فاجتهاد القطاع الأكبر من الأدباء الشبان الموهوبين هو اجتهاد من أجل مستقبل أفضل لمصر وللمنطقة العربية ، وليس من أجل تزويد بعض مراكز القوى السياسية أو الاعلامية فى المؤسسة بعناصر فى حركتها وصراعاتها • وهو اجتهاد يعى استقلالية الأدب الخلاق عن المؤسسة وطاقته النقدية فى تصويب مساراتها ، ومن هنا يتأبى على عمليات الاحتواء ويتمرد على استخدام طاقته فى عمليات المساومة ، حتى يظل طاقة بناءة تدفع المجتمع الى الأمام ، وتقيه من أى ارتداد للوراء أو نكوص عن غايات الشعب المصرى وأحلام أمته العربية •

وفضلا عن هذا كله كان هناك التعجل والارتجال الذى ساد عملية فحص الانتاج المقدم لفروع المسابقة المختلفة ، والناجم عن سوء التخطيط لها ، وعن عدم اعطائها وزنها الحقيقى كجزء من بنية المؤتمر ومن تكوينه • ومنها أيضا انه بالرغم من احتلال قضايا الترجمة مكانا هاما فى جدول أعمال المؤتمر ، ومن اهتمام المؤتمر حتى بالتمثيليات الاذاعية والتليفزيونية كنصوص لها دورها فى صياغة الرأى أو الذوق العام والتأثير عليه ، وتشكيله للجان لها وتخصيصه لجوائز ، يدور حولها التسابق فيها • فان المؤتمر قد فاته أن يكون لجنة للترجمة ، وأن يخصص لها فى مسابقته الجوائز • وإنى اذ أذكر فى النهاية وبشىء من المرارة موقف الاعلام ـ صحافة واذاعة ـ ازاء تغطية المؤتمر ؛ وعدم الاهتمام به اهتماما كافيا ، أهيب بوزارة الثقافة أن تصدر كتابا عن المؤتمر يحتوى كل وثائقه ويضم محاضر جلساته • لما فى هذه المحاضر من آراء ومناقشات تفصيلية ، اتمنى طرحها على جمهور القراء فى سائر أرجاء الوطن العربى •

الزقازيق ١٩٦٩

● السفر الثانى

حول مهرجان أبى تمام بالموصل

حول مهرجان أبى تمام بالموصل

من أهم الأدوار الأساسية التى تلعبها المهرجانات والمؤتمرات فى حياتنا الثقافية ، فى اعتقادى ، خلق جسور من التعارف والحوار بين الادباء قبل اى شىء آخر • فمن خلال هذه الجسور وفوقها يمكن ان تنهض بقية الأدوار الأخرى التى تضطلع بها المؤتمرات من اثارة لقضية ، أو تكريس لشخصية ، أو بلورة لمفهوم • ومن هنا يمكن أن نقيس نجاح المهرجانات والمؤتمرات وفشلها بقدر نجاحها أو فشلها فى خلق هذه الجسور ، وادارة تلك الحوارات • ولا يمكن أن تقوم جسور حقيقية من التعارف والحوار الا اذا توفر حد أدنى من اللغة المشتركة ، بالمعنى الأعمق والأشمل لكلمة اللغة ، بين المشاركين فى المؤتمر أو المهرجان • ومن هنا تجىء أهمية الاختيار ، وتولد معياريته • واذا أخذنا من وفد مصر لمؤتمر الأدباء العرب الثامن بدمشق مثالا على مدى تخبط الاختيار وغياب اللغة المشتركة سنجد أنه يطرح علينا الكثير من الأسئلة • فهل يمكن أن تكون هناك لغة مشتركة أو حد أدنى من الحوار بين كاتب قضى زهرة شبابه فى السجن لأنه يؤمن بالاشتراكية وينادى بتصفية الاقطاع ، وباشا اقطاعى سابق كان يهدى دواوينه ومسرحياته الى الملك ؟ وهل يمكن اقامة حوار جاد بين كاتبة واستاذة جامعية كانت من زعماء اللجنة الوطنية للطلبة والعمال التى أقضت مضاجع الملك ، وبين الشاعر الذى كان يهدهد نفس الملك ويدغدغه بكلماته الرخوة المتملقة ؟ ولذلك فاننى كنت أقول دائما أن باستطاعتنا أن نحدس مصير مؤتمر ما ، ومستوى الحوار الذى دار فيه بمجرد قراءة قائمة أسماء المشاركين فيه ونوعية القضايا أو الموضوعات المطروحة عليهم • لأنه اذا ما عرفت الأسماء تحددت امكانيات الحوار ، وبانت طبيعة الجسور التى ستمر فوقها بقية الحقائق والانجازات •

واذا كانت صورة المشهد العربى الراهن متحققة فى كل جزئية من جزئياته ، ومنعكسة على كل فعل عربى له قدر من الشمول ، فان المؤتمرات والمهرجانات دائما ما تكون انعكاسا زاعقا لكل تناقضات الواقع العربى ولكل تبايناته • ومن تتبع عن كثب وقائع مؤتمر الأدباء العرب بدمشق

فى الشهر الماضى يتأكد من هذه الحقيقة • شاعر سقيم الذوق يذهب من مصر الى سوريا وكلا البلدين مبتهج بافراح الاتحاد ليذكر الشعب السورى بجسارة الانفصال ، لا من منطلق الاستفادة من دروسه فى التجربة الجديدة، وانما من منطلق التشفى الذى لا يستر عداءه لفكرة الوحدة ، والقومية ذاتها • فيتصدى له شاعر آخر « فلسطينى » ويذكره بتاريخه القديم ومدائحه المسهبة قبل عشرين عاما فى الملك المصرى المخلوع • وكأنه يقول له وأنت تذكر السوريين بمرارة الانفصال ، ألم يطف فوق سطح روحك الآسنة تاريخك القديم ؟ وصورة أخرى لا تقل عن الصورة السابقة سقما ودلالة على التردى الثقافى ، رئيس وفد ليبيا الذى طلب من المؤتمر السابع للادباء العرب فى بغداد ارسال برقية تأييد للسنوسى ، يطلب من المؤتمر الثامن ارسال برقية تأييد للقذافى ولا يخجل • وصورة ثالثة لا تقل عن سابقتيها دلالة ، الندوات المضادة التى كانت تعقد فى نفس الوقت الذى تعقد فيه امسيات المؤتمر الشعرية لتسرق الجمهور أو الأضواء ، أو وهذا هو الأهم لتؤكد أننا مازلنا برغم كل الشعارات أمة مجتزأة ومقتطعة ومقسمة ومنقسمة على بعضها البعض • كل هذه الصور وغيرها كثير ، تكتسب دلالات مضاعفة لأنها تكشف عن معانيها لا من خلال تصرفات الانسان العادى ، وانما من خلال سلوك النخبة المثقفة التى ينبغى أن تكون ممارستها نبراسا لبقية القطاعات فى المجتمع ، وتؤكد أننا ما زلنا برغم كل الشعارات أمة مجتزأة مقتطعة ومقسمة ومنقسمة على بعضها البعض ، وأن صورة المشهد العربى الراهن دائما ما تلقى بوطأتها على كل المهرجانات والمؤتمرات والمنتديات وكل ما شابه ذلك من نشاطات •

كان ضروريا أن أكتب هذه المقدمة الطويلة قبل أن أبدأ حديثى عن مهرجان أبى تمام وأقول أننى سعيد بنجاحه وبانفلاته من الأنشوطة التى تحتم على كل مهرجان أو مؤتمر أن يكون صورة مصغرة لكل تناقضات الواقع العربى وكل تبايناته ، وذلك من خلال قدرته على اختيار وجوه شابة وأصيلة استطاعت أن تخلق جسورا من الحوار التقدمى الأصيل • فسعادتى بالمهرجان ليست وليدة نجاحه الكامل بقدر ما هى بنت الظروف الغريبة التى تولد فيها المهرجانات وتنعقد معها المؤتمرات فى عالمنا العربى ، والتى يشكل مهرجان أبى تمام بداية التملص منها وتجاوز عثراتها المزمنة • تجاوزها منذ اللحظة الأولى للاعداد له ، منذ أن نبذ الشكل التقليدى واستعاض عنه بأسلوب جديد فى اختيار المشاركين ودعوتهم • فلم يلجأ الى الجهات الرسمية يطلب منها أن ترسل « مندوبيها » الى المهرجان وللجهات الرسمية فى مختلف أقطار الوطن العربى مآرب وأهواء ، نادرا ما تتلاقى مع غايات تلك المؤتمرات أو أهدافها ، ونادرا ما تتنزه عن الهوى

اذا ما تعلق الأمر بسفرة أو مؤتمر • بل اعتمد المشرفون عليه على معرفتهم بالحركة الأدبية العربية واختاروا منها مجموعة من الشخصيات الأصيلة ومن الوجوه الجديدة على المؤتمرات والمهرجانات ، وان لم تكن جديدة على الحركة الثقافية العربية ذاتها ، ووجهوا اليها دعوتهم • ولو قيض لكل من دعى الى المهرجان أن يحضره ، لجمع باقة من خير الوجوه الثقافية فى عالمنا العربى ، اذا استثنينا أغلب نماذج الوفـد اللبنـانى ، من الكتاب والشعراء العرب للمشاركة فى هذا المهرجان الذي عقد فى الموصل مثوى رفاة أبى تمام ،ولبلور مزايا هذا الأسلوب الجديد على أكمل وجه • وقدم مهرجانا ثقافيا ناجحا فى الوفـاء باغلب الأمال المعقودة عليـه • واتاح لمجموعة من الكتاب المؤمنين بقيمتى الثورة والتجديد الفرصـة للتعارف وتبادل الآراء وتعميق الصـلات ، وأعطى قيمتى الثـورة والتجديد بعض حقهما المفقود فى عالمنا العربى ، واثار جدلا عميقا وحوارا ناضجا حول عدد من قضايانا وهمومنا الراهنة •

وقد وجهت وزارة الاعلام العراقية دعوتها لحضور هذا المهرجان الى عدد كبير من الكتاب والشعراء العرب للمشاركة فى الاحتفال بالذكرى الألفية للشاعر العباسى الكبير حبيب بن اوس الطائى المعروف بأبى تمام • ولم تكن تهدف من ذلك كما يقول الأستاذ عبد الجبار داود البصرى فى افتتاحية العدد الأول من جريـدة المهرجان الى احيـاء الأدب الكلاسيكى والاحتفـاء بالأموات ، ولكنها هدفت من ورائه أولا الى تكريم الحـركات التجديدية فى الفن والثقافة باعتبار أن أبا تمام كان مجددا كبيرا فى تاريخ الشعر العربى • وبسبب ذلك عد خارجا على عمود الشعر • ولكى يدرك المجددون الأحياء أن الاعتراف بمكانتهم ومنزلتهم آت ، حتى ولو بعد حين من الدهر •

وسعت الى عقده ثانيا : لأن الذكرى الألفية لأبى تمام ليست احتفالا بالأموات بعد أن مرت عليهم عشرات القرون ولكنه مناسبة من المناسبات التى يصطنعها الأحياء لكى ينشطوا فيها ويلتقى أحدهم بالآخر ويتدارسوا أمور حياتهم • وثالثا لأن أبا تمام كان شاعرا عربيا أصيـلا • وغالبيـة المراجع القديمة لا تذكره الا مقرونا بلقبه الطائى ،ولكن بعض الدارسين المعاصرين حاولوا نعبه عن عروبته الى منـــاخ أعجمى غـريب عنـــه • وكان هذا الفعل جزءا من الحملـة التى تتعرض لها العروبـة نفسها ، بتجريدها من أمجادها ، وأبرز شخصياتهـا • وعلى ذلك فان الاحتفال بأبى تمام يمثل جزءا من نشاط الحركة العربية للوقوف بوجه الحملات العدائية الظالمة • هذه هى الأسس التى بنى عليها المؤتمر ، والأهداف التى

رمي المشرفون علي تحقيقه الى بلوغها فهل حققها المؤتمر كاملة ؟ وما هي أوجه القصور فيه ؟

حتى نجيب على هذا التساؤل علينا أن نبدأ القصة من أولها كما يقولون • فنقول أقيم في مدينة الموصل ، وهي المدينة التي قضى بها أبو تمام اخر أيامه ومات ودفن فيهـا ، في الفترة من ١١ الى ١٤ ديسمبر الحالى مهرجان أدبي للاحتفال بالذكرى الألفية لأبي تمام • ولاشك ان وزارة الاعلام العراقيه قد وفقت خـير التوفيق في اختيار الشاعر العربى الكبير حبيب بن أوس الطائي المعروف بأبي تمام للاحتفال بذكراه الألفية • فأبو تمام واحد من أعظم الشعراء العرب القدامى • لمع كالشهاب في أفق العصر العباسي الأول فأثار من حولـه أخصب حـركة وأوسع نقاش في تاريخ النقد العربي القديم • وطرح بشعره وباختياراته معا مجموعة من أهم قضايا الشعر والتجديد في عصره وفي كل العصور • يتصل بعضها بجماليات الشعر وبعضها الآخر بدوره وماهيته • وليس هذا بغريب على أبي تمام فقد كان مثقفا من طراز فريد ، اطلع على الفلسفة اليونانية وعلى ميراثها العقلى ، وألم بالشعر العربي حتى قيل أنه كان يحفظ أربعة عشر ألف أرجوزة عدا المقاطع الشعرية والقصائد ، وحتى قال الحسن بن رجاء « ما رأيت قط أعلم بجيد الشعر قديمه وحديثه من أبي تمام » واستطاع أن يرفد شعره بخير ما في هذه الثقافة العقلية وهذا الموروث الشعرى الوفير•فتفرد شعره وتميز ، وأثار من حوله اللغط والخلاف لعدة قرون • فرفع الى مصاف الآلهة حتى قال عنه ابن الأثـير في المثل السائر انـه « لات الشعر » • واللات والعزى من آلهة ما قبل الاسلام في الجزيرة العربية • وخفض الى حضيض المدعين حتى قيل عنه انه مجرد « مداحة نواحة » • واستمر اختلاف النقاد والشعراء حوله مستعرا طوال القرنين الثالث والرابع الهجريين ، ولم ينطفىء بعد ذلك لزمن طويل • وهكذا الحال مع كل شاعر عظيم يخلص لابداعه ويعكف على رؤاه واكتشافاته فيثير من حوله الزوابع •

وأبو تمام شاعر عظيم بحق ، استطاع برغم سنوات عمره التي لم تتجاوز الأربعين أن يبدع عددا كبيرا من القصائد الجيدة • فقـد ترك سبتمائة قصيدة وثمانمائة مقطوعة من الشعر الجيد • والردىء منه هو شيء يستغلق لفظه فقط على حد تعبير ابن المعتز • وتمكن أبو تمام من أن ينجز هذا الكم الوفير من الشعر بالرغم من أنه أنفق قسطا كبيرا من عمره في البحث عن عمل وعن طريق • وأنفق قسطا آخر في التحصيل الدائب والعمل المستمر على تجويد النتـاجه الشعرى • لأنه كان دائم الاحتكاك بأعمال فطاحل الشعراء والانصات الى أصواتهم دائم الرغبة في تجاوزهم

وفى تخطى مفهومهم للشعر والابداع • وهو من هذه الناحية واحد من أكبر المجددين فى تاريخ الشعر العربى القديم ، ومن أكبر الثائرين على عمود الشعر وان أنجز ثورته داخل اطاره • طـرح مجموعة كبـيرة من القضايا الجمالية والمضمونية فى الشعر العربى ، عن الاغراب والاستعارة والجمال والقبح وثقل الالفاظ وتوحشها والمماثلة والجناس والطباق وحسن الابتداء والعقلانية والتشبيه والتعمل والسرقات وأغراض الشعر والمعانى المبتدعة وغير ذلك من القضايا •

أقول كان توفيق وزارة الاعلام العراقية فى اختيار أبى تمام للاحتفال به كبيرا ، لأنه احتفال بشاعر عربى يتميز بالعمق والحيوية ويطرح العديد من قضايا الشعر والواقع احتفاء بقيمة التجديد والثورة التى يمثلها أبو تمـام ، وتكريم للحركات التجديدية فى الفن والثقـافة ، وتأكيد على أن الاعتراف بهـا آت حتى ولو بعد حين من الدهـر ـ كما يقول الأستاذ عبد الجبار داود البصرى فى تقديمه لجريدة المؤتمر • واقيم هذا المهرجان تحت شعارين كبيرين : أولهما شعار له طابع سياسى ودعائى هو « الشعر للمعركة » والآخر هو البيت الذى يفتتح به أبو تمام قصيدته الشهيرة فى فتح عمورية والذى يقول فيه :

السيف اصدق انباء من الكتب

في حده الحد بين الجد واللعب

وهما شعاران قادران على اثارة الكثير من قضايانا الراهنة • وعلى استقطاب أهم عناصر رؤية أبى تمام للشعر والحياة • ولذلك كان هذان الشعاران هما المحور الذى دارت حوله أغلب قصائد المهرجان • بالرغم من أن جل هذه القصائد قد كتب قبل وفود الشعراء الى المهرجان ، وربمـا قبل معرفتهم لشعاره • وقد لبى الدعوة للمشاركة فى هذا المهرجان الألفى المتأخر عن موعده بكثير عدد كبير من الكتاب والشعراء من مصر ولبنان والكويت واليمن والمغرب وسوريا • بالاضافة الى رهط من شعراء الموصل المبتدئين ، وعدد كبير من الكتاب والشعراء العراقيين •

وقد اتيح للمشاركين فى المهرجان ، ومعظمهم مشتعل بالرغبة فى المعرفة ، أن يذرعوا العراق من النجف جنوبا حتى الحضر شمالا ، وان يزوروا بابل القديمة والنمرود والحضر ، الى جوار التعرف على المشهد اليومى المعاصر فى النجف وكربلاء • واتيح لكثيرين منهـم أن ينصتوا الى لغـة الأحجار والنقوش وهى تروى قصة أسد بابل ، أو تحكى بعض ما دار فى ايوان كسرى أو فى قلعة سنحاريب ، وتشى بطبيعة الأسلوب الذى

عاش به العراقى فى الحضر القديمة • واتيح لبعض منهم أن يتعرف على حقيقة المشهد الثقافى فى العراق ، وأن يلم ببعض تناقضـاته ، وكنت واحدا من القلائل الذين حرصوا على أن يزوروا مجلة (الثقافة) الجديدة المعبرة عن صوت اليسار العراقى وجريدة (التآخى) الناطقة باسم الحركة الكردية ، ثم جريدة (الثورة) وهى المنبر المعبر عن رؤى البعثيين فى العراق ،وعلى ان يسمعوا للمشرفين عليها ، ويشاركوا فى بعض نشاطاتها• فبدون التعرف على هذه المنابر كاملة يصعب القول بأننا قد تعرفنا حقيقة على واقع الحركة الثقافية الحية فى العراق أو على تياراتها المتعددة • وهى تيارات تتسم بطابع تقدمى واضح • يمكننا من خلالهـا أن نتعرف على تفاصيل الصورة التى يعيش ويفكر بها العراقى اليوم ، كما تعرفنا من خلال زيارة المناطق الأثرية فى نينوى والحضر وبابل وسامراء وطاق كسرى على الطريقة التى عاش وفكر بها العراقى القديم • واذا كان المهرجان قد أتاح لمجموعة من المثقفين العرب التعرف على واقع الحياة الثقافية فى العراق والحوار مع تياراتها والانصات لأصواتها المتنوعة ، فضـلا عن تاريخهـا القديم وآثارها ومدنها الدارسة فان هذا فى حد ذاته شىء كبير •

لكن المهرجان فى الواقع فعل أكثر من ذلك • اذ قدم فى أمسياته الثلاث التى أعقبت أمسية الافتتاح الأولى مجموعات من القصائد الشعرية• وقدم فى بعض أصابيحه عددا من الدراسات كما قدم مجموعة من المطبوعات• واذا بدأنا بالحديث عن المطبوعات فلانني أحب أن أشيد بالجهد العلمى الممتاز الذى قدمه كوركيس عواد وميخائيل عودا فى كتابهما (أبو تمام الطائى : حياته وشعره فى المراجع العربية والأجنبية) • وهو بيبلوجرافى جيد برغم هنات التصنيف والتبويب • اذ تتبع كل آثار أبى تمام المخطوطة والمطبوعة فى مختلف المكتبات العامة والخاصة فى شتى البلدان ما وسعه الجهد • ثم قدم قائمة ضافية بكل المراجع العربية القديمة التى تناولت أعمال هذا الشاعر العباسى الكبير أو حياته بالايجاز أو التفصيل ، محددا الصفحات التى تناولت ذلك فى كل مرجـع • وما أن فـرغ من الكتب القديمة حتى قام بنفس العمل مع المراجع العربية الحديثة ومع المراجع الأجنبية • هذا فضلا عن التمهيد لهذا العمل بعرض دقيق ، فى سطور موجزة ، لحياة أبى تمام منذ ميلاده فى قرية جاسم الواقعة بالقرب من هضبة الجولان السورية فيما بين دمشق وطبرية عام ١٨٨ هجرية المقابل لعام ٨٠٤ ميلادية ، وحتى وفاته بالموصل عام ٢٣١ هجرية المقابل لعام ٨٤٦ ميلادية • هذا العمل العلمى الهام هو أهم مطبوعات المهرجان فى اعتقادى ، وقد كان الأولى بوزارة الاعلام العراقية بدلا من أن توزعه على المشتركين ليلة افتتاح المهرجان ، أن ترسله الى من وجهت اليهم الدعوة قبل ميعاد المهرجان بشهر على الأقل•لأن ذلك الكتاب كان سيصبح مفتاحهم

الى معرفة أبي تمام ، ودليلهم الى بحوث حقيقية عنه · ييسر لمن أراد الكتابة عن أبي تمام التعرف على المصادر ويواطىء له الأرض ، ويضع تحت يديه كل ما كتب عن أبي تمام · وأهم من هذه كله كان سيدعو المشاركين الى عدم تكرار أو اجترار ما سبق تقديمه في هذا المجال ، ويحفزهم الى ابداع شيء جديد قادر على أن يكون في مستوى الشاعر العظيم الذى نحتفي به · غير أن المشرفين على المهرجان لم يفعلوا ذلك · وجاءت الأبحاث أو بالأحرى المقالات السريعة التى قدمت في قاعة المؤتمرات أو فى جامعة الموصل هزيلة ورديئة لم تضف الى الدراسات القديمة عن أبى تمام شيئا ذا بال · ولو حدث ذلك فربما جاءت أبحاث المهرجان أفضل وأنضج مما جاءت عليه ·

الى جانب هذا المرجع البيبلوجرافى الوثائقى الكبير ، كانت هناك اسهامات جامعة الموصل بعددين من دورياتها خصصتهما لهذه المناسبة · أولهما عدد خاص من مجلة (الجامعة) كرست أكثر من نصف صفحاته لعدة دراسات سريعة حول أبى تمام · والاخر عدد خاص من مجلة (آداب الرافدين) التى تصدرها كلية الآداب بجامعة الموصل كرس برمته لعدة دراسات أكثر عمقا وتخصصا عن أبي تمام · لكنها ظلت جميعا هي والابحاث التى ألقيت فى أصابيح المهرجان تدور فى اطار دائرة الجزئيات التقليدية والمعلومات المكرورة التى سبق أن قتلت درسا وترديدا · وافتقدنا فيها الدراسة الجديدة التى تعيد قراءة بعض قصائد أبى تمام الهامة وفقا للمناهج النقدية الحديثة ، فتضيىء معرفتنا بأبى تمام وبعصره وبالشعر والحياة · أو الدراسة التى تقرأ ديوانه الكبير برؤية عصرية جديدة ، ثم تطلع علينا باكتشاف نقدى باهر ، يقتلع بعض المسلمات القديمة ويزرع مكانها حقائق جديدة · فتجعلنا نحس بعدها بأننا عرفنا أبا تمام بطريقة افضل ، أو أننا كنا لا نعرفه حقا قبلها · أو الدراسة التى تستخرج نظريته الشعرية ورؤاه الفكرية من خلال استقرائها لمنطلق اختياراته فى (ديوان الحماسة) وفى (الوحشيات) · هذه الأنواع الثلاثة من الدراسات هى التى كانت جديرة بمهرجان لأبى تمام يقام فى الثلث الأخير من القرن العشرين · وهى التى افتقدناها فى دراسات المهرجان ومطبوعاته · لكن عزاءنا الوحيد هو هذا الجهد العلمى الذى قدمه المهرجان من خلال العمل البيبليوجرافى الذى أشرت اليه منذ قليل ·

تبقى بعد ذلك القصائد التى ألقيت فى أمسيات المهرجان الثلاث · وهى قصائد وفيرة العدد ضئيلة الحصاد · لا ينتمى منها الى جوهر الشعر بحق غير عدد قليل · فقد ألقيت فى أمسيات المهرجان عدة قصائد من الشعر العمودى التى اقنعتنا بأن أبا تمام أكثر معاصرة ، وأحدث قاموسا ،

وأمتن بنية ، من كل الشعراء التقليديين الذين ألقوا قصائدهم بالمهرجان .
أقول أكثر معاصرة لا أكثر شاعرية . لانني اذا قارنت بين شاعريتهم
وشاعرية أبي تمام ففي ذلك اجحاف كبير بالرجل ، ونحن نحتفي به
فلا مجال للسخرية به ، وادخاله في مقارنة مع هؤلاء الأفسال من الناظمين .
لا نستثنى منهم سوى الشاعر اليمنى عبد الله البردونى ، فى جانب
المعاصرة لا فى جانب الشاعرية . لأن قصيدة البردونى تستمد كل
تألقها الشعرى من روح أبى تمام ومن لغته وأسلوبه الشعرى . ومع
هذا أو بالأحرى بسببه كان عبد الله البردونى مفاجأة المهرجان بحق .
واستطاعت قصيدته « أبو تمام وعروبة اليوم » التى أنشأها على غرار
قصيدة أبى تمام البائية الشهيرة فى فتح عمورية ، أن تكون محور أحاديث
المهرجان لوقت طويل فقد أجرى فيها مقابلة تمامية ناضجة بين مادار أيام
المعتصم بن الرشيد وما يدور الآن وقدم فيها مجموعة من الصور الشفيفة
المرهفة وان اثقلها ببعض المماثلات الساذجة والصياغة الواضحة التعمل .
لكنه استطاع فيها أن يبلور بتمكن وشاعرية لا بأس بهما الكثير من
القضايا العربية . وأن يلمس عددا من الأوتار الحساسة التى سرعان
ما استجاب لها الجمهور ، للمسها لأوتار مخزون الاستجابات الموروثة
للشاعر القديم :

ماذا ترى يا ابا تمام هل كذبت
احسابنا أو تناسى عرقه الذهب

عروبة اليوم اخرى لاينم على
وجودها اسم ولا لون ولا لقب

تسعون الفا (لعمورية) اتقدوا
وللمنجم قالوا اننا الشهب

فيما انتظار قطاف الكرم ، ما انتظروا
نضج العناقيد لكن قبلها التهبوا

واليوم تسعون مليونا وما بلغوا
نضجا وقد عصر الزيتون والعنب

تنسى الرؤوس العوالى نار نخوتها
اذا امتطاها الى اسياده الذنب

بهذه المقابلة التمامية بين ماجرى في عمورية حينما هب الجيش دون أنتظار لنبوءة المنجمين الى نضج الكروم وقطاف عناقيدها ، وبين ما يجرى الآن من انتظار مرير لمعركة الثأر العربي عصر فيه كل شيء حتى الروح العربية ذاتها ، استطاع البردوني أن يقدم شيئا من الشعر الناضج المعتمد على الصورة برغم عموديته • وتتالق صوره الشعرية في المقطع الذى يتناول فيه الوضع في اليمن •

أما قصائد الشعر الحديث فلم يتميز منها سوى قصيدتين في الأمسية الأولى هما « مرثية للعمر الجميل » لأحمد عبد المعطى حجازى و « قلبى على وطنى » لمحمد الفيتورى ، وقصيدتين في الأمسية الأخيرة هما قصيدة خليل خورى التى بلا عنوان ، وقصيدة محمد عفيفى مطر « وشم النهر على خرائط الجسد » ، وهى قصائد حاولت أن تحتفى بقيمتى التجديد والثورة التى نحتفى بهما في شخص أبى تمام • أما الأمسية الوسطى التى خصصت برمتها لشعراء الموصل فقد شدت معظم قصائدها المهرجان الى حمأة المظاهرات السقيمة والمنظومات الشعرية الفارغة • وفى الأمسية الأولى أيضا كانت قصيدة نزار قبانى « قصيدة اعتذار الى أبى تمام » كأغلب شعر نزار قبانى الأخير مباشرة ونثرية وزاعقة • تتلاعب بالكلمات وتنظم ما يتداول على المقاهى نثرا أو نظما • استمع اليه وهو يقول :

امير الحرف سامحنا

فقد خنا جميعا مهنة الحرف

وارهقناه بالتشطير والتربيع والتخميس والوصف ،

ابا تمام ان النار تاكلنا

ومازلنا نجادل بعضنا بعضا

عن المصروف والممنوع من صرف

وجيش الغاصب المحتل ممنوع من الصرف

ومازلنا نطقطق عظم ارجلنا

ونقعد في بيوت الله ننتظر

بأن ياتى الامام على •• أو ياتى لنا عمر

ولن ياتوا

فلا احد بسيف سواه ينتصر

لذلك أيها السادة ..

ساجمع كل اوراقي واعتذر

بهذا الأسلوب النثرى ، وبهذه الكلمات المكرورة ، التى تنطوى على الكثير من المغالطات المنطقية الواضحة ، يقدم نزار قبانى فهمه للشعر والواقع معا . ويستمر فى قصيدته على هذا المنوال حتى يختمها بكلمات كان الأجدر به ، قبل سواه ، أن ينصت اليها جيدا ، وأن يستجيب الى ما فى سطرها الأخير من جسارة الفعل :

لماذا شعرنا العربى قد يبست مفاصله ؟

من التكرار واصفرت سنابله

لماذا الشعر حين يشيخ لا يستل سكينا وينتحر ؟

ألا يحس نزار قبانى نفسه بأن على شعره أن ينصت قليلا لنفسه قبل أن يفرض حكمته الزائفة على الآخرين ؟ ألا يدرك أن الشيخوخة قد دبت حقا فى شعره ، فيبست تراكيبه ، وتضعضعت صوره ، وجفت مفرداته حتى أصبحت كالعملة الباهتة من كثرة التداول والتكرار ؟ ألا يرى الى بنيان القصيدة عنده وقد هزل ، فلم تعد سوى مجموعة من الاستطرادات النثرية والأفكار المصنوعة . وفقدت بذلك الدور الأول للشعر باعتباره ريادة ونبوءة ورؤيا ، لا مجرد تعليق على ما حدث ويحدث كتعليقات المثرثرين فى المقاهى ؟

لكن الأمسية الأولى كانت أكثر رفقا بنا ، فلم تتركنا فى قبضة كلمات نزار قبانى الا للحظات سرعان ما تبدد بعدها أثرها حينما تدفقت كلمات حجازى فى « مرثية للعمر الجميل » التى ألقيت بعد قصيدة نزار قبانى الرديئة . فقد كانت قصيدة حجازى هى أولى قصائد الأمسية الأولى المتميزة . اذ احتوت الى جانب رؤاها الفكرية الناضجة على مجموعة من القيم البنائية الجديدة . غامرت بها مع شكل القصيدة الحديثة ثم خرجت من المغامرة وقد بلورت جيل ومعاناة شاعر قطع مع جيله رحلة الحلم والأمنية ،وساخت اقدامه فى رمال الواقع ، وحاول الخلاص من أحبولة الانسياق مع السراب ، لكنه فوجىء بأن كل محاولة للتملص لاتزيده الا اشتباكا بحبال الشراك المخادعة ، ثم صحا على الخواء والخديعة ، وظل يكتوى بنيران السؤال الدامى الملحاح :

من ترى يحمل الآن عبء الهزيمة فينا ؟
المغنى الذى طاف يبحث للحلم عن جسد يرتديه ؟
أم هو الملك المدعى أن حلم المغنى تجسد فيه ؟
هل خدعت بملكك حتى حسبتك صاحبى المنتظر ؟
أم خدعت بأغنيتى وانتظرت الذى وعدتك به ثم لم تنتصر ؟
أم خدعنا معا بسراب الزمان الجميل ؟

وهو يعلم أن الاجابة عليه صعبة ومراوغة • لأن تشابك المصائر فى رحلة العمر جعل من الصعب أن تقذف فى وجه واحد بعبء الادانة الثقيل وبقتامتها الفادحة فكلنا مشارك فى الذنب وعلى اصابعنا جميعا خيوط من دماء لن يستطيع أى منا معها أن يدعى لنفسه حق الشهادة • فالشهادة براءة وكلنا ينوء كاهله بعبء الجسد المستباح ، وتبقى القضية بلا شاهد ولا دينونة • الجميع فيها يبغى لنفسه الخلاص • ولن يكون ثمة خلاص بغير الانفلات من قبضة الخديعة ، وتطابق الحلم مع حقيقة الجسد الذى يرتديه • والعودة الحقيقية الى القيثارة التى توقع أصفى الالحان فى مناخ من المبادرة والحرية • وقصيدة حجازى تلك قصيدة طويلة ، تضم بين سطورها عالما مكتملا من الرمز والرؤى • بنى بطريقة شعرية خالصة • وصيغت مادته من نسيج مفارق لعالم الواقع ولكنه قادر على استيعاب كل تفاصيله والاستحواذ على كل صبواته ونزوعاته • وهو عالم مثقل بالاحالات الى سقوط غرناطة آخر دويلات الأندلس أيام بنى الأحمر ، والى مأساة العرب الموريسكيين وتجرعهم لعذابات المنفى ، والى مأساة الشاعر المعاصر وهو يعيش اغترابا أقسى من غربة العرب الموريسكيين وأشد مرارة •

أما القصيدة الثالثة التى تميزت فى قصائد الأمسية الأولى فهى قصيدة « قلبى على وطنى » للشاعر السودانى محمد الفيتورى الذى يتسم القاؤه الشعرى بقدرة تنويمية تطرح على الجمهور نوعا جديدا من القاء الشاعر العراف لا الشاعر الخطيب • وهى قصيدة تحتفى بقيمة الثورة وتتسم بالجسارة يتحدث فيها الشاعر عن البطل الثائر فى تخطيه الدائم للقيود • وفى تجاوزه الأبدى للمحن وفى ديمومته الثورية التى يرتفع فيها الى مصا

خطوات على القيد
لا تحفروا لى قبرا

سأصعد مشنقتي

وسأغلق نافذة العصر خلفي

واغسل بالدم رأسي

واقطع كفي

واصبغها نجمة فوق واجهة العصر

فوق حوائط تاريخه المائلة

وابذل قمحي للطير والسابلة

وعن رعب الطغاة وهم يشهدون روح الشهيد وقد صحت من جديد تواصل المسيرة وتعبر الفصول ، ناثرة بذور الثورة في رحم الأرض الجديبة ، متعهدة اجتثتها حتى في كن الطغاة أنفسهم • فالشاعر يوحد في قصيدته بين الشهيد والقضية • ويرى أن دماء الشهيد لا تذهب بددا ، بل تنسرب في عروق القضية فتزيدها توهجا وقوة • ومن هنا فانه يصرخ مندهشا :

لماذا يظن الطغاة الصغار

وتشحب الوانهم

ان موت المناضل موت القضية ؟!

فالعلاقة بين المناضل والقضية أكثر تعقيدا وثراء من مجرد الترابط الطردي الذي يحسب أن الاجهاز على المناضل اجهاز على قضيته • وقصيدة الفيتوري توضح هذه العلاقة بطريقة شعرية ناضجة •

أما الأمسية الأخيرة للمهرجان فلم تقدم لنا سوى قصيدتين ، بعد أن عجزت الأمسية الوسطى عن تقديم شيء ذي بال ، هما قصيدة خليل خوري التي قدمها على شكل رسالة أو اعتراف ذاتي الى أبي تمام ، وقصيدة محمد عفيفي مطر « وشم النهر على خرائط الجسد » • أما قصيدة خليل خوري فقد كانت اعترافا شعريا على درجة عالية من الكثافة والتعقيد • تنطوي نبرته الذاتية على رؤية سياسية وحضارية تمزج بين معاناة الشاعر ومعاناة الجيل والوطن ، وبين الرفض والتمرد واستشراف المستقبل ، وبين الصوت الخاص والصوت العام ، وبين الموقف السياسي والموقف الانساني • ان الشاعر يقدم من خلال اعترافه قصة جيل بأكمله عاش التمزق وذاق مرارة المعاناة • واكتوى بنيران الهزيمة والغربة والنكران •

لكنه لم يفقد أمله في النصر والعودة والتحقق • لأنه لم يفقد شجاعتــه ولا اقتداره على التحدى والمبادرة ، ولم يفقد حلمه بمستقبــل يبتغيــه ، ورغبته فى تجاوز حاضر لايرضى عنه • ولذلك فانه يقول :

القول لكم ؟!
الشاهد حى ولتسقط كتب التاريخ
الشاهد حى ولتذهب للنوم قصائدنا
القول لكم ؟
ان لم يجتمع الفقراء الأيتام ، الجوعى
المحرومون ، البرص ، الملعونون
ان لم يأتلف الأطفال
ان لم نرفض شوق المحروم الى الترف القتال
ان لم ينقسم البيت الى بيتين ولم يقم الأبناء على الآباء
ان لم نهدم هذا الجسر الواهى بين القصر وبين الكوخ
ان لم نرجع للينبوع الأول ، فلندفن انفسنا أحياء

فى هذه الأبيات البالغة الحدة والنفاذ والوضوح يقــدم لنا خليل الخورى رؤياه وحلمه وصورة الواقــع المرتجى • وهو لا يقــدم لنا هذه الصــورة / الرؤية الا فى نهــاية قصيدته ، وبعدما يقودنا تشابك عالمه الشعرى الى حتمية بلوغها ، وتكون لهفتنا اليها قد صاغتها تفاصيل واقع طافح بالتمزق وعــذاب الشوق الى حل وخلاص • وخليل الخورى بذلك يؤكد لنا أنه شاعر محنك ، يجمع الى وضوح رؤيته الشعرية والفكرية مقدرة بنائية واضحة •

أما قصيدة محمد عفيفى مطر فهى آخر القصائد الجيدة التى القيت فى المهرجان • وهى تجوس فى نفس الأرض التى غامر فيها حجازى والخورى ولكن بطريقتها الخاصة ، وأسلوبها المتميز ، ومن خلال مجموعة فريدة من الرموز المثقلة بالدلالات • فعفيفى مطر مغرم باحالة جزئيات الحياة المألوفة الى مفردات كونية تسبح فى مدارات متعددة حتى توسع من افق القصيدة ، دون أن تنأى بها عن الواقــع الذى صــدرت عنه • والذى تبغى ممارسة فعاليتها فوق أرضه • فالشعر عند عفيفى مطر ليس تعبيرا عن الواقع بقدر

ما هو رؤية له ، وليس تعليقا على ما حدث أو يحـدث كل يوم تحت نظر الشاعر ،.ولكنه سبر لأغوار هذه الأحداث والوقائع بغية استشراف المستقبل من خلال استبطانها واستنطاقها بما فى طبقات وعيها الدفينة من أسرار. لذلك فشعره يطرح أول ما يطرح قضية علاقة الشعر بالواقـع ، لأنـه يقدم حلا جديدا لهذه القضية · وقصيدته فى مهرجان أبى تمام واحدة من قصائده التى تطرح حلا جديدا لهذه القضية دون أن تنتفى علاقتها الشائقة والمعقدة بالواقع · فعندما يقول :

وأنا فزاعة الطير بأرض الفقراء

علنى آخذ رأسى بعد أن يضربه السيف وامضى

خارجا من ملكوت الخوف ، من ارض مماليك الدم الواحد

أطوى فى خلاياه بساط الأرض

ابنى واقيم

وطنا، أنشر ما يحمل من كنز النقوش الدموية

اطرد العالم ، امحو زمن الصوت وامحو طينة الموت

وشوك الأبجدية

انشىء القلعة بين الشفتين

أشحذ الرمح على تقطيبة الجبهة ، ارمى

ظبية الشهوة بالذكرى وارمى

بومة الرؤية ، انشق على الرأس عدوا وصديقا

لا يمكن ابدا أن ننكر على هذه الابيات تحويمهـا بالقرب من وجـه الواقع دون أن تلجأ الى الالتصاق اللزج به ، ودون أن تضحى برغبتها فى صياغة عالم له استقلاله الخاص عن تفاصيل اللحظة الموقوتة ، وله قدرته على ديمومة الفعالية والاستمرار ·

هذه هى أبرز القصائد التى ألقيت فى المهرجان ــ بالطبـع ألقيت عشرات القصائد التى لا ترقى لأن تكون شعرا ــ وخمس قصائد جيدة فى مهرجان شعرى ليست بالشىء القليل · خاصة وان المهرجان لم يقتصر على القصائد فحسب ، بل قدم مجموعة من المقالات والأبحاث النقدية عن حياة ابى تمام وشعره · وكان مقررا أن يزاح الستار فى اليوم الأخيـر من

المهرجان عن تمثـال لأبى تمام أقيم فى أحـد ميادين الموصل ، لكن ذلك تأجل لأسباب فنية •وفكرة اقامة التماثيل لشخصياتنا الأدبية الكبيرة فكرة جميلة فى حد ذاتها ، وهى فى العراق مظهر من مظاهـر الحـركة التشكيلية النشيطة التى بلغت ذروتها فى الجدارية المدهشة التى أقامها جواد سليم فى ساحة التحرير ببغداد • والتى تعبر عن قيمة تشكيلية وفكرية ناضجة يلمسها الزائر للعراق منذ الوهلة الأولى فى واجهات العمائر وتخطيطات الميادين ودور العبادة والتماثيل العديـدة المتناثرة فى كل مكان •

واذا كان المهرجان قـد احتفى فى شخص أبى تمام بقيمتى الثورة والتجديد • فانه قد أتاح لمجموعة طيبة من الكتاب والشعراء أن يتعرفوا على الوجه الحقيقى للتيارات الثقافية المتغايرة فى العراق الحديث • وعلى الشواهد الحية للتاريخ الحضارى للعراق القديم •

بغداد ١٩٧١

● السفر الثالث

عن المربد والشعر والثورة والجمهور

ذهبت الى البصرة باحساس العربي القديم الذى كان يقطع اليها القفار والسهوب مشوقا الى لقاء آخر ابداعات العقل العربي فى الشعر واللغة • لا تصطدم أقدامه بحدود مصطنعة ، ولا تسوخ خطاه فى فدافد الفرقة والهزيمة ، ولا تشتبك بأسلاك التجزئة والاقتطاع • لا تواجهه تهم ولا تعوقه تصنيفات جائرة أو باترة عن الحج الى مربدها القديم الذى ولد فى صدر الاسلام ، وتألق فى القرن الثانى للهجرة ، وأصبح واحدا من أهم منارات المعرفة والابداع • حيث نضجت فيه الحركة الأدبية والعلمية ، واصطرعت فى ساحته آراء كبار النحاة ، ومحصت فى أسواقه روايات أكابر رواة الشعر والأدب ، وارتفعت فى رحابه أصوات فطاحل الشعراء • فهل استطاع المربد الجديد أن يهبنى ذلك الاحساس بالمتعة والفائدة التى كان العربي القديم يتكبد من أجلها مشاق السفر ووعثاء الطريق ؟ وهل استطاع المربد الجديد أن يكون احياء معاصرا للمربد القديم، يليق بتاريخ المربد من ناحية ، وبالقرن العشرين من الناحية الأخرى ؟

كان العربي القديم يقطع القفار ويتجشم المشاق ليستمع الى آخر ابداعات الشعراء والى احدث كشوف العلماء والنحاة • وكانت الرحلة الى المربد رحلة الى منابع المعرفة يردها القطب والمريد معا • ولكن العصر الحديث جعل هذه المعرفة مبذولة للجميع ، وقرب المسافات ، وأتاح للنتاج الشعرى أن ينتقل وحده عبر الصفحات بمعزل عن مبدعيه • فأتاح للمنابع أن تنتقل الى الواردين ، ولعطاء هذه المنابع أن ينفصل عنها • فقد ضيقت وسائل الاتصال الجماهيرية الحديثة الشقة بين البصرى على الخليج العربي وأقصى بلاد المغرب على الشاطىء الأطلسى • وأصبح باستطاعة الشاعر والباحث والقارىء أن يعرف مايفكر فيه الآخرون ، وأن يشارك فيه، وهو لما يزل فى مكانه • فها هى الطباعة قد يسرت له الحصول على نسخ من الأعمال الكاملة لكل شاعر وباحث ، وهو لم يبرح داره ، ولم يتخط حدود مدينته • وها هى الاذاعة قد نقلت اليه أصوات الشعراء وهم يقرأون شعرهم بأنفسهم وهو فى عقر داره لا يريم • فما الذى يدفع

العربي الحديث اذن الى أن يقطع المسافات الشاسعة من أقصى المغرب الى أقصى المشرق ، من شتى فجاج الوطن العربي الى مربد البصرة ؟ انها ليست مجرد رغبة في احياء التواريخ القديمة ، أو الاستمتاع بغابات النخيل الساحرة على شاطىء شط العرب ، بقدر ما هي تشوق حقيقي لبعث الروح العربية الأصيلة وخلق الجسور الحقيقية بين حاضرها وماضيها ٠

فاذا كانت الحياة العربية قبل أكثر من ألف عام قادرة على العطاء والتجدد في زاهر أيامها ، فأن قدرتها الراهنة على العطاء ، وتوقها الى رأب صدوع حياتنا ليست أقل في حاضرها مما كانت عليه في ماضيها ٠ هذه واحدة من القيم التي يسعى المربد الجديد الى بلورتها ، في اعتقادي ، ليشارك عبرها في صياغة العقل العربي ، وفي الاجهاز على غربته المزعومة باقامة الجسور المتينة بينه وبين ماضيه ٠ وليمكنه من تحمل عثرات حاضره والعمل على تجاوزها ٠ ومن هنا حرص المربد الجديد على أن يدعو اليه كل الوجوه القادرة على العطاء الشعري والنقدي في حاضر أمتنا العربية ، والقادرة على الارتفاع الى مستوى تطلعات هذه الأمة وصبواتها ، وعلى المساهمة في مد الوشائج وعقد الاواصر بين تراثها القديم وأدبها الحديث ٠ ولو قدر لهذا المهرجان أن يضم بين جنباته كل الذين دعوا اليه، لأصبح واحدا من أهم اللقاءات الأدبية العربية خلال فترة طويلة من الزمن٠ لأنه تجاوز الشكليات والرسميات التي لا تفرز غير أسوأ العناصر ٠ ووجه الدعوة الى مجموعة من أعمق الدارسين دراية بتراثنا العربي ، وأخبرهم بكنوزه الشعرية المذخورة ، والى نخبة من أرهف نقاد الشعر المعاصر حساسية لمتغيرات القصيدة الجديدة ، وأكثرهم متابعة لانجازاتها ٠ والى كوكبة من أكثر الشعراء المعاصرين اقترابا من روح الشعر وجوهره واحتفاء بقيمة الثورة والانسان ٠ والى عدد من النقاد القادرين على سبر اغوار الحركة الشعرية والأسهام في تحليلها واستكشاف آفاقها ٠ واختيار هذه المجموعة المنتقاة وتهيئة الفرصة لها للقاء والحوار عمل جليل لابد من التنويه به ، والاعتراف بفضل وزارة الثقافة والاعلام فيه ٠ واذا كان تنائي المسافة الزمنية بين المربد القديم والمربد الجديد قد يسرت سبل الانتقال وضيقت الشقة بين الكتاب والبلدان ، فانها مزقت ارجاء الوطن العربي ، وزرعته بالأسلاك والحدود والاعتبارات الجائرة التي حالت بين الكثير ممن وجهت اليهم الدعوة والحضور ٠ فلم تكتمل تفاصيل الحلم العظيم الذي حاولت وزارة الاعلام تحقيقه ، وهو حلم جمع الشمل الثقافي العربي كله في ساحة واحدة ٠

وبرغم كل هذه العوائق فقد استطاعت وزارة الاعلام العراقية ، واللجنة العليا لمهرجان المربد أن تستقطب مجموعة من أفضل الوجوه

الشعرية والنقدية في الوطن العربي : في مصر وسوريا والسودان ولبنان والكويت والمغرب وفلسطين والجزائر والبحرين وغيرها · وأن تستضيف الى جوارهم مجموعة من المستشرقين المهتمين بالأدب العربي الحديث · تتيح لهم فرصة التعرف على هذا الجمع المختار من فرسان الكلمة العربية الأصيلة · ولقاء الكتاب والشعراء من شتى انحاء الوطن العربي ، هو البديل الحقيقي المعاصر لسعي العربي القديم الى مربد البصرة للتعرف على آخر أخبار الشعراء ، وآخر قضايا الرواة والنحاة واللغويين · أقول ان اللقاء بمعناه الواسع والعميق هو الوظيفة الجديدة للمهرجان لأنه احتكاك بين الرؤى والأفكار ، وتبادل لوجهات النظر بين مجموعة واسعة من النقاد والشعراء والمهتمين بحركة الشعر · وتعرف على الكثير من الروافد التى صاغت رؤى شاعر أو بلورت منهج ناقد بصورة يزداد معها المؤتمرون فهما لانجازات العقل العربي ، واحساسا بابداعاته في شتى أقطار أمتنا العربية · هذا اللقاء بمعناه الواسع والعميق هو الوظيفة الهامة للمهرجان· خاصة وقد وفق المهرجان كما ذكرت الى استقطاب مجموعة منتقاة من الوجوه الأدبية القادرة من خلال لقائها واحتكاكها على اثارة أهم قضايا الشعر والنقد على السواء ·

لكن توفيق المهرجان في اختيار ضيوفه لم يرافقه توفيق مماثل في ادارة شئونه · فكان تنظيم المهرجان على درجة كبيرة من البعثرة والتخبط ، مما أودى بجزء كبير من هذه الوظيفة الأساسية وهي اللقاء بمعناه الشامل، فلم يستطع القائمون على المهرجان أن يجعلوا من وجود المشاركين فيه في بغداد ، أو البصرة امتدادا حيا لقاعة المهرجان · فوزع الضيوف بين الفنادق حتى استحال بينهم اللقاء · وعسرت أجل الفوائد من مثل هذه اللقاءات وهي توثيق عرى التعارف وتبادل الآراء · وتحولت قاعة المهرجان في أمسياته الثلاث الى قاعة للارهاق المستمر للشعراء والنقاد والمستمعين على حد سواء · فقد كانت الأمسية الواحدة من هذه الأماسي الثلاث تضم ما بين ثلاثة عشر وخمسة عشر شاعرا · وكان عدد كبير من الشعراء لا يكتفي بقصيدة واحدة · وكانت جل القصائد ــ الا استثناءات قليلة في كل أمسية ــ منشورة أو مكرورة أو رديئة · وكان نصف الشعراء في كل أمسية لايستحقون الصعود الى المنصة بأي مقياس من مقاييس الشعر · غير أن الشعر لم يكن هو المقياس الأساسي في عملية الاختيار · بل زاحمته مجموعة أخرى من المقاييس الدخيلة التى أبهظت كاهل المهرجان · وحولت المنصة في كثير من الأحيان الى سوط لجلد المستمعين بالكلمات المضوغة ، والعبارات المنظومة والأفكار السقيمة ·

وكان لابد أن يحدث خلال التفاعل نوع من تبادل المراكز · فتحول

الجمهور هو الآخر الى جلاد غليظ الحس للكثير من القصائد الجديدة والشعراء الموهوبين • ليس فقط لأن الراغبين في الاستماع الى الشعر ضاعوا وسط جمهرة القادمين الى قاعة المهرجان الفسيحة للمشاركة في طقس احتفالي بأسلوب التظاهرة السياسية • ولكن أيضا لاكتظاظ الساحة بالتلاميذ الصغار والقابلين للاستهواء اللفظي الأجوف • مما دفع أحد الشعراء إلى أن يطلب منهم قبل أن يلقي قصيدته أن يكفوا عن اللغط والتهريج ، وأيضا عن التصفيق لأن استحسان مثل هذا الجمهور لعمل شعري يستوي مع استهجانه سواء بسواء • وقد كانت هذه اللعبة الخطرة لتبادل المراكز سببا في خضوع الكثير من الشعراء لأهواء الجمهور ، ولو تم ذلك على حساب الشعر ، ودائما ما يتم على حساب الشعر في مثل هذه الحالات • كانت المنصة تتحول الى منبر للخطابة ، تنهال منه العنتريات الصاخبة والزاعقة تباعا ، فيختنق صوت الشعر ، ويرتفع تصفيق الجماهير • وتحول المهرجان في بعض الأحيان الى حلبة للصراع من أجل الحصول على هذا التصفيق الجماهيري • ومن هنا ما تكاد تسقط قصيد للشاعر بهذا المعيار الديماجوجي ، حتى يسارع بالاحتماء في قصائده القديمة ذات الرصيد الجماهيري • دون أن يعبأ بالطابور الطويل من الشعراء الذين ينتظرون دورهم • ودون أن يخجل من رغبته في الاستحواذ على هذا النجاح « المنقطع النظير » ولو على حساب الشعراء الذين سيجيئون بعده ، والمستمعين الذين يعرفون هذه القصائد المكررة والمعادة •

وقد فات على كثير من الشعراء أثناء تكالبهم على الفوز بهذا التصفيق الجماهيري أن يراعوا اخلاقيات المهرجان الشعري ، فيكفوا عن استظهار القصائد القديمة أو القراءة من الدواوين المطبوعة • وأن يدركوا أن وجود الشاعر في المهرجان وتوفير المناخ الذي يتيح لهذا الوجود أن يصبح فعالا وأن يدور من حوله اللقاء والتعارف أجدى عشرات المرات من الصعود على المنابر وتصديع الرؤوس بهذه القصائد المعادة ، ناهيك عن القصائد الرديئة والزاعقة • لكن دور الشاعر في أعماق الكثيرين من الشعراء مازال مختلطا بدور الخطيب والممثل • كما أن مفهوم المهرجان الشعري لديهم ما زال مشتبكا بمفهوم التظاهرة السياسية • والمهرجان الشعري ليس تظاهرة سياسية ، وان كان ينطوي في جانب من جوانبه على التظاهرة • لكنها هنا التظاهرة الأكثر اكتمالا وشمولا ، لأنها تظاهرة أدبية وفكرية وانسانية وسياسية في آن • ان المهرجان احتفال يقام للاكتشافات الجديدة ، والاضافات الجديدة ، ومن هنا فانه تكريس للجدة والعمق ، ولارتياد الآفاق المجهولة • وبلورة لاضافات العقل العربي وانجازاته في ميدان من آثر الميادين اليه •

وقد حاول المهرجان أن يحتفى بقيمتى التجديد والعمق ، فدعا اليه مجموعة من الوجوه التى تبنت هاتين القيمتين وأخلصت لهما • وجعل شعاره « الشعر والثورة » ليربط الشعر بالثورة على جميع مستوياتها الفكرية والفنية ، بالثورة العربية الشاملة ، وبالثورة الاجتماعية والاقتصادية الراغبة فى تجاوز الظروف الجائرة وبالثورة الفكرية التى تقيم صرح الحضارة العربية بالانفتاح على الفكر الانسانى والارتداد الى القيم المضيئة فى تراثنا فى نفس الوقت • وبالثورة الفنية التى اطاحت بالقيود التى حالت بين الشعر واستيعاب كل رؤى هذه الثورات المتعددة • لكن الكثيرين من الشعراء والدارسين على حد سواء لم يفطنوا الى أهمية هذا الشعار ، ولم يحاولوا أن يكونوا متسقين معها • ومن هنا كانت القصائد الرديئة والدراسات السريعة التى يقع وزرها على أصحابها قبل أى شىء آخر •

واذا كان المربد الماضى قد اقتصر على الأمسيات الشعرية وحدها ، فان المربد الحالى قد أفرد أصابيحه للدراسات النقدية ، والتناول النقدى للأمسية الشعرية الماضية • واذا استثنينا دراسة أو دراستين كانت منهما دراسة الدكتور محمد طارق الكاتب عن « العروض العربى » وهى دراسة تكشف المنطق الرياضى الكامن خلف سيمتريه العروض العربى الخليلى • وتجعل من الأرقام الثنائية ، وهى الأرقام التى تعتمد عليها فكرة العقل الاليكترونى « الكومبيوتر » أساسا لقياس العروض العربى ، والتعرف على كل ما فى البيت الشعرى من زحافات وعلل • وقد استطاع الدكتور الكاتب فى هذه الدراسة التى لخص فيها كتابه الهام (موازين الشعر العربى باستخدام الارقام الثنائية) أن يقدم أعظم احياء لذكرى الخليل ابن أحمد الفراهيدى • وقد خصص المهرجان صبيحة اليوم التالى لأمسية الافتتاح للاحتفال بذكراه الألفية • واذا كان هذا الاحتفال قد ضم دراسات عديدة عن الفراهيدى ، فأن دراسة الدكتور الكاتب ، ومناقشتها العلمية الموسعة من الأستاذ الكبير محمود محمد شاكر ، كانت هى الاحتفال الحقيقى بالفراهيدى • لأنها كانت تطويرا لعلمه ، ومواصلة لجهوده العبقرية فى اخضاع الشعر العربى لمجموعة من المقاييس المعيارية الرائعة • كما كانت فى نفس الوقت اكمالا لجهد الخليل العظيم يسد بعض الثغرات فى بنائه الموسيقى ، حينما استطاعت أن ترد كل بحور الشعر العربى الى دائرة موسيقية واحدة •

اذا كانت دراسات ذكرى الفراهيدى قد تميزت بالعمق فى بعض جوانبها ، فأن دراسات الأيام التالية لم تكن ، باستثناء دراسة أو دراستين،

على نفس المستوى من العمق والشمول. كما أن طريقة تقديمها الى المؤتمرين لم تكن هى الطريقة المثلى . فقد كان ضروريا أن تقوم الهيئة التنظيمية للمهرجان بطبع هذه البحوث وتوزيعها على المؤتمرين ، ثم يتاح لصاحب البحث أن يلقى تلخيصا له يفتح بعده الباب لمناقشته . فالمؤتمر ليس أنسب مجال لالقاء البحوث والدراسات المطولة ، ولكنه ميدان لحوار العقول والأفكار . فبالحوار والنقاش يمكن أن يستفيد الباحث والمتلقى على حد سواء . أما ذلك الالقاء وحده ، فان قيمته جد قليلة . وقدرته على اخصاب الذهن جد ضئيلة .

ونفس الأمر ينطبق على نقد الأمسيات الذى كان هو الآخر باستثناء نقد أو نقدين على درجة كبيرة من التسرع والسطحية . والنقاد فى ذلك معذورون ، لأن القصائد كانت تسلم لهم بعد ارهاق الأمسية وصخبها . وعليهم فى ساعات قليلة أن يعكفوا عليها ، وأن يدرسوها ويكتبوا عنها قبل الساعة العاشرة من صباح اليوم التالى . وهذا شىء على درجة كبيرة من الارتجال ، ولا بد أن يفرز هذه الملاحظات النقدية المتسرعة . ومن الضرورى فى دورات المربد التالية أن يتسلم النقاد قصائد الشعراء قبل القائها بعدة أيام . يتاح لهم فيها دراستها وتحليلها بشكل جدى عميق . وتلقى هذه الدراسات فى صبيحة اليوم التالى ، ويفتح بعدها مجال لحوار خلاق بين الناقد من جهة والشعراء والجمهور من جهة أخرى . لأن هذه هى الطريقة الأمثل لتربية ذوق شعرى سليم قادر على الاستجابة للشعر وحده ، وعلى الانصات لتجربة الشاعر مهما بلغت كثافتها وتعقيدها ، وعلى الدخول فى خرائط عوالم الشعراء مهما تشابكت سبلها وتعددت دروبها . ولتحويل المربد الى ساحة لتقييم الانجاز الشعرى بطريقة جادة وصارمة ، والى وقفة دورية لارساء القيم النقدية وفرز المكانات الشعرية واعادة تقييمها بشكل دورى ومستمر . بهذه الطريقة لاتضيع القصائد الجيدة فى زحمة القصائد الرديئة . ولا يصبح الجمهور غير الواعى قاضيا لا نقض لأحكامه ولا ابرام . ولا تزدحم القصيدة بالنثر السقيم والخطب الرنانة . ولا يهرب الجمهور من القاعة قبل صعود أكثر الشعراء الى المنصة . ولا يهان الشعر بالصخب والمقاطعة وضجيج الداخلين والخارجين. بل يأخذ كل شاعر حقه من الاهتمام والتقدير والتقييم والتقويم بقدر اقترابه من جوهر الشعر أو ابتعاده عنه . لا بقدر براعته فى الضغط على الحروف ، والصراخ بالكلمات ، ولا بقدر مهارته فى الالقاء والتمثيل والاقتراب من الميكروفون والابتعاد عنه بالهمس والفحيح والصراخ .

ولو حدث هذا لاستطاع الجمهور أن يحس فى الأمسية الأولى بقصائد سعدى يوسف وحسب الشيخ جعفر ومحمود درويش ، وأن

يستجيب لها بصورة أفضل مما حدث • وأن يستقبل قصائد على الجندى وممدوح علوان وأحمد عبد المعطى حجازى فى الامسية الثانيـة بصورة أفضل من تلك التى استقبلها بهـا • وأن يعيش فى الخرائط المعقـدة لتجارب بلند الحيدرى ويوسف الصائغ وأحمد المجاطى فى الامسية الثالثة بصورة أعمق مما حدث • أما قصائد يوسف الخطيب وحميد سعيد وأحمد دحبـور وخليل الخورى فقد توافق صـداها لدى الجمهور مع جودتهـا الشعرية • ولو كان لدينا فسحة من الوقت والمساحة لتريثنا قليلا ازاء هذا العدد الكبير من القصائد الجيـدة • وحاولنـا أن نشرك القارىء فى تجربتها وقضاياها • لأن هذه القصائـد كانت الجوهـر الحقيقى لعطاء المهرجان ، وكانت الشهادة الواقعية على ثراء تجربة الشعر العربى الحديث، واتساع آفاقها وتعدد مسالكها • وأربع عشرة قصيدة جيدة فى مهرجان شعرى واحد ليست بالشىء القليل • بل هى فى الواقع شىء كبير وكبير جـدا •

وأخيرا فان احياء المربد من الأحداث الجليلة فى واقعنا الثقافى • وقسوة ملاحظتنا عن مهرجان هذا العام ، وهو المهرجان الثانى ولا تزال عليه ملامح البـدايات ، ترتوى من رغبتنا فى أن يكون المربد مهرجانا لأفضل انجازات العقل العربى فى الشعر والفكر والنقد • وعيدا لتتجدد قدرات الانسان العربى على العطاء والثورة •• وتجاوزا لكل ما فى واقعنا العربى من قيود ومثالب • وتوقا الى تحقيق وحدة الفكر العربى تمهيدا لتحقيق وحدة الأمة العربية بأسرها :

البصرة　　　　　　　　　　　　١٩٧٣

ملاحظات نقدية وتخطيطية

حـول المربد الرابع

كانت هذه هي ملاحظاتي على المربد الثاني التي نشرتها في حينها في مجلة (الطليعة) القاهرية • وقد شاركت بعدها في المربد الرابـع وثبت عـددا من الملاحظات استبعدت منها ما بدا تكرارا لمـا لاحظته على المربد الثاني ، وأبقيت تلك الملاحظات • فقد أصبح « المربد » الشعرى واحدا من أهم وانجح المهرجانات الثقافية العربية • وربما يعود ذلك الى أن « المربد » دون غـيره من المهرجانات التي تقـام للفيلم أو للمسرحية ، أو اللقاءات التي تعقد لتدارس شئون القصة أو الرواية ، قد لمس وترا حساسا وهاما في الوجدان العربي وفي الثقافة العربية معا • ذلك لأن « المربد » عيد لأهم فنون الأدب العربي ، وأكثرها تغلغلا في الوجـدان العربي • ولأنه في نفس الوقت بعث لتقليـد عربي عريق يتصـل عبره الحاضر بالمـاضي ، وتستشعـر ثقافتنـا في ساحـة العراقـة والاصالـة والاستمرار • كما أن « المربد » استطاع أن يمزج بين الميل العربي الى الخطابة والفروسية والتغني بالكلمات المنغومة في أماسيه ، وطمـوحات العقل العربي الى الدراسة والبحث والاستقصاء في أصابيحه ، واستطاع منذ بداياته الأولى أن يجتذب الى ساحته وجوه الثقافة العربية الأصيلة ، وأن يتجنب الوقوع في أحبولة الوجهة الثقافية السائدة في الكثير من بلدان الوطن العربي ، والتي تبعد كثيرا عن الوجه الحقيقي للثقافة في هذه البلدان • اذ جعل دعوة الكتاب ذوى النزوعات والتوجهات التقدمية والقومية في مختلف أقطار الوطن العربي هي التقليد الأساسي فيه ، وليس دعوة الوفود الرسمية كما جرى العرف من قبل في مختلف المهرجانات والمؤتمرات • وبالاضافة الى ذلك حرص المربد على أن يوسع أفقه العربي دائما حتى يشمل معظم أقطار الوطن العربي ، وعلى أن يضيف الى هذا الأفق الواسع بعدا انسانيا مقارنا بدعوة عـدد من الشعـراء العالميـين والدارسين الأجانب الى المشاركة فيه • وهذه كلها عوامل ضمنت للمربد

قدرا كبيرا من النجاح وحولته الى قيمة هامة من قيم الثقافة العربية المعاصرة ، التى علينا أن نحرص عليها ، وأن نعمل على تطويرها ودفعها الى الأمام باستمرار ، وخاصة فى تلك المرحلة الحرجة التى تتعرض فيها الثقافة العربية المعاصرة الى أعتى هجمات الفكر الرجعى والتراجعى ·

من موقع هذا الحرص على مهرجان المربد والرغبة فى تطويره حتى يصبح اهم اعياد الوجدان والعقل التقدمى العربى ، أكتب هذه الملاحظات فقد قدر لى أن اشارك من قبل فى مهرجان المربد الثانى عام ١٩٧٢ · وأن اشهد المربد الرابع هذا الشهر ، وأن أحس بأن التطور الذى توقعت أن اشهده على مر السنوات الست الماضيات قد غاب كلية ، أن لم يتحول الى العكس · صحيح · أن « المربد » لا يأتى بشىء من عنده ، وانما يعكس ما يدور فى ساحة الشعر العربى ، ويقدم صورة لاجتهادات النقد الأدبى العربى ، غير أنه من الضرورى أن نطرح بعض التساؤلات حول تدهور مستوى الكثير من القصائد والابحاث التى ألقيت فيه ، وحول طبيعة أو مفهوم تنظيم هذا المهرجان العربى الهام · وحول ما يمكن عمله من الآن حتى تضمن أن يكون « المربد » الخامس خطوة الى الأمام على طريق هذا المهرجان ، وليس انتكاسة عن تواريخه وانجازاته الهامة · ربما لأن « المربد » بصورته الحالية لم يعد يحتمل المزيد من الانتكاسات ، وربما لأن ظروف حركة الثقافة العربية التقدمية تفرض علينا العمل على درء كل سلبيات مواقعها الهامة والعمل على تطويرها ·

ومن البداية فاننى أميل الى القاء الكثير من اللوم على عاتق الحركة النقدية وعلى دور النقد فى المهرجان · ذلك لاننى أميل الى الاعتقاد بأن دور النقد فى مهرجان المربد دور هام للغاية · وينقسم هذا الدور الى شقين : الشق الأول والأكبر هو دور النقد بين المربدين · وحتى يقوم النقد بهذا الدور فمن الضرورى أن يشكل المربد لجنة دائمة من النقاد والدارسين تعقد اجتماعات دورية وتكلف باجراء مسح شعرى لكل ابداعات الشعر العربى طوال ما بين المربدين ودرسه وتقييمه والتعرف على موضعه من رحلة الشعر العربى الحديث مع التطور ، وعلى ضوء هذه الدراسة الشاملة تقترح اللجنة على لجنة تنظيم « المربد » قائمة بالشعراء الذين ترى دعوتهم للمربد قبل موعد انعقاد المربد بخمسة أشهر على الأقل · كما تقترح أسماء عدد من النقاد يقومون بدراسة شعر أمسيات المربد الأربع · ويطالب من الشعراء تقديم قصائدهم للمهرجان قبل موعد انعقاده بشهرين على الأقل، ويتم تحديد أسماء شعراء وقصائد كل أمسية بحيث تقدم لنقاد الأمسية قبل شهرين من انعقاد المربد ، فيقومون بدراسة القصائد فى تطور الشاعر من ناحية وحركة الشعر العربى الحديث من ناحية أخرى ، وتطورات النقد

العربي الحديث من ناحية أخرى ، وتطورات النقد العربى المعاصر من ناحية ثالثة · واذا ما حدث ذلك فاننا نتجنب الارتجال من ناحية ، ونضع الشاعر أمام مسئوليته من ناحية أخرى ، حينما يعرف ان قصيدته لن تمر دونما تعليق جاد رصين مدروس · وأن عليه لذلك أن يقدم أفضل ما عنده · وأن يعرض عن الاستسهال والكسل الشعرى · كما أن التعليق المدروس على الشعر سيكون عاملا هاما فى ترقية ذوق الجمهور الذى قد يؤثر عليه الالقاء ، أو تستهويه بعض الألفاظ بينما تدربه الدراسة على نوع جديد من التذوق المدروس والمتبصر ·

وهناك الى جانب هذه المهمة الأساسية مهمتان على نفس الدرجة من الأهمية على لجنة النقاد والدارسين أن تقوم بهما : أولاهما هى تكليف عدد من الدارسين المتخصصين فى الشعر الغربى أو الأجنبى بصفة عامة ، وشعر العالم الثالث منه بصفة خاصة ، بتقديم دراسات عن أهم تيارات الشعر الانسانى المعاصر ، وترشيح عدد من الشعراء البارزين فى كل أدب حتى ندعو من بينهم للمهرجان ، وحتى نتجنب الوقوع فى خطأ دعوة بعض الشعراء المغمورين ممن لا فائدة من تكبد مشاق دعوتهم ، وتجاهل شعراء بارزين لهم وزنهم الشعرى والثقافى · أما المهمة الثانية فهى تحديد بعض قضايا الشعر الهامة من خلال هذا المسح ، وتكليف عدد من الدارسين والنقاد ، قبل ستة أشهر على الأقل من انعقاد المهرجان ، بالكتابة فيها · على أن ترسل الأبحاث الى لجنة المهرجان قبل شهرين من موعد انعقاده ، لتطبع ثم ترسل للمشاركين فى المهرجان مسبقا لدراستها والاستعداد لمناقشتها بشكل جدى عميق · بهذا نضمن ألا يكون المهرجان استعراضا لما قدمه الشعر العربى فحسب ، وانما محاولة مستمرة لوضع هذا الشعر فى قلب العالم ، وادارة حوار خلاق مع منجزات الشعر والنقد فيه · فالشعر ، كأى جنس أدبى آخر ، فى أمس الحاجة الى الاحتكاك باجتهادات الثقافات الأخرى فى نفس المجال ، والى الاحتكام الى تجاربها فى اقتحام البقاع الجديدة ، أو فى تجنب المسارات الناضبة التى لا فائدة من ورائها غير تبديد طاقات كان الأحرى بنا ادخارها لمهام أفضل ·

يبقى بعد ذلك النقد أثناء المهرجان ، وهو دور لابد ألا يكون فيه أدنى ارتجال ، وان كان غياب الارتجال عنه لا يعنى تجريده من الحيوية والتلقائية · لأنه سيكون دورا مدروسا وقادرا على التحاور الخلاق مع الشعر الذى يلقى فى أمسيات المهرجان ، ومع الدراسات التى تناقش فى أصابيحه · يستطيع فيه الناقد أن يقدم أفضل ما عنده ، كما استطاع الشاعر أن ينتقى أجود ابداعاته · وقد يكون مفيدا أن يقوم النقد فى المهرجان بتقديم دراسات مركزة عن شعر الآداب الأجنبية فى الصباح الذى سنستمع

في مسائه الى شعراء هذه الآداب ، حتى لا تبدو بعض قصائدهم وكأنها صوت نشاز ، أو شيء غريب على المهرجان • وحتى يستطيع المشاركون ، وهم يتلقون هذه الأشعار ، أن يضعوها في سياقاتها الصحيحة ، ليرهف هذا من تلقيهم لها ،ويعزز استفادتهم بها • بذلك تكون دعوة شاعر أجنبي الى المهرجان حوارا خصبا وجادا مع شعر البلد الذى جاء منه ، ومع ثقافة اللغة التى يبدع فيها • ولابد بالاضافة الى هذا كله أن تجرى استضافة الشعراء الأجانب وفق خطة طويلة المدى ، يغطى فيها المربد كل عام شعر لغة من اللغات الأساسية فى العالم • أو مجموعة من اللغات الأقل انتشارا فيه• بالصورة التى يجىء فيها المربد العاشر مثلا فيجد أننا قد تحاورنا بصورة عميقة مع شعر اللغات الهامة من انجليزية الى فرنسية واسبانية وروسية ويابانية وصينية وغيرها • فاذا ما أخذنا شعر اللغة الانجليزية مثلا ، فلابد أن يغطى ذلك تنويعاتها القومية المختلفة من الشعر الانجليزى الأمريكى ، الى الشعر الكندى والاسترالى ، الى الشعر الأفريقى المكتوب باللغة الانجليزية وهكذا •

تبقى بعد ذلك مهمة أخيرة • وهى المهمة التكريمية للمربد • فالمربد ، كمهرجان كبير ، لابد أن يعمل على تكريم شاعر كبير فى كل مرة ، وعلى منح جائزة لأهم ديوان شعرى يصدر فى الفترة الواقعة بين انعقاد المربدين ، ولأهم دراسة نقدية عن الشعر فى نفس الفترة • فبهذه الصورة يكون المهرجان تكريما لأفضل ابداعات العقل العربى ، ومحفزا لهذا العقل على مزيد من العمل والتجويد • وبهذه الطريقة القائمة على الدراسة يمكننا أن نتجنب الوقوع فى الكثير من الأخطاء التى وقع فيها المربد الرابع ، حيث ألقيت من فوق منصته بعض القصائد التى كان الأحرى بها أن تستبعد ، ونوقشت فى ساحته بعض الدراسات والأبحاث التى كانت تكريسا للكسل العقلى ، وتجسيدا للابتسار والتسرع • وساهم فيه عدد من الشعراء الأجانب الذين أشك فى أنهم يمثلون أفضل ما فى اللغات التى ينتمون اليها من شعر • وبهذه الطريقة أيضا لا تهدر الجهود القيمة التى بذلت فى تنظيم هذا المهرجان ، وانما تتحول الى طاقة فاعلة تدفع المربد الى الأمام ، وتدفع الثقافة العربية معه الى آفاق أفضل •

بغداد ١٩٧٨

● السفر الرابع

باريس الحلم ومؤتمر المستشرقين وموت جورج حنين

أخيرا تطأ قدماى فى غبشة الفجر أرض باريس ، باريس الحلم الذى راود كل مثقف عربى منذ عاد رفاعة الطهطاوى منها قرب نهاية الثلث الأول من القرن الماضى مبهورا ليغير مسار الثقافة العربية فى مصر . وليحقق ذلك التزاوج الأصيل بين ما وجده ذا قيمة فى الحضارة الأوروبية، وعناصر هامة من تراثنا العربى . ومنذ أن قال محمد عبده اننا بحاجة الى أن نسافر الى أوربا بين حين وآخر لنجدد أنفسنا . ومنذ أن هاجت أشواق هيكل فى باريس الى أرض مصر ، فكتب (زينب) البداية الحقيقية للرواية المصرية الفنية الناضجة . ومنذ أن ارتحل طه حسين اليها شابا لم يسمع به احد ، ثم عاد منها ليلعب ذلك الدور الهام فى حياتنا الفكرية . ومنذ تسلح فى دروبها ذلك العصفور القادم من الشرق طويلا ، ثم عاد ليرسى دعائم المسرح العربى كفن أدبى له قيمة وأصول . ومنذ أن ذهب اليها محمد مندور ، وأخذ يعب من مناهلها سنوات وسنوات ثم عاد وقد ارتوى . ولما سألوه وأين الدكتوراة التى بعثنا بك الى باريس لتحصل عليها ؟ قال لهم أتريدون دكتوراة ؟ ثم جلس وفى أقل من تسعة أشهر كتب لهم الأطروحة التى حصل بها على الدكتوراة عن (النقد عند العرب) والتى لا تزال حتى اليوم علامة بارزة فى تاريخ نقدنا الأدبى الحديث . آكان باستطاعة مندور أن يكتب أطروحة كهذه فى بضعة أشهر لولا سنوات باريس !؟ آكان باستطاعته أن يلعب ذلك الدور البارز فى حياتنا الثقافية دون هذه السنوات !؟

كانت باريس حلما يلخص فى وجدان المثقف المصرى أوروبا وحاضرتها . واسأل أي مثقف فى مصر تجده يعرف أسماء بعض شوارع باريس واحيائها من « الهال » حتى « بيجال » دون أن تطأ قدمه أرض فرنسا . لكنه لا يفعل ذلك مع أى مدينة أوربية أخرى . ألانها عاصمة الفن والثقافة في أوروبا ؟ أم لأن نقطة الانعطاف الهام في حياتنا الفكرية مع بدايات العصر الحديث جاءتنا مع الحملة الفرنسية من باريس ؟ أم لأن أول مفكرينا المحدثين رفاعة الطهطاوى التقى بالفكر الغربي فى

شوارع باريس ، وعاش بين ربوعها صدمته الحضارية التي غيرت من فكر الأزهرى الشاب القادم من قلب الصعيد ، وجعلته يوجه فكرنا العربى صوب درب جديد ؟ لا أدرى • كل ما أدريه أن باريس كانت حلما وهاهى باريس الحلم تتحول الى حقيقة • وها أنا أصلها بالقطـــار قادما من ألمانيا صباح الأحد ١٥يوليو ١٩٧٣ ، وأجدها غافية تغرقها زخات المطر ، أو تغسلها بعد أن سهرت الليلة الماضية حتى الصباح مع عيدها القومى « عيد ١٤ يوليو » ، يوم الثورة الفرنسية • أهى مفارقة أن اسهو عن ذلك اليوم الخالد فى تاريخ الانسانية ، واصل بعد انفضاض المولد والمطر يغسل كل شىء ، والرياح تحرك بقايا الاعلام المبللة على طول «الشانزلزيه» من « الكونكورد » حيث تنتصب شامخة مسلتنا المصرية العمـــلاقة حتى « الايتوال » حيث قوس النصر المهيب ، الذى تتراقص تحته نيران شعلة دائمة لا يخبو أوارها لحظة من الليل أو النهار لتذكر فرنســا بهؤلاء الذين ضحوا من أجلها •

وفرنسا أو بالأحرى باريس ، فأنا لم أر من فرنسا سوى باريس ، مولعة بتذكر كل من قــدم لها شيئا • ففى كل ركن من أركانهــا ، فى شوارعها ، وميادينها ، وممرات حدائقها ، تماثيل لكل الذين قدموا شيئا لفرنســا ، فى السياسة والأدب والفن والعــلوم • وفى كل شــارع من شوارعها تجد حجرا صغيرا فى حائط يخلد أسماء الذين سقطوا دفاعا عن حرية فرنسا • فقد انتزعت حرية فرنسا ابان الحرب العالمية الثانية بدماء أبنائها من المقاومين ، وفى شوارع باريس وحواريها سقط الكثيرون من الذين نسميهم بالجنود المجهولين • ولكن فرنسا لا تحسبهم نكرات أو مجهولين ابدا ، ولا تجمعهم فى ضريح رمزى كبير ، وتريح نفسها منهم بان تطلق على شاهدة تذكارية اسم الجندى المجهول ، فالجندى المجهول عندها ، والذى يعد قوس النصر المهيب نصبا تذكاريا له ، هو من مات بعيدا عنها ، أما من مات على أرضها وزاد عن حماها ، فلابد من أن يخلد فى مكان سقوطه ، حيث تضع لكل منهم شارة شرف صغيرة تخلد اسمه حيث سقط • حجــر فى الحائط يحمــل الاسم ويشير الى المكان واليوم والتاريــخ الذى سقط فيــه هذا الانسان البسيط من أجــل فرنسا • أما علماؤهــا الكبار ، فتضعهم حول جامعتهــا الخالــدة « السوربون » أو بالأحرى جامعاتها ، فقــد انقسمت السوربون الآن الى ثــلاث عشرة جامعة • عند أحد مداخلها أو جست كونت وعنــد الآخــر مونتينى وفى ساحة الكوليــج دى فرانس يقف شمبليون متأمــلا فى طلاسم الكتابــة الهيروغليفية الغريبة التى باحت له وحده بكل أسرارها • أما الشعراء والكتاب فانك تجدهم فى كل مكان • تتفيأ تماثيلهم خــلال الأشجار فى حدائق اللوكسمبورج والتوليرى ومونصو • أو تنتصب شامخة فى مفارق

الطرق وفى الساحات ، أو تطل عليك صورهم من فوق عملات فرنسا النقدية • ففرنسا هى البلد الوحيد ، فيما أعلم الذى لا يضع ملوكه أو ساسته على عملاته الورقية وانما شعراءه وكتابه ومفكريه •

فى كل مكان تجد تمثالا ، أو شارة حجرية أو معدنية تقف فى مكانها من الشارع أو الحائط لترهف ذاكرة فرنسا أو تصنعها • ان هذه الشارات والتماثيل صوت يؤكد لكل فرنسى أن فرنسا لا تنسى أبدا من يقدم لها شيئا ، وتقدر لبنيها العرفان • وأن على من يريد أن يبقى فى ذاكرة فرنسا ، أن يفعل من أجلها شيئا يبقيه حيا فى ذاكرتها التى تختزن على امتداد صفحة باريس العريضة المفتوحة كل شىء • وهذا شيىء لمسته كذلك فى انجلترا حيث تحتفظ لندن فى ذاكرتها بكل أعلامها من خلال شارات حجرية أو معدنية على حوائط البيوت تقول لك : هنا عاش فلان من عام كذا الى عام كذا ، أو عمل ، أو سكن • حتى يدرك كل من يقدم شيئا لبلده أنه سيبقى حيا فى ذاكرتها ، وحتى يعلم أهل المدينة أنهم يعيشون فى مدينة ذات تاريخ وذاكرة • فهل باستطاعتنا ونحن فى أشد الحاجة الى أن نثير فى نفس كل مصرى الرغبة فى البذل والعطاء من أجل بلاده • أن نشرع فى تكوين ذاكرة مصر وقد طمستها الأيام • ان مأساتنا أننا شعب بلا ذاكرة ، أو شعب ضعيف الذاكرة على أحسن الأحوال • فآفة حارتنا النسيان كما يقول نجيب محفوظ فى روايته الشهيرة (أولاد حارتنا) • وضعيف الذاكرة ضعيف الوعى ، واهن المعرفة ، مختل القدرة على الحكم الصحيح على الأشياء • ان علينا أن نشرع فى تكوين ذاكرة مصر الحديثة من الآن • وأن نفتح المجال لمن يريد أن يحفر أسمه على صفحة هذه الذاكرة • اننا نحن أول من حفظ ذاكرة الانسان فى العالم من الضياع ، فقد كان المصرى القديم أول من نقش على الحجر اسمه وحضارته التى تملأ متاحف العالم الآن ، وتنتصب شواهدها حتى فى قلب باريس ، وفى واحد من أوسع وأجمل ميادينها • فكيف لنا نقبل العيش وقد طمست ذاكرتنا الحديثة • ان الذاكرة التى اعنيها شىء غير التاريخ • فلنا تاريخنا القديم والحديث الذى يعرفه من يقلب صفحات الكتب أو ينبش الوثائق ، ولكن الذاكرة هى تحول هذا التاريخ الى فعالية مستمرة فى الحاضر ، وكينونة حيوية فى المستقبل • فهل نجم عن عدم إهتمامنا بذاكرتنا القومية شىء من القصور ؟

نعم •• وحتى لاتبدو هذه النعم حكما تعسفيا ، علينا أن نستعرض موقفنا من واحد من أكبر المؤتمرات العلمية التى عقد فى باريس خلال الأعوام القليلة الماضية ، وهو مؤتمر المستشرقين الدولى التاسع والعشرين الذى انعقد فى الكوليج دى فرانس ، وفى السوربون فى الفترة من

١٦ ـ ٢١ يوليو ١٩٧٣ ٠ فلهذا المؤتمر دلالة هامة ومعنى كبير ٠ ويمكن أن نستخلص من تأمله ودراســـة موقفنا منه الشيء الكثير ٠ ليس فقط لأنه ينعقد وقد مر أكثر من مائــة عام على انعقاد المؤتمــر الدولى الأول للمستشرقين ٠ ينعقد وقد باعدت هذه الأعوام المائة بين جل ما دار فيه ، وبين المفهوم الأول لفكرة الاستشراق التى انعقد فى ظلها المؤتمر الأول ٠ ولكن أيضا لأنه يطرح فى ساحته ، ومن خلال بعض الأبحاث التى دارت فيه ، قضايا تهمنا ، وتتعلق فى بعد من أبعادها بمفهومنا عن الاستشراق ذاته ٠

فهذا المؤتمر الدولى الموسع لكل مستشرقى العالم ينعقد مــرة كل ثلاث سنوات ، ويضم الى جانب معظم مستشرقى العالم الغربى والشرقى البارزين ، عددا من ممثلى المؤسسات العلمية فى الشرق ، ربما ليتعرفوا على وجهــة نظــر الأوربيين الذين ينظرون من الخــارج الى بلاد الشرق ويتدارسون قضاياها ، أو لينقلوا الى هؤلاء المستشرقين وجهات نظرهم فى القضايا التى يراها المستشرقون من الخارج ، أو ليقدموا لهم بعض الأبحاث فى الموضوعات التى يستعصى على كثير من المستشرقين فهمها ، أو الوصول الى دقائقها وأسرارها ٠ انهم لا يحضرون هذه المؤتمرات كما يحضرها المستشرقون ، كما يظن معظمهم فيما يبــدو ، ولم يحضروهــا ليثبتوا للمستشرقين ، وكأنهم واقعون تحت وطأة مركب نقص غريب ، انهم يستطيعون أن يقدموا أبحاثا من نفس الطراز ، وبنفس الطريقة التى يكتب بها المستشرقون ٠ بل العكس ، انهم يحضرون هنا ليكونوا محكا يصوب أفكار المستشرقين ، ويثبت لهم أن هناك رؤى ووجهــات نظــر تختلف عن رؤاهم ، وتحاول أن ترى الواقع والحقيقة بمنظار آخــر غير منظار الغريب الذى قد يلتقط الأشياء الملفتة للنظر ، والتى لا تبصرها العين التى اعتادت هذا الواقع ، ولكنه قد لا يلتفت الى ما تحت الأعماق ، وقد لا يلتقط المسرى الحقيقى لتيار الظاهرة التى يتناولها ٠ لكن هذه فيما يبدو نقطة أخرى ، قد يكون الحديث عنها قبل التعرف على المؤتمر نفسه سابقا لأوانه ٠

لذلك علينا أن نعرف أولا كيف انعقد هذا المؤتمر الحافل للمستشرقين بعد مرور أكثر من مائة عام على تأسيس حــركة الاستشراق ، وعقــد المؤتمرات لدراستها ٠ ليس فقط لأن اكتمال الأعوام المائة لابد أن تشير الى شيء من المراجعة واعادة النظر ، ولكن أيضا لأن حركة الاستشراق قد نمت بشكل كبير فى هذه السنوات المائة ٠ ولو نظرنا الى القضية من حيث الكم وحده فاننا ستجد أن أعضاء المؤتمر الأخــير أكثر من عشر أضعاف المؤتمر الأول ٠ فقد كان عدد المشتركين فى هذا المؤتمر الأخير أكثر من

ثلاثة آلاف باحث ودارس . ضاقت بهم القاعة الرئيسية الكبرى بجامعة السوربون ، حينما اجتمعوا فى بداية افتتاح المؤتمر ، وفى جلسته الختامية . ونظرا لهذه الضخامة الهائلة ، فقد كان المؤتمر فى الواقع مجموعة من المؤتمرات فى آن واحد . اذ قسم المؤتمر فى الواقع الى اثنى عشر قسما رئيسيا ، قسمت بدورها الى أقسام فرعية . ويوشك كل قسم من هذه الأقسام الاثنى عشر أن يكون بالفعل مؤتمرا مستقلا . فقد قدم فى كثير من هذه الأقسام أكثر من مائة بحث . أما الأبحاث التى قدمت للمؤتمر ككل فانها تقرب من الألف بحث . فهل يمكن لأى متابع أو عضو فى المؤتمر أن يتابع هذا العدد الهائل من الأبحاث فى ستة أيام !؟ صحيح أن كل مشارك فى المؤتمر كان يعتبر نفسه مجرد عضو فى واحد من هذه الأقسام العديدة ، بل كان يحاول لاهثا أن يستوعب كل ما يقدم فى القسم الذى ينتمى اليه تخصصه ، ولم يطمح أحد فى استيعاب كل أبعاد هذا المؤتمر الدولى الكبير . لأن استيعاب ما دار فى هذا المؤتمر يوشك أن يكون ضربا من المستحيل . فقد زاد عدد الأبحاث المقدمة فيه عن ٩٦٠ بحثا ، وطبعت ملخصات الأبحاث التى وفدت الى سكرتارية المؤتمر فى أربعة اجزاء كبيرة ، فضلا عن الكثير من الأبحاث التى قدمت بعد الموعد فلم تطبع ملخصاتها ، ولكنها القيت فى المؤتمر دون أن تظهر ملخصاتها فى هذه الأجزاء الأربعة . واذا كانت هذه هى ملخصات الأبحاث التى لاتزيد بالنسبة لكل بحث عن صفحة أو صفحتين ، فلنا أن نتصور مدى حجم الأبحاث ذاتها ، وعدد الساعات التى استغرقتها تلاوتها ومناقشتها ، وبالتالى ضخامة هذا المؤتمر أو السوق الفكرى الصاخبة التى شهدتها باريس واهتمت بها صحفها واذاعتها طوال فترة انعقاد هذا المؤتمر الكبير .

واذا كانت الاحاطة بكل ما قدم فى هذا المؤتمر نوعا من الاستحالة ، فاننا سوف نستعرض أولا ومن خلال التقسيم الذى قسم اليه المؤتمر نفسه ، الصورة العامة لهذا المؤتمر ، ثم نتريث بعد ذلك قليلا عند بعض تفاصيل هذه الصورة ، أو بالأحرى عند قسم الدراسات العربية ، لنرى ما يطرحه علينا من أفكار ، وما يثيره موقفنا منه من قضايا . ثم سنتحدث أخيرا عن القضية التى كان على هذا المؤتمر أن يناقشها ، والتى أدى تحاشيه لها الى نوع من الانقسام الذى يوشك أن يهدد استمرارية هذه المؤتمرات بهذا الشكل الذى استمرت عليه طوال أعوام وعقود . وفى البداية علينا أن نتعرف على الأقسام الاثنى عشر التى قسم اليها المؤتمر وعلى ما انطوى عليه كل قسم من تقسيمات فرعية . ونبدأ بالقسم الأول وهو قسم « دراسات الشرق القديم » وينقسم هذا القسم بدوره الى ثلاثة فروع الأول هو « الاشوريولجى » وهو الفرع الذى قدمت فيه ١٧ دراسة

عن تاريخ الأشوريين ولغاتهم وادابهم وأساطيرهم وحياتهم الاجتماعية • أو كل ما يندرج تحت هذا العلم الذى اصطلح على تسميته بالأشوريولوجى، والفرع الثاني وهو « المصرولوجى » بكل فروع وجزئيات عالم الحضارة المصرية القديمة الزاخرة بالكنوز ، وقد قدم فيه ٣٧ دراسة • بينما خصص الفرع الثالث والأخير من هذا القسم « للدراسات السامية » التى تتناول بقيـة التراث الحضـارى للشرق القـديم خارج نطـاق هاتين الحضارتين الكبيرتين العريقتين • حيث يضم دارسات العبرانيين والكلدانيين والسريان والفينيقيين والحيثيين والحاميين والأمهريين الأحبـاش وغيرهم • دون اغفال بعض جوانب الترابط والتداخل بين هذه الحضارات الثلاثة ، وقدم فى هذا الفرع ٢٤ دراسة •

ودراسات هذا القسم بفروعه الثلاثة ، بما فيها من تنوع وجـدة وخصوبة ، وبما تثيره من قضايا هامة عن الرؤى والمكونـات الحضاريـة لشرقنا الأدنى ، تكفى وحدها لتكون مؤتمرا كبيرا وهاما يحظى بقدر كبير من اهتمامنا ، أو بالأحرى كان لابد أن يحظى بقدر كبير من اهتمامنا • لأنه فى الواقع لم يكن بين هذا العدد الكبير من الباحثين من يمثل عالمنا العربى سوى مصرى واحد ، بينما حرصت دولة الكيان الصهيونى على أن تبعث أكثر من باحث فى هذا الميدان • وحتى فى فرعى الحضارة الفرعونية والأشورية ، التى لم يشهد أى منهم أثرا من آثارها فى موطنه الأصلى ، ومع ذلك وجد كل منهم لديه من الصفاقة ما يكفى لأن يتحدث عنها حديث العـالم الخبير • واصرار الصهاينة على الوجود فى مثـل هذه المؤتمرات ، ليس فقط لانها تريد أن تثبت جدارتها الزائفة بالانتماء الى هذا العالم العريق الحضارة بالحرص على دراسة تاريخه ، بل بالتظاهر أمام ممثلى العقل الأوربى بأنها حريصة على دراسة تلك الحضـارة • وربما أكثـر حرصا عليها من أهلها الذين لا يستأهلون الانتماء اليها ، ولكن أيضـا لأنها تدرك أن هذه المؤتمرات العلمية هى خير ميدان للدعاية غير المباشرة ، وسوف نتأكد من هذه الحقيقـة كلما سرنـا قدمـا فى استعراض بقيـة الأقسام •

وقد خصص القسم الثانى من أقسام المؤتمر الاثنى عشر « لدراسات الشرق المسيحى » ، وهو عنوان فضفاض فيه شىء من اعتساف التقسيم لأن معظم الدراسـات التى اندرجت تحت هـذا القسم ، وهى قليلة ، ٢٧ دراسة فقط ، كان يمكن أن تندرج تحت أقسام أخرى • ففيه دراسات عن تأثير القصص التوراتى والانجيل على الفلكلور الشعبى فى جورجيـا وايران ، وأخرى عن الفن القبطى فى مصر ، وعن مصر القبطية ، ودراسات عن اثيوبيـا وارمينيا وجنوب روسيا الأسيوية •• الـخ هذا الخليط من

الدراسات • واذا كان في ضم هذه الدراسات معا وافراد قسم خاص لها شيء من الاعتساف ، فان كل الاعتساف سيتبدى في القسم الثالث الذى اريد له برغم ضآلة عدد أبحاثه التي لا تكفى لأن تقيم أود قسم فرعى داخل أى من أقسام المؤتمر الأساسية ، أن يكون قسما مستقلا من أقسام المؤتمر الاثنى عشر ، لأسباب لا ادريها تحت عنوان « دراسات عبرية » قدمت فيه ١٣ دراسة فقط • وقد كان من الممكن أن تندرج بعض دراسات هذا القسم داخل فرع الدراسات السامية في القسم الأول ، بينما كان من الضرورى استبعاد بعضها الآخر لعرقيتها وشوفينيتها الواضحة ، ولكن افراد قسم مستقل لهذا العدد القليل من الأبحاث يدل ـ ان دل على شيء ـ على أن كان الصهيونى قد نجح في اقناع العالم بأنه شيء متميز في المنطقة وان كان هذا التميز الذى تحسبه نصرا لها ، يؤكد من جهة أخرى غربتها ، وعزلتها عن المنطقة التى تدعى الانتماء اليها •

وثمة نقطة أخرى يضيفها هذا القسم عند تأمل دراساته التى تبدأ بدراسة تحت عنوان « ردود فعل موسى بن عزرا ضد فكرة العروبة » تؤكد أن هذا اليهودى قد عارض منذ أيام الدولة الأندلسية فكرة تمايز العرب واستقلالهم ، والتى تنتهى بدراسة عن الأيقونات السماوية بين الشرق والغرب ، تؤكد عمق التزاوج بين الديانات والأساطير العبرانية ، وبين الحضارة الأوروبية في أساطيرها وتصوراتها عن الخليقة • والنقطة التى يضيفها تأمل ما تحت سطح هذه الدراسات هو أن هذه المؤتمرات يمكن أن تكون مجالا خصبا للاعلام السياسى لمن يحسن استغلالها • فخلف قناع من العلمانية الزائفة استطاع الفكر الصهيونى أن يبث سمومه بدءا من تأكيد عراقته في العمل ضد وحدة المنطقة واحساسها بالتمايز والاستقلال ، حتى تأكيد عمق انتمائه الى الحضارة الغربية ثقافيا وفكريا وحضاريا • ومن الغريب أن معظم الذين قدموا ابحاثهم فى هذا القسم كانوا من الكيان الصهيونى ، بينما سنجد أن اقلية نادرة من العرب شاركت فى قسم الدراسات العربية ، وهو القسم الرابع من أقسام المؤتمر ومن أكثر أقسامه ازدحاما بالأبحاث • فقد قدم فى هذا القسم الذى أعطى عنوان « الدراسات العربية والاسلامية » ١١٢ دراسة • وهذا القسم هو القسم الذى حضرت معظم جلساته ، بل لقد كان مستحيلا حتى أن اغطى كل الأبحاث التى قدمت فيه • فلم يكن باستطاعة أى مشارك أو مستمع فى المؤتمر أن يحضر أكثر من دراسات قسم واحد ، لأن كل الأقسام كانت تعمل فى نفس الوقت ، وهذا ما جعلنى اعتبر هذا المؤتمر مجموعة من المؤتمرات فى وقت واحد ، لا من حيث الحجم وحده ، وانما من حيث تنوع المجالات والحقول المعرفية • وسوف أؤجل الحديث عن هذا القسم

حتى أفرغ من استعراض بقية أقسام المؤتمر لأننى أوثر أن اتريث قليلا عنده ، وان اتناول بعض القضايا التى يثيرها بشىء من التفصيل .

أما القسم الخامس فقد كان بعنوان « دراسات ايرانية » ، وقد قسم الى فرعين أولهما بعنوان « ايران القديمة » قدم فيه ٢٢ بحثا ، وثانيهما بعنوان « ايران الحديثة » وقدم فيه ٤١ بحثا . وتغطى هذه الأبحاث العديدة أبرز الموضوعات المتعلقة بايران القديمة والحديثة من المنمنمات الفارسية ، حتى مشكلة الخليج ، مع قدر من التركيز على الآداب الفارسية القديمة ، وخاصة عند الشيرازى والخيام فى الشعر ، والحديثة فى مجال النثر حيث تعتبر أكثر من دراسة أن القرن العشرين هو قرن ازدهار النثر فى الآدب الفارسى . بعد ذلك يأتى القسم السادس وقد سمى « آسيا الوسطى » ، وقسم الى فروع أربعة : أولها كان لحارات آسيا الوسطى القديمة ، وقدمت فيه ١٥ دراسة ، وثانيها للدراسات المنغولية ١٨ دراسة، وثالثها للدراسات التبيتية ١٦ دراسة ، أما الرابع والأخير وهو أضخمها فقد خصص للدراسات التركية و قدمت فيه ٤٤ دراسة ، شملت قضايا تركيا القديمة والحديثة فى آن .

أما القسم السابع من أقسام المؤتمر فقد خصص « للهند » وقسم الى ١٣ فرعا ، تتناول شتى مناحى دراسات هذا الشعب الكبير وهى الهند القديمة عامة ١٨ بحثا ، والبوذية ١٨ بحثا ، ودراسات عن الطبقات الأرضية ٩ ، وأخرى عن الهندوكية والجينية ٩ أبحاث ، وعن التاريخ ٨ دراسات ، وعن تاريخ العلوم فى الهند ٦ دراسات ، وعن اللغويات وقضايا متعددة فى الهند ٨ أبحاث ، وعن الأدب الهندو ـ آرية أو الهندو ـ أوروبية الحديثة ، وهى الآداب المتعلقة باسرة اللغات الهندية الأوروبية التى انحدرت منها معظم اللغات الأوروبية ، أو المتعلقة بالناطقين بتلك الأسرة من اللغات وقد قدم منها ٨ أبحاث ، ثم عن الآداب السينسكريتية والبراقريتية (والبراقريتية هى احدى اللغات الأصلية التى تنحدر عنها جميع اللغات واللهجات الهندية القديمة ذات الأصول غير السنسكريتية ، وكل اللغات التى لا تعود جذورها الى اللغة السنسكريتية تعد من اللغات الحديثة) وقد قدم فى هذا القسم ١٤ دراسة ، وبعد ذلك تجىء اربع دراسات تحت عنوان مخطوطات هندية ، و ١٢ دراسة عن الفلسفة ، ثم تسع دراسات عن « الفيدا » وهى الدراسات المتعلقة بكتب الهنود الأربعة ، أو واحد منها ، وفى النهاية تجىء دراسات الهند الحديثة ٦٠ دراسة ، وتشمل بالطبع الهند وباكستان من النواحى التاريخية والقومية والاقتصادية والاجتماعية الى الأدب والسياسة والفلسفة والدين والاسلاميات واللغويات .

بعد الهند يجيء القسم الثامن وقد خصص لدراسات « جنوب شرق آسيا » وقسم الى فرعين : أولهما عن الجذور الهندية في الأرخبيل ٥٠ دراسة ، والثانى عن القطاع القارى من جنوب شرق آسيا ٥٢ دراسة . ويختص الأول بدراسات أندونيسيا والفيليبين وسيلان وبقية الجزر الصغيرة فى تلك المنطقة ، أما الثانى فقد اختص بدراسات شبه جزيرة الملايو بما انقسمت اليه من ماليزيا وسنغافورة وبقية بلدان المنطقة من تايلاند الى لاوس ونيبال وكمبوديا وغيرها . أما القسم التاسع فقد خصص للدراسات الصينية وقسم أيضا الى فرعين الأول عن الصين القديمة وقدمت فيه ٧٤ دراسة ، والثانى عن الصين الحديثة وقدمت فيه ٤٧٦ دراسة . يبقى بعد ذلك « اليابان وكوريا » ، وقد خصصت لهما دراسات القسم العاشر من المؤتمر الذى انقسم كذلك الى فرعين : أولهما عن كوريا وقدمت فيه ٤٤ دراسة ، والثانى عن اليابان وقدمت فيه ٥٠ دراسة ، أما القسم الحادى عشر فقد خصص « للدراسات المكتبية والببليوجرافية والمراجع » وقدمت فيه ١٦ دراسة ، تتناول الوسائل المختلفة لعملية تيسير الدراسات الاستشراقية فى أوروبا ، وتدرس كيفية التغلب على بعض الصعوبات المكتبية والببليوجرافية المتعلقة بترتيب الأسماء والمراجع فى اللغات المختلفة ، وخاصة تلك التى لا تتبع النمط الأوروبى فى كتابة أسماء الأعلام كالصينية والعربية على سبيل المثال . وكذلك مشاكل المخطوطات القديمة والفهارس والببليوجرافيات القديمة ، وخاصة فى اللغات الهندية والصينية .. الخ . انه قسم خاص بالمشاكل التى تظهر خلال عمليات الدراسات الاستشراقية المختلفة ، وتهتم بتوفير وسائل هذه الدراسات ، وقد كان أكثر الناس طرحا لهذه القضايا الحرفية هم الباحثون الأمريكيون والانجليز .

لا يبقى بعد ذلك سوى القسم الثانى عشر والأخير من أقسام المؤتمر ، وينقسم هذا القسم الى فرعين : أولهما وثيق الاتصال بالقسم السابق وهو بعنوان «من قضايا المؤتمرين» وقد قدم فيه ٣٠ دراسة ، عن مغاليق الكتابات واللغات ومشاكل قراءة المخطوطات فى اللغات الصعبة والمهجورة. أما الثانى فقد خصص لقاعات البحث ، أو حلقات العمل وقدمت فيه ست قاعات بحث ستة موضوعات وهى « الأدب المعاصر فى جنوب شرق آسيا » وقدمت فيه ١٧ دراسة ، و « اسهامات المستشرقين فى لغات وحضارات جنوب شرق أوروبا » وقدمت فيه ١٣ دراسة ، و « الطب والصيدلة الآسيويين » وقدمت فيه عشر دراسات ، و « صينيو ما وراء البحار فى جنوب شرق آسيا » وقدمت فيه ١١ دراسة ، و « أسس ومناهج النقد الأدبى فى الصين » وقدمت فيه ٢ دراسات ، و « الاكتشافات الأثرية الأخيرة فى الصين وكوريا واليابان » وقدمت فيه ١٠ دراسات . والفرق

بين قاعات البحث الست هذه ، وبقية أقسام المؤتمر ، هو أن كل الأبحاث التي تقدم داخل قاعة بحث هذا الموضوع انما تتناول كلها نفس الموضوع من زاوية من الزوايا ، وهو الموضوع الذى تحمل قاعة البحث عنوانه ٠ أما بقية أقسام المؤتمر وفروعه فانها تحمل عناوين بالغة العمومية ، وتحت هذه العناوين تقدم الأبحاث في موضوعات مختلفة ، تفصل أو تدرج تحت العنوان العام الفضفاض للقسم أو الفرع ، ولكن يحمل كل بحث عنوانه الخاص ، بعكس الأبحاث التى تلقى فى قاعة البحث والتى تلتزم بمعالجة نفس الموضوع التفصيلى المحدد ٠ هذا فضلا عن أنه من الممكن عرض بعض الأبحاث التى لم تكتمل كلية ، أو التى لم تصغ نتائجها بشكل كامل ، أو التى يريد الباحث اختبار بعض فروضها من خلال طرحها للنقاش فى القاعة ، بينما لا يصح تقديمهـا كأبحاث متكاملة في القسم الآخـر من المؤتمر ٠

بعد هذا العرض السريع لاقسام المؤتمر وفروعه ، والتعـرف على عدد الأبحاث التى قدمت فى كل فرع من الفروع ومجالاتها ، والذى اردت به أن اجسد حجم هذا المؤتمر ومدى التنوع فى الموضوعات التى تناولها ، وبالتالى فى عدد الباحثـين الذين وفـدوا اليه من مختلف بقـاع الشرق والغرب ٠ كما اردت به من ناحية أخـرى أن أبين نطاق نشاط الحـركة الاستشراقية ، والموضوعات والمناطق التى هى مناط بحث هذه الحركة العلمية الضخمة واهتمامها ، اذ يوشك مجال نشاطها أن يشمل أكثر من ثلثى سكان العالم ، ذلك لأن هذا النطاق ، وهذا الحجم سيكونان ظهارا لما سأطرحه بعد قليل عن قضايا حركة الاستشراق بشكل خاص ، وهى القضايا التى أريد لها أن لا تطرح فى ساحة المؤتمر ، ولكنها كانت مثار جدل عميق ، أوشك أن يعصف ببعض تماسك المؤتمر بل ويوشك أن يهدد الحركة الاستشراقية فى وحدتها وتماسكها ٠ ولكن علينا قبل مناقشة هذه القضايا أن نتريث قليلا عند النقاط التى يثيرها القسم العربى فى هذا المؤتمر ٠

وأولى القضايا التى يطرحها هذا القسم على أى متتبع له ، هى عدم اهتمام العرب بشكل عام ، أو بالأحرى غفلتهم عن مثل هذا المؤتمر الكبير ٠ فلم ترسل أى من جامعات القاهرة ومؤسساتها الثقافية الكبيرة ممثلين لها فى هذا المؤتمر ، باستثناء مجمع اللغة العربية ، الذى اوفد ممثلا لم يقـدم أى بحث فى المؤتمر وان شارك فى نقاش بعض الابحاث ٠ بينمـا اوفد الكيان الصهيونى ممثلين لجامعاته الثلاثة الى هذا المؤتمر ، والى قسم الدراسات العربية والاسلامية فيه بالذات ، ناهيك عن قسم الدراسات العبرية التى كان معظم المشاركين فيه منه ٠ صحيح أن بعض جامعـات

العراق وسوريا والسعودية قد أوفدت ممثلين لها الى المؤتمر ، وان عددا آخر من العرب العاملين فى جامعات أمريكا وأوروبا قد جاءوا اليه ممثلين للجامعات الأمريكية أو الأوروبية التى يعملون فيها ، لكن عدد الأول كان قليلا ، وعدد الآخرين ، وان لم يكن قليلا ، فقد كانوا يمثلون جامعات غربية ، بل ان بعضهم كان يحمل جنسية البلد الذى يعمل فيه برغم أصله العربي.

وقد أدى قلة عدد الجانب الأول ، وتبدد أو ازدواج انتماء الجانب الآخر ، الى ان فقدت الأصوات العربية القليلة التى وفدت الى المؤتمر تأثيرها وفعاليتها الى حد كبير • وقدشارك فى تأكيد هذا الفقدان ذلك الاحساس الذى أشرت اليه فى البداية بالرغبة فى اللهاث خلف خطى المستشرقين ، واثبات اننا نستطيع أن نقدم دراسات من نفس عينة وطراز الدراسات التى يقدمونها • تلك الرغبة التى تنطوى على احساس بعدم الندية ، والتى جعلت معظم الدراسات التى قدمها العرب فى المؤتمر امتدادا لدراسات بقية المستشرقين من حيث الموقف ووجهة النظر ، بينما كان الأحرى بها أن تكون من هذه الناحية بالذات شيئا آخر متميزا عنها • ومحكا لتصحيح وتصويب الكثير مما جاء بها من أخطاء ، ناهيك عن ضرورة أن تكون منبرا أكاديميا يقدم للعالم عبر الدراسات الموضوعية الرصينة قضايانا السياسية ورؤانا وحقنا • ويفند اكاذيب الصهيونية ومزاعمها بنفس اللغة التى تدعى بها أن لها فى هذه المنطقة جذورا ، وهى اللغة الوحيدة التى يفهمها هذا الجمع الغفير من العلماء والباحثين ، وأعنى بها لغة البحث الموضوعى الرصين •

لقد كرس الباحثون الصهاينة ابحاثهم العلمية لخدمة أهداف بلادهم السياسية ، ولتحويل الوهم والاكذوبة الى ما يشبه الحقيقة فى أذهان العالم الغربى ، من خلال فهمهم للغة الملائمة لكل مناسبة • واذا كان هذا مؤتمر للمستشرقين الباحثين ، فلتكن اللغة التى يحاول الصهيونى من خلالها أن يكسب لقضيته الانصار هى لغة البحث العلمى • لذلك كانت ابحاث القسم العبرى برغم ضآلتها واعية بهذا الهدف • فكانت مليئة بالتركيز على أساطير التوراة وأرض الميعاد ، وبعقد المقارنات القريبة بين العرب فى الأندلس ، وعودة الأوروبيين لها ووعد بنى اسرائيل بأرض الميعاد قبل نزول القرآن على محمد • بل كانت هناك تهجمات وتخرصات على القرآن ذاته ، لم تجد من يرد عليها من باحثينا واذا ما انتقلنا الى قسم الدراسات العربية والاسلامية سنجد أن هناك أكثر من باحث صهيونى حاول أن يخدم غرضه من خلال الأبحاث التى قدموها فى هذا القسم • فهذا باحث من الكيان الصهيونى يكتب عن وضع العرب واليهود

تحت ظل الدولة العثمانية فى فلسطين • ومن بين ثلاثة أبحاث قدمت عن الأدب العربى الحديث فى هذا المؤتمر قدم صهيونيان بحثين منهما ، بينما قدم الثالث عربى يعمل فى أحدى الجامعات الأمريكية • ولم يكن هناك ممثل واحد لأى من الجامعات أو المؤسسات الثقافية العربية ليقدم شيئا عن أدبنا الحديث •

ومن أغرب المصادفات ، أو لعلها ليست مصادفة على الاطلاق ، ان البحثين الذين قدمهما الباحثان القادمان من الكيان الصهيوني الى المؤتمر كانا عن الأدب المصرى الحديث بالذات ، احدهما عن المسرح المصرى في القرنين الثامن عشر والتاسع عشر ، والثانى عن اللغة القصصية عند يوسف ادريس ، وازاء كل هذا النشاط الصهيوني المحموم ، لم نجد دراسة عربية واحدة عن تسامح الاسلام مع الديانات الأخرى ، وخاصة اليهود ، ولا عن عروبة فلسطين ، ولا عن خرافة هذا الحلم بأرض الميعاد الذى تستند عليه الحركة الصهيونية في استعمارها الاستيطاني للأرض العربية ، ولا عن دور العرب الفكرى فى أسبانيا ، وكونه معبرا لنقل الفكر العربي الى أوروبا وتأثيره فيها في مرحلة الازدهار • لقد كانت هناك فرصة مواتية لنا فى هذا المجال ، خاصة وقد خصص المؤتمر يوما للاحتفال بذكرى حنين بن اسحاق وآخر للشعراني • وكان الاحتفال بحنين مناسبة مواتية لنا • لقد ذهب العالم كله الى هذا المؤتمر ليسمع ويناقش ويفهم ، فهذا المؤتمر لقضايانا ، وقسم من أكبر أقسامه ــ بل أكثر من قسم واحد فيالواقع ــ عن منطقتنا • وكان الأحرى بنا أن نقتنص هذه الفرصة ، ولكننا كنا غائبين • وكان مجرد هذا الغياب أكبر عون لأعدائنا •

انني أهيب بالجامعات والمؤسسات الثقافية العربية أن تستعد من الآن للمؤتمر القادم الذى سينعقد فى المكسيك بعد ثلاثة أعوام ، بأن تدرس ماذا فعلت دولة الكيان الصهيونى فى هذا المؤتمر وماذا طرحت فيساحته من مزاعم ، وأن تمحص الاستراتيجية الثقافية الكامنة فى توجهاتها فيه والاعداد من الآن للدراسات التى ترد على كل هذه المزاعم وتفندها • انني اطمع في أن يشهد المؤتمر القادم عددا كبيرا من الباحثين العرب حتى فى القسم العبرى نفسه • ومؤسسات الدراسات ومراكز الأبحاث الفلسطينية مدعوة قبل غيرها لسد هذا النقص • انني آمل أن يفكر كل عربى سوف يقدم بحثا فى المؤتمر القادم عشرات المرات قبل أن يختار موضوع بحثه ، حتى يكون اختيار موضوع بعينه جزءا لا يتجزأ من دور الباحث العربى فى كشف الحقائق ومخاطبة عقل العالم الذى يجتمع كل ثلاث سنوات ليمتحن مدى سلامة وصلابة ارائه ومعلوماته عن عالم الشرق الفسيح هذا • وهذه المعلومات للأسف مليئة بالاغاليط ، وتحتاج

منا الى جرد يسير لتصحيحها وتصويبها حتى يقف العالم معنا ، وحتى لا نتباكى كلما وجدناه منصرفا عن حقنا الواضح الصريح · أليس هذا نتيجة طبيعية لتقصيرنا عن اسماع العالم صوتنا ، كلما حانت فرصة مواتية كتلك ؟ ان علينا أن ندرس من الآن اطلالات هذا النقاش الذى دار بين عدد كبير من المؤتمرين حول مفهوم الاستشراق الأن ،وان نحدد موقفنا مع جانب من جانبى هذا النقاش الحيوى الذى أتوقع أن يثير الكثير من القضايا الهامة فى المستقبل ، حتى لا تفاجئنا القضية فى المؤتمر القادم ، بعد أن أمكن احباطها أو الهروب منها فى هذا المؤتمر ، تلك القضية التى توشك أن تعصف بوحدة الحركة الاستشراقية ، والتى أشرت اليها قبل قليل · فما هى أبعادها ؟

انها باختصار شديد قضية واقع حركة الاستشراق التى نمت وتضخمت خلال أعوام مائة بين اليمين واليسار · لقد ظلت هذه الحركة حتى اليوم واقعة تحت سيطرة اليمين العالمى ، وبدأت قوى اليسار تنمو بين المستشرقين أنفسهم ، وأخذت هذه القوى تطرح أسئلة جديدة · وكان فى مقدمة هذه الأسئلة ذلك السؤال الهام : لماذا يهتم الدارسون الغربيون ببلاد غير بلادهم ، وبقضايا مجتمعات غير مجتمعاتهم ؟ وهل ستظل حركة الأستشراق بعد مائة عام تسير على نفس الأسس التى سارت عليها عند انشائها فى القرن الماضى ؟ وما هو المفهوم الجديد لحركة الاستشراق ووظيفتها وأهدافها فى الربع الأخير من القرن العشرين ، الذى ستنعقد فيه المؤتمرات التسع القادمة ؟ هذا السؤال الكبير الهام بأجزائه الثلاثة ، كان ثمرة معاناة طويلة لعدد كبير من المستشرقين ، وخاصة الذين يدرسون جنوب شرقى آسيا وبقية أجزاء آسيا ، حيث كان لدى عدد كبير منهم بعض الوثائق التى تؤكد أن ثمرات دراساتهم ، كانت تستخدم ضد هذه البلاد بشكل بشع ابان الحرب الأمريكية فى فيتنام وجنوب شرقى آسيا ، وأن بعض هذه الدراسات قد مولته المخابرات المركزية الأمريكية بعلم منهم أو دونما علم · وانهم أصبحوا فى نهاية الأمر العوبة كبرى فى أيدى صناع الحرب والمصائر فى عالمنا المعاصر ·

من هذا الوعى المرير تفجر السؤال الكبير · وحاول عدد من المستشرقين الشباب خاصة أن يجعله مدار بحث المؤتمر طوال يوم كامل · لكن محاولتهم لم تنجح لوعى الآخرين بخطورة طرح مثل هذه القضية وبنتائجها · ومن هنا فقد حاول هؤلاء المستشرقون بعد يأسهم من نجاح محاولتهم تأسيس جمعية استشراق جديدة مضادة لتلك الجمعية الدولية التى تتولى تنظيم هذا المؤتمر والاشراف عليه · واذا قيض لهذه الجمعية الجديدة النجاح ، فانها ستعيد النظر جذريا فى هذا المفهوم القديم بمجرد

وجودها ذاته. ثم انها لابد وأن تتبنى فهما جديدا لدور المستشرقين كضمير مستنير فى عالمهم ، يشعر بحق بآمال وقضايا وآلام هـذا العالم الذى يحملون أمانة المعرفة الحقيقية بقضاياه ومشاكله • انهم لابد أن يقوموا فى عالمهم الغربى بدور أكثر ايجابية فى توجيه مواقف هذا العالم الغربى حيال ذلك الشرق المسكين العريض • ليس عليهم بعد الآن الاكتفاء بدور الباحث السلبى ، لأن سلبيتهم البادية هى قناع تتخفى وراءه ايجابية من نوع لا يتوانى عن العصـف بالعـالم الذى دفعهم حبهم له ، ولقيمـه وحضارته ، الى التخصص فيه ودراسته • وانما لابد وان يقوموا بدور أكثر فعالية ، وهم يرون أن نتائج ابحاثهم التى اقدموا عليها بضمائر نقية ونوايا طيبـة ، تتحول الى سوط عذاب للشعوب التى نـذروا حياتهـم وامكانياتهم لفهم قضاياها ، وللتعرف على مشاكلها ، وللعمل على حل هذه المشاكل لامضاعفتها • لقد كان وعى الجانب الآخر بخطورة هذا التحول الذى يوشك أن ينتاب الحركة الاستشراقية وهذا الخطر الذى يهددهـا كبيرا • وقد بلغ هذا الوعى ذروته فى الجلسة الختامية حينما عارضوا بشدة أن يكون الاجتماع القادم فى موسكو ، خوفا من أن يساعد المناخ الفكرى هناك اليسار على كسب المعركة التى خسرها فى هذا المؤتمر ، واختاروا المكسيك له مكانا • فهل سيؤخر هذا الاختيار من عملية التحول؟ هذا سؤال سيجيب عليه المؤتمر القادم •

وأخيرا هل سيجىء الحديث عن جورج حنين فى نهاية هذه الرسالة تكريسا للغربة التى عاشها ومات فيهـا طوال حياتـه • أستميح ذكراه العذر ، فأنا لا استطيع أن اكتب عماجرى فى باريس فى النصف الأخير من يوليو ، دون أن اتوقف قليلا عند موت جورج حنين الذى طلعت علينا به جريدة (اللوموند) فى مكان بارز من صفحتها الأخيرة يوم ٢٠ يوليو تحت عنوان « موت جورج حنين الكاتب والصحفى المصرى » • وقد عاش جورج حنين طوال سنوات حياته غريبا • ومات مغتربا ليلة ١٧ ، ١٨ يوليو فى باريس • عاش فى مصر غريبا حتى قبيل رحيله عنها ، لأنـه وقد ولد فى أسرة ميسورة ، وفرت له سبل التعليم فى المدارس الأجنبية ، بدأ يحس ، وقد شارف الشباب فى ثلاثينات هذا القرن ـ اذ ولد عـام ١٩١٤ ـ وبدأ ينتمى الى الأفكار التى كانت تعيشها الثقافة الفرنسية التى تعلمها ، بأنه غريب فى مجتمع لايدرى شيئا عن الهموم التى تؤرقـه • هموم السريالية فى الفن والتروتسكية فى السياسة • فقد كان من أبرز جماعة الكتاب والفنانين السرياليين الشباب التى ضمت رمسيس يونان وإلبير قصيرى وكامل زهيرى وأنور كامل وغيرهم فى الثلاثينات • وكان من أول الذين قدموا كافكا الى العربية وعرفوا بادبه ، ومن أوائل الذين

خاضوا مغامرة التجريب فى الأقصوصة المصريــة بنمــاذج تمتزج فيها التعبيرية بالسريالية • وامعانا منه فى تكريس هذه الغربة ، أو تمشيا معها ، بدأ فى تأسيس مجلة باللغة الفرنسية فى القاهرة فى تلك الأيام تحمل عنوانا غريبــا هو (حبــة الرمل La partaesable) واستمر يكتب بالعربية والفرنسية معا ، فقد كان عزيــزا عليه أن يقطع صلتــه باللغة التى يعيش بين ظهرانيها نهائيا ، وهو يزعم أنه يتبنى قضايا أكثر فئات المجتمع شعبية وثورية ، وأنه واحد من المصلحين الاجتماعيين الذين تعذبهم آلام الفقراء المطحونين • وقد كان عزيزا عليه أيضا أن يتخلى عن اللغة الفرنسيه وقد جعلته كتاباته وأشعاره فيها واحدا من الشعراء الذين يرى اندريه بريتون انهم خير معاصريه ، وافضل أبناء المدرسة السريالية • كما كسبت له هذه الأشعار الأصدقاء من بين الكتاب الفرنسيين الكبار مثل أندريه مالرو •

وظل جورج حنين فريسة لهذا التناقض والازدواج • يعيش فى بلاده كنبى مجهول يبشر فى القفر بأشياء لاتعنى أحدا ، ولا ينصت اليها سوى عدد ضئيل ، مايلبث بعد قليل أن يولى وجهه شطر أشياء أخرى • فها هى المجلات العربية التى أنشأتها جماعته تغلق الواحدة بعد الأخرى (البشير) و (التطور) و (المجلة الجديدة) فى عهدها الأخير • وها هم بعض أفراد هذه الجماعــة يهرعون مع بدايــة الخمسينات الى المدرسة الواقعية ، ويتخلون عن مغامرات التجريب • وما أن هلت الستينات حتى تكرس فى أعماقه احساس مرير بالغربة ، فحتى الأفكار الاجتماعية التى بشر بها تأخذ مكانها الى ساحة الواقع بعيدا عن كل تصوراته ، وتتنكر له ، ولم يعد له سوى اللغة الفرنسية فهاجر اليها ، بعد أن طال أمد هجرته الداخلية فيها ، وهو لما يزل فى أرض الوطن • وفى فرنسا عمل بالصحافة ، وأسس « رابطة الشباب الأفريقى » ومجلتها (جان افريك) كما شارك فى تاسيس جريدة L'Express وأخذ ينشر دراسات أدبية وفكرية تنم عن فكر ثاقب ، وعن رشاقة فى التعبير جعلته كما يقول كاتب مرثيته من أبرز أصحاب الأساليب فى اللغة الفرنسية • وأصدر رواية (حياة فتاة شابة) وكذلك كتيبا صغيرا يحمل عنوان (دميتان) تحدث فيه باسلوب تاريخى جميل ــ كما تقول اللوموند ــ عن حياة جوليان الزنديق • وفى فرنسا ظل احساسه بالغربة والازدواج يعذبه ، كما عذبه فى مصر • وأخذ يترجم عددا من القصص القصيرة المصرية الى الفرنسية ، كلما هاجه الحنين الى موطن الغربة الأولى ، حتى قضى فى باريس قبل أن يكمل عامه الستين •

باريس يوليو ١٩٧٣

● السفر الخامس

مؤتمر للأدب العربى الحديث فى جامعة لندن

مع أن عمر الدراسات العربية بالجامعات الانجليزية يمتد الى عدة قرون ، ويعود الى وعى العقل الأوروبى فى القرون الوسطى بأهمية الانجاز العقلى العربى ، وتخصيص أقسام لدراسته فى مختلف الجامعات الأوروبية، فان الاهتمام بدراسة الأدب الحديث فى هذه الجامعات جديد نسبيا ، ليس فقط لأن عمر الأدب العربى الحديث نفسه لا يتجاوز القرن بأى حال من الأحوال ، ولكن أيضا لأن دراسة هذا الأدب وخاصة فنونه القصصية كالرواية والمسرحية والقصة القصيرة • تتطلب معرفة باللهجات العامية وبالاستعمالات الحديثة للغة فى الأقطار العربية المختلفة • وخبرة بالحياة المعاصرة فى البلدان التى يصدر عنها هذا الأدب ، وادراكا للقضايا الاجتماعية والسياسية التى تؤثر فى رؤى الكتاب ومعالجاتهم للمواقف والشخصيات ، وغير ذلك من الأدوات المعرفية الحديثة التى لم يتعودها ولم يخبرها الدارس الأجنبى الذى تربى على الأدب القديم وحده ، وعلى دراسة تاريخ العرب القديم ودياناتهم وعاداتهم وعقائدهم • وهذا النوع التقليدى من الدراسات هو العمود الفقرى لمعظم أقسام الدراسات العربية فى الجامعات الأجنبية منذ بدء انشغالها بأمور الثقافة العربية فى مطلع القرن السادس عشر • لكن الأهمية المتزايدة التى بدأ الأدب الحديث يحرزها فى العالم العربى باعتباره وثيقة أدبية لا غنى عنها لمن يريد أن يعرف النبض الحقيقى للحياة العربية المعاصرة ، تزود القارىء بما لاتقدمه له الدراسات الاقتصادية أو الاجتماعية أو السياسية ، هذه الأهمية بالاضافة الى درجة النضج الفنى التى أحرزتها أشكال التعبير الأدبى الحديثة فى عمرها القصير ذاك ، هى التى جعلت الأدب الحديث يحظى بقدر كبير من اهتمام الدارسين والطلاب فى الجامعات الانجليزية • وهو اهتمام يجنح نحو العمق والاتساع بمرور الأيام • وكان من علامات هذا الاهتمام المتزايد المؤتمر الذى عقده معهد الدراسات الشرقية والافريقية بجامعة لندن بين ١٠ ــ ١٢ يوليو الماضى ١٩٧٤ للأدب العربى الحديث •

وهذا المؤتمر واحدة من علامات الاهتمام بالأدب العربى الحديث ، أو هو بالأحرى ثمرة له • فقد كان الهدف الرئيسى من عقده هو دعوة

ثلاثة عناصر أساسية للمشاركة فى هذا المؤتمر : العنصر الأول هو الفنان والمبدع العربى الذى يشكل عمله الخلاق اللبنة الأولى فى أى دراسة للأدب العربى ، والعنصر الثانى هو الناقد والدارس العربى الذى عاش نفس الظروف الثقافية والحضارية التى يصدر عنها الفنان العربى ، وخبر حقيقة الهموم والهواجس التى تشغله ، والذى يمكنه تكوينه الثقافى وحساسيته النقدية من رؤية الابعاد والأعماق المختلفة للظواهر الفنية والنقدية فى واقعه • أما العنصر الثالث فهو الدارس والباحث الأجنبى ، الانجليزى خاصة ، الذى تخصص فى هذا الميدان والذى لا يزال ، برغم تخصصه ، يرى الظاهرة الأدبية بعين غريبة عنها ، لها رؤى وتساؤلات من نوع خاص ، ويمرر كل تفاصيلها عبر مرشح ثقافته وانشغالاته ورؤاه ، والذى يفتقر الى الاحتكاك العلمى والمباشر بالعنصرين الأولين ويدرك أهمية هذا الاحتكاك لتعميق فهمه وارهاف رؤيته للواقع الأدبى الذى يطمح الى معرفة أعمق بقضاياه واسراره •

هذه هى العناصر الأساسية الثلاثة التى طمحت دائرة الأدب العربى بمعهد الدراسات الشرقية والأفريقية فى جامعة لندن الى أن تجمعها فى هذا المؤتمر ، وتتيح لها فرصة حوار علمى جاد حوله ، تخرج منه بمجلد يضم أبحاث ورؤى كل من الفنان والناقد العربيين والدارس الانجليزى ، ويكون وثيقة تمنح الدارس الجديد نظرة شاملة ودليلا للحركة فى ميدان يخلو من الدراسات الجادة فى اللغة الانجليزية الى حد ما • والحقيقة أن الخطة المبدئية للمؤتمر والتى أعدتها دائرة الأدب العربى برئاسة البروفسور توم جونستون وبالمساعدة الفعالة للدكتور روبين أوستل كانت أكثر طموحا مما تمخضت عنه وقائع المؤتمر • فلو قدر لكل الذين وجهت اليهم الدعوة من الفنانين والكتاب العرب خاصة ، ومن الباحثين الأجانب الحضور لكان المؤتمر بالفعل أكثر فاعلية وكمالا • لكن اعتذار عدد من أولئك وهؤلاء هو الذى دفع دائرة الأدب العربى الى تغيير اسم وصورة المؤتمر من « مؤتمر » الى « حلقة دراسية » ومع هذا فقد كانت الحلقة الدراسية من حيث كثافة واتساع ما قدم فيها ، وما طرح للمناقشة خلال أيام عملها الطويلة الثلاثة مؤتمرا بحق • وان احتفظ لها طابع الحلقة الدراسية بدرجة عالية من العمق والتركيز ، ولنلق الآن نظرة سريعة على ما قدم فى هذه الحلقة من أبحاث وما طرح من قضايا ، نظرة سريعة قد تظلم بعض الأبحاث والقضايا التى تحتاج بحق الى وقفة طويلة متريثة ، ربما اتيحت لنا فى مجال آخر ، ولكنها مع ذلك ضرورية لتقديم صورة عامة لما جرى فى المؤتمر وما طرح على بساط البحث فيه •

ومن البداية أحب أن أشير الى أن المؤتمر حينما وجه الدعوة الى عناصر أدبية ونقدية بارزة في مجال الأدب العربي الحديث ، لم يحدد لأى منها سوى الحقل العام الذى يريده أن يسهم ببحثه فيه مثل الشعر أو المسرح أو الرواية أو القصة القصيرة أو الدراسة النقدية · ولم يقترح على أى منهم موضوعا أو قضية · وقد هدف من ذلك أن يترك لكل مشارك في المؤتمر أن يطرح على القارىء الأجنبى ، الذى سيقدم له حصاد المؤتمر في النهاية في شكل كتاب ، ما يراه هاما من موضوعات أو قضايا ، أو ما يحس بأنه يستطيع أن يضيف فيه شيئا جديدا أو أصيلا · وكان نتيجة هذا أن تنوعت أبحاث المؤتمر الى أقصى حد ، وتباينت مستويات المعالجة من الرؤية الشاملة ، الى التفصيل الجمالى لجزئية صغيرة ، الى الدراسة المنهجية لقضية أو التقييم النقدى لكاتب أو عمل · وسوف نلمس بعض مظاهر هذا التنوع عند استعراضنا لما طرح فى أيام المؤتمر / الحلقة الدراسية الثلاثة ·

كان اليوم الأول مخصصا للشعر ، بدأ ببحث للدكتور مصطفى بدوى (جامعة اكسفورد) عن « عبد الرحمن شكرى الشاعر : رد اعتبار أو اعادة نظر » وكما هو واضح من عنوان الدراسة فانها دراسة تحليلية لأعمال شكرى تعيد لهذا الشاعر المهضوم مكانته التى تستحقها فى تاريخ الأدب العربى الحديث كأعظم شعراء مدرسة الديوان شاعرية وموهبة وأصالة · والدراسة من هذه الناحية تقدم تحليلا يعتمد على بصيرة وحساسية كاشفة لرؤى عبد الرحمن شكرى الشاعر وفلسفته فى الشعر ، والطبيعة ، والحياة ، والموت ، والحب والجمال وغير ذلك من العناصر التى تكون مادة شاعر رومانسى النزعة شفاف الوجدان وعالمه · وأهم ما قدمه بحث الدكتور مصطفى بدوى هو ذلك المنهج الدقيق الذى اعتمده فى تحليل أعمال ورؤى الشاعر بشفافية وتركيز ، والذى مزج فيه معاناة الشاعر الذاتية ، بمكوناته الثقافية ، برؤاه الشعرية بصياغاته الجمالية فى تكوين واحد يستخلص جوهر موقف الشاعر من الشعر والحياة ·

بعد ذلك قدم الدكتور بيير كاكيا (جامعة أدنبرة) دراسة عن «القيم الاجتماعية التى تعبر عنها بعض المواويل الشعبية المصرية المعاصرة» · وهى دراسة تستخلص من الموال الشعبى باعتباره العمل الابداعى للعقل الجمعى رؤى وقيم المصريين الاجتماعية حيال الثأر والشرف والفوارق الدينية والطائفية والمستويات والمكانات الاجتماعية ، وعديد من المفاهيم والقضايا الأخرى · وبرغم اعتمادها على عدد محدود من المواويل القصصية وحدها ، وعدم توفر الصياغات المختلفة للموال الواحد تحت يدى الباحث، فانها استطاعت أن تستخلص ، بعمق التحليل ، بعض القيم والقضايا

الهامة ، وأن تلمس ماوراء السطح من عمق الرؤية ، وأن تضع يدها على الأشياء التى تفوت دائما على المستمع العادى وان اثرت فيه ، ولا تلتقطها الا عين الباحث الحساسة التى تدرك ماوراء هذه الأشياء من قيم ورؤى ومواقف . وكان البحث الثالث للدكتور روبن أوستل (جامعة لندن) عن « اليا أبو ماضى والشعر العربى فيما بين الحربين » . وهو يحث يحلل موقف الشعر العربى فيما بين الحربين من الكثير من القضايا الاجتماعية والسياسية التى كانت مطروحة على المبدع العربى فى هذه الفترة الحساسة من تاريخ الوطن العربى . ويركز على أعمال اليا أبو ماضى وعدد آخر من الشعراء الذين اتفقوا أو تباينوا معه فى الموقف والرؤية .

أما البحث الرابع فكان للدكتور روجـر آلان وهو باحث انجليزى يعمل فى (جامعة بنسيلفانيا) بالولايات المتحدة عن « الشعر ونقد الشعر فى مطلع القرن » وتعرض فيه لمواقف وآراء عدد من الكتاب البارزين فى أول هذا القرن فى الشعر وحلل مفهومهم له ، ويتركز البحث أساسا على آراء محمد ابراهيم المويلحى فى شعر شوقى وآراء محمود واصف وحافظ ابراهيم وشوقى نفسه ومحمد حسـين هيكل وحسـين المرصفى فى نقد الشعر ، وخاصة فهمهم لمسألة الأصالة والتأثر بالشعر الغربى فى هذا الوقت والذى كانت تطرحه بعض قصائد شوقى عقب عودته من أوربا . وكان البحث الخامس للأستاذ محمد عبد الحليم (جامعة لندن) بعنوان « بدر شاكر السياب : دراسة فى شعره » . ولأن السياب شاعر خصب يطرح الكثير من القضايا . ولأن هنـاك دراسات عديد عنه ، فقد آثر الباحث أن يلقى الأضواء على بعد جديد فى عالم السياب الشعرى وهو مدى تراثية صياغات السياب الشعرية سواء كانت هذه الصياغات تتعلق باللغة أو بالصورة الشعرية باعتبارها وحدة تعبيرية عند السياب ، وقد مكنت الباحث معرفته الواسعة بالصور القرآنية والتراث العربى من كشف هذا البعد التراثى الهام فى أعمال هذا الشاعر العربى الكبير الذى تؤكد كل دراسة جديدة عنه خصوبة عالمه الشعرى وغناه . وكان البحث السادس للدكتورة سلمى الخضراء الجيوسى (جامعة الجزائر) عن « الشعر العربى المعاصر : رؤى واتجاهات ، موضوع خاص : الزمن واللازمن » تحت هذا العنوان الطويل المركب قدمت الشاعرة الفلسطينية وناقدة الشعر دراسة تفصيلية لجزئية ذات دلالة هامة فى القصـيدة الجـديثة وهى الزمن ، سواء كان هذا الزمن حاضرا أو ماضيا أو مستقبلا ، بعدا تاريخيا سحيقا أو مجرد ماض قريب ، وسواء أكان زمنا متوقفا أو متحركا أو لا زمن على الاطلاق . ومن خلال تحليل شعرى وجمالى لعنصر الزمن ودورة فى صياغة الرؤية والبناء فى القصيدة الجديثة قدمت الباحثة دراسة لرؤى الشاعر الحديث وموقفه من قضايا عصره الاجتماعية والسياسية .

وفي نهاية اليوم الأول حان ميعاد انفجار قنبلة المؤتمر الزمنيـة . واعنى بها دراسة الشاعر السورى على أحمد سعيد (أدونيس) بعنوان « مفاهيم الحداثة فى الشعر العربى المعاصر » وهى دراسة يصعب معها اتباع أسلوب العرض السريع الذى قدمت به بقية الأبحاث ، ليس فقط لانها تثير الكثير من القضايا التى تستحق المناقشة ، وتطرح العديد من الرؤى الجديدة والأفكار الصادمة التى تحتاج الى وقفة متريثـة ، ولكن أيضا لانها مبنية على تحليل نقدى لمسيرة التراث والفكر العربى منذ ظهور الاسلام حتى الآن . يوشك أن يكون هو ذلك التحليل الذى تقدمه رسالة أدونيس للدكتوراه عن (الثابت والمتحول فى الثقافة العربية) ، وهو مد لبعض خطوط هذا التحليل الى نهاياتها المحتومة حيث تصل الى دعوة أدونيس لتأسيس كتابة جديدة تذوب فيها الفواصل بين ما تعارفنا على تسميته بالأشكال الابداعية المختلفة . لتصبح مجرد كتابة طامحـة الى التغيير ، والى التجاوز الدائم والحركة المستمرة . المهم أن هذا ليس مكان مناقشة الكثير من الأفكار الهامة والتى تطرحها ورقة أدونيس والتى آمل أن تتاح لى فرصة الحديث عنها فى دراسة خاصة . لكنى أحب أن أشير هنا الى أنها عصفت بالكثير من الشعراء المحدثين ، فجماعة شعراء النهضة بدءا من البارودى حتى شوقى وحافظ ومن دار فى فلـكهم هم شعـراء انحطاط لا شعراء نهضة . وجماعـة العقاد والمازنى وشكرى والمجددين هم شعراء ملفقين ، وليسوا بمجددين بأى معنى من المعانى ، أو بالأخص بمفهوم ادونيس للتجديـد . هذا المفهوم الذى لا ينطبـق الا على جبران خليل جبران وحده ، ثم بعد ذلك على ست قصائد للسياب وعلى شعر أدونيس نفسه ، وبعض الشعر الذى تنشره مجلة (مواقف) . كل هذه الأفكار الصادمة احتاجت من المؤتمر الى اجراء بعض التعديل فى برنامج اليوم التالى ، وخاصة بعد أن اعتذر ادوار الخراط عن عدم الحضور فى آخر لحظة ، وافساح الجلسة الخاصة لبحثه لمزيد من المناقشة حول تلك القضايا التى أثارتها ورقة أدونيس ، والتى آمل أن اعود اليها مرة أخرى فى فسحة من الوقت والمساحة .

أما اليوم الثانى فقد كان مخصصا للقصة والرواية .. وقد كان برنامج هذا اليوم من أكثر أيام المؤتمر تأثرا باعتذارات عدد من الذين دعوا اليه . فقد كان المفروض أن تظهر فيه أبحاث للدكتور شكرى عياد وللدكتور عبد المحسن طـه وللقصاص المصرى ادوار الخراط وللقصاص والناقد الفلسطينى جبرا ابراهيم جبرا ولكنهم جميعا اعتذروا ، اما مبكرا فلم تدرج أبحاثهم فى برنامج المؤتمر ، وهذا سلوك حضارى ، واما فى اللحظة الأخيرة بعدما ظهرت أسماؤهم فى البرنامج الأخير للحلقة الدراسية

مثل ادوار الخراط ، وهذا سلوك غير حضارى ، لأن الذى يعتذر مبكرا يتيح لمنظمى المؤتمر توجيه الدعوة لغيره ، أما ذلك الذى يتخلف فى آخر لحظة بعد أن قبل الدعوة فانه لا يفسد فرصة المؤتمر فى تدارك الموقف ، ويترك المشاركين يتوقعون وصوله بقلق ، وانما يكشف سلوكه عن افتقار للمسئولية والتفكير العقلى ٠ لكن غيابهم أثر بلا شك على نصيب الاقصوصة والرواية من الاهتمام فى المؤتمر ٠ ومع هذا فبعد أن بدأ اليوم بمناقشة لبحث أدونيس المطروح فى نهاية اليوم الأول قدم الدكتور حليم بركات (لبنان) دراسة عن « الرواية العربيـة والتحول الاجتماعى » ٠ حاول فيها أن يبرهن على أن الروائى العربى يقدم استكناها نقديا للواقع الاجتماعى وليس مجرد انعكاس لمواضعات هذا الواقع ٠ وهو يبرهن على ذلك من خلال دراسة تمتزج فيها أفكار عالم الاجتماع باستقصاءات الفنان الروائى الذى مارس بنجاح العمل الذى يتحدث عنه ٠ فاذا كان الروائى رسول من رسل التحول الاجتماعى فان هذا قد انعكس فى الروايات فى عدة صور ٠ أو بالأحرى فى خمسة صور ٠ فهناك روايات اللامواجهة ، وروايات المطاوعة أو الاذعان ، وروايات الانكفاء على الذات والبحث عن الجذور ، وروايات التمرد أو الاحتجاج الفردى ، وأخيرا رو يات التغيير الثورى ٠ ويحلل حليم بركات فى كل قسم من هذه الأقسام الخمسـة بعض الروايات التى تكشف تفاصيل وملامح صـورة من صـور استكناه الفنان النقدى لواقعه الاجتماعى وموقفه منه ٠

بعـد ذلك قدم الأسـتاذ تريفور لوجاسيك (جامعـة ميتشجان) بالولايات المتحدة تحليلا نقديا لرواية نجيب محفوظ (الحب تحت المطر) ركز فيه على مسألتين أساسيتين : أولاهما هى تصوير الرواية لحالة القلق والاحباط التى عاشها المصريون بعد هزيمة يونيو ١٩٦٧ ، والثانية هى ضعف الرواية الفنى اذا ما قيست بروايات أخرى لنجيب محفوظ نفسه مثل (اللص والكلاب) أو (زقاق المدق) ، هذا الضعف الذى استمر بعد ذلك فى النمو والوضوح فى رواية (الكرنك) التى يصفها الباحث بأنها مجموعة مشاهد واسكتشات تدور فى مقهى يحمل اسم الرواية ٠ وأنها لا تعدو عن أن تكون رسالة سياسية وخطابيـة جيدة القصـد ، ولكنها ركيكة التنفيذ ٠ وجاء بعد ذلك دور بحث كاتب هذه السطور عن « التجديد فى القصة المصرية القصيرة » وقد تناول هذا البحث حركتين أساسيتين من حركات التجديد فى تاريخ الاقصوصة المصرية ٠ أولاهما هى حركة أواخر الأربعينات وأوائل الخمسينيات التى كانت جوابا على أزمة فنية وتعبيرية تعانى منها الاقصوصة المصرية فى هذا الوقت ٠ والثانية هى حركة جيل الستينات من كتاب الاقصوصة المصرية ، والتى كانت جوابا

على أزمة أخرى فنية وحضارية عانى منها الشكل الفنى ، وعانى من مواضعاتها هذا الجيل من الكتاب الذين جاهدوا ليعبروا عن الجوهر الحقيقى للحظة التى يصدرون عنها برغم الزيف والعقبات • وركز البحث على كل من الانجازات الفنية لهاتين الحركتين • وعلى طبيعة الرؤى الاجتماعية والحضارية التى طرحتها الأعمال الناضجة لكل من جيلى الأربعينات والستينيات فى هذا الميدان •

بعد ذلك قدم الدكتور حمدى السكوت (الجامعة الامريكية بالقاهرة) دراسة عن « نجيب محفوظ والقصة القصيرة » تناول فيها أعمال نجيب محفوظ فى القصة القصيرة بشكل سريع ركز على مرحلة الاقاصيص والحواريات التى كتبها نجيب محفوظ بعد النكسة ، محاولا أن يستخلص ما فيها من رؤى سياسية وان يفسر بعض ما بها من رموز ، ولمس بشكل خفيف بعض نواحى القصور الفنى فى هذه الأعمال ، وان أقر بأن معظمها جيدة البناء بشكل عام ، والحقيقة أن الباحث كان يحاول بشكل ضمنى ـ دون أن يصرح بذلك مباشرة ـ الرد على بحث لمناحم ميلسون الاسرائيلى على قصص نجيب محفوظ القصيرة عامة وقصة (وليد العناء) خاصة فسر فيه رموز هذه القصص السياسية من وجهة نظر اسرائيلية ولصالح الرؤية الصهيونية لقضية الصراع العربى الاسرائيلى بشكل عام • ليس فقط لأن الباحث تناول معظم الأقاصيص التى تعرض لها الباحث الصهيونى بالتلفيق ، ولا أقول بالتحليل ، ولكن أيضا لأنه حرص على طرح تفسيرات مغايرة لتلك الأقاصيص ، تكشف ضمنيا عما فى تفسيرات ميلسون من تلفيق • وكان ختام هذا اليوم هو بحث للأستاذ بنايوتى فاتيكيوتز (جامعة لندن) بعنوان « مقدمة عن السياسة والأدب الحديث » وهى مجموعة ملاحظات عن أهمية العناصر السياسية والاجتماعية فى دراسة الأدب العربى الحديث ، وعن مسالة تناول الأعمال الأدبية باعتبارها وثيقة سياسية فى مجتمع توشك فيه قنوات التعبير السياسى اما أن تكون مغلقة نهائيا أو واحدة النغمة ومعها ملاحظات أخرى عن التاثيرات الأجنبية فى الأدب العربى ، وعن غياب السيرة الذاتية أو السيرة بشكل عام ذات المستوى الأدبى ودلالات ذلك •

واذا كان اليوم الأول قد انتهى بعاصفة أثارتها دراسة أدونيس ، فان لويس عوض حاول هو الآخر أثارة عاصفة أخرى فى اليوم الثانى ، وانى أن يسرق أدونيس أضواء المهرجان وحده • واذا كان أدونيس قد أثار عاصفته بجدة الرؤى التى طرحها • وباختلاف الاجتهاد الذى قدمه ، فان لويس عوض آثر أن يثير زوبعته أثناء المناقشات ومن خلال هجوم مركز على نجيب محفوظ • فقد أثاره أن هناك بحثين كاملين عنه ، وأنه

قد ذكر فى بحثين آخرين ، وأراد أن يلفت النظر الى أن هذه الظاهرة مرضية ! فكيف يذكر نجيب محفوظ فى بحثين ويخصص بحثان آخران عنه ؟ ولقد سأل أحد الباحثين أثناء هذه العاصفة : هل تستطيع أن تفسر لى لماذا لم يسجن نجيب محفوظ اذا كان فى صف المعارضة ؟ وحاول أن يبرهن على أنه لم يكن معارضا ولم يكن فنانا . والغريب أن اندفاع لويس عوض فى الهجوم على نجيب محفوظ خارج مصر ، والثناء عليه داخلها من الأمور المريبة التى زادها ريبة احراجه لكاتب هذه السطور بأسئلة ذات طابع استفزازى ، بل وبوليسى ، حينما حاول التصدى للدفاع عن نجيب محفوظ أثناء المناقشات . فقد نشر الدكتور محمد يوسف نجم بمجلة (الآداب قبل عامين نص المحاضرة التى ألقاها لويس عوض فى الولايات المتحدة ، وشن فيها هجوما مشابها على نجيب محفوظ. وليس لدى أى اعتراض على أن يشن باحث هجوما على كاتب ما لأسباب موضوعية ، أو حتى لمجرد الغيرة مما حققه هذا الكاتب من احترام أو شهرة ، ولكن الاعتراض كل الاعتراض على أن يكون لناقد مصرى رأى للاستهلاك المحلى . وآخر للاستهلاك الأجنبى ، فالكيل بمكيالين أمر غير أخلاقى وغير نقدى على السواء .

يبقى بعد ذلك اليوم الثالث والأخير ، وقد كان مخصصا للمسرح . وقد كان هذا اليوم أيضا ضحية لبعض الاعتذارات ، ولغياب بعض من وعدوا بالحضور وأرسلوا عناوين أبحاثهم مثل صلاح عبد الصبور ولكنه لم يحضر . المهم أنه لم يقدم فى هذا اليوم سوى أربعة أبحاث كان أهمها وأكثرها عمقا وأدقها بصيرة هو بحث الدكتور على الراعى . ولكن لنبدأ الحديث عن هذه الأبحاث الأربعة بنفس ترتيب تقديمها بالحقيقة الدراسية. فقد كان البحث الأول عن « اللغة العربية الأدبية على خشبة المسرح » للأستاذ ج . ستيتكيفتش (جامعة شيكاغو) . وللأسف الشديد فقد فاتنى الاستماع لهذا البحث ولذلك لا استطيع عرضه هنا . تلاه بحث للدكتور لويس عوض (مصر / صحيفة الأهرام) بعنوان « مشكلات المسرح المصرى اليوم » وهو بحث ألقاه فى أمريكا قبل عامين ونشر فى مجلة (الآداب) فى أواخر عام ١٩٧٢ . وينتمى هذا البحث الى سلسلة المسوح الصحفية التى اعتاد الكاتب أن يطلع علينا بها كل حين من الزمن فى صحيفة (الأهرام) عما دار فى موسم أو موسمين من مواسم المسرح المصرى . ولكن الفارق بين ما قدمه هنا وبين مسوحه الصحفية ، أنه حاول الخروج منه ببعض التعميمات . وأهمها أن كل كتاب المسرح المصرى تقريبا ، باستثناء ألفريد فرج ، امتداد لمدرسة الريحانى فى التهريج الاجتماعى .

وان مسرح ما بعد النكسة كان مسرح تبرير للزعيم · مع بعض الفذلكات عن العاميــة فى الحوار المسرحى ، وعن سطوة الرقابــة ، وهجوم ، على الماشى ، على الأدباء الشبان ·· الخ ·

بعد ذلك قدم الدكتور على الراعى (مصر / جامعة الكويت) بحثا بعنوان « بعض قضايا المسرح العربى الحديث » تناول فيه مسألة بحث المسرح العربى عن هوية باعتبارهــا القضيــة الكبرى التى تصب فيها أو تتفرع عنها الكثير من قضايا المسرح العربى ومشكلاتــه مثل قضيــة التراث ، وقضية العلاقة بين المسرح والجمهور ، وقضية البحث عن جذور للمسرح العــربى سواء فى التراث الشفهى أو المكتوب ، أو فى المسرح الشعبى والمرتجل الذى يعرف العالــم العربى صورا مختلفــة منه · مع مناقشة جادة لمحاولات كل من توفيق الحكيم على الصعيد النظرى ، ويوسف ادريس على الصعيدين النظرى والتطبيقى ، ثم المحاولات التطبيقية لكل من محمود ديـاب ونجيب سرور والطيب الصــديقى وسعد الله ونوس وغيرهم · وعلى عكس تعميمــات لويس عــوض الغريبة عند الحديث عن اتجاهات المسرح أو مشكلاته تميز بحث على الراعى بالدقة العلمية والتدعيم التطبيقى لكل ما يطلقه من أحكام ، أو ما يتوصل اليه من نتائج ، والعمق والترابط فى التحليل ، مع الجدية فى لمس القضايا الجوهرية بحق فى المسرح العربى اليوم ·

بعــد ذلك يجىء دور آخر أبحاث المؤتمر وهو بحث الكاتب المسرحى التونسى عز الدين المدنى « المسرح فى شمال أفريقيا » · ويبدو أن الباحث أحس بأن المسألة الأساسية بالنسبة لموضوعه هى افتقاد القارىء أو المتابع الخارجى للمعلومات عن تطور المسرح فى هذه المنطقة وتاريخــه فيها · فركز فى بحثه على المعلومات التاريخية ، وقدم تقريرا مفصــلا عن واقع المسرح التونسى من مختلف نواحيه الآدبية والتنفيذية وحتى الاقتصادية أيضــا ، وفى بحث من هذا النوع فان المجــال يكون مقصورا على تقــديم المعلومات والحقائق التاريخية والمعاصرة معا ، ولا يتيــح هذا الفرصــة الا لأقل قدر من التقييم أو التحليل النقديين سواء للنصوص أو للظواهر والقضايا المسرحية · فقد سيطرت على البحث النزعة الوصفية ، وافتقر كلية الى محاولة للوصول لتقسيمات معيارية · وفى ختام هذا اليوم القى البروفسور توم جونستون رئيس دائرة الأدب العربى بجامعة لندن الكلمة الختامية التى أكد فيها على اهمية اللقاء بين هذه العناصر الثلاثــة التى جمعها المؤتمر : المبدع العربى ، والناقــد العربى ، والبــاحث الأجنبى ، وما برهن عليه المؤتمر من خصوبة هذه اللقاءات وعمق الفائدة التى تنجم عنه · مؤكدا أن نجاح المؤتمر يعود الى القيمة العلمية العالية لمعظم البحوث

التى قدمت فيه ، والى جدية المناقشات التى دارت حول معظم هذه البحوث وعمقها ، والتى أثارت العديد من القضايا الهامة ، والمسائل الكاشفة عن مشاغل الكتاب والنقاد العرب على السواء .

بعد هذا العرض لما دار فى المؤتمر لابد من بعض التعليق ، ومن البداية أحب أن أشير الى أن جدية معظم الدراسات التى قدمت للمؤتمر وعمقهـا ، وارتفـاع مستوى المناقشات وتخصصهـا ، كانا من العوامل الأساسية لنجاح هذا المؤتمر . ويكتسب هذا النجاح أهميته الفائقة ليس فقط لآن هذا هو المؤتمر الأول فى هذا المجال ، ولكن أيضا لأن نجاح هذا المؤتمر بادرة مشجعة على مواصلة الحوار وعلى مزيد من الحلقات الدراسية والمؤتمرات فى نفس الموضوع . لأن هذا النجاح قد يغرى بعض المراكز العلمية الأخرى بتكرار التجربة ، فلابد من تسجيل بعض الملاحظات التى يمكن أن تجعل أى محاولة لتكرار التجربة أكثر اكتمالا وأشمل نفعا ، كان المؤتمر مغلقا الى حد كبير ، وكان الهدف من ذلك هو الارتفاع بمستوى المناقشات ، وتجنب اللغط ومماحكات أنصاف المتخصصين . لكنه كان لابد أن يفتح لعدد أكبر من الطلبة على الأخص ، لأن مثل هذه المؤتمرات ربما تغرى بعضهم بمواصلة عملهم فى الميدان ، وربما تلهم البعض الآخر بعض القضايا والظواهر التى يجدر بهم بحثها . والأهم من ذلك فى اعتقادى هو ضرورة فتح المؤتمر لبعض المراقبين من الكتاب والشعراء الانجليز ، ليس فقط لأن المؤتمر قد يكشف لهم عن بعض ملامح وقضايا ثقافية غائبة عنهم ولا يعرف معظمهم عنها الكثير ، ولكن أيضا لأنهم قد يطرحون بعض القضايا والملاحظات الجمالية أو التى تتعلق بقضايا الابداع عامة . ولأن وجودهم سيكمل أركان العناصر الثلاثة التى جمعها المؤتمر بعنصر رابع هو المبدع والفنان الأجنبى . يخلق نوعا من التفاعل بين المبدع والناقد العربى والأديب والناقد الأجنبى . فكثير من الكتاب العرب كان يسعدهم الاجتماع بنظائرهم من الكتاب الانجليز . حتى يقيموا جسورا من الحوار الخلاق ، وربما من الصداقات الثقافية التى يكون لها أثر يمتد بعد انتهاء المؤتمر . بقيت ملاحظة أخيرة وهى ان ازدحام المؤتمر بالأبحاث ، وعدم وصول البحوث للمؤتمر قبل موعد انعقاده بوقت كاف لطبعها وتوزيعها على المؤتمرين لدراستها والتعليق عليها ، أدى الى ضرورة قراءة الأبحاث فى قاعة المؤتمر ، وبالتالى تقلص الوقت المتاح لمناقشتها . ولو اتسع وقت المناقشات بصورة أكبر ، لعاد هذا بأفضل الثمرات على المؤتمر والجمهور والمؤتمرين فى آن .

لندن   اغسطس ١٩٧٤

● السفر السادس

تأملات وسياحات في ربوع الأندلس

هل تستطيع الكلمات أن تختصر عالما كاملا من الرؤى والاحاسيس ، وأن تحتضن حروفها الصغيرة التواريخ القديمة والآثار الدارسة وقد دبت فيها الحياة تحت وقع العين العربية التى تترقرق فى مآقيها الأمجاد والذكريات . فينهض الماضى وقد امتزج بالحاضر بصورة تكشف لنا ابعادا جديدة فى هذا الماضى وتزيدنا فهما للحاضر . وتنطق النقوش العربية والأبنية العربية والآثار العربية بسر عظمة المرحلة العربية فى تاريخ الأندلس . وبأسرار انهيار الدولة العربية فى اسبانيا بعد أن دبت فى أوصالها أمراض التجزئة وشرور التناحر بين أجزاء الوطن الواحد ؟ كيف يمكن للكلمات أن تنقل للأوراق ما قالته الأحجار والأبراج الشامخة والقصور المهيبة والنقوش وقد كان حديثها دفقة من الرؤى والاحاسيس؟ وحتى لو استطاعت الكلمات أن تنقل بعض هذه الرؤى والانفعالات ، فهل نستطيع أن نعى أبعاد حديثها ، وقد بلدت التجزئة وعهود التناحر الطويلة الحس العربى ؟ وأصمت الكثير من الآذان العربية فلم تعد تسمع الا أحاديث التآمر ووساوس المساومات والصفقات المريبة ، على الأرض العربية ، والكرامة العربية ، والتواريخ العربية ؟

لم أدخل بلدا أوروبيا ، على كثرة سفرى بين بلدان أوروبا ، وأنا ممتلىء بالمواجد والشجون كما دخلت أسبانيا . مواجد وشجون قديمة ، تمتزج فيها أندلس الأمجاد العربية والحضارة العربية ، باسبانيا لوركا ذات الأقمار الباردة المذبوحة والحريات المهدرة والحرس المدنى . ومواجد وشجون حديثة تختلط فيها وقائع المشهد العربى الراهن بما فيه من مؤامرات بشعة تستهدف قوى الرفض والثورة والمقاومة فيه ، وتبتغى تصفية القضية الفلسطينية والقضية العربية باحداث ملوك الطوائف ، وصراعات مرحلة التحلل والسقوط فى الأندلس . بكل هذه الشجون القديمة والحديثة رأيت أسبانيا وشهدت مدن الأندلس العديدة . لايهتز القلب لجمال الآثار دون أن يتوجع فى نفس الوقت وهو يرى ما آلت اليه الأمة العربية العظيمة فى حاضرها الراهن . لا تنبهر العين بعظمة العمارة ورقة النقوش العربية القديمة ، وجمال الأقبية والأقواس والعقود

والمقرنصات دون أن تقارن هذا الجمال الفنى الملىء بالمهابة والشموخ بمبانينا القميئة وعماراتنا الحديثة وقد ملأت وجه المدن العربية اليوم بخليط هجين من القبح المعمارى والطرز الغربية الغريبة والدميمة. ولايتأمل العقل قدرة الطراز العربى والتقاليد والأعراف العربية فى البناء والسلوك والعادات على الاستمرار فى هذا البلد برغم حروب الابادة وحملات اقتلاع كل ما هو عربى عقب سقوط الأندلس ، دون أن تنتابه الحسرة على تدهور الطرز والتقاليد والأعراف العربية فى واقعنا العربى المعاصر وقد عجزنا عن اعادة اكتشاف ما ضينا وتراثنا وثقافتنا من منظور حضارى وفكرى تقدمى ، وتركنا عتاة الرجعيين يتاجرون بتراثنا ويطمسون الأعمال المشرقة فيه ويحيلونه ــ بحجة انهم سدنة هذا التراث وحراسه ــ الى واقع متخلف جامد لا علاقة له بالحاضر ولا قدرة له على الاستمرار . دون هذا التشابك المستمر بين الماضى والحاضر ، ورؤية أحدهما وقد انعكست صورته على مرايا الآخر ، لكانت زيارتى لأسبانيا مجرد سياحة عادية كغيرها من سياحاتى فى بقية بلدان أوروبا ، لا تهم القارىء كثيرا ، ولا تضيف لمعرفته بحاضره وتاريخه شيئا يذكر .

ومن البداية فان ما يراه الانسان من أى بلد غريب عليه هو فى أحسن الأحوال مزيج من واقع هذا البلد ، ومن تصوراته هو عنه ، ومما اختزنه فى ذاكرته من معارف وأحاسيس . كل هذا يمر عبر ثقافة المشاهد وحضارته . بمعنى أن ما يراه العربى فى أسبانيا يختلف جذريا عما يراه الانجليزى أو الفرنسى فيها . حتى لو رحل الثلاثة معا وشاهدوا كل شىء معا . لاننا نرى الثقافات الأخرى والآثار الأخرى والبلدان الأخرى خلال « مرشح » من ثقافتنا نحن ، يقوم بعملية ترشيح المشهد وتمريره الى المشاهد خلال ثقوب ترسبات معارفه ، وطبقات تيارات تواريخه التحتية ، وتنقيته من شوائبه عبر المادة الثقافية التى ينتمى اليها المشاهد بالمعنى الانثروبولوجى الواسع لكلمة الثقافة ، والذى تصبح فيه الثقافة بالمعنى الأدبى مجرد جزء صغير من مكونات الثقافة بمعناها الاجتماعى الشامل . لذلك ما أن هبطت فى مدريد حتى أخذت أحاسيس بخيبة الأمل تتسرب الى نفسى بمرور الأيام القليلة الأولى التى عشتها فى هذه المدينة .

صحيح اننى تلمست تحت قشرة الحياة الهادئة التى لا تختلف فى مظهرها الخارجى عن الحياة فى آية مدينة أوروبية كبيرة ملامح النظام الذى أهدر الديمقراطية الأسبانية واغتال لوركا بكل ما يمثله هذا الشاعر فى الضمير الانسانى من رؤى وقيم . وأن العالم الليلى للشعب المدريدى فى الأحياء الشعبية والفقيرة يكشف عن وجه فريد لهذا الشعب الذى روضته سنوات طويلة من الخوف والكبت وانتشار رجال البوليس والحرس

المدنى كالهواء فى كل موقع • لكنهم ما أن يأكلوا قليلا ، ويشربوا بضعة كؤوس من النبيـــذ الأسبانى الرخيص حتى ينفجروا فى محــاولة عنيفة للتواصل • محاولة فيها احتجاج خاص على المخاوف التى حرمت الكثير منهم من التواصل مع بعضهم بالكلمات ، بعــد أن سقطت بينهم حواجز الخوف الثقيلة • فاذا هم يعبرون عن هذا التوق الشديد للتواصل من خـلال الرقص • رقص الفلامنكو بايقاعاته الحادة وحركاتــه الرشيقــة العصبية المتوترة معا • والتى يتحول معظم من فى المشرب مع ايقاعاتها الى كيان واحد • يصفق فيه البعض تصفيقا ايقاعيا خاصا • ويوقع البعض النغمات بالسيقان والأقدام ، ويرقص الآخرون • لكن فى رقصة الفلامنكو نوع من التوحد الذى تقام فيه طقوس الجسد فى حواره المتوتر مع الآخر عن بعد • وفى اعتزازه بذاته • وكأن حلبــة الرقص ليست الا ساحــة لتأسيس ذكورة الذكر وأنوثة الأنثى ، لا فى تداخلهما معا • كما فى كثير من أشكال الرقص الغربى أو الأفريقى ، ولكن فى استقلال كل منهما عن الآخر ، وفى ادارة حوار معه من خلال شفرة حركية بالغة الثراء والتعقيد •

وصحيح أيضــا أننى أمضيت يومين رائعــين فى متحف « البرادو Prado » بكنوزه الفنية من اللوحات التى تضعه فى مقدمة متاحف الرسم فى العالم حيث تفوق مجموعته كما وكيفــا مجموعــة « اللوفر » الباريسى من اللوحات ، بالرغم من حداثته النسبية بالمقارنة باللوفر العريق• فقد أنشىء « البرادو » عام ١٨١٨ بينما يرجــع تأسيس « اللوفر » الى عام ١١٩٠ • لكن سر غنى هذا المتحف الكبير يعود الى أنه استوعب حال انشائه المجموعة الثرية التى جمعتها أسرتا ملوك الهابسبورج والبوربون اللتان حكمتا اسبانيا لثــلاثة قرون • اذ كان ملوك هاتين الأسرتين من أكرم رعاة الفنون فى أوروبا ، ومن أرفعهم ذوقا وقدرة على التمييز لذلك يضم المتحف مجموعة من أرقى مجموعــات الرسم الأوروبى الكلاسيكى عــددا ونوعيــة • فهو أغنى متاحف العالــم بالنسبــة لأعمــال تيتيــان هيرونيموس بوش وروبنز وباتينييه وفان دايك وتينتوريتو وبروجل ، فضلا عن كل الأعمال الهامة لكبار رسامى أسبانيــا على مر العصور من فلاسكويز الى الجريكو وجويا • فمجموعة البرادو من أعمــال جويا مثلا هى أكمل هذه المجموعات التى تقدم للمشاهد كل مراحل تطور هذا الرسام الكبير ، وكل التغيرات التى طرأت على أدواته ورؤاه ، كما أنه يضم كل الأعمال الهامة لفلاسكويز والجريكو الى الحد الذى تمتد فيه مجموعة كل منهما على مدى حجرات وأبهاء عديدة •

وبالرغــم من ثراء هذا المتحف الرهيب ، والذى استحالت بعض قاعاته الى مخازن تزدحم حوائطها باللوحات ، ظلت خيبة الأمل تمور فى

نفسي ، وتنوش أطراف صورة أسبانيا التى عاشت فى القلب والعقل منذ سنوات وسنوات ، والتي كانت رحلتى اليها محاولة لاعطاء هذه الصورة بعدا مجسدا لها . ظلت خيبة الأمل هناك برغم الدم العربي والملامح العربية التى لا تزال أطيافها تتبدى في الوجوه التى تلتقى بها فى الطريق أو تتعامل معها أني ذهبت . وعزمت على أن أترك مدريد وأسافر الى الجنوب ، علنى أجد ما أبحث عنه ، أو ما تراودنى صورة أسبانيا فى القلب للعثور عليه ، حيث الأندلس الحقيقية هناك بعيدا عن المدن الكبيرة والمزدحمة . هناك في القرى والمدن الصغيرة التى تحتفظ بالروح والتقاليد ، وتعتقها فى عالمها الذى لايقتحمه الأغراب ، ولا يزعج ايقاع الحياة فيه الفضوليون . حيث تجد الروح الحقيقية للشعب عارية لم تدربها حياة المدينة على ارتداء الأقنعة . وحجزت تذكرة القطار الى غرناطة . وسافرت فى عربة النوم ، حتى استيقظت في الصباح فوجدت نفسى فى المدينة التى احتفظت باروع آثار العرب فى أسبانيا . وهى نفسها المدينة التى عاش فيها لوركا والتى شهدت مصرعه الدامي من أجل الحرية . وفى يومى الأخير فى مدريد عشت يوما جميلا فى متحف حضارة أمريكا اللاتينية ، بكنوزه الفنية التى تكشف لنا عما فى حضارات تلك القارة من ثراء . لم يؤرقه الا الاحساس بأن كل هذه الكنوز ليست فى حقيقة الأمر الا منهوبات المرحلة الاستعمارية من هذا الجزء البعيد من العالم . وأننا وحضارات أمريكا اللاتينية فى هذا الأمر سيان .

فما زرت متحفا أوروبيا كبيرا . الا ووجدته مليئا بمنهوبات تلك المرحلة من كنوزنا العربية من مصر الفرعونية حتى بابل وسومر وفينيقيا وآشور . فاذا كانت انجلترا قد نهبت أعظم كنوز الحضارتين المصرية القديمة والعراقية القديمة ـ بابلية وأشورية ـ وأخذت فرنسا هى الأخرى جانبا كبيرا من هذه الكنوز . وهذا ما يعطى « المتحف البريطانى » فى لندن و « اللوفر » فى باريس قيمتهما الكبيرة ، فان أسبانيا التى استأثرت فى عصر الفتوحات الاستعمارية بأمريكا اللاتينية قد نهبت هى الأخرى كنوز الأمريكيتين . والواقع أن حضارة أمريكا اللاتينية القديمة تختلف كثيرا عن الحضارات القديمة التى عرفتها منطقتنا العربية ـ من فرعونية وسومرية وفينيقية..الخ كما أن القارىء العربى لايعرف الكثير عن هذه الحضارة الانسانية العظيمة . ولا يعرف حتى الكثير عن الواقع الثقافي المعاصر لهذه المنطقة من العالم والتى تحتل آدابها وثقافتها الراهنة مكانة هامة فى لوحة الأدب العالمى اليوم . واذا كان هذا ليس مجال الحديث عن قضايا الثقافة فى أمريكا اللاتينية ، فان الصورة التى يقدمها متحف أمريكا اللاتينية عن حضارة هذه المنطقة قد تلقى بعض الضوء على حاضر هذه المنطقة ، وقد تكون مدخلا لمعرفتنا فيما بعد بثقافتها وآدابها .

فاذا كانت حضارة مصر هي حضارة الحجر ، وحضارة العراق هي حضارة الطين ، فان حضارة أمريكا اللاتينية هي حضارة الطبيعة • بمعنى أن مادتها الأولى هي الأشياء الجميلة في الطبيعة • من ريش وخوص وودع واصداف وخشب وعظام وحبوب وجلود الحيوان وغير ذلك مما تتيحه الطبيعة من مواد أولية بسيطة وجميلة صنعت منها أدوات وآثار انسانية رائعة الجمال • فالى جانب العقود والملابس المصنوعة من ريش الطيور الملونة المبرقشة بازهى الألوان ، هناك التعاويذ والتمائم وبيوت القش والبوص والقوارب المنحوتة في جذوع الأشجار والمزخرفة بنقوش ورسوم عديدة استعملت فيها الأصداف والألوان الساطعة • وهناك الأقنعة التى استخدم فى صنعها الريش والخوص والخطوط الدقيقة والألوان الزاهية• والتماثيل المليئة بالنقوش الغنية بالألوان والتصاميم المنحوتة فى الخشب بصبر ودأب يشهدان على مقدرة ومعرفة فنية خصبة • وهناك الى جانب هذا كلـــه الكثير من الرسوم التى تنهض على احساس قوى بالمساحـة والعلاقات التشكيلية بين الكتلة والفراغ ، وبين اللون والضوء والظلال ، والتى تقترب كثيرا من المفهوم التجريدى والشعبى معـا • ناهيـك عن القبعات الزاهيـة الألوان الجميلـة النقش ، وعن التماثيل التجريديـة البسيطة التى يقترب بعضها من روح النحت الحديث •

كان التعرف على حضارة أمريكا اللاتينية فى آخر أيامى بمدريـد أفضل مدخل أدلف من خلاله الى آثار حضارتنا فى الأندلس • ليس فقط لأنه نبه أحاسيسى الى أبعاد جديدة لما فى الطبيعة من جمال وكأنه كان الحركة التمهيدية الأولى فى المعزوفة التى ستستمر بقية حركاتها الأخرى طوال رحلتى فى ربوع الأندلس ، ولكن أيضا لأن الدخول تحت جلد أى حضارة انسانية وارهاف السمع الى حوار آثارها ، وهمسات جمالها ، يرهف احساسك بما فى بقية الحضارات من تنوع وتفرد • غير أن أهم ما يجعل زيارتى لمتحف حضارة أمريكا اللاتينية مدخلا ملائما لاستكشاف آثار حضارتنا العربية فى الأندلس هو المفارقة التى أثارتها هذه الزيارة • المفارقة بين فتح أسبانيا الاستعمارى لأمريكا اللاتينية وانتهابها للكنوز الحضارية لشعوب تلك المنطقة ، وبين مجىء العرب الى أسبانيا ينشرون فكرا ودينا وحضارة ويتركون وراءهم آثارا رائعة • المفارقة بين من يهدم ومن يبنى • بين من جاء ليأخذ ومن جاء ليعطى • بين صاحب العمل وصاحب الرســـالة •

وفى أمسية هذا اليوم الذى زرت فيه متحف الحضارة الأمريكيـة القديمة ركبت القطار من مدريد لأصل الى غرناطـة فى الصباح • وقـد وصلت غرناطة والمدينة تصحو من نومها • تنفض عن نفسها كسل الليل

وتدب في أوصالها بالتدريج حيوية الصباح • وكان أول مالفت نظري في غرناطة أن وجوه الناس بها أليفة ، وجوه عربية تنحدر في شوارع المدينة وطرقاتها ، خارجة من بيوت عربية الطراز لا تزال النقوش العربية والحروف العربية تزين بعض واجهاتها ، ولا تزال الشناشيل «المشربيات» تطل عليك من واجهات بعض البيوت القديمة فيها ، بصورة شعرت معها بأن الليلة التي قضيتها في القطار من مدريد الى غرناطة لم تكن ليلة واحدة وانما فاصلا زمنيا وحضاريا انتقلت معه الى عالم يوشك أن يكون قطعة من عالمنا العربي ، لولا اختلاف الرطانة وتباين ايقاع الحياة • دخلت الى المدينة والناس يخرجون الى أعمالهم متعجلين تارة ، متكاسلين أخرى ، يدلف بعضهم الى المقاهي أو مشارب الشاي والقهوة التي تشرب فيها قهوتك واقفا ، وقد اشترى بعضهم شطائر الصباح الساخنة والزيت لا يزال ينضح منها على الورق الذى لفت به ، أو بعض أصابع الحلوى الاسفنجية الطويلة التي تذكرك « ببلح الشام » وان كانت أطول قليلا وأكثر اسفنجية ، وربما كان هذا الاختلاف البسيط هو اختلاف « بلح غرناطة » عن « بلح الشام » • يجيئون بهذه الشطائر أو أصابع الحلوى تلك ويطلبون شايا أو حليبا يغمسونها فيه ، ويفطرون قبل أن يذهبوا الى أعمالهم • وبعد أن عثرت على فندق وضعت فيه حقيبتي ، ونفضت عن نفسي بعض عناء السفر ، ووعثاء الرحيل توجهت في العاشرة صباحا الى الحمراء • صعدت اليها عبر مماشي وطرقات تأخذك من السفح الذى تربض عنده غرناطة المدينة ، حتى قمة التلال والهضاب التي بنيت فوقها الحمراء في بدايات القرن الثالث عشر الميلادى •

أى عالم رائع هذا ! • انها بحق احدى عجائب الدنيا السبع • من العاشرة صباحا حتى الخامسة مساء وأنا مفتون مدوخ بهذه الجرعة الضخمة من الجمال • جمال الطبيعة الوحشي وقد امتدت اليه لمسة فنان قدير فروضته ، دون أن يفقده الترويض شيئا من جماله ، بل زاده تألقا وروعة • انني لا أحب الحيوانات المروضة والكائنات المستأنسة ، ولكني لأول مرة أحس أن تدخل الانسان وابداعه الذى يساوى ، وربما يفوق ، ابداع الطبيعة الوحشي ، يقدم نوعا جديدا من الترويض ، هو بالأحرى اكتشاف لايقاع هذا الجمال ، واللعب برهافة مقتدرة بتنويعات هذا الايقاع • كم رأيت المياه وهي تتسرب في قنوات صغيرة طبيعية لم تشيدها يد انسان ، ولكن نفثت فيها الطبيعة سحرا وعذوبة • أو وهي تسقط من مهاوى عالية وتنحدر من فوق تلال منخفضة ، أو تتمهل في أخدود ضحل • شاهدت هذا في جبال اسكتلندا ، وفي منطقة البحيرات بانجلترا ، وفي بعض غابات المانيا ، لهذه المياه جمال خاص وهي تتسرب بين الخضرة وتنويعات الطبيعة نعم •

ولكن أن تسيطر يد فنان على هذه الظاهرة الطبيعية ،تكتشف ايقاعها أو قانونها ، لا تحرمها كلية من حريتها وانما تحولها الى برك ونوافير وفسقيات وقنوات ومساقط على مستويات متعددة • نوافير لا يدفع المياه فيها محرك أو قوة ضغط ، وإنما تندفع فيها المياه بقوة السيطرة على مستويات المكان المتعددة وحدها ، أن تتدخل يد الفنان العربى وتسيطر على هذه الظاهرة الطبيعية وتخلق منها عالما كاملا من شبكة مائية بعضها قنوات وبعضها الآخر أنابيب وأحواض ، فهذا شيء آخر • لأنه لا يضفى على هذا الجمال الطبيعى جمالا جديدا فحسب • ولكنه وقد اكتشف سر ايقاع هذا الجمال الذى يبهج العين بعدا جديدا يبهج الأذن حتى تزداد المتعة الحسية بهذا الجمال تغلغلا فى الوجدان • اذ جعل الفنان العربى الطبيعة تعزف لحنا فريدا يصاحبك أثناء تجوالك فى عالم الحمراء الساحر ، لحنا مصاغا من كل التنويعات الواهنة والعالية لخرير الماء الذى تسمعه مرة خافتا كالهمس وكأنه يشير الى أنك اقتربت من مدخل القصر ، وأخرى عاليا كالبلبطة وكأنه يستحثك على القفز جزلا بين مماشى الحديقة الرائعة الجمال ، وثالثة مرتفعا كهدير الماء عندما تقترب من أسوار الحمراء وكأنها تدفع الفضوليين عنها ، أو تحمى سكانها من أصوات المدينة النائمة تحت التلال ، ورابعة مزغردا فى النوافير والفسقيات العديدة ينشر البهجة فى حياة سكان هذا الفردوس الساحر •

على صوت موسيقى الماء المصحوبة بزقزقات الطيور تدلف الى أبنية الحمراء بنقوشها العربية الباذخة فتتيقظ فى داخلك تواريخ بنى نصر وأبى الحجاج بن يوسف ومحمد بن الأحمر ، بل وتعود بك الذاكرة الى عبد الرحمن الداخل بل والى طارق بن زياد وطريف من قبله • وتمتزج التواريخ العربية فى ذهنك بقضية أخرى تطرحها الحمراء على من يشاهدها من منظور حضارى وثقافى الى جانب المنظور التاريخى• قضية بدايات الروح الرومانسى الذى يؤرخ لبداياتها الأوروبية فحسب فى قرون لاحقة لبناء الحمراء ، وحديقته الرائعة وجنة العريف الملحقة به • ذلك لان فهم دولة بنى نصر للحديقة يوشك أن يكون هو المفهوم الرومانسى لها • أو بالأحرى المفهوم الذى سيطر على الفكر الرومانسى الأوروبى ، وصاغ جزءا كبيرا من جوهره متبلورا فى الكتابة النظرية عن فكرة سمو الجمال الطبيعى ، وفي الواقع العملى لفكرة الحديقة فى القرنين الماضيين فى أوروبا • فالاهتمام المفرط بمسالة جمال الطبيعة يطرح عليك سؤالا : هل كان العرب فى غرناطة هم الأصل بالنسبة لجوهر الرؤية الرومانسية ، ثم بنى الغرب رومانسيته فى الفلسفة والأدب بعدهم بستة قرون ؟ سؤال لا نملك الاجابة عليه فى هذه التأملات ، بأكثر من أن الواقع العلمى يقول

ان المسالة فى أصولها الملموسة تقول ان قصر الحمراء هو أول تجسيد لهذه الروح الشغوفة بجمال الطبيعة المرهفة الحس بتفاصيلها المتجسدة فى بنية الحديقة ومكانتها فى الفضاء الأوروبى • فلا حديقة قصر فرساى بفرنسا ، ولا حدائق التويليرى الباريسية ، ولا حديقة قصر بلينهام الانجليزى ، أو منتزه قلعة هاتفيلد ، أو حديقة قصر هامبتون ، بشىء اذا ما قورنت بالجنة ، اسما وواقعا ، الملحقة بقصر الحمراء ، أو بحدائق القصر ذاتها • أعنى « جنة العريف » والتى لايزال اسمها الأسبانى يحمل بين حروفه الاسم العربى •

وليس من هدف التأملات تقديم وصف معمارى أو تحليل فنى لنقوش قصر الحمراء وأبنيته التى استطاع جمالها الآسر أن يخترق حجب القرون برغم شفافية البناء ورقة الدعائم وهشاشة السقوف ، لأن هذا يحتاج الى كتاب كامل مدعم بعشرات الصور والرسوم • ولأنها تعرف أن الكلمات اذا ما حاولت أن تصف روعة النقوش الباذخة ، وجمال الأبهاء والافنية والباحات والأعمدة ، ستتحول اما الى جمجات شعرية وصوفية مرفرفة • أو الى وصف علمى وهندسى بارد • ولأنها ستجعل بعض صور هذا الأثر العربى العظيم ، وأحد أعاجيب الدنيا السبع تنتقل الى القارىء بعضا من جمال هذا القصر الذى لا تغنى عن رؤيته الصورة أو الكلمات • لذلك ستواصل هذه التأملات استقصاءاتها لبعض الجوانب والقضايا الانسانية التى يطرحها هذا الأثر العربى الكبير • استقصاءات قد تطرح من التساؤلات أكثر مما تقدم من الاجابات • ولكنها قد تفتح بابا للتعرف على صفحة من صفحات العزة العربية والفخار العربى •

فمع أن الحمراء تعتبر قصرا وقلعة منيعة الحصون فى نفس الوقت، فانها تشير مشاهدها أنها بنيت للاستمتاع بالحياة ، ولاعلاء شأن الجمال ، جمال الطبيعة وجمال الفن معا • ذلك لانه حتى الخنادق والحصون تحولت فى الحمراء الى أشياء جميلة لا تذكر بالحرب على الاطلاق ، وكأنها مجرد دروع جميلة لوقاية هذا الكنز الجمالى من جحافل البرابرة أو الأغبياء الذين قد تسول لهم أنفسهم تشويه هذا الصرح الجمالى ، فهل ثمة علاقة بين تقدير دولة بنى نصر للفن والجمال ، وبين الحقيقة القائلة أن دولتهم كانت آخر دولة تسقط فى الأندلس ؟ ومع اننى لا أطمح فى تقديم اجابة على هذا السؤال ، فانه لاشك أن هناك رابطة بين الاثنين • اذ لا يمكن لمن يقدرون الفن والجمال بهذه الصورة • ويقدسون الحيلة ويحتفون بلذاذاتها ومتعها الحسية (وما تصميم قصر الأختين بأحواشه المبهجة ذات الحدائق والعرائش والمماشى الظليلة ، أو حمام القصر بمرمره المضاد للحرارة والذى تجرى من تحته المياه الساخنة،

وتدخل اليه من فتحات السقف سحب البخار ، بينما يعزف الموسيقيون في الدور العلوى لحجرة التدليك مقطوعاتهم أثناء التدليك الذى يعقب الحمـــام ، الا شهادة على هذا الاحتفـاء باللذاذات الحسية) الا أن يكونوا ذوى بصيرة فكرية وسياسية مرهفة ٠

هل استطاع أحد أن يدين هؤلاء الحمقى الذين شوهوا ويشوهون بعض ملامح هذا الجمال المدهش ، فدهنوا بطـلاء سخيف بعض أجزاء السقف وزخرفوها برسوم لا تتساوق مع جمال السقف البسيط ؟ رسوم غليظة عن القديسين ومعجزات القديسين ؟ لا أقول ذلك لأننى ضد هذا النوع من الرسوم ، ولكن لأن لكل مقـام مقـال ٠ ولأن هذه الرسوم قد طمست بساطة فن سقوف الحمراء العـذب والذى استطاع أن يرتفـع بالوحدة الزخرفية الى مستوى النغم الموسيقى ٠ وهـل فكرت الجامعـة العربية التى عليها أن تحمى التراث العربى ، والتاريخ العربى أن تقوم باشراف على عمليات الحفر الدائرة رحاها فى المنطقة أو حتى المشاركة فيها ، كى لا يكتب تاريخ هذه الكشوف مشوها ، وحتى لا نلوم امكانيات المركز الاسلامى المتواضعة بعد فوات الأوان ؟ هل فكرت حتى فى المشاركة فى عمليات الترميم لهذه التحفة المعمارية ، حتى لا يشوهها جاهل أو موتور، وحتى لانجد بعض النقاط وحتى الحـروف وقـد طمست أو طلسمت أو وضعت فى المكان الخاطىء ؟ أم أن هذه التساؤلات تنطوى على شىء من التفاؤل ٠ وربما السذاجة ، لانها تنسى أن الوعى بالفن وبالتاريخ وبالحضارة لا ينفصل عن الوعى بالحاضر وعن استهداف التقدم ٠ وأن حالة التدهور التى يعانيها الوطن العربى ، وقد اشتدت عليه الهجمة الرجعية تجعـل لهذه التساؤلات صوت الأصداء التى ترتد فى الفـراغ مرة أخـرى الى ملقيها ٠

وبعد يوم كامل فى الحمراء أحسست معه اننى مهما نهلت من نبع هذا الجمال فاننى لن أرتوى أبدا ، نزلت من الحمراء وسط نثيث المطر الذى أضـاف الى أصوات الحمراء صوتـا جديـدا ٠ نزلت فى الخامسة وتمشيت بين أزقة غرناطة ومنعرجاتها الضيقة ، تدهشنى كثرة البيوت العربية الطراز بمشربياتها « شناشيلها » العتيقة ٠ وأنا أدب فى حوارى لو أصممت أذنيك عن الرطانة الأندلسية فيها لحسبت أنها بعض حوارى القلعة أو الأزهر أو حتى بولاق القديمة ٠ كل شىء فى هذه المدينة عربى ٠ لا التاريخ وحده ، وانما الحاضر أيضا ٠ فأى قوة لهذه الروح العربية ٠ هل درسنا مكوناتها وسرها ؟ هل تقصينا الأسباب التى تجعـل فكرة القومية العربية شيئا متميزا لا مثيل له بين شعوب أمريكا اللاتينية مثلا ؟ هل حاولنـا استكناه سر قـدرة هذه الروح العربية على اختراق الزمن

واجتياز المحن ؟ أقول هذا لأنه برغم قرون من الحروب الصليبية ، ومحاكم التفتيش ضد كل ما هو عربى ، لا زال هنا أريج الروح العربية ، ليس فقط فى البيوت وطراز العمارة ، وانما أيضا فى المصوغات والحلى الشعبية ، وفى الترصيع بالصدف على الصناديق والمناضد ، وفى الأباريق والصحون والصوانى النحاسية المليئة بالزخارف العربية والنقوش ، فى المداسات الجلدية العربية الطراز ، وفى الفساتين المطرزة كالقفاطين . فى فنون صناعة السلال والحقائب من الخوص وسعف النخل .. الخ . فى كل هذه الأشياء الصغيرة تحس بأنفاس عربية واضحة اخترقت السنوات ، وحروب الأبادة وواصلت الاعلان عن وجودها السافر الجميل.

بعد يومين فى غرناطة ، خرجت فى ثانيهما أبحث عن بيت لوركا الذى يرقد خارج المدينة فى قرية صغيرة ملاصقة لغرناطة . أهل القرية لا زالوا يذكرونه بوجهه الذى تمتزج فيه براءة الطفل ، بملامح الغجرى ، بدهشة الشاعر الذى تفتح وعيه على جمال هذا العالم وقسوته الدامية معا . وبينه لا يزال هناك يعيش فيه بقية أفراد أسرته ، وذكريات القرية عنه وحبها له لايزال أقوى من كل سنوات القهر فى عهد فرانكو . كنت قد جئت الى أسبانيا بعد فترة قصيرة نسبيا من سقوط فرانكو ، لم تتح لشبحه القوى أن ينقشع . جئتها وحصادى من لغتها حفنة من الكلمات الأسبانية القليلة ، وظنى أن الانجليزية وحدها كافية مادام الأمر يتعلق بأمور السياحة والسفر والتعرف على الأماكن . لكن ما أن بارحت تلك المنطقة الآمنة التى تكفينى فيها انجليزيتى مغبة السؤال ، بل وقبل أن أبارحها ، وأنا أسأل فى مكتب السياحة فى غرناطة عن بيت لوركا ، حتى بدأت الدهشة وأطل من العيون الخوف ، وكان على أن أبحث عن لغة جديدة للتواصل . نصحنى موظف السياحة بعدم المحاولة ، لأن البيت فى خارج المدينة ، والطريق الى القرى وعر المسالك . ولكنه لما رأى تصميمى أشار الى الاتجاه الذى يجب على أن أسلكه . وما أن وصلت وبدأت التوغل فى طريق القرية الذى يذكرك بمماشى الريف بين الحقول حتى فقدت مع أول الخطوات على هذا الطريق انجليزيتى أى دور . فأهل القرى فى كل مكان لا يعرفون الا لغة الأرض ، ومن خلال تلك اللغة الجديدة التى تتألف من اسم لوركا نفسه ، ومن بعض الاشارات ، وحفنة من الكلمات بدأت أسأل أول من صادفنى . وكانت امرأة تقدم بها العمر ، يشع من عينيها الذكاء . وفهمت من كلماتى القليلة واشاراتى ما أريد ، وانطلقت تحكى بحماس عن قصة مصرعه ، وعن مكان مقتله وتدلنى على البيت ، بل وتصحبنى اليه . غير أن تلك قصة أخرى كما يقولون ، لو تريثت عندها لأخذت رحلتى مسارا آخر . لنواصل الرحلة اذن ، ولنترك قصتى مع البحث عن بيت لوركا وعن قصته لمكان آخر .

بعد يومين في غرناطة ركبت القطار الى اشبيليه ، وأخذ القطار يقطع بنا مزوج الزيتون الى المدينة التي خلدهــا الأدباء في أعمالهــم ، والتي لا تزال بها بعض الآثار العربية الهامة مثل برج الذهب الذي يوشك أن يكون ، بوقفته الشامخة على ضفة نهر الوادي الكبير ، قلعة صغيرة أو مئذنة كبيرة . وبقصرها العربي الكبير الذي يذكرك ببعض مشاهد الحمراء ، والذي احتفى هو الآخر بدور الحديقة ، وحاول أن يخلق منها امتــدادا جماليا للقصر الثري بالزخارف والنقوش العربية . ومع أن هناك فرقا كبيرا من ناحيتي الحجم والنوع بين قصر أشبيليه وقصر الحمراء ، وبين حديقة اشبيلية وحديقة الحمراء أو حديقة جنة العريف ، فان جوهر فكرة التكامل الجمالي في الحالتين واحــد . غير أن ظروف وطبيعــة المكان في اشبيلية هي التي أملت الفــرق بين الاثنين ، فحديقــة القصر العربي في أشبيلية حديقة مسطحة ، تفتقر الى تباين المستويات التي تتيحها طبيعة تلال غرناطة وهضابها لحديقة الحمراء أو حديقة جنة العريف . غير أن الاهتمام الجمالي بالماء والمساحة في حديقة قصر أشبيلية ينطوي على نوع من التركيز على العلاقة بين الزخارف العربية الجميلة والليونة الانسيابية التي يوفرها ترقــرق الماء أو سريانــه . فليست هذه الزخارف برغــم سميتريتها الدقيقة الا تعبيرا فنيا راقيا عن ليونة وترقرق الحرف العربي والكتابة العربية .

وفي أشبيلية ، وهي أحدى المدن الشغوفة بمصارعة الثيران ، ثالث أضخم كاتدرائية في العالــم ، في بنائها الضخم مهابــة وجمال من نوع خاص . ولكن كثرة الزخارف والتهاويل الذهبية في الكنيسة ، واحتواءها على تمثال كبير لكولمبس وقد دك حربته في رمانه ترمز الى انتصار ايزابيلا وفرديناند على العرب ، تدفعنا الى الربط بين الفتوح الاستعمارية الأسبانية والهزيمــة العربيــة . لأن الذهب الذي طليت به مقاصير وهيــكل هذه الكاتدرائية قد اغتصبته الجيــوش الاسبانية من هنود الأنكا في أمريكا اللاتينية . وهناك واحدة من المسرحيات الانجليزية الحديثة هي (الصيد الملكي للشمس) لبيتر شيفر تصور بشاعة ولا أخلاقية العملية التي تم بها انتهاب ذهب الأنكا هذا لتطلى به الكاتدرائيات . والواقع أن كاتدرائية أشبيلية أو الجيرالدا تحتوي على كميات هائلة من التهاويل والزخارف الذهبية لم أشاهد مثلها في أي مكان من الكاتدرائيات الكبيرة على كثرة ما شاهدت منها في انجلترا وفرنسا وألمانيا وايطاليا . ولا أدري أن كانت اي من الكاتدرائيات الايطالية الكبرى التي لم تتح لي فرصـــة مشاهدتها تضاهيها في هذا ؟ غير أن قضية ذهب الأنكا هذه تجعلنا نربط من جديد بين تاريــخ العــرب في الأندلس وتاريــخ الأسبان بعد ذلك في أمريكا اللاتينية ، رباط مفارقة لا رباط تماثل .

بعد ذلك يجيء دور قرطبة ، ليس لأنها شهدت مجد العلم والثقافة العربية فى الأندلس فحسب،ولكن أيضا لأن بها أقدم الآثار العربية الكبيرة الباقية فى الأندلس ، وهو الجامع الكبير بقرطبة • وهذا المسجد فى الواقع تحفة معمارية رائعة • بدأه عبد الرحمن الداخل فى القرن الثامن الميلادى ، ولم يكتمل بناؤه الا في القرن العاشر فى عهد الوزير المنصور بعد سلسلة من التوسيعات فى عهد عبد الرحمن الثانى والحكم الثانى • وذروة الجمال فى هذا الأثر العربي المهيب هو محراب هذا المسجد الضخم • ولا يسجل هذا المسجد الكبير عظمة ومقدرة الفن العربى على الابداع الجميل البسيط معا • ولكنه يسجل أيضا فداحة المأساة التى حاقت بالحضارة العربية مع انهيار الأندلس • فقد بنيت بعد سقوط الأندلس في وسط هذا الجامع الكبير كاتدرائية مسيحية ضخمة • كما بنيت فى داخله أيضا ، وعلى امتداد حوائطه تسعة وثلاثون مذبحا أو هيكلا كنسيا صغيرا تستخدمه الأسر الثرية فى العبادة • والواقع أننى استعمل كلمة بنيت هنا بشكل مجازى • لأن البناء المعمارى الضخم هو بناء الجامع ذاته مراحله المتعددة التي لا تميزها من أى اختلاف فى حجم الأقواس أو طول الأعمدة أو سمكها ، وانما من نوع المرمر المستخدم أو من مستوى الأرضية الذى يتباين تباينا طفيفا • وكل ما حدث هو اختيار جزء من هذا البناء ثم لصق التهاويل والزخارف المسيحية فوقه • أو دهانه بلون مغاير ثم رسم مجموعة من الصور وتعليق مجموعة من الايقونات والتماثيل • لذلك لا يزال الجامع الكبير هو الأثر الأساسى المهيب برغم هذه البقع والرقع المعمارية التى وضعت فيه أو ألصقت فى جنباته • ولا يزال جماله القائم على تكرار الوحدة المعمارية الاسلامية البسيطة ومحرابه المرمرى الملىء بالنقوش المموهة بالذهب هو المسيطر على المشهد الكلى للأثر • ولا يمكن لأى حديث عن المسجد أو محرابه الجميل أن ينقل اليك ذلك الاحساس بالسكينة والمهابة الذى يمنحه فضاء المسجد الضخم، ولا ذلك التسامى الروحى الذى ينبض به المحراب والذى يوحى برغم ما فيه من بذخ وفن بروح التواضع والخشوع التى تشهد ببراعة البناء ورهافة النقوش •

وقبل أن أخرج من الجامع الكبير سمعت صوتا عربيا • واقتربت فوجدت أسرة عربية من أب وأم وطفلين فحييتهم ، وعرفت انها أسرة فلسطينية جاءت تزور أسبانيا • فهل تراهم كانوا يبحثون عن السر فى سقوط الأندلس ؟ أم كانوا يستكشفون من خلال تاريخنا معها الطريق الى فلسطين ؟

مدريد — سبتمبر ١٩٧٦

● السفر السابع

العقبات التى تواجه الكاتب المعاصر

شاركت في عدد غير قليل من اللقاءات والمهرجانات الأدبية العربية والدولية خلال السنوات العشر الماضية · لكنني لم أحس بضرورة كتابة تقرير وصفي أو تقييمي عن كثير من هذه اللقـاءات · فقـد كنت ولازلت اعتقد أن المشاركة في أي مؤتمر أو لقاء دولي للكتاب تجربة تهم المشاركين فيها بالدرجة الأولى · اذ تستهدف الاحتكاك العقلي والانساني بين العاملين في مجال الأدب ، أو المشغولين باحدى قضاياه أو همومه ، بغيـة تبادل الآراء والاستنارة برؤى الآخرين وأفكارهم ، والتعرف على من يمارسون نفس العمل ، أو يكابدون ذات الهموم · ومن هنا فان كتابة المشاركين في مثل هذه اللقاءات عنهـا تنطوي على قـدر ملحوظ من النرجسية · لأن تفاصيل المناقشـات التي دارت فيها ، لا تكون مقصودة لذاتها في كثير من الأحيان ، بقدر ما تستهدف توفير المناخ أو الأطار الذي يتم فيه هذا الاحتكاك العقلي والانساني · كما أن ما فيها من تخصص يجعلها بعيدة عن اهتمام القارىء العام ، اللهم الا تلك الشريحة الصغيرة من القراء الذين ينتوون الاشتغال بتلك المهنة المأساوية المعروفة بحرفة الكتابة ، والتي قد تدرك البعض دون اختيار كامل ·

وحتى اذا كان بعض ما طـرح في هذه اللقاءات له قيمـة فكريـة أو ثقافية في حد ذاته ، فان الأحرى بالكاتب الذي يريد الكتابة عنه كتابة مقال أو دراسة عن الموضوع أو القضية المطروحة ، وليس كتابة تقرير يسرد بعض ما دار حولها من جدل أو مناقشات · كما تنطوي كتابة التقارير عن مثل هذه اللقاءات على قدر لا بأس به من الادعاء ، أو المبالغة ، عندما تحاول الحديث عن قرارات مثل هذه اللقاءات أو توصياتها · لأنها لاتدرك عادة أن معظم التوصيات أو القرارات التي تتمخض عنها أغلب هذه اللقاءات لا يتجاوز أثرها حدود القاعة التي ألقيت فيها فضلاً عن اتسامها بقـدر كبير من التكرار والعمومية · صحيح أن هذه التقارير قد تؤدي هدفـا لا غنى عنه ، وهو اشاعة المعرفة بالحدث الثقافي ، والاعلان عن وقوعه ، لكن هذا الهدف كثيرا ما تطمسه المبالغات أو غلبة العناصر الذاتية على العناصر الموضوعية · كل هذه الأسباب وغيرها تدفعني الى العزوف عن

الكتابة عن مثل هذه اللقاءات • لأن الكتابة عنها لا تفيد كثيرا الا اذا حاولت الخروج من اسار الذاتى الى أفق الموضوعى ، ومن القضايا الخاصة الى المسائل العامة •

بالرغم من كل هذه المحاذير فاننى أحس بضرورة الكتابة عن اللقاء الدولى الرابع عشر للكتاب الذى عقد بمدينة « بليد » بجمهورية سلوفينيا الأشتراكية بيوغوسلافيا فى الفترة من ١٣ ــ ١٧ مايو ١٩٨١ • وقدر لى أن أشارك فى أعماله موفدا من المجلس الأعلى للثقافة لعدة أسباب : أولها أن هذا هو أول مؤتمر أوفد اليه بصفة رسمية باعتبارى ممثلا لمصر ، وأننى كنت المصرى الوحيد ، والعربى الوحيد الذى شارك بفعالية فى جلسات هذا اللقاء بالرغم من حضور عربى آخر هو الكاتب الجزائرى الشاب علاء الدين رقيق • وايفاد كاتب من بلده ليمثلها فى لقاء من هذا النوع يضع على عاتقه مسئولية طرح ما دار أمامه على جمهور القراء والكتاب فيها • وثانيها أن موضوع هذا اللقاء كان مناقشة العقبات والمشكلات التى تعوق عمل الكاتب فى عالمنا المعاصر ، سواء أكانت هذه العقبات خارجية عنه معوقة له ، أو لصيقة به متغلغلة فى شخصيته أو تكوينه المهنى • وهو موضوع على درجة كبيرة من الخصوبة والأهمية • ليس فقط لأنه يمس مشاكل الكتاب والقراء فى الوطن العربى ككل ، ولكن أيضا لأن الطريقة التى طرح بها لاتقدم لهم فحسب بعض الاضاءات الهامة فى هذا المجال ، ولكنها تبلور كذلك منهجا شاملا فى التعامل معه . يستفيد الواقع الثقافى من طرحه على الجميع • وثالثا أن أسلوب ادارة المؤتمر ، وتنظيم جلساته كانا فى غاية التوفيق ، مما بعد بالمؤتمرين عن المهاترات والعموميات وارتقى بالمناقشة وعمقها • وقد شارك فى هذا اللقاء الذى يعقد سنويا ، وبصفة دورية منذ أربعة عشر عاما ، كتاب من أربع وعشرين دولة منها الجزائر والأرجنتين وألمانيا الديمقراطية والاتحادية والنمسا والصين وأسبانيا والاتحاد السوفيتى والمكسيك والولايات المتحدة الأمريكية والمجر ورومانيا والنرويج وبولندا وتشيكوسلوفاكيا وفنلندا وقبرص وفرنسا ولكسمبورج ومصر وهولندا ، فضلا عن مجموعة كبيرة من كتاب جمهوريات يوغوسلافيا المختلفة •

وينظم هذا اللقاء السنوى نادى القلم فى جمهورية سلوفينيا ، وهى أغنى الجمهوريات اليوغوسلافية وأكثرها ازدهارا ، بالاشتراك مع رابطة الكتاب السلوفينيين والمركز الرئيسى لنادى القلم الدولى • ورغبة من منظمى هذا اللقاء فى تحويله الى لقاء فعال يتم فيه نوع حقيقى من الاحتكاك العقلى والفكرى المثمر بين المشاركين فيه ، عمد البرنامج الى ألا يزحم جلسات اللقاء بالابحاث ، بل قسم أيام العمل الثلاثة الى جلسات طويلة ،

يتم فيها كل يوم بحث جانب واحد من جوانب العقبات التى تواجه الكاتب المعاصر ، أو تؤثر على عمله ودوره . فخصص اليوم الأول لمناقشة العقبات الخارجية ، والثانى لمناقشة موضوع الرقابة الذاتية ، والثالث لمشكلة الكاتب الذاتية أو العقبات الأليفة واللصيقة بالذات المبدعة . وحتى لا ينطلق البحث كل يوم من فراغ فقد أعد البرنامج ثلاثة أبحاث قصيرة ، أو بالأحرى ثلاث ورقات عمل عن كل موضوع من هذه الموضوعات ، لا تتجاوز أى منها خمس صفحات . تقرأ كل منها فى بداية الجلسة الصباحية كنوع من طرح القضية بصورة منظمة نسبيا على المؤتمرين . ثم يبدأ بعدها النقاش الذى يدور بأى من اللغتين الانجليزية أو الفرنسية مع الترجمة الفورية الى اللغة الأخرى بالطبع .

وقد ألقى ورقة العمل الأولى الكاتب الفرنسى الكسندر بلوك عن العقبات الخارجية فى طريق الابداع الأدبى . وبدأها بالتأكيد على أهمية الجدل بين الداخلى والخارجى فى عملية الخلق ، بين الأنا والآخر ، وعلى ضرورته لاثارة الرغبة لدى المبدع لمواصلة عمله الابداعى واستثارة نوازع الخلق لديه . وخلال هذا الجدل تبدأ أولى العقبات الخارجية / الداخلية فى مواجهة الكاتب وهى اللغة . فاللغة هى أول أدوات اتصال الأنا بالآخر ، وهى اداة الكتابة ووسيلة ترجمة كل ما هو داخلى وتحويله الى واقع خارجى : الى أدب . وصراع الكاتب ، أو بالأحرى صراع الانسان مع اللغة يبدأ منذ الطفولة باعتبارها عقبة مفروضة عليه فى محاولته للتعبير عن ذاته . وهى فى نفس الوقت وسيلة لهذا التعبير ، وللتعرف على الذات فى حقيقتها ، ثم انتقل بعد ذلك الى العقبة الثانية وهى العقبة الاجتماعية التى تنطوى على كل المشكلات الخارجية التى يواجهها الكاتب لأنه يعيش فى مجتمع له تقاليده وموضوعاته وموروثاته ، ويتوجه الى هذا المجتمع نفسه طامحا الى أن يلعب فيه دورا ما . ومن هنا فان لهذه العقبة الاجتماعية وجهين : أولهما يتمثل فى كل عناصر المشكلات والروادع الاجتماعية التى تقف بين الكاتب وبين حريته فى الابداع . وثانيها يتعلق بكل العوامل التى تقف فى سبيل فهم العمل الابداعى واستيعابه أو تلقيه بصورة كاملة وفاعلة . وبين هذين الوجهين تدور عملية الانشطار الحرجة داخل الكاتب، بين ولائه للعناصر الذاتية التى تمليها عليه رؤاه وأدواته الفنية ومطالب فنه ورغبته فى الاسهام بدور، وبين متطلبات الواقع الاجتماعى بوجوهه المتعددة وعناصره المتفاعلة والمتضاربة فى آن .

وحتى تزداد حدة عملية الأنشطار الحرجة تلك تجىء العقبة التالية وهى العقبة الاقتصادية التى توشك فى بعد من أبعادها أن تكون تجسيدا لأحد الجوانب الهامة فى العقبة الاجتماعية ، وهو الجانب الأكثر فجاجة

ومباشرة ، لأنه الجانب الذى يتم فيه التعبير المباشر سلبا أو ايجابا عن قبول المجتمع لدور الكاتب ، وترجمة هذا القبول الى قوة مادية أو معاناة قد تدفعه الى الاقلاع عن الكتابة أو تشتت جزءا كبيرا من جهده الذى كان حريا به أن يوجهه اليها · ومن هنا تظهر تلك الحالة التى يسميها بلوك بـ « الابداع العرضى » أو « الايبسودى المتقطع » الذى يؤثر على كم العمل الابداعى نفسه وكيفه · كما أن دخول عناصر اقتصادية غريبة على عملية الابداع أو التوصيل وضرورية لهما فى نفس الوقت ، مثل حالة المكتبات أو وسائل تخزين الكتب وعرضها وتداولها وعمر الكتاب وشبكات توزيعه ، تلعب دورا مؤثرا على طبيعة العمل الابداعى ودوره معا · وتأتى بعد ذلك العقبة الأخيرة وهى العقبة السياسية التى تتبدى فى أبسط صورها فى الرقابة بأشكالها المتعددة والرادعة لقوة الابداع النقدية · ولكنها تسفر عن نفسها كذلك فى صور أخرى كثيرة عندما تظهر بعض القيود على حرية الكاتب فى التنقل والسفر ، والتى هى صنو حريته فى الابداع لأن الكتابة فى أحد تعريفاتها نوع من الارتحال الدائم ، أو على حريته فى التجريب وفى ممارسة هذا العنصر الغامض المبهم المطلسم بالأسرار فى عملية الكتابة دون أن يتعرض لأى نوع من المساءلة أو الارهاب، أو على حريته فى اعادة فهم تاريخه وتراثه ومقارعة كل ما تحوطه أسيجة القداسة أو هالات الاحترام التاريخية ، أو على حقه فى الحياة نفسها ، فكثيرا ما يتعرض الكاتب للاضطهاد والموت لأنهم قبل أى شىء وبعده كتاب ·

وبعد انتهاء تقديم هذا الاطار العام لموضوع الجلسة الأولى بدأت مساهمات مختلف أعضاء المؤتمر فى اضافة بعض النقاط أو توسيع وتعميق بعض القضايا التى طرحت بالفعل · وقد بدأ كاتب هذه السطور المساهمات بطرح بعض القضايا الخاصة بوضع الكاتب العربى واضافة بعض الجوانب المتميزة للأبعاد التى طرحتها الورقة بالفعل · مؤكدا على أن هذه العقبات المختلفة تتفاعل مع بعضها باستمرار من ناحية ومع العملية الابداعية والنقدية من ناحية أخرى بصورة ديناميـة تتحرك فيها معظم المتغيرات وتتفاعل باستمرار · وتلعب العناصر المحلية دورا خاصا فى ابراز احدى هذه العقبات ، أو فى افراز أعراض جانبية لها يتفاوت حظها من السلب والايجاب فى التأثير على مسيرة الكتابة أو وضع الكاتب فى هذه المجتمعات · وأول هذه العناصر المحلية مسألة تفشى الأمية فى الوطن العربى بصورة لا توفر قاعدة واسعة من القراء تضمن استقلال الكاتب اقتصاديا عن المؤسسة السياسية · وتوفر له الحماية اذا ما اصطرع معها وتنقذه من أنشوطة الابداع العرضى المتقطع · وتمكنه من التفرغ للكتابة والتجويد فيها · وتخفف وطأة احساسه بالاغتراب ، وهو احساس يوشك أن يكون

أحد المكونات الأساسية الثابتة لعملية الكتابة باعتبارها فعل التوحد والعزلة الذى يستهدف الاجهاز عليهما فى نفس الوقت ٠

وقد خلق هذا الوضع نوعا من التناقض بين الدور التعليمى والدور الأدبى لعملية الكتابة ٠ حيث لا يتحقق أحدهما الا على حساب الآخر ٠ بصورة تدفع الكثيرين من الكتاب، فى محاولتهم لتحويل أنفسهم الى مؤسسات ثقافية قادرة على التأثير فى الواقع الذى تعيش فيه ، الى الاهتمام بالدور التعليمى والتضحية بالكثير من متطلبات عملهم الابداعى ، حتى يتمكنوا من اشباع الكثير من الحاجات الوقتية المباشرة لجمهور القراء ٠ بينما كان باستطاعة بعضهم على الأقل كتابة أعمال قادرة على تجاوز الوقتى والمباشر ٠ وهنا لابد من ذكر تلك المشكلة العالمية : مشكلة ارتفاع أسعار الكتب ، التى تصبح أكثر حدة فى البلدان النامية التى تنحو فيها معدلات الدخل الى التدنى ، وبالتالى تقل معها قدرة الأقلية المتعلمة على شراء الكتاب ٠ وتدعيم استقلال الكاتب بالتبعية ٠ وهذه مسالة تزيد من حدة افتقاد الكاتب الى حرية الحركة ٠ حرية السفر والارتحال والمغامرة حيث يرتفع ثمن هذه الحريات فى سوق البلدان التى تتدنى فيها معدلات الدخل وتصبح معها مجرد القدرة على شراء تذكرة الطائرة ناهيك عن تكاليف الرحلة الى منابع الثقافة أو التجارب الجديدة ، نوعا من الأحلام العصية ٠

ولا تقتصر حرية الحركة على الكاتب وحده ، وانما تتناول منتجه الابداعى كذلك ، وهو الكتاب ٠ لأن الكتب تتعرض للكثير من العوائق وتوضع فى طريقها الحواجز حينما تبدأ رحلتها خارج الأسوار الأقليمية والقومية واللغوية ٠ فسرعان ما يتضاعف ثمنها ، وخاصة الكتب الأجنبية منها ، بسبب أسعار التحويل مرة ، أو الرسوم الجمركية أخرى ٠ ناهيك عن الحواجز السياسية والفكرية التى توضع فى طريقها ، والتى تمنعها بالتحيز تارة ، وبالتهميش أخرى من حرية الحركة والتأثير ٠ ومن أهم هذه الحواجز الحاجز اللغوى ذاته ، لأن عبور الحواجز اللغوية كثيرا ما يصبح أكثر صعوبة من عبور الحواجز السياسية ٠ فتأشيرات العبور التى لا تمنح للأفراد الا بعد التحقق من نواياهم ومعرفة تواريخهم ، والتنبيش فى عقولهم ، لا تمنح عادة للكتب التى لا تنتمى لنفس الثقافة أو لنفس الرؤية الا بعد تمحيص وتردد شديدين ٠ لأن الكتب عادة ما تكون أشد خطرا على الآخرين من الأفراد أنفسهم ٠ فاذا كان من اليسير ترحيل الأفراد غير المرغوب فيهم ، فان من العسير ترحيل النصوص غير المرغوب فيها ، والأفكار غير المرضى عنها ، اذا ما تجاوزت الحدود اللغوية ، وعرفت طريقها الى الجمهور القارىء ٠ وفى هذا المجال لابد من ملاحظة أنه بينما يحتضن كتاب العالم الثالث ومثقفوه ابداعات اللغات الأوروبية المختلفة ، فان تلك

اللغات تتعامل بقدر كبير من الحرص والانتقائية مع كتاب العالم الثالث عندما تقدمهم الى جمهورها ، وخاصة أن تلك اللغات كثيرا ما تكون الجسر الذى تعبر عليه انجازات كتاب العالم الثالث لا الى أوروبا وحدها ، وانما الى بقية ثقافات العالم الأخرى ٠

أما العنصر المحلى الثانى فهو ظاهرة الازدواج اللغوى باعتبارها بعدا اضافيا لمشكلة اللغة التى طرحتها الورقة ٠ ففى العربية درجة واضحة من الانفصال بين لغة الحياة ولغة الكتابة ، وان عوضتها خلفية تراثية واضحة، ومعايير لغوية وجمالية على درجة كبيرة من الرسوخ والاستقرار ٠ وتراث غنى يستمد منه الكاتب الكثير من الرؤى والقيم ، ويتصارع معه فى نفس الوقت ، ويدخل معه فى نوع من الجدل أو الحوار الخلاق الذى يستهدف تطوير هذا التراث والحفاظ على كل ما هو جوهرى فيه ٠ ومن خلال هذا الجدل الدائم بين الرؤى والقيم التراثية المستقرة وبين الطموحات والمغامرات الجديدة والنابعة من معايشة الكاتب للتجربة الحياتية وللمتغيرات اللغوية معا ، تتحول معظم العقبات الملموسة الى أدوات فى مسألة صياغة الرؤى الجديدة ، وتطوير أدوات الكاتب الفنية فى محاولة مستمرة منه لتجاوز كل قيود الرقابة الرسمية وغير الرسمية ٠

وبعد ذلك طرح الناقد الروسى ديمترى أورنوف بعدا جديدا من أبعاد العقبات الخارجية التى يواجهها الكاتب فى عالمنا المعاصر وهو الصراع ضد القيم الأدبية السائدة التى توشك أن تكون قائمة على مجموعة من المغالطات التى روجتها المؤسسة الأدبية التقليدية المحافظة فى سعيها الدائم لتوطيد القديم ونفى كل محاولات التجديد أو التقليل من شأنها ٠ وضرب لذلك مثلا هاما هو أن أى دارس للأدب الانجليزى اذا عاد الى بعض المراجع الموثوق فيها مثل قاموس أوكسفورد للأدب الانجليزى ليكشف عن وليام وردزورث أو عن ديوانه الهام (قصائد غنائية) سيجد أن القاموس يقول له ان هذا الديوان الجديد قوبل بعداء شديد لما انطوى عليه من نزعات تجديدية : « ان القصائد الغنائية بتمردها المفاجىء على الأدب السطحى السائد وقت ظهورها ولجوئها الى البساطة المتناهية فى الموضوع واللغة قد قوبلت بعدم الاستحسان ٠ ثم تصاعد عداء النقاد لها بعد ظهور الطبعة الثانية التى صدرت بمقدمة يشرح فيها وردزورث مبادئه الشعرية ، (هذا هو النص كما ورد فى ص ٤٧٩ من القاموس) بينما تجد أى دراسة متأنية للمراجعات التى ظهرت وقت نشر هذا الديوان وللدراسات التى تناولته فى طبعتيه أن هذا غير صحيح على الاطلاق ، وأن الديوان قد قوبل دون أى عداء ، وبقدر لا بأس به من التقريظ والاستحسان ٠ لكن المؤسسة الأدبية التقليدية لا تتورع عن تغيير الحقائق فى محاولتها لارساء قواعد الذوق الأدبى على أساس محافظ وتقليدى ٠

وأضاف الكاتب الأسبانى الكاتالوني اليكسى بروك بعدا آخر الى هذه القضية استمده من خبرة كتاب الأسبانية عموما ، سواء في أسبانيا أو في أمريكا اللاتينية ، وهو العنف والأضطهاد السياسى الذى يواجهه الكاتب والذى يصل أحيانا الى درجة التصفية الجسدية له ، وطالب بضرورة أن يحدد الكاتب موقفه من التغيرات التاريخية بوضوح ، وان يحاول دائما ، رغم كل العقبات ، أن يساهم في اعادة كتابة التاريخ وأن يقهر العقبة الكأداء في المجال وهي غياب المعلومات التي يتيح توفرها تصحيح الفهم ، وتمكين الرؤى الجديدة من التغلب على الرؤى التقليدية أو المتخلفة · واستمر النقاش طوال اليوم ولثلاث جلسات متعاقبة بصورة أثرت معرفة كل المساهمين بموضوع المناقشة من ناحية ، وببعضهم البعض من ناحية أخرى ·

وفي اليوم الثانى ، والذى كان مخصصا لموضوع الرقابة الذاتية ، بدأ بريدراج بالافيسترا رئيس نادى القلم السلوفينى بطرح ورقة عمل قصيرة بعنوان (الرقابة الذاتية في نظام العنف) بدأها بأن الرقابة ليست أسوأ ما يواجهه العقل الخلاق ، وانما الخوف المبثوث فى الجو والذى تستشرى معه شتى أشكال القلق وهموم الثقة والأمن ومخاوف الرعب الدائم من خطر لا يقع ، وانما يوشك دائما أن يقع · فالهموم والمخاوف ــ كما يقول كيركجارد ــ أقسى دائما من أى من دهاقنة محاكم التفتيش ، اذ لا يستطيع أكثر المحققين شرا ولا انسانية أن يستجوب انسان كما تستجوبه مخاوفه التى لا تعتقه أبدا · ومن هنا فان الرقابة الذاتية أخطر بكثير من الرقابة التقليدية ، فبينما تقيد الرقابة الكلمـــة فان الرقابة الذاتيـة تسممها وتخصيها · ومن براثن المخاوف والهموم يولد ذلك النزوع الحاد للدفاع عن الذات ، والتبرير والتأقلم فى عملية الصراع من أجل البقاء بصورة تتناقص معها قدرات الذات المبدعة وتتقلص آفاقها · والغريب أن هذا النوع الرهيب من الرقابة يتلفع بأردية من الطبيعية والعادية تفتقـر الى الحدة والعنف البادين فى صيغ الرقابة الرسمية الأقل درامية · اذ يبدو وكأنه نوع من تجنب الصدامات الاجتماعية أو السياسية ، أو من الانصياع للطرق السائدة فى التعامل أو التفكير ، بل وقد يأخذ شكلا أكثر مخادعة عندما يأخذ شكل المغامرات الشكلية الغامضة ، والأحجية الأيديولوجية ، أو حتى الصمت المتعمد أحيانا ، وغير ذلك من الأشكال الثقافية المقبولة للعمليات العدائية التي تأخـذ أحيانا صـورة الحوار الأخرس أو المبادرة القعيـدة العاجزة · التى توهمهم بأنهم لا يتخلون بأى صورة من الصور عن طبيعة الأدب ولا عن لغته وشفرته الخاصة · بينما هم فى الحقيقة يضحون بمعظم قيم الأدب الخالدة وموضوعاته من أجل اقامة نوع من الحوار الثانوى مع نظام العنف السائد الذى يفرض المخاوف ويولد تلك الرقابة الذاتية البغيضة ·

ويضرب بالافيسترا هنا مثلا بموقف الشكليين والسوسيولوجيين لروس ومصيرهم عقب الثورة الروسية الكبرى عام١٩١٧ ، مقارنا انجازاتهم وقيمتهم بما حققته الكتابات التى فضلت الحوار مع القهر الشمولى على ارساء القيمة الأدبية القادرة على استشراف الجديد واضافة الكثير الى خبرتنا بالأدب والحياة معا ٠ صحيح أن الرقابة الذاتية لها بعض الوجوه الايجابية فقد زودت الأدب بالامثولة الرمزية (الأليجورى) وبكثير من المعانى الاستعارية وبلغة الشعر الحافلة بالأسرار والعصية أحيانا على غير العالمين بمغاليقها ، لكنها فى نفس الوقت هى المسئولة عن كثير من الجوانب السلبية فى الظاهرة الأدبية كالخوف من الحرية والتعثرات الأخلاقية وتجنب المساس بالقواعد والمواضعات السائدة ٠ حيث يصبح الكاتب هو قاضى نفسه وسجانها فى نفس الوقت ٠ فالرقابة الذاتية فى أحد ابعادها هى أخطر أعراض مرض اجتماعى على درجة كبيرة من الخطورة ، تتحول فى ظله الذات الانسانية المبدعة الى كائن شائه ذى قدرات ضئيلة ومحدودة ٠ يقوم دون أن يدرى بتقليص حدود هذه القدرات بصفة مستمرة وتقييد آفاق حركته وحريته بصورة يموت معها الفن وتنوى الكتابة ٠ فليست الرقابة الذاتية بأى حال من الأحوال تعبيرا عن أى نزوع شكى خلاق ولا عن أى قلق روحى يتشوف الى الكمال ، أو أى ريب ايجابية منتجة ، ولكنها ببساطة شكل من أشكال العنف المخاتل الذى يقهر الفن والفنان لأنه يجبر المبدع على المشاركة فى الاجهاز على منابع الخلق فى داخله ٠

وبعد تقديم ورقة العمل هذه استمرت المناقشات لثلاث جلسات متعاقبة طوال اليوم الثانى لهذا اللقاء الجاد ، وقد كان من اللافت للنظر أن معظم الذين تحدثوا فى هذا اليوم كانوا من كتاب البلدان الاشتراكية الذين حاولوا توسيع معظم النقاط التى أثارها بالافيسترا فى ورقته ، وطرح بعض التساؤلات حول القضايا التى تناولتها ، وقد بدأ الكاتب السلوفينى ايجور تروكر باثارة فكرة أنه من الضرورى ألا تناقش قضية الرقابة الذاتية بمعزل عن العقبات الخارجية باعتبارها نتاجا للمواضعات والروادع الاجتماعية والسياسية فى مجتمع ما ، وللضغوط الأيديولوجية والدينية التى تمارسها المؤسسات المختلفة فى هذا المجتمع ٠ وأشار الى ضرورة التفرقة بين الرقابة الخارجية والرقابة الداخلية ٠ فوجود الرقيب الخارجى تعبير عن أن الكاتب يتحدى المواضعات والاعراف الراهنة ويتجاوزها ، أما ممارسة الرقابة الذاتية فتجسيد لأن طاقة التحدى لدى الكاتب تتعرض لأفدح الأخطار ، وتتقلص معها أهمية ما يكتبه من أدب ٠

ثم التقط منه كاتب سلوفينى آخر هو ديميتر ريبل الخيط مثيرا مجموعة من التساؤلات الهامة : هل يفقد الانسان انسانيته تحت وطأة

الخوف والقهر والارهاب ؟ أم أن الخوف أحد سمات المثقف المتوجس المتردد بطبيعته ؟! هل تؤدى الذاتية دائما الى الهجرة الداخلية ؟ وهل تتم هذه الهجرة على حساب الدور الذى يجب على الكاتب الاضطلاع به فى واقعه ؟! ألا تؤدى الهجرة الداخلية غالبا الى الاحباط واللامبالاة ؟ ثم حاول الاجابة على بعض هذه التساؤلات ولكن صياغتــه للأسئلة كانت أهـم بكثير من الاجابات التى طرحها والتى لن تضيف فى جوهر الأمر جديدا لما قدمته ورقة عمل اليوم فى هذا المجال • وجاء بعد ذلك عدد من الكتاب ، مثــل الكاتب الرومانى ميرشيا سيسرونيسكو والكاتب الفنلندى كالن هيفيكارا والكاتب الصينى جى ليو والكاتب اليوغوسلافى برايتمير دونات ، حاول كل منهم أن يقدم ما يشبه الاعتراف الذاتى عن خبرته مع الرقابة الذاتية سلبا وايجابا ، وأن يوسع من خلال هذا الاعتراف آفاق بعض النقاط التى طرحتها ورقة العمل ، دون أن يحاول أى منهم أن يقدم جانبا جديدا لم يسبق أن تناولته الورقة أو أثاره المتحـدثون السابقون ، حتى جــاء دور الشاعر الهولندى هانز فان دون فارسينبرج الذى حاول من خلال ما يشبه القصيدة النثرية أن يثير مسألة العلاقة الهامة بين غربة الكاتب وممارسته الدائمة لتلك الرقابــة الذاتيــة البغيضـــة • وأن يؤكد أن مملكة الكاتب الابدية هى مملكة التساؤلات الدائمة ، وأن على الكاتب أن يخلص لحدوسه وتساؤلاته وليس لمسئولياته ، وأن يستجيب لتأملاته ولا ينصاع لروادع القهر الاجتماعية أو مظاهر البطش السياسية • فليست مهمة الكاتب أن يحترم المواضعات السائدة ، ولكن عليه ألا يعبأ بها ، وان يثير الشكوك والتساؤلات دائما من حولها •

وفى اليوم الثالث والأخير من أيام هذا اللقاء الخصيب قدمت الروائية السلوفينية ميرا ميخالوفا ورقة عمل عن الصعوبات الحميمة ، أو عقد الكاتب الذاتية أو الخاصة ، أو بالأحرى عن المشكلات التى تواجه الكاتب والتى لا يمكن ارجاعها الى أى سبب خارجى ، بدءا من فشله فى الاجابة على هذا السؤال الملح لماذا أكتب ؟ أو على الأقل معاناته من أجل الوصول الى اجابة شافية عليه ، حتى مشكلات عدم الرضى الدائم عما كتبه ، مرورا بقضايا حدود الكتابــة والصراع الدائم لتجــاوز هذه الحـــدود ، وبمشكلات هذه المواجهة الدائمة للصفحة البيضاء التى لا تمتلىء أبدا ، وما أن تمتلىء حتى تترك مكانهــا لصفحة أخـرى بيضـــاء • أو بمعنى آخـر مشكلة الانجاز والاستمرار ، والهموم الناجمة عن احساس الكاتب الدائم باتساع الفجوة بين حدوسه وطموحاته من ناحية وانجازاته من ناحية • وفى مواجهة هذه المشكلات جميعا ، لا يجد الكاتب أمامه سوى حل واحد ، وهو ضرورة أن يكتب مهما تباينت دوافعــه للكتابة • لأن الكتابة هى الحل الأمثــل لكل عصابات الكاتب النفسية ولكل وساوسه الفكرية ، وهى عنصر هام فى

تحقيق صحته النفسية والعقلية معا . صحيح أن الكتابة ليست غاية في حد ذاتها ، لكن غايات الكاتب من عملية الكتابة لا تتحقق الا اذا تمت الكتابة نفسها ، بصورة تصبح معها الجوانب المحسوسة من عملية الكتابة مشكلة ينبغي قهرها ، وغاية يرمى الكاتب الى تحقيقها فى الوقت نفسه .

بعد ذلك بدأت المناقشات المتعددة طوال اليوم فى محاولة من المشاركين فى هذا اللقاء للاسهام فى توسيع بعض النقاط التى طرحتها ميخالوفا فى ورقتها وتعميقها . وقد بدأ المناقشة الكاتب القبرصى كليتوس يانيديس الذى ركز على أن مشكلة الكاتب فى مواجهة الصفحة البيضاء تنطوى فى بعد من أبعادها على مشكلات الكتابة كمهنة وكوظيفة وكغاية . فالصفحة البيضاء دائما التى لا تمتلىء ابدا ، هى صليب الكاتب الذى اختار أن يحمله ، والذى يحاول رغم وطأته أن يضطلع بدور الفادى والمخلص وأن يستعير بعض سمات الخالق ووظائفه . لكن امكانيات الكاتب وحدوده ، وتعقيدات عملية الكتابة الخاصة ، تجعل نتيجة حمل هذا الصليب مزيجا من التحقق والاحباط ، وحياة دائمة فى منطقة الاعراف الحرجة التى لا فردوس فيها ولا جحيم . ولا يعرف الكاتب أبدا ان كانت معاناته تلك قد ساهمت فى خلق عالم أفضل ، أو خلصت الانسان من بعض همومه وخطاياه . فهو أول من يشك فى انجازات نفسه ، ومن يتنكر لكل ما جاء به من معجزات أو نعاليم ، ليظل أبدا ذلك المغترب الدائم ، والمؤرق بهواجس الشك وعدم الرضى ، والمعذب برغبته فى مواصلة الكتابة .

ثم تحدث بعد ذلك الشاعر الألمانى هارى أوبرلاندر الذى أرجع الكثير من تلك العقبات الحميمة التى يعانى منها الكاتب الى أن الكاتب عادة ما يكون مليئا بالحدوس والرؤى ، ولكنها غالبا حدوس ورؤى بلا برنامج واضح . وهو يجلس فى مواجهة الصفحة الخالية التى تتطلب منه أن يعطى هذه الرؤى شكلا وصياغة ووجودا ، أى أن يحولها الى برنامج . وهذه عملية شديدة الصعوبة تنتج عنها المعاناة والوحدة وحتى العصابات النفسية المختلفة . وهنا التقط الكاتب والطبيب النفسى التشيكى جوزيف نيسفانيا الخيط ، وعرض علينا بعض نتائج دراساته النفسية الشائقة على دور الكتابة فى شفاء المرضى النفسيين . مؤكدا أن الكتابة لا تسبب العصابات النفسية ، ولكنها وسيلة من انجع وسائل علاجها . انها الشفاء السحرى لكثير من الأدواء النفسية ، حيث انها تعوض عن الكثير من قنوات الاتصال بالآخرين التى قد يعانى الانسان من عجزه عن التعبير عن نفسه من خلالها لسبب أو لآخر . ولنشر الى ان المشكلة تبدأ بالفعل عندما يعجز الكاتب

عن الكتابة لدرجة أصبح معها الخوف من العجز عن الكتابة واحـدا من الأمراض التى يعانى منها الكاتب بدرجة أو بأخرى ·

وأثار كاتب هذه السطور بعض الملاحظات حول علاقـة ما طرح من مشكلات بطبيعة الكتابة كعمل انفرادى · فبينما يعمل معظم الناس فى جماعات ، أو داخل هيكل اجتماعى منظم ، فان على الكاتب أن يعمل متوحدا وفى عزلة كاملة عن الآخرين · وهى للمفارقة عزلة تستهدف تحقيق التواصل معهم على مستوى أعمق ، وهى لذلك عزلة من نوع خارجى ، ولكنها ضرورية لتحقيق هذا الانجاز الذى يستخدم العزلة من أجـل التعبير عن الرؤيـة الجمعية ، والتواصل لا مع فرد بعينه ، وانما مع البشرية جمعاء · وقـد تجعل طبيعة الحياة الاجتماعية (وخاصة فى المجتمعات التى لاتزال فيها الكثير من التقاليد العشائرية) هذه العزلة صعبة التحقيق · اذ يبـدو الميل اليها وكأنه نوع من الشذوذ أو الخروج على المواضعات المألوفة · لكن هذه العزلة سواء سهل تحقيقها أو صادفته العقبات ، لا تكون أبدا عزلة كاملة لأن الكاتب فى معتزله الاختيارى هذا يحمل فى داخله قارىء ما ، ورؤى تراث ما ، وروح متمرد ثائر على هؤلاء جميعا · ويحاول الكاتب أن يصنع معجزاته الابداعية · أن يخلق عالما من الكلمات بأن ينفث فى موات الكلمات وعاديتها وفجاجتها طاقة جديدة ومعنى جديدا · لاتنتهى مشكلته عند تحقيق ذلك ، ولكنها فى مستوى ما تبدأ · فهناك مشكلة مابعد الكتابة· وتقديم العمل الى الآخرين ، فما يعرضـه الكاتب على الآخـر ليس فقط ابداعه ، ولكن بالدرجة الأولى ذاته نفسها ومحاولته ضد المستحيل ، وضد اللاجدوى ·

أثار الشاعر الأمريكى وليام جاى سميث مسألة أن الكتابة عمل يقصد لذاته ، وأن هناك تقليدا هاما فى الشعـر الأمريكى معروف باسم شعـر السفاسف ، nonsenical poetry وهو شعر لايستهدف التعبير عن أى رسالة ولا يدعى توصيـل أى معنى هام ، انما ينطوى على قـدر كبير من المفارقات اللفظية والجناس الساخر واللعب الحاذق بالألفاظ · وهو شعر يمتع الكاتب والقـارىء على السواء ، ويعطى الشاعـر احساسا بالتحقق والانجاز · صحيح أن هناك عنصرا خارجيا فى هذا الاحساس بالانجاز ، نلمس بعض مظاهر هذا التنوع عند استعراضنا لما طرح فى أيام المؤتمر وهو وجود تراث كبير من هذا الشعر الذى مارسه أكبر الشعراء ، مما يجعل الكاتب يحس بأنه ينتمى الى هذا التراث اذا ما كتب شيئا ذا بال فى ميدان هذا الشعر الخفيف ، لكن كتابة مثل هذا الشعر ، مجرد الكتابة ، تعطى ممارسها احساسا بالتحقق وتشعر المبدع بأنه قادر على التغلب على الكثير من عقبات عزلته وتوحده ·

وفي نهاية اليوم حاول الكاتب الفرنسي الكسندر بلوك أن يلخص أحداث هذا اللقاء وقضاياه الهامة ، وأن يبرز أهم ما دار فيه من مناقشات وما أضافه الى المشاركين فيه من خبرات ومعارف • وانطلق المؤتمرون يستمتعون بعدها بجمال سلوفانيا الطبيعي ، وبموقع مدينة بليد الساحر عند سفوح الألب وعلى ضفاف احدى البحيرات التى تصنعها ثلوجه الذائبة، ويوطدون عرى التعارف بينهم ، ولا يفوتنى فى نهاية هذا التقرير أن أشيد بحفاوة الكتاب اليوغوسلافيين ، وبحسن تنظيمهم لهذا اللقاء الثرى المثمر •

بليد (يوغوسلافيا) مايو ١٩٨١

● السفر الثامن

هوية الأقصوصة ومنهجية القراءة النقدية

انعقد في الفترة من ٢٢ ــ ٢٥ مارس ١٩٨٣ الملتقى العربي الأول للقصة القصيرة بمدينة مكناس بالمغرب ، والذى كان من المرجح عقده في أوائل سبتمبر الماضى ، ولكن اتحاد كتاب المغرب الذى دعا الى هذا الملتقى وتحمل عبء تنظيمه ارتأى تأجيله أنذاك بسبب الظروف العصيبة التى عانتها الأمة العربية فى الصيف الماضى ، صيف البطولة والمهانة العربية فى لبنـــان ، والاحباط والعجز القومى المروع حيال الاجتياح الدامى لهذا الجزء العزيز من الوطن العربى ، واحتلال عاصمة عربية والمساس بكرامة الأمة وشرعية وجودها نفسه مع هذا الاحتلال البغيض • وقد تركت فصول ما جرى فى هذا الصيف العصيب بصماتها غير المرئية على هذا اللقاء الذى كان انعقاده بعد شهور من موعده الأول • ومن مأساة الهوان العربى فى لبنان ، نوعا من الرفض النبيل لهذه المهانة ، وادانة غير مباشرة للأوضاع العربية التى دفعت بواقعنا المتردى الى مشارف هاويتها السحيقة •

وهذا الرفض النبيل والتعامل الذكى غير المباشر مع الأوضاع الراهنة من سمات اتحاد كتاب المغرب الذى نظم هذا اللقاء • واتحاد كتاب المغرب واحد من أهم اتحادات الكتاب العربية ومن أكثرها تميزا وحيوية • ليس فقط لأنه اتحـاد مسـتقل عن سياسـة الدولة وغير مرتبط بهـا ماديا أو معنويا ، ينهض أساسا على جهود أعضائـه ، وعلى دعم القـراء ومحبى الأدب من أبناء الشعب المغربى له ، ولكن أيضا لأن العناصر الثقافية التى تسيطر عليه وفي مقدمها رئيسه ، الكـاتب المغربى المرموق محمد برادة ، ومجلس ادارته من أكثر العناصر استنارة وجدية ، ومن أعمقهـا ايمانـا بشرف الكلمة وفاعليتها ، ومن أكثرها أصالة وطليعية • ولهذا يؤمن هذا الاتحاد بأهمية الحوار الأدبى العربى الخلاق ، وضرورة توفير المناخ الجاد الذى يزدهر فيه هذا الحوار ، ويتفتح ويعى ضرورة التحرر من الكليشيهات والصيغ الببغاوية الجاهـزة ، والقمـع المؤسساتى البغيض حتى تتحقق فاعلية الأدب ويمكن ازدهاره •

وقد أسفرت هذه الملامح والقناعـات عن نفسها بوضوح من خـلال أسلوب تنظيمه لهذا الملتقى ، وطريقة عمل جلساته•فقد كان اتحاد كتاب

المغرب واعيا بأن التنظيم الجيد لمثل هذه اللقاءات هو الخطوة الأولى فى سبيل تحقيقها للأهداف المنشودة منها ومن هنا عمد بداءة الى اختيار موضوع محدد يدور حوله الحوار • موضوع لايتسم بالعمومية ، ولا ينحو الى استيلاد الشعارات وتكريس الخطابية والكليشيهات الببغاوية الجاهزة ، كما هى الحال فى معظم اللقاءات الأدبية العربية • وكان هذا الموضوع هو واقع الأقصوصة العربية وقضايا كتابتها وقراءتها النقدية • وكانت صيغة مناقشة هذا الموضوع ودراسته هى صيغة الملتقى التى تنأى عن البهرجات المهرجانية ، والطنطنات الاحتفائية ، وتقترب من مواضعات حلقة البحث والجدل الجاد المعمق • ثم لجأ اتحاد كتاب المغرب بعد ذلك الى اختيار المدعوين بدقة تنطوى على فهم واضح لمسألة أن نوعية المتحاورين تحدد طبيعة الحوار ومستواه • فلم يقدم دعواته الى اتحادات الكتاب فى الدول العربية الأخرى بدون تمييز ، بل وجه الدعوة الى بعض الاتحادات التى يثق فى اختياراتها ، وتجنب الاتصال باتحادات أخرى يقينا منه بأنه لو طلب منها أن ترسل له وفدا منها فانه سيتضمن أكثر العناصر تقليدية ، واقلها قدرة على التحرر من القوالب الجامدة ، والرؤى الببغاوية السقيمة، أو من القيود السياسية المكبلة لفاعلية الحوار ، الكابحة لانطلاقاته المستشرفة للجديد والأصيل • فهذه العناصر التقليدية لن تستطيع الاسهام فى أى حوار جدى عميق • فقد استمرأت تليفها العقلى ، وكساحها الفكرى ، الذى يقعد بها عن ادراك قيمة الجديد والأصيل فى واقعها الثقافى ، لعجزها عن استيعاب مغامرته الابداعية ، أو اكتشاف ملامح الحساسية الحديثة التى بلورها ، أو قواعد الاحالة الجديدة التى يرسخها، وينفى بها وعبرها الكثير من مواضعات العالم القديم وتقاليده • ومن هنا كانت الدعوة موجهة أساسا الى مجموعة من المبدعين والنقاد المتميزين فى كل بلد عربى ، بصرف النظر عن دعم اتحاداتهم الرسمية لهم أو تخليها عنهم • ألم تثبت تجربة اتحاد كتاب المغرب نفسه أن الأدب قيمة فى حد ذاته مادام جديرا بهذا الاسم ، قيمة لاتحتاج الى دعم المؤسسات الرسمية ، بل تنفر منه وتتجاوز كل حدوده وقيوده فى فاعليتها وتأثيرها • ولذا كان معيار الإختيار هو القيمة الأدبية والقدرة على الاسهام فى حوار خلاق قادر على اثراء المتحاورين والقضية المطروحة على السواء •

وما أن اختار اتحاد كتاب المغرب موضوع الملتقى وقسمه الى مجموعة من المحاور الأساسية التى تستهدف بلورة اطار عام للحوار ، دون فرض شكل مسبق عليه ، ثم اختار المتحاورين المحتملين ، حتى أرسل الاتحاد بدعواته لهم قبل أكثر من عام من موعد الملتقى ، طالبا منهم اعداد دراساتهم حول أى من هذه المحاور لتكون مرتكزا للجدل والنقاش ،

واسهاما مبلورا من كل كاتب فيه • رغبة منه في طبع هذه الابحاث وتوزيعها على المتحاورين قبل انعقاد الملتقى بوقت كاف ، حتى يتسم النقاش حولها بالجدية والعمق والموضوعية • غير أن أحداث واقعنا العربى الأليمة ،وايقاع الحياة المضطرب فيه ، قد تحالفت مع بعض الاضطراب التنظيمي وبعض الوقائع والظروف الخارجية ، ومع عادة الكسل العقلى الموروثة ، فى احباط بعض جوانب هذا التنظيم الدقيق ، خاصة في عدم وصول بعض الكتاب الذين دعوا الى هذا الملتقى •

فبالرغم من أن اتحاد كتاب المغرب قد دعا أكثر من ثلاثين كاتبا من مختلف البلدان العربية لم يصل منهم سوى ١٦ كاتبا عربيا هم ادوار الخراط وصبرى حافظ وسيد البحراوى من مصر وخالدة سعيد والياس خورى ويمنى العيد من لبنان وهانى الراهب من سوريا وتوفيق فياض ومحمود شاهين وليانة بدر من فلسطين وتوفيق بكار ومحمود التونسى من تونس وغائب طعمة فرمان وبرهان الخطيب وعبد الرحمن الربيعى من العراق وعبد الملك مرتاض من الجزائر هذا بالاضافة الى ضيفى الملتقى الشاعر الفلسطيني محمود درويش والمستشرق الروسى فلاديمير شاجال• وقد شارك فيه أيضا ما يقرب من ثلاثين كاتبا مغربيا ، نذكر منهم محمد برادة ومبارك ربيع وعبد الجبار السحيمى وأحمد اليابورى ونجيب العوفى وادريس الخورى وعبد الفتاح كيليطو والميلودى شغموم بشير القمرى ومحمد شركى ورشيد بنحدو وغيرهم • كما حضره الشاعران المغربيان عبد اللطيف اللعبى ومحمد بنيس •

وانقسم عمل الملتقى الى قسمين أساسيين أولهما وأهمهما هو ندوة القصة القصيرة والتى أفضل أن ادعوها بندوة الأقصوصة العربية التى انعقدت فى سبع جلسات طويلة فى صباح كل يوم ومسائه طوال أيام الملتقى الأربعة • وكان مقررا أن تقتصر جلساتها على المشاركين من الكتاب العرب والمغاربة ، وأن تكون حلقاتها مغلقة ، لكن شغف الجمهور وحرصه على الاستماع اضطر منظمى الملتقى الى السماح للجمهور بالجلوس والاستماع دون أن يكون له حق المناقشة • حتى يظل الجدل محصورا فى نطاق العمق والجدية ، وحتى ينجو الملتقى من أنشوطة اللجاجة والملاحاة والمماحكات الفارغة • أما ثانى قسمى الملتقى فقد كان مخصصا للقراءات الأقصوصية فى الأماسى • وهى قراءات استهدف تعريف الجمهور المغربى الواسع بشتى ألوان القص العربى وبما يدور فى ساحة الأقصوصة العربية من مغامرات تعبيرية حديثة • وقد شارك فى هذه اللقاءات عدد من القصاصين العرب والمغاربة • وان عانت هذه القراءات من غياب عدد كبير ممن دعوا الى هذا الملتقى من كتاب الأقصوصة البارزين فى العالم العربى

مثل زكريا تامر وحيدر حيدر وابراهيم اصلان وليلى العثمان ورشاد أبو شاور ويحي يخلف ومحمد خضير وفؤاد التكرلي وغيرهم . ومن هنا اقتصرت الأمسيات الأقصوصية على أمسيتين شارك فيهما هاني الراهب وادريس الخوري ومحمود شاهين ومحمود التونسي وليانة بدر والأمين الحمليشي ومحمد الهرادي . واستبدلت بأمسية القراءات الثالثة قراءة شعرية ناجحة لضيف الملتقى الشاعر الفلسطيني الكبير محمود درويش .

وقد افتتح الملتقى عصر يوم الثلاثاء ٢٢ مارس ١٩٨٣ بكلمة افتتاحية من رئيس اتحاد كتاب المغرب الناقد القاص محمد برادة . قدم الأهداف والمحاور الرئيسية التى يبتغي الملتقى تحقيقها وبلورتها ، أو بالأحرى تصور اتحاد كتاب المغرب لهذا اللقاء وما يستهدفه منه . وهو تصور أنضجته تجربة الاتحاد نفسه قبل عامين في ملتقى الرواية العربية الذى عقده عام ١٩٨٠ ، والتى كانت من التجارب الناجحة فى ميدان اللقاءات الأدبية العربية . اذ استطاعت أن تتجنب السفسطات والتعميمات والشعارات المجوجة ، وأن تناقش بعض قضايا الرواية وهموم الروائى العربى على السواء بقدر ملحوظ من العمق والبصيرة . ولذلك طرح اتحاد كتاب المغرب عبر كلمة محمد برادة قضية اتخاذ الأقصوصة التى قامت كشكل أدبى متميز بتحرير الكتابة العربية من السجع وبلاغة الذاكرة كمنطلق ننفذ منه الى اشكالية الأدب حول الحداثة والعلائق مع الجمهور والناشرين وغير ذلك من العناصر الفاعلة والمؤثرة فى عملية أنتاج الأدب وتوصيله . واعتبار تحليل النص الذى يثبت قابلية توليده لتعددية القراءة ـ الدلالة وسيلة لتحريره من الكليشيهات وتحقيق فاعليته من خلال طرح الاهتمام بالتعريفات والمعيارية العاجزة عن تمثل الاصالة والكشوف جانبا ، والاهتمام بكل ما يساعد على تطوير قراءة النص الأقصوصى قراءة تأويلية ابداعية عبر نصية . فهذه القراءة وحدها هى القراءة القادرة على الالتقاء بالمجتمع بشكل فعال ، وليست تلك القراءة التى تعتمد على المفهوم التبسيطى الاستنساخى للفن ، والعاجزة عن التحرر من أحد المعايير المستمدة ببغاويا من سجل النقد الغربى .

ولذلك دعا محمد برادة فى كلمته تلك الى ضرورة تحقيق القطيعة الكاملة مع النصوص الببغاوية ومع قمع المؤسسات الذى أدى الى استقالة المواطنين من أوطانهم فى بقاع كثيرة من وطننا العربى والى استحالة التفاهم والتواصل فى هذه البقاع ، والى تجنب التنميط وتقسيم الانتاج الى مجموعات وخانات تفتقر الى التحليل وتبسط تحولات النص وتعدديته . ودعا أيضا الى اعادة تحديد مفهومى الالتزام والحداثة اللذين كان لهما تأثير ملفوف بالالتباس والضبابية لزمن طويل ، الى التعامل مع الأدب

باعتباره منظومة مؤسسية تعيش داخل التاريخ وتتفاعل معه ، والى اعداد القارىء للتعامل النقدى مع النصوص الابداعية • فبدون هذا الاعداد يظل واقعنا الثقافى أسير مجموعة من المسلمات الخاطئة التى تسود فيه دونما تمحيص • ودعا كذلك الى الاهتمام بالكتابة النسائية التى تميعت خصوصيتها وراء أقنعة الرجل البلاغية وخلف سيادة ذكورية الكتابة وأحادية الصوت واللغة ، تحريرا لها من وصاية الرجل الكتابية • وتمكينا لها من استيحاء جسدها ، واستكناه عالمها ، وبلورة لغتها النسائية المتميزة القادرة على تجاوز لغة البهارات والمقبلات ، لتصبح لغة كلية لغة فنية • ولغة ابداعية قادرة على خلق نصوص فنية متميزة •

ومن خلال هذا كله يمكن لهذا الملتقى ـ كما يقترح برادة ـ أن يكون خطوة على طريق تدعيم رحلة الأقصوصة العربية نحو شواطىء لاتحدها التعريفات والأنماط الادبية والتعسفات التى تحول دون التعامل مع النص الأدبى باعتباره عملا قادرا على احتضان الواقعى والحلمى والخيالى والمادى والانفعالى معا • فالأقصوصة باعتبارها لم لأطراف المشتت ، واعادة نسجه وتوليفه ، أشمل من أى من المحاولات الباترة لتصنيفها • فهى مرصد لتعدد اللغات الاجتماعية وتعدد دلالاتها وايحاءاتها • ومن هنا فان الكتابة هى الفوضى الوحيدة الممكنة وسط السديم الذى صعقتنا تعاسته البالغة ، دون أى تعال على الواقع المفرط فى تعقيده وتشابكه • والكتابة التى تنزع أردية السلطة ولغتها وقيمها ، الكتابة التى لا يكتم أنفاسها تقديم العقلانية والعلم والتكنولوجيا ، الكتابة الفعل المغير ، الكتابة التمرد على التدجين واستعادة المخيلة الموؤدة ، الكتابة الفن والابداع والتغيير • ونحو تحقيق هذا النوع من الكتابة واكتشاف ملامحه والتعرف على جوهر حركيته وفعالياته اتجهت جلسات الملتقى • حيث عرضت الابحاث ـ أو المداخلات على حد تعبير اخواننا المغاربة ـ وجرت مناقشتها لساعات طويلة ، فقد كانت المناقشات فى بعض الأحيان مداخلات مستقلة برغم ايجازها ، تساوى البحث فى الأهمية ، ان لم تفقه بصيرة وعمقا فى بعض الأحيان • ولهذا اسبغ ارتفاع مستوى المناقشات ، واختفاء اللجاجة منها الى حد كبير على الملتقى مناخا من الجدية والعمق •

وتنقسم الأبحاث التى قدمت عبر جلسات ندوة الأقصوصة العربية السبع بهذا الملتقى الى عدة أقسام : أولها قسم البحث عن الجذور والتعامل مع المنابع سواء أكانت هذه الجذور أو المنابع حديثة أو موغلة فى القدم ، باعتبار أن التعامل مع هذه الخلفية التراثية هو الخطوة الأولى نحو الاقتراب بشكل موضوعى من هموم الحاضر ومشاكله وقضاياه • وتندرج تحت هذا القسم ثلاثة أبحاث أولها بحث الكاتب المغربى عبد الفتاح كيليطو

« زعيوا أن ·· ملاحظات حول كليلة ودمنة » وهي دراســة لها فضــل محاولة استخدام المناهج النقدية الحديثة في تحليل نصوص السرد العربي القديم · اذ تزعم أنها ، كما قال في تقديمه لها ، جزء من دراسة طويلة تستهدف تحليل السرد القديم ، أكان سردا تاريخيا أو تخيليا · غير أن المبرر الذي قدمه الكاتب في تقديمه لاختياره لدراسة السرد القديم على شيء كبير من التهافت · اذ أعلن أنه يدرس السردالقديم بسبب عدم تمكنه من السرد الحديث ، وهو زعم ينطوي على حكم قيمة مضلل · واستمــر تهافت حجته في الوضوح عندما أشار الى أنه يدرس (كليلة ودمنة) دون (تاريخ الطبري) مثلا بسبب استسلامه للوقوع في المنزلق التقليدي : الذي اعتاد تحليــل النص التخييــلي دون النص التاريخي · لكن بحث عبد الفتاح كيليطو أكثر تماسكا من حججه المتهافتة في التبرير له ، وان كان لا يزال في طوره الأول ، وما زالت بالتــالي مطامحه أكبر كثــيرا من انجــازاته ·

فهو يحاول تطبيق المنهــج البنيوي في تحليل النص على حكايــات (كليلة ودمنة) منطلقا من أن ثنائية التعارضات الأساسية التي تعمــل فيه ، هي ثنائية الظاهر والباطن ، والتي تتبدى عبر مجموعة من المظاهر وتنطوي على عدد من الثنائيات الأخرى · ويجتهد البحث · وفي اجتهاده قدر من الاجهاد ، في ادراج بعض جزئيات العمل واستعاراته ، وشيء من علاقاته البنائية داخل اطار هذه الثنائية الفاعلة ، بقدر ملحوظ من البدائية والتعسف · وخاصة عندما يحاول ايجاد هذه الثنائية في عملية القص أو التخاطب الداخلية أو بالأحرى تطبيقها فيما اسماه باستراتيجية الخداع واستراتيجية اكتشاف الخداع · ويتهاوى منطقه وتتمزق محاولته لتطبيق هذا المنهج النقدي عندما يتناول مسألة هامة في هذا النوع من النصوص، وهو عملية الاسناد التي تنطوي على حركية النص التخييلي وفاعليته · وينهض عليها منطقه الداخلي ، ومحور العلاقات التي تنبع منها قدرته على التجدد والتأثير ، وتعددية مستويــات القراءة فيه · ومن هنا لم يتمكن هذا البحث ، برغم أهميته وريادته في اقتحام آفاق تحليلية جديدة ، من اضاءة الجوانب البنائيــة الهامــة في هذا النص التراثي الذي اثبت أنه لايزال ، كمعظم اشكال السرد العربي التخييلي القديم في حاجة الى دراسة منهجية جادة ·

أما البحث الثاني في هذا القسم فكان بحث الناقد التونسي المرموق توفيق بكار عن الاصــداء التراثية في عملــين من القص التونسي المعاصر وعنوانه « من أعماق التراث الى آفاق المعاصرة » وهو دراسة تحاول تطبق منهج جدلي تحليلي يعتمد على مفاهيم أساسية ثلاثة : هي التفاعل والتناقض

والتجاوز فى تحليل نصين من الأدب التونسى المعاصر هما « حديث البعث الأول » لمحمود المسعدى من كتابه (حدث أبو هريرة فقال) و « العصر والنشر » لحسن نصر من مجموعته القصصية (٥٢ ليلة) . ويستفيد منهجه فى تحليل النص الأول من أدوات البنيويين وطرائقهم فى البحث عن الثنائيات الفاعلة فى العمل الأدبى ، وذلك حتى يرد هذا العمل الى أصوله واستلهاماته التراثية . أما العمل الثانى فلم يشر له الا بكلمات موجزة فى المقدمة ، وأجل البحث فيه الى دراسة أخرى ، وربما الى النص الكامل من دراسته والذى سينشر مع وقائع الملتقى فيما بعد . والبحث الثالث فى هذا القسم هو بحث كاتب هذه السطور بعنوان « حصاد العين الهادئة : دراسة فى اقاصيص يحى حقى » وقد حاول أن يكشف من خلال تحليل أعمال يحى حقى الأقصوصية عن دور هذا الكاتب المصرى الكبير فى تخليص مفهوم الأقصوصة من الشوائب التى لحقت به فى مرحلة الميلاد ،وتثبيت الأقصوصة الفنية الناضجة كشكل فنى قادر على طرح اعقد الرؤى واخصب القضايا والقراءات . كما حاول أن يتعرف على انجازات هذا الكاتب المتميزة على صعيدى المبنى والمعنى على السواء وعلى طبيعة عالمه الفنى الذى أثرى رحلة الأقصوصة المصرية ، وأثر فى كثير من كتاب الأقصوصة فى مصر وغيرها من أقطار الوطن العربى على مد فترة طويلة من الزمان .

ويضم القسم الثانى من الأبحاث مجموعة الدراسات التى اهتمت بقضايا الشكل والتجنيس . وهى الدراسات التى حاولت أن تهتم بهموم الأقصوصة النظرية ، أو بالاجابة عن الأسئلة الأولى كما يشير عنوان البحث الأول فى هذا القسم ، وهو بحث الناقدة اللبنانية يمنى العيد بعنوان « القصة القصيرة والأسئلة الأولى » والذى حاولت فيه تناول الأسئلة الأولية عن ماهية الأقصوصة كفن : هل هناك مفهوم يحددها وتقرأ فى ضوئه ؟ وما هو القص ، وبالتالى ما هى الأقصوصة كقص ؟ وما هو الحقيقى فى القص ، وكيف يمكن فرزه من المتخيل ؟ وما هى علاقة ذلك بالصراع وبالمجتمع وبكل ما هو صراعى فى المجتمع ؟ واين ينهض الحقيقى فى القصة ، وما هى علاقة القصة كادب بالواقع الاجتماعى . أى بالايديلوجية؟ حول هذه الأسئلة دار بحث يمنى العيد الذى اعتمد مفهوم باختين فى اللغة مدخلا فتناول هذه القضية النظرية حول ماهية الشكل القصصى بأسئلتها المتعددة . وينهض مفهوم باختين على أن اللغة انزياح عن الواقع. وعالم كونى مفارق له . أنها رؤية . ولما كانت اللغة هى أداة القص ، فان القص بالحتم مفارق للعالم الواقعى أى عالم الوقائع والموجودات . وينطوى على رؤية له . والأقصوصة قص يتميز بمجموعة من الملامح : أولها قصر الشريط اللغوى . وليس طول الشريط أو قصره مفهوما شكليا

لأنه يترك أثره على عالم القص من حيث زمنه ومساحته ، وعلى أيديولوجيته أيضا • وثانيها هي طبيعة العلاقة الخاصة بالواقع من جهة ، وبالقارئ الذى يجلب الى عالم القصة حضور ثقافته حتى تتحقق الفاعلية الثنائية للغة / للنص/ للقص في وقت واحد ،وحتى يدخل القارئ الى عالم الشخصيات ، والى عملية انتاج الدلالة وتكوين الأيديولوجية النصية •

وقد أثار هذا البحث الكثير من الجدل حول ما اذا كان طول الشريط اللغوى هو الذى يفرض الزمن والمساحة أم أن الزمن هو الذى يحدد طول الشريط اللغوى ؟ وحول مسألة التجنيس ذاتها وأين تقف الحدود بين الأجناس الأدبية ؟ وهل ثمة حدود فاصلة وقاطعة بين الشعر والأقصوصة ؟ أو بين الأقصوصة الطويلة والرواية القصيرة ؟ أو بين الأقصوصة الحوارية والمسرحية الذهنية ؟ •• الخ • بل لقد أثار جدلا حول المنهج البنيوى ذاته ، وحول اسهامات الشكليين الروس فيه ، ومدى علاقة عناصر الثبات التنميطية التى يدخلها القارئ معه الى العمل بحركية العمل الفنى وتعدديته ؟ وبدا أن المناقشة أو بالأحرى الملتقى كله قد جنح الى قدر كبير من التجريد النظرى ، وانفصل عن حرارة الواقع ومشاكله • لكن النقاشات النظرية الممتعة من الأمور الضرورية واللازمة فى مثل تلك الملتقيات ، شريطة ألا تنأى بالملتقى بعيدا عن قضايا الواقع واشكالياته ، وأن يكون الاهتمام بالمشاغل النظرية من أجل ارهاف قدرة الملتقين على التعمق فى تناول اشكاليات الواقع ، ومشاكل الجنس الأدبى الذى يتعاملون معه •

غير أن البحث الثانى فى هذا القسم وهو بحث القاص الناقد اللبنانى الياس خورى بعنوان « ملاحظات حول الكتابة القصصية : اللغة / الراوى/ الكاتب » استطاع أن يحقق التوازن المطلوب بين التجريد النظرى والزخم الواقعى الذى يجعل لهذه التجريدات قيمة كبيرة ، لأنها تبدو طالعة من رحم الواقع ، وتتميز بما فيه من حيوية وحرارة • وقد تميز هذا البحث بدرجة من الجدية والتواضع جعلت الجميع يتأسون بشكل كبير على غرور وحالة الكلمة المتغطرسة المطوطة التى قدمها عبد الرحمن مجيد الربيعى عن تجربته القصصية فى كتابة مجموعته الأولى (السيف والسفينة) والتى اعتبرها كاتبها ، مدعوما بشهادات مملة من أصدقائه ، فتحا خارقا مبينا فى ميدان القصة العراقية والعربية عامة • ذلك لأن بحث الياس خورى يطرح الأسئلة التى تشغل كاتبه ، وتشغل معه معظم كتاب القصة العربية الجادين : أسئلة الخيارات اللغوية ، والمنطلقات المختلفة ، وتأسيس لغة جديدة ، والافتقار الى نظرية واحدة للقص العربى، وغير ذلك من أسئلة الاشكالية الابداعية أو الاشكاليات الابداعية على القصة باعتبارها مختبرا لغويا ومقتربا معرفيا يعبر عن اشكاليات تصور

المجتمع لنفسه . وقد تناول هذه الأسئلة من مجموعة من الزوايا : زاوية الازدواج اللغوى ، وزاوية عناصر التجديد اللغوى وتزويج اللغة التراثية بعناصر التبسيط الكلامية ، ثم زاوية التركيب اللغوى . وانطلق بعدها لدراسة مسألة الراوى وعلاقاته المتشابكة داخل عملية القص المعقدة . لا علاقته بما يرويه فحسب ، بل بالراوى الفنى ، وبالمؤلف وبالبطل وبكل تفاصيل العالم الأقصوصى ، ثم خلص بعد ذلك الى طرح مجموعة من الأسئلة الجوهرية حول الجذر الاجتماعى والتاريخى لنشوء فن الأقصوصة، وحول مسألة المدارس والتيارات وعلاقاتها الداخلية ، وحول مسألة الحدود الفاصلة بين الأقصوصة كجنس أدبى وبقية الأجناس الأخرى التى تستعمل لغة القص ، وحول مسألة العلاقة المرجعية التى تبنيها القصة ودور الجمهور فيها .

أما المبحث الثالث فى هذا المجال فقد كان بحث محمود التونسى عن «المفهوم والمحسوس من خلال لغة القصة» والذى حاول فيه من خلال هذين الجانبين أن يحدد بعض مميزات الشكل الأقصوصى التى تساعدنا على هضم فوضى الحدود غير المضبوطة فى عالم الأقصوصة العربية اليوم . وتناول فى هذا الصدد قضايا السرد والحوار والوصف بقدر كبير من التعميم . وحاول توصيف عنصر الحكاية الذى اعتبره من أهم عناصر القص ، لأن الحكاية بالنسبة له هى الصيغة المثلى لتشكيل حدث أو مجموعة من الأحداث المتسلسلة ، أى الصيغة المثلى للتعبير عن الزمن الذى يعتبره المعطى الذى لا يمكن أن تتحقق بدونه أية علاقة وعى بما هو محسوس أو مفهوم . ثم يدرس علاقة ذلك كله بمسألة اللغة وكيفية تبديه فيها ، وأن بقيت دراسته عمومية فى أغلبها لأن اللغة التى يتحدث عنها هى اللغة على اطلاقها ، وليست لغة القص ذات الملامح والخصائص المتميزة .

ويعد البحث الرابع والأخير فى هذا القسم وهو بحث الروائى والقاص السورى هانى الراهب عن « ما هى الأزمة : آراء حول واقع الكتابة القصصية » حلقة وصل هامة بين أبحاث هذا القسم ، والقسم التالى الذى اهتم بدراسات الواقع والتطبيق . ذلك لأن بحث هانى الراهب يحاول أن يربط بين السعى النظرى لبلورة ملامح الأقصوصة وخصائصها البنائية ، وبين تفكك الواقع وبشاعته التى فاقت كل حدود الخيال وطاقة الأخيولة « الفانتازى » على الاختراع . فهذا التفكك فى تصوره هو الذى قضى على الأقصوصة الاستبطانية التقليدية التى لم تصمد فى معركة التفاعل التصادمى بين الفن والواقع ، أو بالأحرى لاتستطيع استيعاب ملامحها المعقدة . وهو أيضا الذى أدى الى انحسار الشعر عن الأقصوصة ، والى ظهور ما أسماه بالواقعية الجديدة التى أسفرت عن

نفسها خلال نزعة الأقصوصة القوية الى التوثيق والايحاء وظهور ما أسماه بالأقصوصة المفصلية التى تقابل تفكك المجتمعات العربية ، وهى الأقصوصة المجزأة الى مقاطع وجزئيات ، والأقصوصة الانفجارية التى تأتى كالبرق وكأن رحم اللاوعى المقموع ينشق عنها ويقذفها فى وعى المجتمع،والأقصوصة المتراكبة المركبة التى تدور على صعيدين متواكبين أحدهما يرسم الحدث بواقعيته ومباشرته ، والثانى يدخله فى لعبة الوعى والتأويل ٠

وبهذه الأنواع الثلاثة يقدم لنا هانى الراهب صورة الأقصوصة العربية فيما بين الحزيرانين أو ما بين الهزيمتين اللتين عصفتا بالكثير من الرواسى فى الواقع العربى ، وعصفتا معهما بالبنية الدماكية للأقصوصة ٠ لانها أصبحت غير صالحة فى عالم مفكك تتفشى فيه الأكاذيب السياسية والحضارية وتنكشف عوراتها ٠ وتخلف بدلا منها هذه الأشكال الأقصوصية الثلاثة التى تنطوى على تأكيد لتغلغل الواقع السياسى فى البنية الأقصوصية ذاتها من ناحية ، وعلى برهان على أن الأقصوصة على قدر كبير من الحيوية ، مما مكنها من مغالبة واقع القمع والهزيمة ، ومن وجود الانسان العربى برغم كل ما يتعرض له من قهر ومهانة ٠

قلت ان بحث هانى هذا كان حلقة الوصل بين القسم الثانى والقسمين التاليين له أو بالأحرى القسم الكبير التالى والذى إهتم بالدراسات التطبيقية عن حاضر الأقصوصة العربية ٠ وهو قسم يمكن تقسيمه الى نصفين : أولهما اهتم بدراسة واقع الأقصوصة المغربية وتعريف الملتقى بشتى تياراتها واتجاهاتها وقضاياها ، أما ثانيهما فقد احتفى بدراسات من نفس النوع لبعض ما يجرى فى ساحة الأقصوصة العربية فى بلد من البلدان ٠ وتضم دراسات القسم الأول بحث نجيب العوفى « القصة المغربية : على خط التطور أم على حافة الأزمة » وهو بحث ينطلق من مقولة عبد الله العروى بأن الأقصوصة هى الشكل الأدبى الملائم لمجتمعنا العربى المشتت ، ومن أن صيرورة البنى والأشكال الأدبية متشارطة ومترابطة مع صيرورة البنى والأشكال الاجتماعية ٠ فالضرورتان متواصلتا التفاعل والنمو ٠ ويربط لذلك بين مادار فى المجتمع المغربى وما شهدته ساحة الأقصوصة المغربية من تحولات فى الشكل والصياغة أو الرؤية ٠ ويخلص من هذا كله الى أن الأقصوصة المغربية لاتزال تعانى من آلام الولادة وتعيش مخاضا تجريبيا مستمرا ٠

وكان هناك كذلك بحث ادريس الناقورى عن « الواقعية الرمزية فى الأقصوصة المغربية » والذى يتناول عددا كبيرا من النصوص التى كتبت فى السنوات العشر الأخيرة ، متعرفا على قسماتها وملامحها المشتركة ٠

كاشفا عن طبيعة وعيها بالواقع الذى صدرت عنه • وعن نوعية رؤيتها له وموقفها منه • ويقسم الناقورى هذه النصوص حسب مفاهيم اجرائية أربعة هى التخييل أو الفانتاستيك ، والسخرية ويقصد بها المفارقة الهجائية الساخرة ، والتناص أو علاقة النص الأدبى بغيره من النصوص القديمة أو الحديثة ، وأخيرا الرؤية الماساوية التى تتغلغل فى معظم الأشكال السابقة ، وتسرى فى عروق الأقصوصة المغربية الصادرة عن وعى الكتاب الشقى والمحبط والمأزوم معا ، ولكنه لا يزال برغم هذا كله يطمح الى التغيير •

أما البحث الأخير بين الدراسات التى تناولت واقع الأقصوصة المغربية فقد آثر أن ينتهج أسلوبا مغايرا لطريقة البحثين السابقين • اذ ركز كاتبه القصاص والروائى المغربى مبارك ربيع على عمل واحد لكاتب مغربى واحد هو مجموعة (سفر الطاعة) للكاتب المغربى الميلودى شغموم • وحاول أن يقدم قراءة مستبطنة لها ومتعاطفة مع مؤلفها وراغبة فى التعرف على أسراره ورؤاه وبنيته الداخلية • كاشفا عن مستويات التوتر فى النصوص وعلاقتها بمستويات اللغة المختلفة ، فى محاولتها الشائقة لكتابة الجنون كحالة وكوجود وكنظام اشارى وكابداع معا •

أما دراسات النصف الثانى من هذا القسم فقد ضمت دراسة هامة لادوار الخراط عن « مشاهد من ساحة القصة القصيرة فى السبعينات » وهى دراسة سبق أن نشرها كاتبها فى عدد مجلة (فصول) الخاص بالقصة القصيرة ، ثم كمقدمة لمختارات أقصوصية أصدرتها سلسلة « مطبوعات القاهرة » فى مصر قبل عدة شهور • ودراسة أو بالأحرى قراءة نقدية شائقة قدمتها خالدة سعيد لمجموعة الياس خورى الهامة (الجبل الصغير) • وهى مجموعة هامة ليس فقط لانها تحاول أن تكتب الحرب ، أو تحيلها الى فن • ولكن أيضا لأنها مغامرة جديدة فى عالم الأقصوصة العربية على صعيدى البناء والرؤية معا • تقيم جسرا بين الأقصوصة كجنس أدبى متميز ، والرواية كجنس آخر يتعرض لمجموعة من المغامرات التجريبية التى توسع من أفقه الشكلى • وقد لمست دراسة خالدة سعيد بعض ملامح هذه الجدة وخاصة فى بلورتها لعملية التقاطع الخصبة بين الشخصى والتاريخى ، وفى غياب الهيكل أو تحلله بالصورة التى يتمتع معها كل جزء من العمل باهمية دلالية مساوية لأهمية العناصر الباقية • وفى تعدد المستويات اللغوية وامتزاجها وتفاعلها • وفى تكامل أقاصيص المجموعة بالصورة التى تطرح فهما متميزا للمجموعة الأقصوصية غير الفهم التراكمى التجميعى ، وفى غياب المسار الخيطى أو التسلسل السببى والاستعاضة عنه بنوع فعال من التراكمات الكيفية ، وظهور

ما أسمته خالدة سعيد بالبنية الشبكية ، وفى انفتاح الكاتب على الأنواع الأدبية الأخرى . ولا غرو ان كان الياس الخورى نفسه قد أثار بعض الشك فى دراسته فى هذا الملتقى عن الحدود الفاصلة بين الأجناس الأدبية المختلفة ، وخاصة تلك التى تستخدم السرد أداة رئيسية لها . لأنه يجتاح فى عمله هذه الحدود ، وينفتح على مجموعة من الأشكال الأدبية فى وقت واحد .

وهناك أيضا دراستان أخريان : هما دراسة سيد البحراوى عن « يحى الطاهر عبد الله كاتب القصة القصيرة » التى تناول فيها أعمال واحد من أرهف كتاب جيل الستينات فى مصر موهبة ، وأثراهم رؤية . وعرض المستشرق الروسى فلاديمير شاجال عن القصة العربية الذى كان فى الواقع استعراضا لما ترجم منها الى اللغات السوفيتية المختلفة .

أما القسم الأخير من أبحاث هذا الملتقى فقد خصص لموضوع الكتابة النسائية . وقد عانى هذا القسم من غياب عدد من الكاتبات اللواتى دعين الى الملتقى ، ومن تقاعس بعض من حضرن منهن ، ومن هنا دار هذا القسم على هيئة مائدة مستديرة ظل عدد المشاركات فيها يتقلص يوما بعد يوم ، حتى اقتصر على كاتبتين هما خالدة سعيد وليانة بدر . والواقع أن موضوع الكتابة النسائية موضوع شائك ، ليس فقط لأنه ينطوى على حكم قيمة ، يضع الكتابة النسائية فى مكانة أدنى من « الكتابة » أو الكتابة الرجالية ، ولكن أيضا لأنه يفترض نوعا من الازدواجية المعيارية غير المستحسنة ، وقد حاولت المناقشة فى هذه المائدة المستديرة ، والتى شارك فيها عدد كبير من الكتاب ، أن تبلور مفهوم تمايز اللغة النسائية داخل اللغة العامة ، فهى لغة مرتبطة بذاتها لا يجب أن تحرم من التعبير عن ذاتها بحجة نيابة الرجل عنها فى هذا المجال . فعالم المرأة عالم داخلى له خصوصياته التى لا تزال فى حاجة الى استقصاء خوافيها وبلورة ملامحها . فليس هناك انفصال كبير بين المرأة كاتبة والمرأة مكتوبة فى هذا العالم . لكن الانفصال بينهما كبير من خلال مرشح رؤية الرجل وتسلطاته ولغته . والغريب أن مناقشة هذا الأمر لم تبلور شيئا واضحا فى هذا الميدان ، بل تخبطت الآراء بين رافض كلية لتقسيم الأدب الى نسائى ورجالى : ولم يكن هذا مطروحا على الاطلاق ، وبين منكر لعجز الكاتب الرجل عن بلورة عالم المرأة الخاص داخل ابداعاته . وكأنه نوع من فرض سلطة الرجل المطلقة على كل شيء وبين معترف بأن البعد الميثولوجى لكل ذات موجود على الصعيد الواقعى ، ولكن تحولات هذه الذات فى اللغة تتجاوز كل الخصوصيات الخارجية . ومن هنا انتهت المائدة المستديرة بتأكيد استدارة القضية ، أى استحالة الوصول الى رأى قاطع فيها .

وفي مساء يوم الجمعة ٢٥ مارس ١٩٨٣ عقد الملتقى جلسته الختامية التي حاول فيها ستة من المشاركين بلورة كل ما جرى في الملتقى من خلال التركيز على محاور ثلاثة : محور الكتابة الحديثة وعلاقتها بالتراث ـ الواقع ـ الحداثة ، ومحور القصة والفنون الأخرى : الجنس والتجنيس، ومحور النقد وانتاج المعرفة والمصطلح • واذا كان لى فى نهاية هذا العرض لما دار فى هذا الملتقى الهام من جدل ونقاش أن أعلق على ما دار فيه ، فانني أحب أن أشير الى نجاحه فى تحقيق نوع من التوازن بين النقد التطبيقى ومحاولات التنظير ، و بين معرفتنا بالنصوص ومعرفتنا بالأدوات والمنطلقات والمناهج • والى أن الوصفية أخذت تزيح المعيارية الجامدة من الساحة • وقد بدأت هذه الازاحة تسفر عن مدخل جديد فى قراءة النص، يفترض أن النص هو الذى يفرض قراءته / دلالته • ويحاول الاهتمام باللغة وبالعلاقات الداخلية • والى بروز الاهتمام بجدلية العلاقة بين الخارج ـ المرجع والداخل ـ النص ، بدلا من ميكانيكيتها ، وتراجع أحكام القيمة الى الخلفية دون اختفائها تماما ، والاهتمام بالتحليل بدلا من التلخيص القسرى الساذج الذى تسطح به النقد العربى لفترات طويلة ، وتحرير القراءة من كثير من المسبقات والمصادرات والافتراضات المقيدة • بالصورة التى تجعلها ابداعا مستقلا ، يساهم فى اضاءة النص الابداعى وارهاف احساسنا ببنيته وعلاقاته ورؤاه •

مكناس (المغرب)　　　　مارس ١٩٨٣

● السفر التاسع

ازدواجية المنطلقات وأحادية النظرية وذاتية الخطاب

تنطوى العلاقة بين العرب وأوروبا على قدر كبير من الكثافة والتوتر والتعقيد ، ليس فقط لانها علاقة حركية مشروطة بقدر كبير من الحتمية والقدرية التى لافكاك منهما ، أو لأنها علاقة تاريخية تمتد فى أغوار الزمن الى قرون وقرون ، وتتبدى عبر كل مرحلة تاريخية معينة فى صورة متميزة ورداء جديد ، وان لم تخل هذه الصور جميعا من سمتى التوتر والتعقيد ، ولكن أيضا لأنها علاقة بين قطبين حضاريين متباينين بل متنافرين · ومن هنا فانها تنهض على جدلية الجذب والتنافر ، واستهواء الضد لنقيضه ، ورغبته فى الاستحواذ عليه والصراع معه ، وأحيانا تدميره ، وتنطوى عبر مراحلها التاريخية المختلفة على قدر كبير من تبادل الأدوار والمراكز حيث تخضع حضارة لأخرى مرة ، ثم تعود هذه الحضارة الخاضعة فتنهض من كبوتها بل وتخضع الحضارة التى هزمتها من قبل لنفوذها ، وأحيانا لسيطرتها الكاملة ·

ومنذ وعى كل جانب من الجانبين بوجود الآخر وهذا التوتر القائم على الجذب والتنافر لاينتهى بينهما · فقد غزا العرب أوروبا عسكريا وفكريا ابان ازدهار الدولة العربية فى العصرين الأموى والعباسى · ثم دارت الدوائر وحاولت أوروبا غزو العرب ابان الحروب الصليبية ، وما أن تصورت انها حققت انتصارها حتى هب العرب بقيادة صلاح الدين وردوا فلول الجيوش الأوربية خائبة على أعقابها ، وتبع ذلك بفترة غير قصيرة وصول محمد الفاتح الى قلب أوروبا حتى أثار مخاوفها ونكأ جراحها التى كانت لاتزال مصدرا للألم · وعكفت أوروبا على جراحها ، تدرس وقائع هزيمتها ، وتهضم كل انجازات النهضة العربية ، وتأخذ بأسبابها حتى تبنى صرحها الحضارى من جديد · بينما تقهقر العرب الى حد ما حتى أغرى هذا التقهقر الجزئى أوروبا فحاولت اخضاع المنطقة العربية لها ابان الحملة الفرنسية على مصر وجزء من فلسطين · ثم لم تلبث النهضة العربية الحديثة الطالعة من اهاب مقاومة الغزو الفرنسى فى مطالع القرن التاسع عشر أن أخذت بأسباب التقدم الأوروبى ، ووقفت على أقدامها من جديد ، حتى دقت بجيوش محمد على أبواب أوروبا فى

حرب المورة ، فتجتمع أوروبا عن بكرة أبيها لتوقف الزحف العربي . بل ونشرع بعد ذلك بعقود قليلة في فرض حمايتها أو انتدابها أو احتلالها على أجزاء مختلفة من الوطن العربي فارضة عليها رؤاها الحضارية وثقافتها .

لكن الصحوة العربية التي بدأت في عصر محمد علي في مصر ، لم تسمح للاستعمار الأوروبي الحديث في القرن الماضي أن يستقر للحظة هانئا في أي بقعة من أرض الوطن العربي ، فتتواصل ضده المقاومة الشعبية والوطنية منذ البداية . وهذا ما لم يحدث في بقاع كثيرة أخرى استطاعت أوروبا استعمارها ، وتوطيد سيطرتها عليها ، دون مقاومة تذكر في هذا الوقت . واستمرت هذه المقاومة ، وتواصلت طوال الحقبة الاستعمارية ، حتى تخلص الوطن العربي من شرور الاستعمار كلية ، وان فشل حتى الآن في انتزاع آخر خناجره الكريهة والمغروزة في قلب الوطن العربي في فلسطين المحتلة . ولا تزال هذه العلاقة الكثيفة المتوترة فاعلة في وقتنا المعاصر ، وهذا التوتر والكثافة والتعقيد هو الذي فرض أو بالأحرى طرح في مرحلة جديدة من مراحل هذه العلاقة الفاعلة شعار الحوار ومنطقه . ويفترض الشعار بطبيعة اسمه ذاته منطق الندية والجدية والرغبة الصادقة في الفهم والتفاهم ، وتشييد جسور التواصل العقلي التي تعبر عليها - في اتجاهين لا اتجاه واحد - المصالح والرؤى والمنافع ، وتتوثق عبرها عرى العلاقة وتزدهر فاعليتها . فكيف تم هذا الحوار ؟ وما هي طبيعة ندوة الحوار الأوروبي العربي التي عقدت بهامبورج بين ١١ - ١٦ أبريل ١٩٨٣ ، والتي خصصت للجانب الثقافي والحضاري في هذا الحوار ؟ وهو في الواقع أخطر الجوانب جميعا ، وأهمها وأكثرها قدرة على ترسيخ القواعد التي ينطلق منها الحوار في شتى المجالات الأخرى . وماذا جرى في هذه الندوة الهامة التي أنفق عليها العرب والأوربيون ببذخ وسخاء ؟

ومن البداية نلمس نوعا من الازدواجية في منطلقات فهم كل من الطرفين لطبيعة هذا اللقاء ونوعيته . فلم يكن اللقاء من نوعية الاجتماعات الاحتفالية الضخمة التي تكرس لها الامكانيات الهائلة ، وينفق عليها ببذخ وسخاء ، دون أن تتمخض عن حصاد يتناسب مع ما بذل فيها من جهد وما علق عليها من آمال . وكان المقصود هو الطقوس الاحتفالية ذاتها وما يصاحبها من ضجيج اعلامي . وان كان فيه الكثير من ملامح هذه الاجتماعات وسماتها الاحتفالية ، وكان القضية المطروحة ليست الا مجرد تكأة لعقد تلك الاجتماعات التي ما تلبث أن تدير ظهرها لتلك التكأة لتستمتع بما يتيحه الاجتماع ذاته من مراسيم وتستهويها جلسات التشدق بالألفاظ وطقوس التنويم بالخطب والكلمات والألاعيب البلاغية اللفظية ،

ولم تكن الندوة أيضا من نوعية اللقاءات الهادئة المتواضعة التى تكرس جل جهدها للدرس الدقيق لقضية • أو البحث الموضوعى الرصين لأبعاد مشكلة ، واستقصاء شتى احتمالاتها ، وتتفتق عن مشروعات بناءة ، ونتائج ملموسة واضحة • وان كان فيها أيضا شىء كثير من سمات هذه اللقاءات الرصينة الجادة • لأن عنوانها المتواضع « ندوة » Symposium بالانجليزية أو الفرنسية أو الألمانية ـ فهى كلمة لاتينية تستعمل فى معظم اللغات الأوروبية ـ ينطوى على رغبة واضحة فى اعتماد أسلوب حلقات العمل والجدل الثقافى المعمق •

غير أن الندوة فى الواقع جاءت خليطا من الأسلوبين ، فبرغم عنوانها المتواضع « ندوة » فقد جمعت أكثر من ١٥٠ مشاركا ، بالصورة التى جعلتها أقرب الى المؤتمرات الفضفاضة منها الى الندوات وحلقات البحث • ولا غرو فان وراءها الامكانيات المادية والتنظيمية الضخمة لمجموعتين من أقوى المجموعات الاقليمية فى عالمنا المعاصر ، وهما مجموعة الدول العربية ممثلة فى جامعة الدول العربية ، ومجموعة السوق الأوروبية المشتركة ممثلة فى هيئة المجموعة الأوروبية • ومن هنا ظلت هناك درجة من التوتر بين طموحات هذه الندوة الأكاديمية والعلمية ، وبين الطبيعة السياسية والأهداف الحضارية الشاملة الكامنة وراء الدعوة لمثل هذه الندوة والمتمثلة فى نوعية الاجراءات التنظيمية ، وتكوين الوفود الممثلة لكل جانب من جانبى الحوار •

ومن البداية سنجد ان جغرافية المكان الذى عقدت فيه الندوة ، وعملية تنظيمها وطبيعة الاختيارات الصغيرة ، ونوعية التمثيل ، لاتقل فى أهميتها ودلالتها على الرؤى التحتية العميقة التى ينهض عليها هذا الحوار ، عما دار فى جلسات هذه الندوة العامة ، أو فى حلقات بحثها المتخصصة من مداولات ومناقشات ، أو ما وصلت اليه فى نهاية الاجتماعات المتصلة من توصيات وقرارات • وكان من أهم هذه الاجراءات الدالة اختيار ألمانيا مكانا لعقد هذه الندوة • فألمانيا من أكثر دول المجموعة الأوروبية براءة من الدم الذى أريق طوال القرنين الأخيرين فى ساحة الصراع العربى الأوروبى • وهى فى نفس الوقت واحدة من كبريات دول المجموعة الأوروبية ، ومن أكثرها تأثيرا فيها ، وأنجحها اقتصاديا وحضاريا، ناهيك عن اسهامها الفكرى والحضارى المتميز • فهى موطن كانت وهيجل وأدورنو ، وشيلر وهاينى وتوماس مان وهيرمان هيسه ، وباخ وبيتهوفن وفاجنر وغيرهم من كبار الهامات الفكرية الابداعية فى الثقافة الأوروبية • كما أنها ، وهذا أمر جوهرى بالنسبة لهذا الحوار ، مهد واحدة من أكثر حركات الاستشراق عمقا واستيعابا وموضوعية فى معرفة الثقافة الاسلامية

والعربية ودراستها وخدمة تراثها الفكرى والروحى واللغوى على السواء .
ومن هنا كان الاختيار محاولة من الجانب الأوروبى لنزع سلاح الجانب العربى ، والغاء تحفظاته من جهة ، ولطرح الارث الأوروبى الكئيب ضد الشرق خلف ظهره من جهة أخرى .

واختارت المانيا بالتالى مدينة هامبورج ليدور فيها هذا اللقاء . فهى واحـدة من أبرز مدن عصبة المدن الهانسية الحرة ، أو بالأحرى درة هذه العصبة ، وهى بوابة أوروبا الشمالية . لا بوابتها على الجنوب الذى يقع فيه الوطن العربى ، انما بوابتها على الشمال والغـرب وعلى العالـم من خلالهما . وهذا أمر له دلالته فى مدى عمق الفجوة الصانعة لازدواجيـة المنطلقـات ، وفى حرص أوروبا على أن تجـر الجانب الآخر فى الحوار ، لا الى أرضها فحسب ، وانما الى أقصى ما تمثله هذه الأرض من غربية . فأوروبا لاتريد أن ترى العالم من خلال الانفتاح المباشر عليه ، وانما من خلال تمريره عبر مرشح ثقافتها الغربية والشمالية منها بشكل أخص . وهى – أى هامبورج – معقل الحـداثة ، ومهـد فكرة الحـرية الغربية البرجوازية فى بعدها الاقتصادى والتجارى ، والتى نهضت على دعامتها الفكرية الحضارة الغربية المعاصرة برمتها . فأوروبا تعى من خلال هذا الاختيار هويتها ، أو تبرهن على فاعلية وعيها فى كل تصرف من تصرفاتها . ومن هنا اختارت هامبورج ، ليس لأنها أكبر المدن الألمانية أو أثراها ، ولكن لأنها واحدة من أكثر هذه المدن تفردا ، وربمـا مبالغـة فى بلورة الاختلاف الأوروبى .

ينطوى هذا الاختيار الجغرافى اذن على اقتران مبدئى ، أو على مصادرة جوهرية ، مؤداها أن جذور النهضة الأوروبية الحالية لاتنهض على اللقاء بانجازات الحضارة العربية والاسلامية الزاهرة فى العصور الوسطى ، وانما على فكرة الحرية الفرديـة التى انبثقت عن عصبة المـدن الهانسية الجرمانية القديمة . فرمز هذه الحضارة ومنارتها ليست فى المناطق التى شهدت الاحتكاك مع العرب ، ولكن فى ابعدها عن هذا الاحتكاك ، وأوغلها فى التميز والخصوصية الأوروبية . ومع ان المانيـا عهـدت بمسئولية تنظيم هذه الندوة الى معهد الاستشراق الألمانى بجامعة هامبورج ، فانه آثر الا يعقد جلساتها فى قاعات المعهد ، أو مدرجات الجامعة ، وانما فى قاعات واحد من الفنادق القديمة الباذخة ، وهو فندق أطلانتيك ، الذى يطل على بحيرة اليستر الجميلة فى قلب المدينة القديمة . وكأنما يحرص على تجريد اللقاء من طابعه الجامعى الضيق وأن يعطيه بعـدا احتفائيا عامـا .

فجماع الدلالات البارزة لهذا الاختيار اذن ، أنه اذا كان لهذا الحوار أن يبدأ ، فلابد أن يبدأ جغرافيا على أرض أوروبية ، وأن ينطلق من فوق منصة أوروبية عامة ، حتى لو كانت جامعة الدول العربية هي التي دعت اليه ، و لو كانت جامعة هامبورج هي التي تولت اجراءات تنظيمه • وحتى تبرهن أوروبا على أهمية هذا المنطلق العام ودلالته ، عمدت الى اختيار ممثلى الجانب الأوروبى فى هذا الحوار بطريقة جيدة • اذ عهدت الى كل بلد من بلدان المجموعة الأوروبية باختيار الوفد الذى يمثله فى هذا الحوار من ٦ ــ ١٠ أشخاص • وحاولت البلدان الأوروبية عموما أن تختار وفدها من بين أفضل المتخصصين فيهـا فى شئون العالـم العربى أو الاسلامى وأكثرهـم خبرة به فى كل بلد من هذه البلدان • كان هذا هو جوهـر الاختيار وان اختلفت مظاهره وتبدياته قليلا من بلد الى آخر • فبينما كان أغلب ممثلى ايطاليا وهولندا وأيرلندا من أساتذة الجامعة المتخصصين فى الدراسات العربية والاسلامية ، فان كلا من فرنسا وألمانيا وبلجيكا حاولت تحقيق نوع من التوازن بين الجامعيين والسياسيين من سفراء أو ساسة متخصصين فى الشؤون العربية • أما انجلترا قد حاولت تحقيق توازن أعرض بين الجامعيين والكتاب والاعلاميين والساسة • اذن فقد قدم الجانب الأوروبى أفضـل عناصره الدارسة للعـالم العربى ، أو صاحبة الخبرة الطويلة فى التعامل الاعلامى أو السياسى معه • وكأنه يريـد أن يؤكد معرفته الجيدة بالعالم العربى وبمشاكله وقضاياه ، وان يعتذر عن سنوات التشويه الطويلة لسمعة العالم العربى والاسلامى ، وعن الصورة المشوهة التى رسمتها للعربى أجيال متلاحقة من ناشرى الاغاليط والتحيزات •

فماذا فعل الجـانب العربى ؟ بدلا من أن يقـدم العرب أفضـل المتخصصين بينهم فى الدراسات الأوروبية ، أو أصحاب الخبرة الطويلة فى التعامل الحضارى والثقافى والعلمى معها ، جاء التمثيل العربى مبلورا لما يمكن تسميته بداء المؤتمرات الرسمية العربية • حيث يجد عدد من الرسميين فيها فرصة سانحة لرحلة ، لا مناسبة للقيام بدور أو تحمل مسئولية • فقد كان عدد كبير من المشاركين العرب من موظفى الجامعة العربية الرسميين الذين وجدوا فى الندوة فرصة سانحة لسفرة أوروبية مدفوعة التكاليف ، دون أن تكون لديهم القدرة على الاسهام فى أى حوار علمى خلاق • وكان عدد قليل منهم من الوجوه الثقافية الرسمية والتقليدية فى بعض بلدان الوطن العربى ، والتى فهمت أنها موفـدة للدفـاع عن سياسات حكوماتهـا الرسميـة ، لا للمشاركة فى حوار فكرى وثقافى مجهد ، فليس لديها الجهد لتقديم أى اجتهاد ذى قيمة • وكان ثمة عدد أقل من مثقفى العرب ودارسيهم لا يتجاوز عددهم أصابع اليد الواحدة • بل ان واحدا من أبرز المثقفين العرب الذين شاركوا فى هذا اللقاء بفاعلية

واقتــدار ، وهو محمد أركون جــاء ممثلا لاحــدى الجامعات الفرنسية ، وضمن أعضاء الوفد الفرنسى فى الحوار • ولا بد هنا أن انتهز فرصة الحديث عن هذا التمثيل وما شابه من خلل ، لأنفى أى شبهة قد ترد الى ذهن القارىء من أننى قد شاركت فى هذه الندوة كمثقف مصرى ، وهذا ليس صحيحا بأى حال من الأحوال • فقد أتيح لى أن أشاهد وقائع الندوة من وراء حاجز الترجمة الفورية • فقد طلبت منى مؤسسة ألمانية القيام بالترجمة الفورية فى ندوة عربية أوروبية • وتوجهت الى هامبورج لأجدنى أمام حدث ثقافى على درجة كبيرة من الأهمية ، ولكنه يدور وراء ستار من الكتمان والتعتيم الاعلامى عليه ،وخاصة من قبل الجانب العربى الذى تعامل معه بمنطق جلسات اللجان فى الجامعة العربية • بينما تعامل معه الجانب الأوروبى كحدث ثقافى جلب له أبرز الصحفيين لتغطيته • هذه فقط ملاحظة جانبية أردت أن يعرف منها القارىء الحقائق ، استطرد بعدها فى متابعة الموضوع •

ويبدو أن هذا الخلل الشديد فى التمثيل العربى ، وتهافت مستوى الجانب العربى عامة ، ليس نتيجة لغياب المثقفين المصريين عن هذا اللقاء أو تغييبهم القسرى عنه • وليس نتيجة لغياب معظم المثقفين الجادين فى مختلف بلدان الوطن العربى فحسب ، ولكنه أيضا امتداد لتشكيل اللجنة المتخصصة فى التعاون الثقافى بالجامعة العربية ، والمنبثقة عن الحوار العربى الأوروبى ، والتى أعدت موضوعات هذه الندوة ، اذ تكونت اللجنة من خمسة أعضاء أوروبيين كان اثنان منهم سياسيين هما ايرهارد كونت (الخارجية الألمانية) وبورى بوزينى (الخارجية الايطالية) وثلاثة من أساتذة الجامعة هم اندرية ريمون (جامعة ايكس آن بروفانس الفرنسية) وديريك هوبوود (جامعة اكسفورد الانجليزية) وفان نيونهيويز (معهد العلوم الاجتماعية الهولندى بلاهاى) ، وخمسة أعضاء عرب كانوا جميعا من موظفى الجامعة العربية بتونس وهم : الطاهر جيجا وايميــل الكيك وفايز عبد النبى وشحاتة خورى وموفق عبد القادر • وقد يكونون جميعا من الموظفين الأكفاء ، لكن لم يعرف عن أى منهم اسهامه البارز فى ميدان الدراسات الغربية ، أو حتى العربية المعاصرة على ساحة الوطن العربى ، وليس بينهــم واحــد من كبار مثقفى الوطن العــربى أو أبرز مفــكريه المعاصرين • فبينما حرصت أوروبا أن يكون وفدهــا ممثلا لأهــم الدول الأوروبية ، ولأهم الخبرات السياسية والثقافية الأوروبية فى مجال العلاقة مع العالم العربى ، نجد أن الوفد العربى فى اللجنــة يفتقــر الى الخبرة الحميمة بمجال العلاقات العربية الأوروبية من ناحيــة ، والى التمثيــل المتوازن لمراكز الثقل الثقافى فى الوطن العربى من ناحية أخرى ، والى الهامات العقلية العربية الكبيرة من ناحية ثالثة •

وقد كان لهذا الخلل الواضح في التوازن بين ممثلي المجموعتين في اللجنة التى أعدت لهذه الندوة ، وبالتالى كان لها دور ملموس في اختيار المشاركين من الجانبين في الندوة ذاتها ، أثره الواضح على تأرجح الحوار بين الاعتذارية والدفاعية ، وغياب الندية وبالتالى الجدية النسبى عن ساحته : اعتذارية الجانب الأوروبى عن عدم فهمه أو اساءته للجانب العربى تاريخيا أو آنيا • وهى اعتذارية تنطوى على جانب كبير من الدماثة والأدب ، فلا يزال معظم الذين حضروا من الجانب العربى غير قادرين على تقديم ما يستحق الفهم ، أو يدعو الى تجاوز مرحلة الاساءة • ودفاعية العرب عن أنفسهم وتاريخهم القديم أو الحديث ، دون أن يكون ثمة من يوجه لهم أى اتهام ، اللهم الا سلوكهم الدفاعى ذاته ، والذى ينطوى على جل الاتهامات التى يوجهونها لأنفسهم ، ثم ينبرون للذود عنها • وهى دفاعية تفتقر الى الكياسة والموضوعية وتنطوى على اعتراف بالذنب أو الدونية • والا فلماذا يدافع الانسان عن نفسه ان لم يكن موضع ذنب أو موضوع تهمة • كما أنها قد أوقعت معظم ممثلى الجانب العربى دون دراية من أغلبهم أو تبصر فى براثن انشوطة الرؤية الشائهة والسائدة عن العرب ، والتى تسرى فى عروق كل مدارس الاستشراق الغربى على اختلاف منازعها وانجازاتها • تلك الرؤية التى تزعم ان العرب أناس ذوو حضارة عظيمة دارسة ، ولا حاضر لهم اللهم الا حاضرا متخلفا ومثيرا للشفقة •

وقبل أن نستبق العرض بالنتائج ، علينا أن نتعرف أولا على وقائع هذه الندوة ، وما طرح في قاعاتها من قضايا ، ومادار فى جلساتها من مداخلات ومناقشات • ومن البداية سنجد أن وقائع هذه الندوة قد انقسمت الى قسمين كبيرين : أولهما وأكبرهما هو قسم الحوار العام الذى قدمت فيه البحوث ، وطرحت فى ساحته معظم المداخلات الفكرية ، والمساجلات النظرية والمنهجية • وثانيهما هو قسم حلقات العمل الذى انقسم بدوره الى ثلاث حلقات : أولاها لدراسة آفاق التبادل الثقافى ومشروعات التعاون فى البحوث والمطبوعات ، وثانيتها لبحث هجرة العمال والمتعلمين ، والضرورات الدافعة اليها ، وآثارها الاجتماعية والثقافية ، وثالثتها لمناقشة برنامج التعاون فى تعليم اللغات ، ووسائل النهوض بتعليم اللغة العربية للأوروبيين • واذا كانت حلقات العمل قد استهدفت - بطبيعتها - بحث الموضوعات المنوطة بها بطريقة متخصصة ، حول مائدة العمل المستديرة ، بغية الوصول الى أوفق التوصيات والاقتراحات الرامية الى التغلب على الصعوبات ، أو صياغة الحلول القادرة على استئصال المشاكل ، والتخلص من أسبابها واعراضها معا ، والتى يمكن أن تعرض

بدورها فى قاعة الحوار العام ، فان قسم الحوار العام وما قدم فيه من أبحاث ومداخلات هو الذى يستحق أن نتريث عنده بشىء من التفصيل ٠

وقد بدأت جلسات ندوة الحوار بجلسة افتتاحية صبيحة يوم الاثنين ١٢ أبريل ١٩٨٣ ٠ قدم فيها كل من الممثلين السياسين للجانبين العربى والأوروبى تصوره عن الحوار وهدفه منه ٠ فبعد أن قام الدكتور كلاوس فون دونانى ، رئيس مجلس مدينة هامبورج الهانسية الحرة ، بتقديم كلمة ترحيبية باسم مدينته التى تستضيف تلك الندوة الهامة ، والتى تأمل أن تسبغ عليها من روحها وقيمها الحرة الكثيرة ٠ أعقبه وزير الخارجية الألمانى هانز ديتريتش جينشر ليقدم كلمة المجموعة الأوربية ، ويحدد طبيعة تصورها لهذه الندوة ، ثم أمين الجامعة العربية الشاذلى القليبى الذى قدم بدوره تصور المجموعة العربية لها ٠

ومن البداية نلمس قدرا كبيرا من ازدواج الرؤى والمنطلقات المنهجية فى تصور كل من الجانبين للندوة ، ولطبيعة الحوار الذى سيجرى أثناءها٠ فمن الطبيعى أن يكون لكل جانب رؤاه وتصوراته الخاصة ، ولكن من الضرورى ألا يكون هناك تناقض جذرى بين هذه الرؤى والتصورات ٠ وألا تحجب هذه التناقضات رؤية وجهة نظر الآخر وتصوراته ، أو تحول دون الحوار الحقيقى معها ٠ فاذا ما بدأنا بكلمة الممثل الأوروبى (وزير خارجية ألمانيا) سنجد انها كلمة رجل جاء يعرض برنامجا للعمل ، يشغله الحاضر والمستقبل أكثر مما يهمه الماضى ، ويعرف وقع أقدامه ، وما يريده لبلده أولا ، ولأوربا الغربية ثانيا ، من التعامل والحوار مع الوطن العربى ٠ وهو يطرح برنامجه هذا على المتحاورين راغبا منهم تفهمه وتبينه ٠ وبرغم دماثته وحصافته الواضحة فى تقديم برنامجه وتصوراته ، وفى التذرع بأسلوب الحوار والاقناع والجوار والمنطق التاريخى ، فانك لاتستطيع أن تملك كعربى ، وأنت تنصت الى كلماته الهادئة الرصينة ، الا أن تحس ببعض القلق لما يتخللها من مشاعر الاستعلاء الخفية ، ومن نزعات السيطرة الواهنة تارة ، البادية أخرى ، ومن هواجس البحث عن دور أوروبى ، أو بالأحرى السعى للعب دور أوروبى متميز فى المنطقة العربية ، لا باعتبارها جارا جديرا بالصداقة ، وان كان هذا ما يفصح عنه منطوق كلماته ، وانما باعتبارها ، كما يتبدى من مضمونها التحتى وايماءاتها الخفية ، المجال الحيوى بالمفهوم الجرمانى العتيق للعملاق الأوروبى الوليد ٠

واذا ما انتقلنا الى كلمة الممثل العربى (الأمين العام لجامعة الدول العربية) سنجد أنها تفتقر الى تعدد المستويات ووضوح الأهداف الذى اتسمت به كلمة وزير الخارجية الألمانى ٠ وكتأرجح بين الخطاب والاعتذارية٠

فقد استهلها بالاسهام فى امتداح ألمانيا وحضارتها ، وعلاقتها بالعرب ، بصورة تنطوى على قدر من المبالغة ومقدار من الدونية التى تتبدى فى رغبته في تبرئة العلاقات الألمانيــة العربية من شوائب العنف ونزعات السيطرة أو الهيمنة ، وفي دعوته الي أن السبيل الأفضل لتاكيــد الذات العربية يكون بالمعرفة المنهجية الموضوعية «لحضارة فرضت تفوقها المادى»!

على من ؟ لا ندرى ، ولكنه الولع باللعب بالألفاظ والمجاملات العربية التى تضيع منها الرؤى وتتبدد الغايات • ثم انطلق بعد ذلك للدفاع بنغمة اعتذارية واضحة عن صورة العربي • مناشدا أوروبا أن تتخلى عن الصورة الشائهة التي كونتهــا للشرق باعتبــاره غامضــا وباطنيا ، وعن الأوهام الشائعة عن أن الحضــارة العربية لا تتلاءم أصلا مع متقضيات التطور العصري • ويحاول أن يقنعها بأن الحضارة العربية ليست حضارة القول والبلاغة اللفظية الجوفاء ، لأن لها ميراثا فكريا وروحيا خصيبا • ينهض على التسامح العرقى والدينى ، وعلى التكامل والتداخــل بين المجموعات الروحية والثقافية الداخلة فيها ، والصانعة لنسيجها الثرى المتميز بالصورة التى مكنتها من الانفتاح النقدى الخلاق على ميراث الثقافات الانسانيــة الأخرى ، من يونانية وهندية وساسانية وبيزنطية وصينية •• الخ • وهو تفاعل أنعش حركة الترجمة وازدهرت فى فيئه المعارف والعلوم ، وتبلورت فى ظله الطريقة التجريبية فى البحث والاستقصاء ، وفتح آفاقا بكرا للبحث ، وتقنيات جديدة للقياس والمعرفة •

وبعد التباهي بعراقة الماضى العربى المؤتلق ، جاء دور جهامة الحاضر المتهافت الذى لا تتوفر فيه الهياكل اللازمة للبحث القويم • فتنزح منه الخبرات والعقول العربية الى الشمال الغربى المتقدم مكرسة بذلك تخلف الواقع العربي أو معرقلة ايقاع تطوره • فهجرة العلماء ليست كهجــرة العمال ، لأنها تحرم المجتمع من أرقى ثماره وأكثرها ضرورة لنموه وتطوره• وتطرح بحدة مسألة نقل التكنولوجيا كموضوع رئيسى من مواضيع الحوار• ومن منطلق هذا الحاضر المثقل بالمشاكل طرح الشاذلى القليبى مسألــة انشاء دولة الكيان الصهيونى ، وأثرهــا الدامى على المنطقــة العربية ، ومحاولتها الوحشية لتدمير طابعهــا وشخصيتها ، واستئصال نماذجهــا الناجحة كالنموذج اللبناني ، وفرض هيمنتها الكئيبــة عليها • منبهــا أوروبا الى أخطار هذا الكيان والى اعتبار هذه المسألة من القضايا الحيوية فى التعامل مع العرب ، أو الحوار معهم • ثم دعا أوروبا فى النهاية الى مزيد من الاهتمام بمعرفة الحضارة العربية والاسلامية ، والتفتح عليها ، فى مقابل خروج العالم العربى من موقفه الانطوائى ، ودراسته للغرب دراسة تحليلية ونقدية معا •

فهل استطاع الأوروبيون التفتح على الحضارة العربية الاسلامية دون استعلاء أو عقد ؟ وهل تمكن العرب من الخروج من دفاعيتهم الانطوائية والتخلي عن النقيضين العاجزين : الرفض آليات للحضارة الغربية ، أو المحاكاة الببغائية لنماذجها ، من أجل اعادة النظر النقدية الخلاقة في الحضارة الأوروبية ومنجزاتها ومنطلقاتها ؟ هذا ما سيجيب عليه تناولنا لأبحاث الندوة ، وخاصة في يوميها الأولين المكرسين لمناقشة قضايا صورة كل حضارة من الحضارتين كما تنعكس على مرايا الحضارة الأخرى ·

اتبعت الندوة أسلوبا تنظيميا جيدا ، وان شاب تطبيقه شيء من القصور ، برغم الامكانيات الجيدة التى توفرت لها ، وهو أن تترجم جميع البحوث وتطبع وتوزع سلفا على المشاركين لقراءتها قبل مجيئهم الى هامبورج · وفي الندوة يقدم صاحب البحث ملخصا شفهيا لبحثه في عشرين دقيقة يليه تعقيب متخصص من دارس من المجموعة المقابلة ، فان كان مقدم البحث عربيا · فيجب أن يكون المعقب عليه أوروبيا ، والعكس بالعكس · ولا يقل التعقيب أهمية عن البحث نفسه ، بل قد يفوقه أحيانا في العمق والثراء · ولذلك فقد أعدت التعقيبات سلفا ، وطبعت هي الأخرى كبحوث مستقلة ، ثم عرضت شفاهيا كذلك على المتندبين · وبعد تقديم البحث والتعقيب المدروس عليه ، يفتح الباب للمناقشة من بقية المشاركين ، بحيث تقتصر كل جلسة على بحث واحد ، وبحيث تعقد في اليوم الواحد جلستان طويلتان ، تتاح في كل منهما الفرصة لمناقشة موضوع واحد بأكبر قدر من الجدية والرصانة والتعمق · هذا فضلا عن جلسة يومية لحلقات العمل بعد الفراغ من الجلسة الصباحية الأولى · وهذا النظام لا يكفل فقط جدية الحوار ، بأن يتيح لكل بحث أن يتوفر عليه دارس جاد من الجانب الآخر ، ليرد عليه ، ويبلور تصوراته المغايرة بالنسبة لما يطرحه من قضايا ، ولكنه يوفر أيضا فرصة الحوار الجاد حول الموضوع المطروح ، وقد قدمت فيه وجهتا نظر الجانبين ، في مناخ حر مفتوح · كما أن تقليل عدد الأبحاث ، وافراد مساحة كافية من الوقت للحوار في كل جلسة يفترض بداهة جدية الحوار ويتطلب التعمق فيه ·

وقد خصصت الجلسات الأربع الأولى للتعرف على صورة كل حضارة كما تتبدى في مرايا الحضارة الأخرى ، والمشاكل التى تطرحها هذه الصورة بالنسبة لمسألة الحوار ذاته · فقدم اليساندرو بوساني (الأستاذ بأكاديمية ليتشي القومية بروما) بحثا عن التصور الأوروبي للحضارة العربية ، ودلالات استجابته لهذه الصورة في الجلسة الأولى · ثم قدم انطون المقدسي (بوزارة الثقافة السورية) بحثا عن التصور العربي للحضارة الأوروبية ، وكيف يتعامل العربي مع هذا التصور في الجلسة

الثانية • وفي اليوم التالى قدم ادوارد مورتيمر (جريدة التايمز الانجليزية) دراسة عن الأبعاد الداخلية والخارجية للحضارة الغربية فى أوروبا المعاصرة فى مرحلتها الانتقالية الراهنة ، ودلالة ذلك بالنسبة لمستقبل الحوار العربى الأوروبى • ثم قدم عبد القادر زبادية (أمانة الجامعة العربية بتونس) بحثا فى الجلسة الرابعة بنفس العنوان ولكن عن الحضارة العربية فى عالمنا المعاصر ، وأبعادها الداخلية والخارجية فى هذه المرحلة الانتقالية ، ودلالات ذلك فى اطار مستقبل الحوار العربى الأوروبى •

واذا بدأنا بالبحث الأول لأليساندرو بوسانى سنجد أنفسنا بازاء عرض تاريخى مسهب ودقيق لتصور أوروبا للعرب ، وللعوامل الفاعلة فى هذا التصور على مدى فترة تاريخية طويلة • وهو يعرض للمراحل المتعددة التى مر فيها هذا التصور عبر مرشح الكنيسة الثقافى ، والروحى ، والمعرفى ، وخرج بصورة مشوهة للعرب فى ذهن الدارس الأوروبى ورجل الشارع على السواء • تستهدف هذه الصورة تحريضهما المنظم على مقت العرب ، باعتبارهم أعداء الكنيسة (وبالتالى أوروبا ، للتماهى بين الكنيسة والهوية الأوروبية عامة) السياسيين آنذاك • ويحاول أن يدين هذه الأفكار أو بالأحرى الأغاليط العجيبة التى شاعت بين مثقفى أوروبا القديمة والوسيطة عن العرب • وأن ينقد ما بها من خطل وشطط وتحيز ، فى نوع فريد من نقد الذات الذى لايستهدف تعرية هذه الذات ، بقدر ما يستهدف اكبار قدرتها على الأعتراف بالخطأ • ويتوقف فى عرضه هذا عند حدود العالم الأكاديمى الجاف ، دون التعرض لشتى تبديات صورة العرب عبر الوسائل المعرفية الأخرى ، وخاصة أجهزة الاعلام المختلفة ، ولا لدور هذه الصورة الكنسية الشائهة فى توليد مجموعة من الأنماط الغربية التى لا تزال فاعلة فى العقل الأوروبى ، رغم تصحيح الأكاديميين لها فى دوائرهم العلمية الضيقة •

وينهض بحثه فى الواقع على مصادرتين أساسيتين لا تقلان أهمية أو خطرا عن اغفاله لامتداد الصورة التقليدية الشائهة للعرب فى الذهن الأوروبى : أولاهما أن الثقافة والحضارة العربية والاسلامية ، أو بتعبير أدق كل ما له قيمة فيهما ، قد أصبح الآن جزءا لا يتجزأ من ثقافة الحضارة الغربية وقيمها • ليس فقط لأن المنابع الروحية للحضارتين واحدة أو متشابهة ، ولكن أيضا لأن الانجاز الحضارى الكبير للثقافة العربية والاسلامية قد انتقل الى أوروبا برمته فى القرون الوسطى ، فاستوعبته وهضمته وتمثلته واتخذته قاعدة لانجازاتها الحضارية والفكرية الراهنة • واغفال هذه الحقيقة برغم كل مسوح النقد الذاتى ، واعلانات النوايا الطيبة ، هو الذى يساهم فى استمرار فاعلية الأغاليط الغربية حول

الحضارة الأوروبية • وهو الذي يسد الطريق أمام عملية تصحيح الصورة على نطاق واسع ، ومن خلال الكشف عن أهمية دور الآخر العربي في تكوين الجوانب الايجابية في الذات الحضارية الأوروبية • أما ثانية المصادرتين فهي أن الحضارة الأوروبية هي الحضارة بأداة التعريف المفخمة • فهي الأكثر نموا وتطورا ، وهي القادرة على نقد نفسها نقدا ذاتيا ، وعلى طرح أية اجابات فاعلة للأسئلة والتحديات التي يواجهها عالمنا اليوم •

أما بحث أنطون المقدسي فانه يبدأ بطرح مقولة أن الذات المتصورة تعبر عن نفسها في صورة الآخر بقدر ما تقدم تصورها عنه • فهناك جدلية فاعلة بين الذات والآخر ، تتمثل فاعليتها في طبيعة التحورات التي انتابت صورة الغرب في ذهن المثقف العربي ، بدءا من الاعجاب الواضح في كتابات الطهطاوي ، مرورا بالحيرة القلقة في أعمال تلاميذ الأفغاني ومحاولتهم التوفيقية عند محمد عبده وعلي مبارك وقاسم أمين وشكيب ارسلان وخير الدين التونسي وغيرهم ، ثم بالاحتذاء المطلق للنموذج الأوروبي بشتى اتجاهات هذا الاحتذاء البادية أو المستترة عند الأخوين صروف وشبلي شميل وفرح أنطون وأحمد لطفي السيد وابراهيم اليازجي ، وصولا الى مرحلة اعادة اكتشاف الهوية القومية في تجلياتها الاسلامية عند شكيب أرسلان ، أو العلمانية عند سلامة موسى ، أو العقلانية عند طه حسين ، أو القومية عند نجيب العازوري وساطع الحصري وزكي الارسوزي ، والتي وجدت في زعامة جمال عبد الناصر تعبيرا قويا لشتى نزوعات الفكر القومي فيها من الناحيتين الحضارية والسياسية •

واذا كانت مصادرات بوساني تنطوي على قدر كبير من الغطرسة المتخفية فان مصادرات المقدسي ومنطلقاته تنطوي على قدر أكبر من التواضع والحيف ، برغم ما في دراسته من جهد علمي دؤوب يستوعب تطورات التصور العربي للغرب في فاعليتها في الواقع العربي ، وفي تأثيرها على مختلف التوجهات الفكرية فيه • لأنه لايرى فقط أن تصور العرب لأوروبا ليس في الواقع الا تصورهم للحلول التي يرونها عبر أوروبا لمشاكلهم وهمومهم القومية ، ولكنه يربط تطور التاريخ الفكري العربي ورحلة الوعي القومي بهذا التصور باعتباره قوة فاعلة في هذه الرحلة ، بل ومصدرا أساسيا من مصادر وحيها والهامها ، الى الحد الذي دفعه الى تسمية مرحلة البحث عن حل خارج اطار النموذج الأوروبي عبر محاولات تلاميذ الأفغاني المتعددة بمرحلة « الحيرة » وكأن الهداية ومعرفة الطريق مرتبطة فحسب بالتعامل مع النموذج الأوروبي ، أو كما يقول باكتشاف الذات عبر صورة

الآخر • وفى هذا قدر كبير من الظلم والحيف للتاريخ الفكرى للعرب فى القرن العشرين على الأقل •

عندما نترك الجانب التاريخى ، ونبارح مناطقه الحرجة التى تضفى عليها التفسيرات والمنطلقات المنهجية المتعددة المزيد من الحرج والابهام ، ونركز على اللحظة المعاصرة ، أو مرحلة ما بعد الحداثة كما سمتها أبحاث الندوة ، وهى المرحلة التى أعقبت انسحاب أوروبا كمستعمر من العالم العربى ، وشهدت محاولاتها المتعددة لأعادة التعامل معه على أسس جديدة، سنجد أن الصورة تختلف كثيرا • ففى دراسة ادوار مورتيمر والتى قدمها فى جلسة الندوة الثالثة محاولة متوازنة لتقديم ما للغرب وما عليه ، فى رحلة تعرفه الحديثة مع العالم العربى ، وتعامله الموقفى معه ، وفى محاولته للاستجابة للمتغيرات الجديدة ، ومدى نجاحه فى اعادة التكيف مع قواعدها الجديدة • فقد فرضت هذه المتغيرات طرح أوروبا لفكرة التميز الأوروبى وراء ظهرها ، وان لم يكن ، من السهل عليها أن تتخلى عنها كلية ، فلا تزال أوروبا مؤمنة بأن حضارتها التى قامت على العقلانية والديموقراطية هى الحضارة ، وما عداها لغو وعبث • لكنها مجبرة بحكم المتغيرات الحديثة أن تعيد النظر فى بعض رؤاها وتحيزاتها ، وخاصة فى بعض القضايا الحساسة كقضية الموقف من الكيان الصهيونى ، الذى يعتبر على حد تعبيره انجازا أوروبيا ، وتعبيرا عن فشل المشروع الليبرالى الأوروبى فى الوقت نفسه • ومن هنا فان الانحياز الأوروبى له كان انحيازا مسبقا وبديهيا •

غير أن ثمة بعض التغيرات التى يرصدها الباحث ، وخاصة فى مرحلة ما بعد ١٩٦٧ • حيث بدأت أوروبا تعى أن ثمة شعبا فلسطينيا عانى من انجازها للدولة الصهيونية ، وأن له حقوقا ووجودا وقضية عادلة • وأخذت تبتعد نفسيا على الأقل عن الصهيونية ، التى لم تدرك حتى الآن أنها كانت تجليا لمرحلة انتشار الفلسفات والسياسات العرقية والفاشية فى مرحلة من الفكر الأوروبى • وأن تخلص أوروبا من النزعات الفاشية والعرقية لن يكتمل بحق الا بتخليها عن تأييدها الأعمى للمشروع الصهيونى البغيض ، الذى لايقل عرقية وفاشية عما أدانته من فلسفات وأيديولوجيات عرقية • صحيح أنه بعد ارتفاع سعر النفط أخذ العالم العربى يزداد اهمية بالنسبة لأوروبا ، ليس فقط باعتباره مصدرا لعصب الحياة فيها ، اى الطاقة ، ولكن أيضا باعتباره السوق الأقرب الى أوروبا ، وهو سوق تتمتع بعض بلدانه بالغنى المفرط والقدرة الهائلة على الاستهلاك دون الانتاج • ومع تزايد هذا الاهتمام تزايدت حركة البشر بين أوروبا والعالم العربى ، وهى حركة فى اتجاهين ، وان كانت لا تزال تفتقر الى

التوازن على عدد من المستويات البشرية والسلوكية والقيمية والاتجاهية.
وتبع ذلك ظهور اللغة العربية فى الكثير من شوارع مدن أوروبا الكبرى لأول مرة ، مكتوبة ومتكلمة ، وظهور مشاكل المهاجرين العرب فى هذه المدن مع بلاد تحتاجهم كعمالة رخيصة ، ولكنها ترفضهم كبشر وثقافة فى الوقت نفسه . وهنا لابد من الاشارة الى التباين الشديد فى الاتجاه بين العرب وأوروبا من هذه المسألة . وهو الأمر الذى سكت عنه البحث ، أو شاء ألا يدخل فى تفاصيله . فبينما تعامل أوروبا العرب الذين تحتاجهم ، والذين شاركوا فى بناء الرخاء الأوروبى ، وحرموا من ثمراته ، كما هى الحال مع العمال المغاربة فى فرنسا ، بصورة أقل ما يقال عنها بأنها بالغة السوء ، يعامل العرب الأوروبيين على أفضل وجه ، وكأنهم لا زالوا سادة الموقف ، ويتغاضون عن اساءتهم للعرب ، بدلا من معاملتهم بالمثل فى هذا المجال .

أما البحث الرابع والأخير من أبحاث هذه المجموعة فهو بحث الدكتور عبد القادر زبادية عن الحضارة العربية فى عالمنا المعاصر ، وموقفها من متغيرات هذا العالم . وقد حاول بداءة أن يتعرف على مكانة الحضارة العربية بين الحضارات المختلفة ، وعلى جدلية علاقتها بالحضارة الغربية التى اعتمد ازدهارها على انجازات الحضارة العربية فى عصرها الزاهر ، وعلى أهمية عنصر التفتح والاتصال بثقافات الآخرين وفكرهم ،والاهتمام بالعقلانية منذ بدايات النهضة العربية القديمة ، وعلى طبيعة ارتباط عصر النهضة العربية بعصر الاستعمار الذى سدد لها ابشع الضربات والذى أدى الى انتكاسة حضارية واضحة . ومن هنا كان الاتصال الحديث بأوروبا يتم على وتر مشدود من السلب والايجاب . لا يمكن بأى حال من الأحوال مقارنته بايجابية الأثر العربى التاريخى على الحضارة الغربية التى استلهمت كل رؤاها العقلانية والعلمية من انجازات العقل العربى القديم . ثم ينتقل بعد هذه الملاحظات المبدأية الى الواقع . فيتحدث عن بعض سمات المرحلة الانتقالية الراهنة التى تمر بها الحضارة العربية ، وعن بعض همومها الشاغلة : وأولها مسألة العامل البشرى ، واعداده للنهوض بالمهام التى تتطلبها عملية النهضة والتحديث . وثانيها مسألة تزاحم الأضداد فى الثقافة العربية الراهنة ، التى انفتحت بلاشك على الجديد الأوروبى ، وحاولت فى الوقت نفسه الاحتفاظ باصالتها الموروثة، وعاشت مرحلة من الازدهار النسبى الحديث الذى اتجهت فيه اللغة الى الجدية والبساطة ، وانفتحت فيه الثقافة على الجماهير الواسعة . وثالثها حدة الرغبة فى التغيير وتغلغلها فى شتى مناحى الحياة بالصورة التى تستوجب اعادة تنظيم العمل ، وتنميط العلاقات الاجتماعية ، حتى يتحقق التغيير المطلوب دون أن تؤدى حركيته الى كثير من السلبيات . ورابعتها

نوعية التغيرات والتذبذبات الاجتماعية الحادة الناجمة عن تضخم المدن وما يصاحب ذلك من مشكلات تعرقل ايقاع التنمية الحضارية فى عـدد كبير من بلدان الوطن العربى ، وتساهم فى زيادة قلق الشباب وتوتره ، وخامستها مسألة الخلل فى البنية الاقتصادية فى الوطن العربى ككل ٠ وهو خلل ناجم عن التجزئة والتفتت ، فالبلاد الغنية بالثروات فقيرة فى الامكانيات البشرية القادرة على استثمار هذه الثروات ، والعكس بالعكس. وينتهى أخيرا الى ضرورة أو بالأحرى حتمية التكامل الحضارى ٠

وإذا ما تأملنا بحثى اللحظة المعاصرة سنجد انهما يشيران الى وجود أرض مشتركة للحوار ، لانهما يتميزان بالمحاولة المخلصة للتعرف على الذات فى علاقتها الحرجة مع الآخر ، بكل صعوبة مثـل هذه المحاولـة وتناقضاتها الفاعلة ٠ لكن المؤسف أن الحوار حول هذين البحثين لم يحاول الكشف عن المصادرات الثاويـة فى قلب كل منهما ، وتناولهـا مباشرة ، بغية تدمير ما فيها من قيم معوقة لعملية الحوار ، ومغيبة للندية المطلوبة لتحقيقه ٠ كما أن الاهتمام بما كان عليه الحال فى الماضى ، وتلمس بعض مؤشرات التغيير فى المستقبل ، لم يمتد الى وضع صيغة لما ينبغى أن يستهدف هذا المستقبل تحقيقه ، وخلق الضمانـات الكفيلة بضمان نجاحه فى تحقيق ذلك ٠

واذا انتقلنا الآن الى الجلستين الخامسة والسادسة سنجد أنهما قد خصصنا لبحث قضيـة الدين والعلمانية وعلاقتهمـا بعمليـة التغييرات الحضارية التى عاشتها وتعيشها الحضارتان ٠ وهو موضوع على درجـة كبيرة من الأهمية ، ولذلك فقد استطاع ان يزود الندوة بأخصب أيامها وأكثرها حيوية وعمقا وثراء ٠ كما كان مقدمة حيوية للجلستين التاسعة والعاشرة فى آخر أيام الندوة واللتين خصصتا لقضية الهوية القومية لكل من الحضارتين فى معترك التغيير الثقافى الراهن ٠ وقد عرض فى الجلسة الخامسة بحث انطوان فيرجوت (الجامعة الكاثوليكية بلوفان ببلجيكا) وهو البحث الذى كان تعليق الدكتور محمد أركون (أستاذ الفكر الاسلامى بجامعة السوربون) عليه أهم من البحث الأصلى بكثير ٠ ويعتمـد بحث فيرجوت على المعطيات التاريخية فى تناوله للطبيعة الخاصة للمسيحية ، وتأثيرها على عملية العلمنة بأعتبارها عملية تعتمد على المنطلق الفلسفى ، والتاريخى ، بالصورة التى تجعل العلمانية ذاتها مبدأ فلسفيا تاريخيا استطاع أن ينمو وأن يسيطر على مقدرات الحضارة الغربية ٠ مما دفع الدين برؤاه وقواه ومؤسسـاته الى التراجع الى مكان بالغ الشـانوية فى المجتمع الغربى المعاصر ٠ كما يعتمد البحث أيضا على المنهج النقدى الذى يلجأ الى التحليل الفلسفى الذى يكشف عن حتمية العلمانية الغربية وينفى

عرضيتها ، والذى يطرح بدوره تساؤلا ملحا عما اذا كان من الحتمى أن تمر المجتمعات الأخرى بنفس هذا التغير الجذرى من الدينية الى العلمانية.

وقد رفض الدكتور محمد اركون فى تعقيبة الهام على هذه الدراسة مسألة ثنائية المنطلق الموروث فى التعامل مع الدين والدنيا ، باعتبارهما بعدين متوازيين ، وموقفين ذهنيين متعاكسين ، وطرح بدلا منهـا فكرة المحورين المتقاطعين والمتداخلين اللذين تحكم حركتاهما الفاعلة مجتمعات « الكتاب » أى المجتمعات التى تأثرت فى تكوينها وحياتها بظاهرة « الكتاب المنزل » مثل (كتب العهد القديم والجديد والقرآن) والتى تقيد أهلها بالوضع التأويلى الذى يحتاجون معه الى قراءة نصوص مكتوبة لاستنباط ما يحتاجون اليه من الأحكام فى نشاطهـم الفكرى والتشريعى واللغوى والسياسى . وهما محور النظر العمودى الى العالـم والأشياء والوضـع البشرى والذى يفرضه الموقف الدينى المحكوم بالنص « المنزل » من أعلى الى أسفل ، من الخالق الى عباده . ومحور النظر الأفقى التجريبى الذى يفرضه الموقف الدنيوى . ولا تتم فاعلية أى من المحورين فى غياب فاعلية المحور الآخر ، أو فى عزلة تامة عنه . فلابد أن يتفاعل كل محور مع الآخر لأن تجاهله له لا يعنى الغاءه اياه ، وانما يعنى قصورا منهجيا فى الفهم والتصور والتخيل . فرجل الدين الذى يريد ان يطبق شرائـع الكتاب الذى يمارس به وعبره سلطته الدينية فى هذا الواقع ، لا يملك الانفصال كلية عن الواقع ، وغالبا ما تتفاوت درجة احترامه له وتقيده به . بينما يتوق العلمـانى الدنيـوى الى مثـل أعلى واستلهام روحى ، يضفى على برودة واقعيته التجريبية شيئا من الشفافية والتحليق .

وتنبع جدلية هذين المحورين من جدلية أعمق بين ما يسميه أركون بـ « العقل الكتابى » و « العقل الشفاهى » . فقد أدى الوضع التأويلى الناجم عن الكتاب « المنزل » الى تفضيل الثقافة المكتوبة على الثقافة الشفهية، وتغليب العقل الكتابى على العقـل الشفاهى ، ولهذا كله مجموعـة من الأسباب الانثروبولوجية المعقدة التى تسفر عن نفسها فى اللغـة ، وفى غيرها من النظم الاشارية فى المجتمع . ولهذا فان الدنيوية ــ فى رأى أركون ــ عنصر فاعل فى جميع الحضارات ، قد تتغلب على العقل الكتابى مرة ، أو يتغلب عليها العنصر الدينى أخرى . غير ان هذا لايتعلق بتعاليم الدين بقدر ما يتعلق بالقوى الفاعلة فى تطور كل مجتمع . وقد كان من الأحرى بمنظمى الندوة أن يمدوا مناقشة هاتين الدراستين الى الجلسة السادسة ، لأن الرؤى والمنطلقات المنهجية التى قدمها أركون قد أثارت اهتمام الجميع ، وفجرت الكثير من القضايا والنقاط الحيوية التى كان لابد ان تغنى الحوار اذا ما واصل المتحاورون مناقشتها ، غير أنهم لم يفعلوا

ذلك ، وخصصوها لدراسة عبد الكريم اليافى (من مجمع اللغة العربية بدمشق) عن الدين والأحياء الروحى فى الوطن العربى ، ودلالته فى الحوار الثقافى مع أوروبا الغربية . وهى دراسة اقتصرت على تصوير الوضع فى سوريا والعرض التاريخى العام لمختلف حركات الأحياء الدينى المعروفة فى الوطن العربى فى القرنين الماضيين . وهو عرض سردى يفتقر الى الرؤية النقدية والمنهج الجاد والبصيرة التحليلية الناقدة ، ويحاول جاهدا أن يكون علميا بالمعنى الفقهى ، وان يفرق بين الدين كجوهر ، وبين ممارسات الافراد له دون أن يضيف الى منطلقات فيرجوت المبدأية الكثير .

اذا ما انتقلنا بعد ذلك الى الجلستين الأخيرتين واللتين خصصتا لدراسة فان نيونهويجز (معهد الدراسات الاجتماعية بلاهاى) عن التغير الثقافى بوصفه مرجعا فى صنع القرارات الاجتماعية والسياسية ، ومعنى المناقشات الأوروبية الغربية عن مستقبل دولة الرفاهية ، ودراسة أحمد كمال أبو المجد (جامعة الكويت) عن توظيف الثقافة الاسلامية فى تحقيق تغيرات اجتماعية وسياسية فى المجتمعات العربية والاسلامية ، وجدنا انهما شديدى الصلة بالجلستين اللتين خصصتا للدين والعلمانية ، بل يوشكان أن يكونا التكملة التطبيقية للمنطلقات والرؤى النظرية التى طرحت عند مناقشة جدلية الدين والعلمانية . ومن هنا سأتناول هاتين الجلستين الأخيرتين قبل الحديث عن الجلستين (السابعة والثامنة) اللتين خصصتا للأدب ، ليس فقط لأن التسلسل الموضوعى فى العرض يتطلب ذلك ، ولكن أيضا لأن جلستى الأدب كانتا من أفقر جلسات الحوار ، وأشدها تخييبا للآمال .

وقد حاول فان نيونهويجز أن يناقش ما آلت اليه العلمانية الغربية فى العصر الحاضر ، ومانتج عن انجازها الرئيسى : دولة الرفاهية الاجتماعية الأوروبية من معضلات محيرة ، وتغيرات جذرية فى التركيب الحضارى والانسانى للمجتمعات الغربية ، بدأ يطرح على الباحث مجموعة من الاشكاليات الهامة فى مرحلة التضخم والأزمة الاقتصادية التى يعيشها الغرب المعاصر ، والتى أجهزت على فترة الحداثة فيه ، وأدخلت أوروبا فى مرحلة جديدة تقسرها متغيراتها المستمرة والمزلزلة على اعادة النظر فى أسس العلمانية ، ودولة الرفاهية . ومفهوم العمل ، وجوهر البروميثيوسية المتطلعة دوما الى الجديد وقهر الصعوبات ، وغير ذلك من المشاكل الناجمة عن تحول دولة الرفاهية الى مؤسسة ذاتية التوجه ، مشغولة بالمحافظة على ذاتها أكثر مما هى مشغولة بتحقيق الأهداف التى انشئت من أجلها . ويطرح نيونهويجز قضية هامة فى هذا المجال ، وهى دور المفهوم النظرى فى تصور الواقع الاجتماعى فى السيطرة الفاعلة على هذا الواقع من جهة ،

وفى الخلف خبرات الماضى كمعيار من جهة أخرى ، مما يجعل هذه الخبرة تشكل حاجزا أمام رؤيه المستقبل ، أو اكتشاف الحاضر • فمأساة المثقف تكمن فى أنه أكثر نجاحا فى رؤية الماضى منه فى رؤية المستقبل ، وأنه يتصور ان الحاضر دائما ناجم عن الماضى ، أو تكرار له ، بالصورة التى تجعل مهمته فى التعامل مع متغيراته الآنية التى يعيشها ويعانيها صعبة وقاصرة فى معظم الأحيان •

واذا كان فان نيونهويجز قد حاول استخدام المنهج المعرفى ، واعتمد كثيرا على علم اجتماع المعرفة فى استقراء الجزئيات ، ومحاولة الخروج بمفهومات نظرية مجردة من هذا الاستقراء فان أحمد كمال أبو المجد لجأ الى أسلوب المقابلة بين المفارقات الثنائية فى الكشف عن احتمالية موضوعه ، وعن وثاقة علاقته بالواقع • فبعد مجموعة من المقدمات الضرورية عن العلاقة بين الحضارة العربية الاسلامية والحضارة الغربية ، وعن العلاقة بين الاسلام والمسلمين ، وعن النظرة الوظيفية للاسلام والتى أشار فيها الى عدد من الأفكار الهامة فى هذا المجال باعتبارها الخلفية الفاعلة فى موضوعه ، ينطلق أبو المجد لتناول مسألة توظيف القيم والمبادىء الاسلامية لاحداث تغييرات فى الأوضاع الاجتماعية والسياسية • ثم يقدم مشروعا مفصلا لمعالم التغير الثقافى المقترح ، والقائم على توظيف هذه القيم الاسلامية من أجل خلق مشروع تنموى وحضارى شامل ومتميز بحق عن المشروع الأوروبى المعاصر • يسقط فيه المنهج الغيبى دون أن يسقط المنهج الدينى نفسه ، وينبثق فيه منهج فكرى وحركى يعمر الكون ويتعامل مع السنن ، يثبت النظرة الانسانية ويسقط التمييز بين الناس على أسس غير انسانية ، يثبت قيمة الحرية ويعلى دورها فى تغيير اتجاه العديد من القرارات السياسية والاجتماعية ، ويوظف نظرة الاسلام للعمل فى تحريك مشروعات التنمية •

ويهدف هذا المشروع القائم على أصول التصور الاسلامى ، وما هو ثابت فيها من قيم ومبادىء ، الى تحريك الواقع العربى الاسلامى تحريكا ينهى مرحلة بياته الحضارى ، ويوجه القراوات الصانعة لقدراته وجهة انسانية ، تدفع مسيرة الانسان الى الأمام ، وهو يعمر الأرض ويتبادل مع الآخرين العطاء ، بقدر ما يتبادل معهم العفو ، ويحرص على صحبة أخيه الانسان حتى يدفع عن نفسه شرور الوحدة والخوف • ويبدو أن مشروع الدكتور أبو المجد قد استطاع أن يستفيد من جدلية المحورين العمودى والأفقى فى النظر الى العالم وفق ما طرحه محمد أركون من قبل ، وان كان يحاول أن يتجنب الاشارة الى فاعلية المحور الأفقى ، أو الى شمولية تأثيره الفاعل فى النظم الاشارية المختلفة فى المجتمع • لكن هذه

قضية أخرى كما يقولون ـ لم يتح لها أن تثار بدوجة مشبعة ، لأن أوكون كان قد غادر الندوة قبل يومها الأخير ٠٠ ولو كان حاضرا فى هذه الجلسة لتوقعنا مواجهة مثيرة بين رؤيتين ومنهجين مثيرين للكثير من التأمل والتفكير

تبقى وقائع الجلستين السابعة والثامنة ، وقد خصصتا للأدب والمسرح ، تحدث في أولاهما الكاتب الفرنسي فرانسوا ريجى باستيد (سفير فرنسا فى كوبنهاجن) عن الأدب والمسرح فى أوروبا الغربية ٠ فتحدث هذا السفير حديث عالم جليل وأديب موهوب جعلنى أحس بالأسف على ما آل اليه حال سفرائنا من جهل فاضح ٠ وحاول أن ينعى ، فى عجالة قصيرة عن الوضع الراهن لهما ، على أوروبا اهمالها للأدب وانصرافها الى التسلية ، وهى التى انجبت الأساطير الاغريقية ، واخرجت عددا كبيرا من صانعى الضمير الانسانى الحديث فى أوروبا ٠ وفى غيرها من أفكار العالم ٠ كما يأسف لتراجع الكتاب ـ والثقافة الجادة ـ أمام زحف التليفزيون وغيره من وسائل الاعلام الحالية التى أثرت على نوعية الانتاج الثقافى ، لا على شكله فحسب ، والتى جعلت بالامكان تكثيف النجاح والشهرة ، وتكثيف الغياب عن الساحة العامة فى الوقت نفسه ، غياب عناصر هامة مثل الكثير من الأعمال الابداعية الممتازة عن اهتمام القارىء أو المشاهد أو ادراكه ٠

صحيح ان أوروبا تحترم الفن حتى لو افقدها هذا الاحترام الشهرة، وتلجأ اليه فى بعض الأحيان باعتباره ملاذا ومهربا من ضغوط العالم القاهرة ، غير ان تكثيف الشهرة على الجانب الآخر يعنى تكثيف القوة فى ايدى وسائل الاعلام الأقل عمقا وخبرة وادراكا وبصيرة ، ويعنى بالتالى اعطاء القيادة والتأثير لأقل العناصر جدارة فى الواقع الثقافى ، ويعنى ثالثا تقليص رقعة الحرية والاجهاز على بعض القيم الأساسية في الحضارة الأوروبية ٠ لكن الذى هون من خطورة كل هذا ان اللغة الأوروبية ـ لاتينية الأصل أو جرمانيته تحمل فى ثناياها عقلية الجدل والاكتشاف ، وأن العقلية الأوروبية تنهض على العقلانية والحنكة ، ومن هنا تستطيع أن تتغلب على كل العقبات ٠

ولا اريد ان اناقش هنا خطر هذه التعميمات ، وما فيها من مغالطات لا أستطيع أن أنزهها عن التعصب الذى يجعل العقلانية بنية أساسية حامية داخل اللغات الأوروبية ذاتها ٠ لأننى أحب أن أقول كلمة سريعة فى نهاية هذا العرض للندوة عن بحث عز الدين المدنى (تونس) عن الأدب والمسرح والسينما فى الوطن العربى ٠ وهو بحث على درجة كبيرة من

الضحالة والركاكة والتفكك ، حاول بسذاجة شديدة ان ينفي ــ ربما تنفيذا لسياسة جامعة الدول العربية ــ عن أفق بحثه كل اسهام مصرى في هذا المجال ، وهو لا يدرى أنه بذلك يفقر موضوعه من ناحية ، ويقع في انشوطة من يحاربهم ممن يحاولون عزل مصر وفصلها عن امتها العربية لاضعاف هذه الأمة ، وليسهل لهم السيطرة عليها ، بل والعصف بها ٠ وقد أحسست بالخجل الشديد وأنا أستمع الى المعقب على دراسته ج ٠ بروجمان (جامعة لايدن ــ هولندا) وهو يحاول أن يرأب صدوع كلمته المهلهلة ، وان يلقنه الدروس عن أدبه وثقافته وكأنه يخاطب تلميذا مبتدئا في صفه الدراسي ٠ أما كان الأجدر بعز الدين المدني الكاتب المسرحى المتميز أن يعلن لمنظمي الندوة بصراحة ان الموضوع أكبر من طاقته ، حتى يبقى على بعض الاحترام له ككاتب يجتهد في مجال المسرح التونسي ؟ الا يبدو هنا ان غياب مصر عن الندوة ، ثم تغييبها القسرى عن ساحتها قد اضرا بالندوة ذاتها ، وأضرا بمبدأ الحوار ذاته ــ فكيف تحاور أوروبا من لا يعرفون أدبهم أو يتنكرون للجزء الأكبر من تراثهم الثقافى الحي ؟!

هامبورج (ألمانيا الغربية) ابريل ١٩٨٣

● السفر العاشر

معرض الكتاب الفرنسي وغاية الكتابة

لا شك أن اهتمام الدول الأوروبية بالثقافة ، يفوق اهتمام أقطار وطننا العربي بها الى حد كبير . ليس فقط لأن هذه البلدان قد تجاوزت منذ أمد طويل مشكلة الأمية المبهظة التى تثقل كاهل الوطن العربي ، وتحد من فاعلية الفكر والثقافة فيه ، ولكن أيضا لأنها تجاوزت الى حد كبير مشكلة الحاجة ، وأشرفت على تخوم الوفرة ، بكل ما يتبعها من شبع وخواء معا . لكن فرنسا من بين الدول الأوروبية من أشدها احتفاء بالثقافة ، الى الحد الذى يوشك فيه هذا الاهتمام بالثقافة أن يكون وجها من وجوه هويتها القومية ، وجانبا أساسيا من جوانب تصورها لذاتها ولطبيعتها ولدورها . ولأن الثقافة سعى دائم نحو معرفة الذات وسبر أغوارها ، وتوق مستمر الى حل طلاسم العالم ، وفض مغاليقه ، حتى يحس الانسان ، بأنه في كل مكان فى بيته كما يقول كلوديل ، وحتى يجهز على غربته فى العالم ، وعلى اغترابه عنه ، فانها انسانية بطبيعتها ، تسعى لرحابة الأفق ، وتكره محدوديته . وولع فرنسا بالثقافة لا يتسم بضيق الأفق القومي ، ولكنه يسعى الى أن يجعل فرنسا البؤرة التى يتجمع فيها شتات الثقافة الانسانية المبعثرة ، والعامل الموحد الذى يضفى على الثقافة الانسانية لمسته الخاصة ، ويصبغها بطابعه المميز الفريد .

لذلك لا يكتمل أى حدث ثقافي فرنسي ، بل ولا يحقق فرنسيته الحقة ، الا اذا استطاع أن يضيف الى البعد القومي فيه ، بعدا انسانيا شاملا . فكيف يمكن لصالون أو لمعرض الكتاب الفرنسي ، وهو معرض قومي بطبيعته ، أن يكتسب بعدا انسانيا يحوله الى حدث ثقافي فرنسي ؟ ليس بأن تعلنه معرضا دوليا للكتاب كما تفعل العديد من الدول الأخرى ، ولكن بالحفاظ له بفرنسيته ، دون تحويله الى حدث تجاري ، وإضافة هذه اللمسة الثقافية الفرنسية له . فقد جعلت باريس صالون الكتاب الخامس الذى عقد فى قاعة الجراند باليه (القصر الكبير) بين ٢٢ - ٢٧ مارس ١٩٨٤ حدثا فرنسيا ثقافيا بأن ركزت اهتمامها على فرنسيه صالون الكتاب ، وأبرزت فى نفس الوقت ضخامته . فقد اشترك فيه ألف ومائة ناشر فرنسي ، عرضوا كتبهم فى قاعات تجاوزت مساحتها خمسة عشر ألف متر مربع ، كما اجتمع فى قاعات هذا الصالون الكبير أكثر من

سبعمائة مؤلف ، يوقعون على نسخ من مؤلفاتهم للمشترين من زوار هذا المعرض الكبير • وينطوى المعرض فى بعده الفرنسى ذاك على تظاهرة ثقافية تكشف فيما تكشف عن أن فرنسا لا تعيش فحسب وسط العالم ، ولكنها تعيش فى قلب العالم ، وعن أن الابداع الفرنسى ، أو الابداع فى اللغة الفرنسية ، هو فى بعد من أبعاده ابداع العالم فيها •

ولأن صالون الكتاب أكثر من مجرد معرض ، أو سوق للكتاب بالمعنى الذى نعرفه من بعض أسواق الكتاب العربية ، فانه حاول أن تكون له عدة موضوعات محددة ، حتى لا يتحول الى مناسبة لبيع المخزون القديم من الكتب البائرة التى كسدت سوقها ، أو ساحة لتوزيع النشرات الدعائية والسياسية ، أو محاولة للبرهنة الزائفة على وجود نشاط ثقافى يراد التغطية على غيابه كما يحدث فى بعض معارض الكتاب العربية • وكانت موضوعات الصالون الثلاثة هذا العام هى : الكتب الأدبية الابداعية المكتوبة

باللغة الفرنسية ، مهما كانت جنسية مؤلفيها ، وتلك التى تتناول شتى قضايا هذه اللغة ، ثم الكتب الموجهة الى القراء الصغار ، بمختلف مراحلهم العمرية ، سواء كانت قصصا أو معلومات مبسطة ، وأخيرا الكتب الموجهة الى هواة الرحلات ، كالأدلة وكتب التعريف بالبلدان ، وغيرها من الكتب التى تساعد المرتحل على تحقيق الاستفادة القصوى من رحلته ، والاستمتاع بها كمغامرة معرفية بالدرجة الأولى •

ولأن الكتابة الأدبية الابداعية ، والارتحال كتجربة معرفيـة تمد جسور التواصل بين الشعوب كانا من موضوعات هذا الصالون الثالث ، كان من الطبيعى أن تفكر الحياة الثقافية الفرنسية فى اضفاء اللمسـة الانسانية الشاملة على هذا الحدث الثقافى من خـلال الرحلة فى عقول مبـدعى عالمنا المعـاصر • فقدمت جـريدة ليبراسـيون Liberation ملحقا خاصا يقع فى ١١٤ صفحة من حجم الجريدة نفسـه (وهو قطع التابلويد) بعنوان « لماذا نكتب ؟ » سؤال يستمد بساطته من موضوع هذا الصالون الثالث ، ولكنه فى الواقع سؤال محير وعويص الى أقصى حد ، وقدمت فى هذا الملحق اجابة ما يقرب من أربعمائة كاتب ، يكتبون بأكثر من ثلاثين لغة من لغات العالم الكبرى ، على هذا السؤال البسيط المحير : لماذا تكتب ؟ وقد أصبح هذا الملحق بحق وثيقة هامة ، لأن الجهد الذى بذل فى عمله جهد كبير بكل المقاييس ، لأن المشروع الذى ينطوى عليه مشروع أثبتت التجربة أهميته • فطالما قرأت الكثير من الاستطلاعات الأدبية ، ولكنى لم أقرأ أبدا استطلاعا بهذا القدر من الاتساع والشمول • لا يقدم مقولاته من خلال اجابات الكتاب وحدها ، ولكن أيضا من خلال ما يخلقه تجاور هذه الاجابات واجتماعها معا من رؤى ، وما يطرحه من

أفكار مقـــارنة ، بعـــد أن اخترقت هذه الأجـوبة جميعا حواجز المسافات واللغات ، وتحولت الى خلاصةتجربة ، أو شظايا تعبيرية كاشفة • وقبل أن أتحدث عن بعض هذه الاجابات سأعرض على القارىء أولا صورة موجزة لمدى ضخامة هذا المشروع وشموله •

وحتى نعرف مدى ضخامة هذا المشروع سأسوق بين يدى القارىء بعض المعلومات الاحصائية المستقاة منه • فقد شارك فى اعداد هذا الملحق ما يقرب من خمسين محررا ومراسلا ، بالاضـــافة الى أكثر من أربعين مترجما • وهذا ليس عددا كبيرا بأى حال من الأحوال ، لأن الملحق يطمح الى أن يضم بين طواياه اجابات أبرز كتاب عالمنا المعاصر قاطبة ، دون تحيز لبلد ، أو لغة ، أو ثقافة ، أو اتجاه • ومن لديه بعض الالمام بآليات العمل الصحفى ، أو الأدبى ، يعرف أن انجازه يقل عادة عن طموحاته ، ولا يشير الا لبعض الجهد المبذول فيه ، ولو أضفنا الى هذا كله ، أن من عادة الكتاب التهرب من الصحفيين والتقاعس عن الاجابة على أسئلتهم ، لأدركنا مدى الجهد المبذول فى هذا العمل الكبير • ولعرفنا انه اذا كان هذا الملحق يضم بين دفتيه اجابات ما يقرب من أربعمـــائة كاتب ، فلابد أن سؤاله قد وجه الى أكثر من هذا العدد بلا شك ، أدركنا مدى ضخامة هذا الجهد الثقافى الكبير •

واذا تأملنا بعد ذلك فى الحصاد الذى يطرحه علينا سنجد انه يقدم لنا اجابات كتاب ينتمون الى أكثر من ثمانين بلدا • ويغطون قارات كرتنا الأرضية الخمس ، بقدر كبير من التوازن والموضوعية • ففيه كتاب من أقصى شمال كرتنا الأرضية فى ايسلندا الى أقصى جنوبها فى استراليا ونيوزيلندا ، ومن أقصى شرقهـا اليابانى الى أقصى غربهـا الأمريكى أو الشيلى • ولكن هذا الطموح الجغرافى لم يتحقق بأى حال من الأحوال على حساب الجودة الكيفية ، التى تتمثل فى دقة الاختيار وأهميته بالنسبة للأدب الذى يمثله • صحيح انه ليس باستطاعة أحد أن يدعى معرفة كل الآداب الممثلة فيه ، ولكنى اذا أخذت الآداب التى أعرفهـا كمقيـاس ، وبعضها ليست من الآداب المعروفة للجميع كالأدب العربى ، أو أدب بعض البلدان الاسكندينافية ، ناهيك عن عـدد من الآداب الأوروبيـة ، لكان باستطاعتى أن أحكم على اختيار هذا الملحق بالجودة والاتزان •

وكان من أهم ما استوقفنى فيه ، انه برغم اهتمامه الشديد بآداب أوروبا الغربية ، وهذا أمر طبيعى لأنه صادر عن احدى هذه الآداب ، فان اهتمامه بها ــ على عكس اهتمام الأكاديمية السويدية التى تمنح جائزة نوبل مثلا ــ لم يعقه عن الاهتمام بآداب أوروبا الشرقية ، وبشكل لا ينحو الى الاثارة السياسية ، كما تفعل نوبل ، بل يميل الى الموضوعية والاتزان •

كما انه برغم اهتمامه الطبيعي بالآداب الأوروبية التى قدم منها ما يقرب من ثلث عدد كتابه ، لم يتعام عن الآداب الافريقية والآسيوية الخصيبة • فقد قدم أدباء من حوالى عشرين بلدا أفريقيا ، ومن أكثر من عشرة بلدان آسيوية • كما اهتم أيضا بالأدب العربى وبآداب أمريكا اللاتينية الخصيبة بشكل ملحوظ ، حيث نجد به كتابا من أكثر من اثنى عشر بلدا من بلادها ، واذا كان عدد البلاد وحده لا يوحى بالتوازن المطلوب فان عدد الكتاب قد يشير اليه بشكل أوضح • فهناك أكثر من ١٤٠ كاتبا من أوروبا بغربها وشرقها ، وأكثر من أربعين كاتبا من أفريقيا ، ونفس العدد تقريبا من آسيا ، وما يقرب من سبعين كاتبا من أمريكا اللاتينية ، وأكثر من سبعين كاتبا من أمريكا الشمالية ، بالاضافة الى خمسة كتاب من استراليا ونيوزيلندا ، وعدد آخر من كتاب الجزر العديدة المتناثرة فى المحيطات كجامايكا وسانت لوسيا وترينيداد وجزر الأنتيل وغيرها •

ويطرح هذا الملحق الأدبى الهام والذى ضم اجابات أربعمائة من أبرز كتاب عالمنا المعاصر على السؤال البسيط المحير : لماذا نكتب ؟ مجموعة مثيرة من القضايا والملاحظات • أولها أن لهذا السؤال جذوره فى تاريخ الثقافة الفرنسية ، التى شغفت بطرح الأسئلة المبدئية ، وبالتشكيك فى المسلمات التى لا يناقشها الأخرون • فقد سبق أن طرحت هذا السؤال نفسه مجلة (أدب) التى كانت تصدرها مجموعة من الكتاب والشعراء السرياليين الشباب مثل أندريه بريتون ولوى اراجون وفيليب سوبو عقب الحرب العالمية الأولى على كتاب فرنسا فى هذا الوقت بعد أن أوحى لهم بول فاليرى بالفكرة • وكان طرح مثل هذا السؤال فى هذا الوقت ينطوى على بذور تلك الثورة التى أنجبت كل تيارات الحداثة فى الأدب المعاصر • ويوحى بالضيق بكل الرواسى والمسلمات القديمة ويشكك فيها • ومع أن السؤال كان مقصورا على كتاب فرنسا وحدها فى ذلك الوقت ، فلم يكن العالم قد تحول بعد الى قرية كبيرة كما هو الحال الآن ، فان الاجابات التى ضمتها مجلة (أدب) عليه عام ١٩١٩ أثارت هى الأخرى الكثير من القضايا الأدبية والنقدية الهامة • وما لبث السؤال أن طرح بشكل مغاير بعد ذلك بسنوات عديدة فى دراسة جان بول سارتر الهامة (ما الأدب؟) ، والتى تناولت ماهية الكتابة وغايتها بالدرس والتمحيص •

وطرح جريدة (ليبراسيون) لهذا السؤال الآن ، وعلى هذا المستوى الواسع ينطوى هو الآخر على طرح للشكوك التى تساور الكثيرين فى جدوى الكتابة ، فى عالم يزداد اضطرابا وجنونا ، برغم تراكم انجازاته الأدبية ، وتزايد خبراته المعرفية يوما بعد يوم ، وتتفاقم فيه المشاكل بصورة توحى بأنه عالم بلا ذاكرة [illegible] يتعلم من التاريخ أو الماضى الا ما يرهف قدراته على ارتكاب الشرور [illegible] المشاكل • ويطرح فى الوقت نفسه عملية الكتابة

في وجه كل ما يدور في هذا العالم المجنون الذي لا يعبأ بكل ما تصبو الكتابة ، أو ما يطمح الانسان الى تحقيقه • لأنه يحاول من خلال هذه اللوحة العريضة التي تغطى العالم برمته أن يفرض على الكتابة أن تبرر نفسها ، وان يبحث الأدب على تأمل وضعه الراهن والشك في مسلماته التي طال تداولها دونما تمحيص • وينطوى هذا الطرح أيضا على بعد هام ، وضع شاعرنا الفلسطيني الكبير محمود درويش يده عليه في اجابته الحاذقة على هذا السؤال ، وهو عملية الحوار الأدبي العالمي الواسع حول موضوع محدد والكشف عن الغموض والالتباس الذي يلف فعل الكتابة ، وينال ، بالتالي ، من فاعليتها • اذ بدأ محمود درويش اجابته بوصل فعل الكتابة بفعل المقاومة وفصله عنها في الوقت نفسه ، حين قال : « لماذا تغني ؟ هذا هو السؤال المر الذي طرحه المحقق على المغني في احدى قصائدي ، وكانت الاجابة عليه قاسية مريرة أيضا • لأنني أغني ! • ولا ريب في أن السؤال المطروح على الآن لا علاقة له بذلك الذي وجهه المستجوب الى المغني السجين • ولذلك لا أستطيع الاجابة عليه بنفس الطريقة : لأنني أكتب ! ، اذ اعتقد أن غرضنا هنا هو اقامة حوار يستهدف الكشف عن الغموض الذي يغلف فعل الكتابة » • لأن الكشف عن هذا الغموض لايقيم جسور التواصل بين الكتاب فحسب،ولكنه يؤسس الجسور التي تصل الكتابة بالقارىء ، ويميط اللثام عن آليات قيامها — أو اخفاقها في القيام — بدورها • كما انه يأخذ الاجابة بعيدا عن مجال الاعجاب بالذات ، أو استعراض المهارات الفردية بطريقة لا تثير سوى الرثاء ، ولا أقول الازدراء ، خاصة وان اجابتين من اجابات كتابنا العرب قد وقعت في براثن هذا الشرك الغريب •

واذا تركنا هذا كله وحاولنا النظر في فيض الاجابات الثرية التي قدمها كتاب عالمنا المعاصر الأربعمائة على هذا السؤال البسيط المحير لماذا تكتب ؟ لوجدنا أنفسنا بازاء عمل شائق ، ومتميز عن غاية الكتابة ، وفهم من يمارسونها لها • ولأدركنا أيضا أن هذا السؤال البرىء : لماذا تكتب ؟ سؤال عويص الى أقصى حد • ليس فقط لأن اجابة الكتاب عليه تتراوح بين السطر الواحد والصفحة الكاملة ، وبين الالغاز والمبهم والوضوح البين، ولكن أيضا لأن الاجابات عليه تتفاوت عمقا ونفاذا ، بل ، وهذا هو الأهم ، تتناقض دلاليا في كثير من الأحيان • صحيح أن ثمة عددا من الأفكار المتواترة والمتكررة في كثير من الاجابات ، لكن تناقض هذه الاجابات لا تخلو هي الأخرى من تواتر وتكرار • واذا كان لنا أن نبحث عن قاسم مشترك في كل هذه الاجابات ، فقد يعسر علينا العثور عليه على سطح هذه الاجابات المتباينة ، وان كنا سنجده في طوايا أعماقها ، أو في مصادراتها الأساسية • اذ تنطلق هذه الاجابات جميعا من منطلق رئيسى واحد هو

أن الكتابة عمل هام ، يوشك أن يكون هو المعادل الأســـاسى للحياة ، وللوجود ذاته لدى كثير من الكتاب • حتى هؤلاء الذين أخفقوا فى تقديم تعليل منطقى لدوافعهم للكتابة ، لم ينكروا أهميتها البالغة بالنسبة لهم كأفراد •

ويجب هنا ألا نخلط بين أهمية الكتابة ، والأهمية التى حاول بعض الكتاب اضفاءها على أنفسهم من خلال الكتابة • لأن الكتابة هدمة ولا شك ، سواء أتواضع الكاتب أم أغرق فى الغرور • فجابرييل جارسيا ماركيز ، الكاتب الكولومبى العظيم والذى فاز بجائزة نوبل قبل أكثر من عامين يقول : « اننى أكتب حتى يحبنى أصدقائى أكثر » ، وهى اجابة تنطوى على قدر كبير من التواضع ، وعلى الاشارة الى أهمية الكتابة فى عملية التواصل الانسانى • بينما يقول الشاعر العربى أدونيس (على أحمد سعيد) « اننى أكتب لأرجع أصداء لما قاله الله ولم يكتبه » وهى اجابة طافحة بالغرور والذاتية بالمقارنة باجابة ماركيز المتواضعة ، ولكنها تحاول بطريقتها الخاصة ، والمناقضة كلية لطريقة ماركيز ، أن تشير الى أهمية الكتابة • وهناك الكثيرون من الكتاب الذين حاولوا الحديث بشكل واضح عن أهمية الكتابة • اذ يقول يوسف ادريس (القصاص العربى الكبير) « اننى أكتب لأننى أعيش ، وأواصل الكتابة ، لكى أعيش حياة أفضل » وهذا نفس ما يردده كاتب القصص العلمى الأمريكى الشهير ايزاك أزيموف عندما يقول « اننى أكتب لنفس السبب الذى أتنفس من أجله ، ولأننى اذا ما لم أفعل ، فاننى أموت » • أما برنارد مالمود القصاص الأمريكى الشهير فيقول هو الآخر « اننى أكتب حتى أفهم نفسى ، وربما أستطيع أن أفهم العالم ، اننى أكتب لأفتح أمامى سبل الفهم » • وكذلك الكاتب الفرنسى الشهير جورج سيمنون فانه يقول : « ان السؤال بسيط للغاية ، واجابتى عليه بكل اخلاص هى اننى أكتب لأننى أحس بالحاجة منذ الطفولة لأن أعبر عن نفسى ، وانى أحس بأنه أمر لا يد لى فيه » • ويقول الروائى الانجليزى جون فاولز « لأن هذا واجب على ، وجوهر الأمر انه من الضرورى أن أكتب ، لأن الواقعى فى عالمنا لا يرضينى على الاطلاق » •

لكن هناك عددا من الكتاب الذين حاولوا السخرية من الموضوع أو الهرب منه بشكل لا ينفى اعترافهم بأهميته • فالكاتب الايرلندى الكبير صمويل بيكيت يجيب « حسنا ، وما فى ذلك » وهى اجابة ملغزة كالكثير من أعماله ، ولكنها تجعل من الكتابة بديهية لا تحتاج الى مناقشة ، من خلال هذا الرفض المراوغ النبيل لمناقشتها أو تعريضها لابتذال البحث فى طواياها • أما الروائى الفرنسى الشهير آلان روب جرييه فيقول « اننى أكتب الرواية منذ خمسة وثلاثين عاما ، ولا أعرف حتى الآن السبب » بينمــــا يقول الروائى الألمانى الكبير جونتر جراس « اننى أكتب لأننى

لا أستطيع أن أعمل شيئا آخر » ، ويقدم الروائي الأمريكي المعروف جوزيف هيلر تنويعا على هذه الاجابة عندما يقول « انني لا أعرف لماذا أكتب ، ولكنني أدرك انني أحب عمل ما أستطيع اجادته » • ويذهب روائي أمريكي آخر ، وهو جون روث ، بهذه الاجابة الى أقصى حدودها عندما يقول « انني لن أجيب على هذا السؤال ، لأنني أحتاج الى حياة كاملة لأقدم اجابة عليه» • وهذا أيضا ما يذهب اليه الكاتب الانجليزي الذي فاز بجائزة نوبل قبل أكثر من عام ، وهو وليام جولدنج ، اذ يقول « كيف يستطيع انسان الاجابة على سؤال مثل هذا • لقد كان ثمة زمن ، عندما كنت يافعا ، لم يكن لدي شك في امكانية الاجابة عليه • ولكن في خلال الخمسين أو الستين عاما الماضية ، أصبح الأمر بالنسبة لي شديد الصعوبة ، ولا أستطيع أن أقدم أي اجابة محددة أو قاطعة على مثل هذا الموضوع ، الا أن أقول أنا آسف » •

وهناك من الكتاب من حاول تناول القضية بقدر من السخرية الدالة كالناقد وعالم الاشاريات الايطالي الكبير أمبيرتو ايكو الذي أثارت روايته الوحيدة (اسم الوردة) اهتماما كبيرا منذ صدورها قبل أكثر من عامين • فقد أجاب « قبل كل شيء لقد كتبت مرة واحدة ، ولا أستطيع الزعم بأنني اعتدت الكتابة • ان ما تعودت عليه هو شيء غريب يتكون من متابعة الكلمات فوق صفحة من الورق • ولكن من الواضح أن هذه ليست كتابة بالنسبة لكم • ولكن هذا ما فعله أرسطو وكانت وديكارت ••• الخ • لقد كتبت هذه المرة الواحدة لأن أولادي قد كبروا • ولم يعد لدي من أقص عليه الحكايات » وهي اجابة ساخرة ولكنها عامرة بالايماءات النقدية الدالة ، وبشيء من الضيق لاستبعاد بقية أشكال الكتابة الأخرى من هذا التحقيق الكبير الذي اقتصر على الكتابة القصصية وحدها الى حد كبير • حيث ينتقد ايكو فهمه القاصر أو المحدود للعملية الابداعية ، حيث يخرج منها الابداع النقدي والفكري والفلسفي • فكل هذه لديه أشكال من الابداع ، لا تقل أهمية عن الابداع الروائي بأي حال من الأحوال •

لكن ترى ماذا كانت اجابات كتابنا العرب الآخرين على هذا السؤال الكبير ؟ ومن هم الكتاب الذين ظهروا فيه ؟ وكيف يمكن مقارنة اجاباتهم باجابات الآخرين ؟ وبصورة أخرى ما هي الصورة التي سيخرج بها القارىء العام لهذا الملحق عن الكتاب العرب ، وقد وضعهم الملحق وسط غيرهم من كتاب عالمنا البارزين ؟ وقبل مناقشة ما قدمه كتابنا العرب من اجابات على هذا السؤال ، علينا أن نتعرف أولا على الكتاب العرب الذين ظهرت اجاباتهم في هذا الاستفتاء الأدبي الكبير ، ومن البداية سنلاحظ أن ملحق (ليبراسيون) لم يعمد الى فصل الكتاب بناء على مجموعاتهم اللغوية ، أو حتى بناء على القارة التي ينتمون اليها ، وانما عمد الى تقديم

البلاد التى اشتركت فيه وفق ترتيب أبجدى لهذه الدول ، كما رتبه أسماء الكتاب داخل كل بلد ترتيبا أبجديا فى محاولة لتجنب أى تمييز بينهم . ومن هنا كان كتاب الجزائر الأربعة هم أول من يصادف قارىء هذا الملحق من الكتاب العرب • وكان الكاتب التونسى عبد الوهاب المؤدب هو آخرهم . فمن هم الكتاب العرب الذين قدم الملحق اجاباتهم ؟

لقد شارك فى الاجابة على سؤال الملحق الأدبى لصحيفة (ليبراسيون) أربعة عشر كاتبا عربيا هم رشيد بوجدرة (المولود عام ١٩٤١) ومحمد ديب (١٩٢٠م) ورشيد ميموني (١٩٤٥) ونبيل فارس (١٩٤٠م) من الجزائر ، وتوفيق الحكيم (١٨٩٩) ويوسف ادريس (١٩٢٧) وادوار الخراط (١٩٢٦) ونجيب محفوظ (١٩١١) من مصر ، وفؤاد التكرلى (١٩٢٧م) من العراق وأدونيس ـ على أحمد سعيد (١٩٣٠) من لبنان ، وعبد اللطيف اللعبى (١٩٤٢) من المغرب ، ومحمود درويش (١٩٤٢) من فلسطين ، والطيب صالح (١٩٢٩) من السودان ، وعبد الوهاب المؤدب (١٩٣٦) من تونس • وبرغم غياب بعض اقطار الوطن العربى التى كان على الملحق أن يقدمها ، وبرغم أن باستطاعة أى متابع لما يدور فى حاضر الأدب العربى الحديث أن يقدم قائمة من الأسماء الهامة التى غابت عن الملحق من البلدان التى قدمها ، والتى ربما تكون أكثر تمثيلا لواقع الأدب العربى الراهن ، وأكثر مقدرة على طرح رؤاه المتميزة فى هذا المجال ، برغم هذا لا يستطيع أى مراقب منصف الا الاعتراف بجودة الملحق برغم قصور هذا الاختيار • وبعد هذا الاعتراف فاننا نستطيع أن نتساءل :

لماذا غابت أسماء كاتب ياسين ومالك حداد والطاهر وطار وعبد الحميد بن هدوجة من القسم الجزائرى ؟ ولماذا لم يضم القسم المصرى أسماء مرموقة كيحيى حقى وفتحى غانم وأحمد عبد المعطى حجازى وبدر الديب وشكرى عياد وسعيد مكاوى ومحمد عفيفى مطر ؟ وكيف اكتفى الملحق بكاتب واحد من كل من لبنان والعراق وفلسطين والمغرب وتونس ؟ واذا التمسنا له العذر فى عدم معرفة الكثير عن الكتاب العراقيين أو الفلسطينيين ، فكيف نفسر غياب عدد من كتاب المغرب المرموقين الذين يعرفهم القارىء الفرنسى مثل عبد الكبير الخطيبى والطاهر بن جلون ومحمد شكرى ناهيك عن الذين يكتبون بالعربية مثل محمد براده ومحمد بنيس وغيرهم • ولماذا لم يظهر فيه أى كاتب سورى ؟ وكيف سقط من حسابه الكاتب السعودى المرموق عبد الرحمن منيف مع انه يعيش الآن فى فرنسا ؟ • فقد كان باستطاعة هذه الأسماء وغيرها مثل جبرا ابراهيم جبرا وعبد الوهاب البياتى وزكريا تامر وحنا مينه وهانى الراهب ومطاع صفدى وعشرات غيرهم اثراء القسم العربى واضفاء قدر من التوازن المفقود على اجاباته •

وإذا تركنا قضية الاختيار جانبا ، وتأملنا الحصاد الذى تطرحه علينا الإجابات العربية ، أو بالأحرى الاجابة العربية الواحدة ذات الأصوات الإثنى عشر ، لأننى أستثنى هنا صوتين تاشذين كشفت اجابتاهما عن قدر كبير من الذاتية ، وهما أدونيس ونجيب محفوظ ، سنجد أن هذه الاجابة تطرح علينا مجموعة من القضايا الهامة • أولاها أن الكاتب العربى لا يستطيع أن يفكر فى غاية الكتابة ومبرراتها بمعزل عن واقعه ، أو عن الجمهور الذى يتوجه اليه ، ويصدر عنه فى الوقت نفسه • فالكاتب العربى لا يكتب كما يقول نجيب محفوظ « اشباعا للمتعة أو امتاعا لقوى غامضة » لا شيء خارجيا كان يدفعنى الى الكتابة » ولا حتى « من أجل المشاركة فى العظمة » كما يقول ، أو « لترجيع اصداء ما قاله الله ولم يكتبه » كما قال ادونيس • ولكنه يكتب لأنه يحس بالمسؤولية ، وبالرغبة فى النهوض بعبء التعبير عن شعبه وبلورة رؤيته •

انه يكتب كما يقول رشيد بوجدره « حتى أدفع خطر الموت والجمود ، فالكلمات هى كساء أبناء جيلى « انى أكتب لأن الفظاظة تطغى على عناصر الحياة ، ولأننى أحتاج لسند يساعدنى على أن أقتنص فى شبكة الكلمات والأفكار والرؤى المستجوذة على ، وأبلور معتقداتى السياسية ورؤيتى للعالم • اننى أكتب ضد الرياء الذى يتفشى فى المجتمع العربى » • ففعل الكتابة فعل مقاومة ، وهو عند محمد ديب فعل مغـامرة ، لأنه يقول « لقد قامرت لعدة مرات بحياتى وبأشكال متباينة ، وكانت الكتابة احدى هذه المغامرات ، وواحدة من هذه المغامرات ، انها المغامرة الأصعب » فان تكتب يعنى أنك تقامر بالحياة مقامرة محفوفة بأشد المخاطر » • وهى بالفعل كذلك ، ومن يعرف تاريخ المثقف العربى الحديث يوقن بأن الكتابة الجديرة بهذا الاسم خطر • لأنها كشف ، ولأنها رأى ، ولأنها وجود ، فالكتابة تحاول — كما يقول كبيل فارس « أن تكون بديلا للخداع والمخاتلة • وهى فى الوقت نفسه عنف فى التاريخ » • ولا غرو فالكاتب — كما يقول رشيد ميمونى « ضمير نفى كل النزاهة • يصور فى فنه العالم بغية تغييره واعادة تركيبه من جديد • والكاتب متمرد ثائر ، يشجب ويصرخ بصوت مخالف أبدا ، وقادر دائما على افساد معزوفة القضايا الكبرى التى لا مماراة فى أهميتها » • ولذلك فان رشيد ميمونى لا يؤمن بالكاتب ذى الذات المتضخمة الذى يبحث عن عظمة زائفة ، أو الذى يلبى رغبات قوى غامضة كما يقول نجيب محفوظ المولع بالتطبيع وبالثناء على دارسيه من الصهاينة الذين تربطه بهم أواصر عديدة » ولكنه « يؤمن بالكاتب الذى يسيطر على شيطانه الداخلى ، ويمضى الى أكثر المناطق قتامة حتى يفض مغاليق الأقوال الداخلية المخبوءة والمنتظرة • الكاتب الذى يرفض القهر والعسف والظلم والاستبداد والاستغلال ، والذى يستطيع ، أو ربما يطمح الى الثورة المطلقة » •

فالكتابة لدى الكاتب العربى فعل استنارة وفعل تغيير • انهـــا تنطلق من احساس عميق بأن الكاتب الذى أتيحت له فرصة التعليم ينتمى فى وطننا العربى الى الأقلية المتعلمة فيه ، بل والى النخبة المحظوظة بين هذه الأقلية المتعلمة ، النخبة القادرة على الابداع والتعبير ، ولأنه أقلية الأقلية ، فان على كاهله مسؤولية كبرى ، وهى أن يكون لسان الأغلبية الأقل منه حظا ، والتى ساهمت برغم كل شىء فى اتاحة فرصة التعليم وامكانية التعبير له • الكاتب العربى ينتمى لشعبه ، ولهذا فانه مشغول به ، ويتوجه دائما اليه ، يملؤه احساس بالحب وشعور بالولاء • لهذا يقول توفيق الحكيم برغم كل ما عرف عنه من تذبذب فى قضايا المجتمع والسياسة « اننى لم أكتب الا لأمر واحد ، وهو أن أدفع القـارىء الى التفكير » ويقول ادوار الخراط « اننى أكتب لأننى أتمنى أن يتحرر وطنى ذو التاريخ العريق من وطأة القهر الدنيوى ، ومن عتمة القرون الوسطى • هل هذا ممكن ؟ لا أعرف جوابا الا من خلال الكتابة ، مع انها ليست اجابة فى حد ذاتها • اننى أكتب مدفوعا بالحب ، وهى كلمة أصبحت فجة مستهلكة الى حد ما ، ولكنها لا تزال جديدة • أكتب مدفوعا بفكرة أن الشر قدرنا • ولكى لا يكون مثالنا على الأقل • اننى أكتب كما لو كنت خائفا ومفتونا بالعالم ــ اللغز ، بالمرأة ــ اللغز ، وبالرجل اللغز ــ شقيقى • انها نواة صلبة أحملها فى قلبى • لغز لا يحل أبدا رغم اعمال التفكير فيه دائما ، اعمالا عنيفا ورقيقا ، كالحب هى الكتابة » •

والكتابة لدى يوسف ادريس (مصر) وفؤاد التكرلى (العراق) مرادف آخر للحياة ، بل هى سبيل كل منهما الى حياة أفضل ، يفك فيها الكاتب بالتواصل مع الآخرين ، عن نفسه قيود العزلة والوحشة ، ويستطيع أن يفهم عبرها الحياة بشكل أفضل ، وان يتقبل خيباتها واخفاقاتها دون أن يعنى هذا التقبل أى قبول • اذ يقول فؤاد التكرلى « ان علاقتى بالكتابة وممارستها تعود الى سنوات شبابى • فى هذه الفترة كانت حساسيتى القصوى قد زادت من عزلتى ، ومن بعدى عن الناس • وكانت حياتى ستنتهى نهاية سيئة لو لم أكتشف الكتابة ولو لم أتعلق بها • لقد شكلت الكتابة حياتى وشخصيتى ، وجعلتنى أكثر تقبلا للخيبات ، وأقل تأثرا بشرور الآخرين ، وأصبح بامكانى الاقتراب من الناس • وهكذا اخترقت الكتابة كيانى كله » • والكتابة ــ كفعل تغيير ــ لا تغير الكاتب وحده ، ولكنها تغير الواقع كله ، لأن الأدب ــ كما قال رشيد ميمونى « يستطيع كحصان طروادة أن ينخر من الداخل فى قلاعنا الوهمية التى تؤكد لنا أن سماءنا دائما زرقاء • اننى أؤمن بالأدب الذى يضع الأصبع على الجرح • ومثل هذا العمل يزيد الألم بالطبع ، ولا يمكن دائما الوقوف بجانبه • ولكن للأدب حسارة المطالبة » •

وتبلغ هذه الجسارة مداها عند محمود درويش الذى يكتب لينشىء وطنا عبر الكلمات لشعبه الذى انتزعوا منه وطنه ، وليؤسس جسور التواصل مع الآخرين ، وليستثير رد فعل القارىء · اذ يقول : « اننى أكتب الشعر والنثر دون أن تكون لهما الدوافع ذاتها · حين أكتب النثر أكون واعيا بأننى أتوجه الى القارىء برسالة ، بهدف ، أن أستحث رد فعله أو أثير مشاعره · أما حين أكتب شعرا ، فاننى لا أحس الحاجة ذاتها ، انى هنا أقيم حوارا بينى وبين نفسى · لا أفهم نفسى أكثر ، أو لا أتحرر من عبء يبهظنى ، فشعرى شكوى غير موجهة الى أحد · بل أكثر من ذلك ، انى بوعى أستبعد القارىء خارج المساحة السرية بينى وبين نفسى أثناء عملية تخلق القصيدة الشعرية · الشعر بالنسبة الى ، وربما كان أيضا نوعا من اللعب · اذ اننى أكتب أحيانا كى ألعب · لكننى طالما سألت نفسى هل أستطيع متابعة هذه الشكوى ، وهذا اللعب من غير قارىء ؟ بالتأكيد لا ! ويبقى السؤال الملح : لماذا أكتب ؟ ربما لأنى لا أملك هوية أخرى ، حبا آخر ، حرية أخرى ، وطنا آخر · أنا نتاج تاريخى وماضى الشخصى رغم اننى لم أشأ ذلك · لم أرد ، ولم أدع اننى أبنى بالشعر عالما ، وأصوغ وطنا للفلسطينيين ، لكن أليس هذا ما أفعله بوعى ، أو بغير وعى » ·

هكذا تصبح الكتابة هوية ، دون أن تكون بديلا عن الوطن ، ولهذا ليس غريبا أن يقول عبد اللطيف اللعبى « اننى أكتب أولا لنفسى ، ومن ثم لهؤلاء الذين لم يكتبوا بعد » ، وان يردد رشيد ميمونى نفس الفكرة عندما يقول « اننى أكتب للذين لا يستطيعون قراءتى · لأبى وأمى الأميين ، وللآلاف الأخرين · اننى أكتب لمن سيقرأوننى فى بلادى ، وللذين يمنعون كتبى ، وللذين يؤازروننى من بعيد » فالكاتب الحق يكتب للبشر جميعا · يكتب من أجل أن يتواصل مع الماضى ، كما يقول الطيب صالح ، ومن أجل استشراف المستقبل فى الوقت نفسه · يكتب من أجل نفسه ومن أجل العالم الذى يعيش فيه · من أجل الذين يقرأونه ، ومن أجل الذين يقيمون الأسوار فى وجه الكلمات معا · فبالكتابة وحدها تتساقط كل الأسوار ·

باريس — مارس ١٩٨٤

● السفر الحادى عشر

الثقافة البديلة ومهرجان الابداع العربى

لا شك أن أحد أدواء حياتنا العربية ، فكرية كانت أو سياسية هو الولع بالتبسيطات ، والوقوع فى أنشوطة التقسيمات الثنائية التى لا تبصر غير الأبيض والأسود ، وتعميها عنترية الرغبة فى اقامة التناقض الصارخ بين اللونين عن رؤية بقية الظلال الممتدة بينهما . ناهيك عن اكتشاف أن كل لون من هذين اللونين المتعارضين ينطوى فى عمق الأعماق منه على بذور نقيضه . هذه النظرة الواحدية والتبسيطية هى ما تعانى منه الحياة الثقافية فى القاهرة هذه الأيام ، وكانما انعكست عليها استقطابات المعركة الانتخابية ، وصراعاتها فصرفتها عن التأمل المتأنى والاستجابات الصائبة . فتحت قشرة هذا الانشغال العارم بالمعركة الانتخابية وصراعاتها ، وخلف غلالة الخلافات الحزبية ومشاحناتها الكلامية والاعلامية ، تدور بعض الأحداث الثقافية الهامة التى تشير الى أن هناك مجموعة من المتغيرات الفاعلة فى الواقع المصرى ، والى أن آليات العمل الثقافى فى مصر قد أخذت فى التبدل ، وفى خلق قوانين ومواضعات جديدة للحركة الثقافية التى تغيرت مواضعاتها بشكل جذرى فى الخمسينات والستينات ، وها هى تتغير مرة أخرى مع اطلالات الثمانينات بصورة ترهص بضرورة حدوث تغيرات أشمل وأعمق .

فقد أطاحت تغييرات الخمسينات والستنيات بالكثير من المبادرات الثقافية الفردية الهامة ، التى أفرزتها آليات الواقع المصرى والعربى فى الثلاثينات والأربعينات ، والتى تبلورت شخصيتها فى مناخ الفكر الليبرالى الذى اعتمد على المشروع الثقافى الفردى والمستقل ، وأوشكت مبادراته الفردية تلك أن تتحول مع بدايات الخمسينات الى مؤسسات ثقافية متواضعة حقا ولكنها مستقلة . وقد أسست الخمسينات المشروع الثقافى المركزى الكبير ، الذى طرح نفسه كبديل للمشروعات الثقافية الصغيرة . ولم يبدأ هذا مع انشاء أول وزارة للثقافة فى مصر ، بل وفى الوطن العربى برمته ، بل بدأ قبل هذا الحدث الهام بسنوات عديدة ، عند تكوين الادارة الثقافية بوزارة المعارف ، وبقيادة واحد من ألمع شخصيات الثقافة العربية ، وهو الدكتور طه حسين وأصدارها لمشروعها الطموح الهام الذى عرف

باسم « الألف كتاب » . ذلك لأن هذه الادارة الهامة هى التى أصبحت فيما بعد ، النواة الأساسية لوزارة الثقافة . وهى التى أرست أبرز الخطوط المحددة لقسمات المشروع الثقافى العام الذى لابد أن يكون له أفق استراتيجى واضح ، وأن يضع الكيف الثقافى ، والقيمة الفكرية قبل أى اعتبار تجارى أو اقتصادى أو حتى ترويحى .

واستمرت وزارة الثقافة الوليدة فى النمو والتطور فى الاتجاه الصحيح ، مقتفية خطى مشروع طه حسين الأول ، وموسعة أفقه الاستراتيجى ، وقاعدته الجماهيرية على السواء ، حتى بلغت ذروة تطورها فى بداية الستينات ، وخاصة فى فترة تولى ثروت عكاشة لمقاليد الأمور فيها . غير أن هذا التطور ما لبث أن عانى من انتكاسة خطيرة حينما آلت الوزارة الى عبد القادر حاتم ، الذى وضع الكم قبل الكيف . فاجهز على جوهر المشروع الثقافى الوليد ، وان توسع فى حجمه بمنطق النمو السرطانى المريض . وهى انتكاسة سرعان ما صححت من جديد بعد عدة سنوات بفضل يقظة المثقفين واستجابة السلطة لصوت العقل . فعادت المسيرة الى طريقها القويم . ولقد أسست الستينات ، بالاضافة الى ضخامة المشروع الثقافى ، مركزية السلطة الثقافية واندغام شتى النشاطات الأدبية والثقافية فى كيان مؤسساتها الكبيرة . مما خلق قدرا كبيرا من الحيوية الثقافية التى لم تخل أبدا من التوتر والتناقضات . سواء بين المؤسسة والمبدع الفرد ، أو بين المبدعين أنفسهم فى انقسامهم الى : مبدعى المؤسسة ، ومبدعى رفضها .

كما أدى اعتماد المشروع الثقافى على مساندة الدولة الى نتيجتين متعارضتين الى حد ما : أولاهما توسيع قاعدة المستفيدين من الثقافة ، ومد رقعة جمهورها ، وارهاف فاعلية أدواتها الهامة من مجلة وكتاب ومسرح وسينما ومعهد ثقافى بفضل الدعم المادى الذى حول الثقافة الى خدمة أساسية من حق الجمهور على الدولة أن تقدمها له بثمن زهيد ، وقيمة فكرية عالية . وثانيتهما الاجهاز النسبى على استقلال المثقف الاقتصادى ، وبالتالى الفكرى ، عن مؤسسات الدولة الثقافية ، التى لا يستطيع بدون دعمها أن يحقق فاعليته الثقافية . وبالتالى فانه لا يمتلك القابلية حتى للتناقض الجذرى معها ، وان توفرت له الى حد كبير بعض المساحات الحرية فى حدود التناقضات الثانوية وحدها . ومن المفارقات اللافتة ، فى هذا الصدد ، أن اتساع رقعة الجمهور والمستهلك للثقافة ، والتى ارتبطت فى الغرب باستقلال المثقف الاقتصادى ، وبالتالى الايديولوجى ، وبتحوله الى أن يصبح الضمير النقدى للمجتمع ، اذ تحتل مسئوليته تجاه القارىء المكان الأول فى سلم مسئولياته ، وبالتالى تعرضه بدرجة من التوتر والتناقض فى علاقته الندية مع المؤسسة المسيطرة ،

هذا الاتساع ارتبط فى الواقع المصرى بتزايد اعتماد المثقف على المؤسسة ، لا استقلاله عنها • وبتصاعد حدة التناقض بين مثقفى المؤسسة وكتاب رفضها •• ومهما كان الرأى فى هذه المعضلة المحيرة التى وجد المثقف نفسه فيها ، فإن عدم وعى الكثيرين من المثقفين بآليات هذه المعضلة من ناحية ، ووطنية السلطة المركزية من ناحية أخرى ، قد ساعدا فى تغليب الجانب الايجابى المتمثل فى تحقيق شعبية الثقافة دون التضحية بمستواها الكيفى ، على الجوانب السلبية الخاصة بحرية المبدع واستقلاله عن المؤسسة الرسمية • .

غير أن هذه الجوانب السلبية ما لبثت أن أسفرت عن نفسها بشكل واضح فى حقبة السبعينات العصيبة ، التى تميزت بتقلص المشروع الثقافى العام ، بل وبالعداء للثقافة الجادة بصورة أجهزت على كل انجازات الستينات الثقافية المضيئة • فأوقفت المجلات ، وتقلص دور الدولة فى النشر الى أقصى حد ، وتحولت مطابعها الضخمة الى مطابع تجارية تطبع علب السجائر ، واعلانات شركات الانفتاح الاستهلاكى البغيض ، وأغلفة المعلبات التى تهيئ الرطانة ، بدلا من السلاسل الثقافية الشعبية الجيدة ، وكتب التراث ، والمترجمات القيمة ، والكتابات الابداعية الجديدة • وأغلقت المسارح هى الأخرى أبوابها بالتدريج وظهرت عادات جديدة قبيحة هى احراق المسارح كلما قدمت عملا نقديا جيدا ، أو تأجيرها وأحيانا بيعها لمسرح الاسفاف التجارى ، وتهجير كتابها وممثليها الى استوديوهات الخليج ، ومراكز انتاج المسلسلات التليفزيونية • وصفيت مؤسسة السينما بعدما ترك الحبل على الغارب للمنتج التجارى ، وأدى الى اختفاء الأعمال الجيدة من السوق كلية •• وحوصرت المعاهد الثقافية ، أو وظفت امكانياتها للدعاية السياسية ، وأعمال المناسبات ، حتى أوشكت أن تفرغ من محتواها الثقافى وقيمتها التعليمية على السواء •• .

واقبلت الأزمة الاقتصادية لتشارك مع هذه الاجراءات كلها فى خلق المناخ الطارد الذى دفع بعدد كبير من المثقفين المصريين الى الهجرة الى منافى أوروبا ، أو العمل فى البلدان العربية ، والنفطية منها بشكل خاص ، أو حتى الى الهجرة الداخلية فى منافى الصمت والحصار • ذلك لأنه ما أن تقلص دور الدولة الثقافى حتى وجد المثقف نفسه وسط فراغ قاتل • فلا هو قادر على تأسيس مشروعه الثقافى الفردى ، ولا هو بمستطيع أن يتعامل مع ما بقى من المؤسسات الثقافية التى اهترأت و « خوخت » بسبب تولى الوجوه المتهافتة لزمام الأمر فيها • وأدى ضغط هذه الأزمة الخانقة ، وانسداد التعبير الأدبى أمام الأجيال الطالعة ، الى ظهور مجموعة من المنابر الثقافية المستقلة ، التى أخذت تصنع ما يمكن تسميته بالثقافة البديلة • تلك الثقافة التى حمل كتاب جيل السبعينات الشبان عبء

الريادة فيها ، بمطبوعاتهم الصغيرة والبسيطة التكاليف ، ولكن الكبيرة الدلالة . ولم تلبث هـــذه المبادرات الصغيرة فى التراكم والاطراد حتى تحولت بعد فترة وجيزة ، الى اتجاه عام تغيرت معه آليات الحركة الثقافية ، ومواضعاتها فى مصر . ذلك لأنه ما أن تحولت هذه المبادرات الصغيرة الى اتجاه عام ، حتى أخذت تسحب الأرض من تحت أقدام مؤسسات الدولة الثقافية ، التى أجهزت على نفسها بنفسها ، بسبب ضيق أفق قياداتها ، وانعدام قدرتهم على سد حاجة الجماهير الثقافية ، أو على تقديم واجهة ثقافية مصرية قادرة على الوقوف على أقدامها فى ساحة الثقافة العربية ، ناهيك عن الاضطلاع بدور قيادى فيها .

وقد تبدى ذلك فى صورة سيل من المجلات الثقافيه الصغيرة مثل (اضــاءة ٧٧) و (كتابات) و (مصرية) و (الكراســة الثقافية) و (أصوات) و (التجاوز) و (النديم) و (خطوة) و (أدب الغد) و (بانوراما) وغيرها . ثم فى ظهور عدد من المجلات الأكبر حجما وقيمة ، مثل (الفكر المعاصر) و (الثقافة الجديدة) . وهى مجلات قصيرة العمر حقا ، ولكن قدرتها على تقديم عمل ثقافى قادر على تحقيق وجود مصرى على الساحة الثقافية العربية ، فاقت أضعاف المرات قدرة مجلات المؤسسة الشهرية انذاك مثل (الثقافة) و (الجديد) . كما تبدى ذلك أيضا فى ظهور العديد من محاولات النشر المستقلة ، التى كان من أهمها (مطبوعات الفكر المعاصر) التى أصــدرت عددا من الأعمــال الهامة ليحيى الطاهر عبد الله ، ومحمد البساطى ، وعبد الفتاح الجمل وغيرهم و (مطبوعات القاهرة) التى أصدرت عددا من الأعمال المتميزة لصنع الله ابراهيم ، وعبد الحكيم قاسم ، وابراهيم أصلان ، وصلاح عيسى ، وعدد من كتاب السبعينات . ثم هناك أيضا دارا (الثقافة الجديدة) و (المستقبل العربى) اللتان أصــدرتا العديد من الأعمال الثقافية الهامة لصنع الله ابراهيم ، وجمال الغيطانى ، ومحمد البساطى ، وكمال القلش ، وأمل دنقل ، ويحى الطاهر عبد الله ، و ابراهيم عبد المجيد ، وسليمان فيـــض وغيرهم . وها هى أخيرا (دار شهدى للنشر) تنضم الى كوكبة هذه المبادرات الثقافية ، وتنشر أعمالا عديدة لمحمود الوردانى ، وجار النبى الحلو ، وحلمى سالم ، ورؤوف مسعد وغيرهم .

وقد كان لتصاعد تيار هذه المبادرات الثقافية المستقلة واطراده أهمية كبيرة . ليس فقط لأنه طرح بقوة وجود ثقافة بديلة تتميز بقدرتها النقدية وأصالتها ، أو لأنه برهن على أن الثقافة الحقة لا تموت مهما تكاثرت عليها الطعنات ، واشتدت المؤامرات ، ولكن أيضا لأن رفضه للانخراط فى قطيعة ثقافة المؤسسة الرسمية الهابطة ، وانطواءه على رؤى فكرية وايديولوجية مغايرة بل ومقاومة لكل التراجعات الثقافية المؤسسية ، يشكل نوعا من

الاحتجاج على ما آلت اليه الأمور فى عصر المهانة العربى ، الذى يرفرف فيه علم الكيان الصهيونى فى سماء العاصمة التى كانت يوما قلبا نابضا للعروبة ، ورمزا حيا للاباء العربى والشموخ الوطنى • وتعربد فيه قوات العدو الصهيونى فى المنطقة ، وتحتل عاصمة عربية والعرب خانعين •

ولاشك أن هذا المحتوى المقاوم والرافض له دور فى دفع المؤسسة الثقافية فى مصر الى الاحساس بهزال ما قدمته من حصاد ثقافى طوال سنوات السبعينات العصيبة • وبانفضاض القارىء المصرى والعربى عنها• ومن هنا عمدت هذه المؤسسة منذ بدايات الثمانينات الى تغيير وجهها الثقافى • وليس من قبيل المصادفة أن تتواقت محاولات التغيير مع تولى واحد من أذكى أعمدة النظام فى هذا الوقت • وهو منصور حسن ، مسئولية وزارة الثقافة ، ومع وجود الشاعر صلاح عبد الصبور على قمة مؤسسة النشر الرسمية فى الدولة • فبدونهما معا لما كان باستطاعة المؤسسة الرسمية أن تدرك أن عليها أن تفتح بعض الأبواب التى أغلقتها فى وجه الثقافة ، وأن تتدارك الموقف قبل فوات الأوان • لأن العلاقة بين صورة مصر الثقافية والحضارية ، ودورها السياسى وثيقة الأواصر وشديدة الترابط معا •

وقد بدأت هذه المحاولة بمبادرة من المثقف المصرى صلاح عبد الصبور وبموافقة من الدولة التى رأت أنه قد يعود عليها من هذه المبادرة النفع ، ولن يصيبها منها أى ضرر ، لاعادة بعض الحياة الى واقع مصر الثقافى • لا بهدف احياء الحركة الثقافية ، لأن هذه الحركة بطبيعتها حركة نقدية ، ولكن بالدرجة الأولى بهدف تحسين وجه مصر الثقافى عربيا • وتجسدت هذه المبادرة أولا فى اصدار مجلة (فصول) التى كان جابر عصفور هو طاقة الدفع الحيوية وراءها • تلك المجلة الهامة التى أثبتت من خلال مسيرتها الوطيدة ، أن للمشروع الثقافى حركيته واستقلاليته وقدرته على الانفصال عن الأهداف التى رسمت له • كما برهنت على أن الثقافة العربية الجادة فى مصر لم تمت برغم سنوات التقلص والحصار ، وأن العقل المصرى لا يزال قادرا على العطاء الخصب الفعال ، بل أيضا وعلى الريادة فى مجال الابداع النقدى والثقافة الثقيلة • بالصورة التى تحولت معها (فصول) ، برغم عمرها القصير ، الى مؤسسة ثقافية هامة ، قادرة على اثراء الفكر النقدى وعلى خلق مجموعة من التيارات الثقافية والفكرية والتى ترفد حركة الابداع والثقافة بوجه عام • صحيح انها نحت الى الاهتمام بالنقد النظرى ، أكثر من اهتمامها بالنقد التطبيقى فى بعض الأحيان ، لكن هذا المنحى كان ضرورة فرضتها ضحالة الكتابات النقدية فى سنوات الانحطاط السبعينية •

والواقع أن نجاح تجربة (فصول) وانفلاتها من أنشوطة محدودية الدور الذى رسم لها ، يعود الى عاملين إساسيين : أولهما هو سمة أفق المجلة وايمانها بضرورة الحوار الجاد الخلاق بين المدارس والرؤى النقدية المختلفة ، ورغبتها فى الانفتاح على الجديد فى الفكر النقدى الانسانى لتدارك ما فاتنا فى سنوات الركود ، وثانيهما هو ضيق أفق أعدائها الذين لا يبصرون الا بالأبيض والأسود ، ولا يدركون أهمية الالوان والظلال الواقعة على امتداد المسافة اللونية الفاصلة بينهما • سواء فيهم من قاطعها بسبب صدورها عن المؤسسة الرسمية متناسين انها تصدر بأموال الشعب المصرى ، وتتوجه اليه قبل أى شىء آخر ، ومن رفض انفتاحا على المناهج النقدية الجديدة ، وحاول الرد عليها بايثار منهج نقدى بعينه ، لم تعارضه (فصول) وانما فتحت صفحاتها لأرقى انجازاته • وليس لتكرار المحفوظ عنه من تبسيطات الخمسينات الآلية •

وبعد أن ثبتت (فصول) نفسها ، وأعادت لمصر الثقافة لا مصر المؤسسة كرامتها ودورها ، أرادت أن تسهم فى أن تعيد لها مكانها كقبلة للفكر العربى والثقافة العربية • وقد بدأت بمهرجان حافظ وشوقى قبل عامين ، وها هى تواصل نفس الدور من خلال مهرجان القاهرة للابداع العربى الذى عقد فى الفترة من ٢٤ ــ ٣٠ مارس ١٩٨٤ ، وهو المهرجان الذى أريد أن أتوقف حياله وقفة نقدية متأملة ومعلقة على بعض ما دار فيه ، وما كان ينبغى له أن يفعله ، أو أن يتجنب فعله • ومن البداية أحب أن أعلق على هذا البيان المؤسف الذى أصدره ثلاثة من الكتاب العرب الذين أقدرهم ككتاب برغم اختلافى مع موقفهم هذا • فقد أصدر ادونيس ومحمد بنيس والطاهر وطار بيانا يعلنون فيه مقاطعتهم لهذا المهرجان • ومن حقهم ، بل ومن حق كل كاتب أن يلبى أو يرفض الدعوة لأى مهرجان يدعى اليه ، وإن يبدى فى ذلك ما يشاء من أسباب وعلل • لكن المؤسف أن أدونيس الذى وقع على هذا البيان كان قد أخبر زوجته الناقدة خالدة سعيد ــ التى دعيت هى الأخرى له وحضرت جلساته ــ أنه قد قبل الدعوة وأنه سيلقاها فى القاهرة فى المهرجان • فجاءت إليه هى وابنتها ، ونزل ثلاثتهم فى ضيافة المهرجان ، لتفاجأ فى القاهرة بموقف البيان المؤسف • كما أن الشاعر محمد بنيس كان قد قبل الدعوة وأرسل بعنوان البحث ، بل لقد حضر من قبل الى مهرجان شوقى وحافظ قبل أقل من عامين ، فما الذى تغير فى الموقف حتى يغير رأيه ؟ واذا ما تجاوزنا عن هذه المتناقضات الموقفية الصغيرة ، سنجد أن البيان نفسه ينطوى على نوع من الوصاية غير المقبولة على الثقافة المصرية من ناحية وعلى تعليلات متهافتة لأسباب المقاطعة من ناحية أخرى • اذ يرى مصدرو البيان الثلاثة أن مجيئهم الى القاهرة ، للمشاركة فى مهرجان ثقافى تشارك فيه معظم فصائل الحركة

الثقافية المصرية ، بمختلف مواقفها واتجاهاتها ، فلا يفسر على أنه موقف ضد الحركة الوطنية المصرية • وهذا من أغرب التعليلات ، ولا أريد أن أقول انه أكثر التعليلات الممكنة [illegible] .

فالحركة الوطنية ومعها الحركة الثقافية في مصر تعرف كيف تحارب معاركها ، ولا تجد أن عزلتها عن المثقفين العرب أو محاولة بعضهم لعزل مصر ، أو تحقيق القطيعة بين مثقفيها ، وبقية مثقفي العربية كتابا وجمهورا ، من الأمور المفيدة في معركتها ضد الثقافة الرجعية والتراجعية ، أو ضد الغزو الثقافي والصهيوني . ولقد شهدت معظم فصائل الحركة الثقافية المصرية انشطة المهرجان ، وشاركت في بعضها ، وعقد أفرادها الكثير من اللقاءات مع ضيوف المهرجان ، العرب منهم أو الأجانب ، بل لقد استغل بعضهم مناسبة انعقاد المهرجان لاقامة بعض الانشطة التي تستهدف البرهنة على أن في القاهرة أكثر من تيار ثقافي وفكري ، وأن كل هذه التيارات تعبر عن نفسها في أشكال واطر مختلفة . بل لقد وزع البعض ضمنهم من شعراء الجيل الجديد بيان احتجاج على اختيارات المهرجان الشعرية ، داخل قاعة المهرجان نفسه ، وفى قلب مسرح الجمهورية الذى عقدت به أمسية المهرجان الشعرية الأساسية . وأهدى الشاعر المصرى أحمد حجازى ومن فوق منبره ، قصيدته إلى الشاعر محمد عفيفى مطر الذى حرم من حضور المهرجان ، ولم يفسر حضوره أحد من الضيوف العرب على أنه ضد الحركة الوطنية أو الثقافية ، وربما كان البيان المؤسف هذا هو العمل الذى ينطوى على موقف مضاد للحركة الثقافية في مصر ، أكثر من غيره . وعلى اهانة لها ، واستخفاف غريب [illegible]

لكن علينا الا نستسلم لاغراءات الاسترسال في هذا الحديث حتى نستطيع تناول المهرجان ذاته : أهميته ، ومحتواه ، وجوانب القصور فيه . ومن البداية فإن هناك اجماعا على أن فكرة عقد مهرجان دوري للابداع العربى فى القاهرة فكرة ممتازة حقا ; لكن المشكلة تبدأ بعد هذا الاجماع مباشرة ، عندما تبارح الفكرة حدود الرأى المجرد ، الى عالم الواقع والتنفيذ : اذ تطرح عند ذلك مجموعة من التساؤلات الأساسية حول طبيعة التنفيذ وحول نوعية المهرجان المطلوب : هل المطلوب هو مهرجان احتفالى يتعالى فيه ضجيج الأصوات التي استمرأت الانفراد بالساحة الثقافية طوال العقد الماضى ، فتردت الحياة الأدبية نتيجة لذلك فى حضيض الانحطاط الفكري ؟ أم اننا فى حاجة إلى وقفة متأنية يحاول فيها العقل العربى أن يتأمل ما جرى له وللانسان العربى بالتالي خلال السنوات العشر أو العشرين الماضية ؟ وقفة بعيدة عن صخب الاحتفالات وعن احتكار تيار ثقافى لها دون الآخر ، وعن الحساسيات الرسمية والعقد • وقفة مع

النفس يحاول فيها العقل العربى استقصاء ابعاد ما جرى له ، ومعرفة طبيعة النوازل التى أصابته فزعزت ثقته بنفسه وأصابت مسيرته بالتعثر والتدهور والاضطراب •

ولا تعنى جدية الوقفة مع النفس واخلاصها أن يقتصر المهرجان على حلقات الدرس الصارمة ، أو أن يطرح عن ساحته بقية أشكال التعبير الأدبى والتشكيل ، وانما أن يتم تقديم حصاد هذه الأشكال التعبيرية المختلفة ضمن اطار محاولة الفهم المثانية هذه ، وليس كنوع من الاستعراض الترويحى الذى لا هدف له وراء حدود التسلية أو الابهار • فالمطلوب أن يكون مثل هذا المهرجان مناسبة لأحياء الاهتمام بالثقافة وبانجازاتها الابداعية لدى كل من المؤسسة الرسمية والمثقفين على السواء ، بالصورة التى تستعيد بها الثقافة ذاتها ومجدها ، وأهم من هذا كله دورها وجمهورها • وأن يدور هذا الأحياء فى اطار من الحوار الجاد الذى يرافق الأعمال المعروضة والمقدمة بالدرس والتقييم وتقصى ابعادها الدلالية والتعرف على ما تطرحه من مؤشرات وهموم • وذلك حتى لا يكون هناك انفصام بين الابداع والنقد ، وحتى تتكامل انشطة المهرجان ويتفاعل بعضها مع البعض الآخر •

لكن ما جرى فى المهرجان كان بعيدا كل البعد عن فكرة التكامل والتفاعل هذه ، لأن الطابع الاحتفالى فيه غلب على الطابع التأملى والجدى ، وأثر على كل ما اندرج تحت هذا الجانب الجاد من نشاطات • ومن البداية فلابد أن اعترف بان اللجنة العليا للمهرجان قد وفقت فى اختياراتها للمشاركين الذين وجهت اليهم الدعوة من النقاد والشعراء على السواء • لأنها وجهت دعوتها الى مجموعة من خير نقاد العربية ودارسيها وشعرائها على امتداد رقعة الوطن العربى المترامية الأطراف • ففى مجال الشعر دعت كلا من عبد الوهاب البياتى وبلند الحيدرى ولميعة عباس عمارة وحسب الشيخ جعفر وحميد سعيد من العراق ، وشوقى بزيغ ومحمد على شمس الدين من لبنان ، ومحمود درويش من فلسطين ، وقاسم حداد وعلوى الهاشمى وعلى عبد الله خليفة من البحرين ، وعبد الرازق البصير وخليفة الوقيان من الكويت ، وعبد الرحيم عمر من الأردن ومحمد بنيس من المغرب • وهى أسماء شعرية لاشك فى قيمتها برغم تفاوتها الشديد فى الاتجاه والقيمة ، ولاشك أيضا أن هناك عددا كبيرا من الأسماء الآخرى التى كان يجدر توجيه الدعوة اليها ، وخاصة من شعراء فلسطين ولبنان وسوريا والمغرب كأحمد دحبور ومريد البرغوثى ومحمد الماغوط وعلى الجندى وعلى كنعان وفايز خضور ومحمد الأشعرى وأحمد المجاطى وغيرهم، ناهيك عن نزار قبانى ويوسف الخال وعبد الله البردونى وعبد العزيز

المقالح . لكن الشيء الجديد بالرثاء في هذا المجال هو اختيارات اللجنة للشعراء المصريين الذين عهد بتمثيلهم الى لجنة الشعر أو ما شابه ذلك . فلولا وجود الشاعر أحمد عبد المعطي حجازي الذي دعته اللجنة العليا للمهرجان ، وليس اللجنة الموكلة باختيار الشعراء ، لغاب صوت الشعر المصري كلية اللهم الا من النذر اليسير الذي مثله فاروق شوشة ومحمد أبو سنة وملك عبد العزيز ونصار عبد الله وأحمد سويلم ووفاء وجدي ، والذي أوشك أن يغرق كلية في خضم النظم العقيم الذي امتلأت به أمسيتا المهرجان وخاصة أمسيته الأولى بالاسكندرية .

وقد أثار طغيان النظم على تمثيل الشعر المصري في المهرجان والذي أيده وفد شعراء السودان الرسمي الذي غاب عنه الصوت الشعري السوداني الحق والذي نعرفه في أشعار محمد عبد الحي أو الحردلو ، ناهيك عن جيل عبد الرحمن ومحي الدين فارس ومحمد الفيتوري . أقول أثار طغيان النظم المصري زوبعة للمهرجان الأولى ، والتي عبرت عن نفسها في الاهداء الذي قدم به أحمد عبد المعطي حجازي لقصيدته في رثاء أمل دنقل . اذ اهدى القصيدة الى الشاعر محمد عفيفي مطر وشعراء مصر الذين غابوا عن أمسيتي المهرجان . ذلك لان غياب عفيفي مطر الذي يعد أهم صوت شعري مصري عن المشاركة في هذا المهرجان كان من الأمور اللافتة للنظر ، والمثيرة للتساؤلات ، خاصة وان واحدة من دراسات الحلقة العلمية المصاحبة للمهرجان ، والتي تعد من أهم انجازاته . كانت عن احدى قصائده . كما أن غياب شعراء السبعينات ، قد انصرف عنهم هم أيضا دراسة هامة في الحلقة العلمية ، قد أثار بعض التساؤلات عن حكمة اختيار العديد من الأصوات المتهالكة العقيمة لتمثيل مصر شعريا في هذا المهرجان .

ولم يكتف شعراء السبعينات بالصمت ازاء ما وقع عليهم من منظمي الأمسيتين الشعريتين من اجحاف وتجاهل . بل بادروا بالاحتجاج على ما دار . وعلى تهافت مستوى الشعر المصري المقدم ، وأصدروا بيانا يؤكدون فيه لضيوف المهرجان وجمهوره معا أن ما استمعوا اليه لا يمثل حالة الشعر المصري ، ولا يعبر عن واقعه ، وان استبعاد محمد عفيفي مطر وشعراء السبعينات عن أمسيتي المهرجان ، وانفراد دعاة النظم التقليدي بمعظم الوقت المخصص للشعراء المصريين ، هو الذي أدى الى ظهور الشعر المصري بهذه الصورة المتدهورة . ووقع هذا البيان الاحتجاجي عدد من الجماعات الشعرية والأدبية التي تعبر عن نفسها من خلال مطبوعاتها الصغيرة المتقشفة الامكانيات ولكن الكبيرة الدلالة والغزيرة الموهبة ، كجماعة «اضاءة ٧٧» و « أصوات » و « مصرية » و « كتابات » و « خطوة وغيرها

من المجلات والجماعات • وعلاوة على هذا البيان الاحتجاجي ، أقام شعراء السبعينات أمسية شعرية مضادة لأمسيتي المهرجان ، قدموا فيها شعرهم لجمهور محبي الشعر ، ودعوا اليها عددا من ضيوف المهرجان من الشعراء والنقاد على السواء • وقد كانت هذه الأمسية النقيض ، أو الأمسية البديلة ، هي أبلغ رد على الشعر المتهافت الذي اكتسحت رداءته ساحة المهرجان ، فجلبت له الكثير من السخط والنقد والهجوم • ودفعت الكثيرين الى التساؤل : مادام هناك شعر مصري جيد ، فلماذا الاصرار على أن تكون الصدارة للشعر المتهافت الرديء ؟ سؤال وجهه الكثيرون ، لكن منظمي المهرجان لم يستطيعوا معه جوابا •

ولم يكن الشعر هو النشاط الابداعي الوحيد الذي مثل في المهرجان، فقد كان هناك العمل المسرحي ، والعرض الشعبي،والموال والفن التشكيلي• فقد صاحب المهرجان تقديم بعض المسرحيات والعروض التي كان من الممكن أن يكون فيها قدر أكبر من التنويع ، وأن تدعى للمشاركة فيها بعض الفرق المسرحية أو الشعبية العربية ، وهو اقتراح آمل أن يوليه منظمو المهرجان بعض الاهتمام في الدورات القادمة ، لو كانت هناك نية في عقد دورات قادمة ، حتى يكون الجانب المسرحي للمهرجان بنفس طموح أمسياته الشعرية من حيث تمثيله للحركة المسرحية العربية ، أو على الأقل لأهم انجازاتها وتياراتها وتجاربها • وهذا أيضا ما يجب العمل به في ميدان الفنون التشكيلية • ذلك لأن معرض الفنون التشكيلية الذي صاحب المهرجان ، وافتتح في يومه الثاني بقاعة النيل للفنون التشكيلية، وهي قاعة رحبة فسيحة بأرض المعارض في الجزيرة بالقاهرة ، كان هو الآخر معرضا مصريا فقط ، وكان الأجدر به أن يكون معرضا عربيا شاملا• تتحاور في قاعته شتى تيارات الفن ومدارسه على امتداد الساحة العربية ، وذلك لكي يصبح المهرجان نفسه جديرا بأسمه المعلن : مهرجان القاهرة للابداع العربي ، وليس للابداع المصري وحده •

واذا ما انتقلنا الآن الى الندوة العلمية والتي تعد من أهم انجازات هذا المهرجان ، أن لم تكن أهمها على الاطلاق ، سنجد انها قد عانت هي الأخرى من قدر كبير من سوء التنظيم الذي أجهز على الكثير من ايجابيات التخطيط لها • ومن البداية أحب أن اشير الى أن اللجنة الداعية الى المهرجان قد وجهت الدعوة الى مجموعة من الأسماء المرموقة في ميدان النقد والدراسات الأدبية في معظم الدول العربية • فقد دعت كل من توفيق بكار والطاهر لبيب والمنجي الشملي وعبد السلام المسدي ومحمد الهادي الطرابلسي من تونس فغابوا جميعا ، ولم يحضر سوى الطرابلسي الذي لا يمكن اعتبار مستوى ما قدمه دليلا على ما يدور في ساحة النقد

والدراسات الأدبية فى تونس بأى حال من الأحوال • وان فات اللجنة أن تدعو واحدا من أهم الوجوه الفكرية فى تونس وهو هاشم جعيط • كما دعت محمد دكروب ومطاوع صفدى والياس خورى وخالدة سعيد من لبنان فلم تحضر سوى خالدة سعيد ، وغاب الباقون بسبب اغلاق مطار بيروت • ولم تدع اللجنة يمنى العيد أو حسين مروة أو ايليا حاوى أو انطون كرم أو على سعد أو غيرهم من نقاد لبنان المرموقين • ودعت عبد الرحمن مجيد الربيعى وجبرا ابراهيم جبرا من العراق ولم تدع فاضل تامر وعبد الاله أحمد أو ياسين النصير أو عبد الجبار عباس أو محمد الجزائرى وغيرهم من نقاد العراق المرموقين • وقد قدم الربيعى ورقة متهافتة ، لأن الدراسة الأدبية ليست مهنته ولا هى فى حدود طاقته ، ولم يقدم جبرا أى بحث على الاطلاق • وان كان أفضل اسهام عراقى فى الندوة العلمية للمهرجان كان بحث الناقدة العراقية اللامعة والمقيمة فى مصر فريال جبورى غزول عن « فيض الدلالة وغموض المعنى فى شعر محمد عفيفى مطر » • ودعت كمال أبو ديب وبدر الدين عرودكى من سوريا ولم ندع شكرى الفيصل أو يوسف اليوسف أو نبيل سليمان أو حتى خلدون الشمعة أو محيى الدين صبحى • ودعت محمد عابد الجابرى ومحمد برادة من المغرب ولم تدع عبد الله العروى أو عبد الجبار السحيمى أو ادريس الناقورى أو الميلودى شغموم أو أحمد اليابورى أو عبد الفتاح كيليطو أو قمرى البشير وغيرهم من الدارسين المغاربة • ودعت يوسف بكار وناصر الدين الأسد من الأردن فلم يحضر سوى بكار الذى قدم بحثا تقليديا منظورا ورؤية •

ولم تدع اللجنة ، أو على الأقل لم تدرج فى برنامج المهرجان ، أى باحث من فلسطين • وكان من الممكن أن توجه دعوة الى احسان عباس ومحمد يوسف نجم على الأقل وكذلك الحال بالنسبة للسودان التى كان يمكن أن تدعو منه محمد عبد الحى أو محمد محمود أو الكويت أو الجزائر • غير أن أهم ما فعلته اللجنة فى مجال الوفود العربية هى دعوتها لعدد من النقاد والباحثين المصريين الذين يعيشون بسبب ظروف العمل خارج مصر ، فجاء تسعة منهم من انجلترا وفرنسا وأمريكا والسويد وأسبانيا وسويسرا والكويت • وقد أدى اسهامهم ، واسهام بقية الباحثين المصريين الى البرهنة على أن أهم اسهام فى النقد العربى لايزال هو الاسهام المصرى ، وان حياة بعض نقاد مصر فى الغرب تثرى ابداعهم النقدى ، وتمكن النقد العربى من الاستفادة من انجازات النقد الغربى والحوار الخلاق معها •

واذا ما نظرنا فى دعوة اللجنة لعدد من المستشرقين الأجانب سنجد أنفسنا ازاء أغرب اختياراتها فى المهرجان كله • فقد نفهم مثلا أن هناك

دوافع وأسبابا سياسية حدت بها الى تجنب دعوة أي من مستشرقي أوروبا الشرقية ، والاكتفاء بدعوة مستشرقي أوروبا الغربية • لكننا لا نستطيع أن نفسر السبب في دعوة مستشرقين فرنسيين حضر أحدهما المهرجان وهو شارل فيال بينما تغيب الآخر وهو اندرية ميكيل ، ودعوة مستشرق أسباني واحــد هو مارتينيث مونتابث وأربعة مستشرقين أمريكيين هم بيتر كاكيا وروجر آلان وبوروسلاف ستيتكيفيتس وصالح جواد الطعمة الذى اعتبر أمريكيا • بينما لم يدع الى المهرجان أى من مستشرقي ألمانيا الغربية أو انجلترا أو ايطاليا وهولندا بالرغم من وجود مستشرقين يهتمون بالأدب العربي الحديث في هذه البلدان • وربما كان بعضهم أقدر على المساهمة في ندوة المهرجان العلمية من بعض من دعوا من المستشرقين • وحتى البلدان التي اختيرت كان بها من المستشرقين من هم أقــدر على تمثيل مــدى اسهام هذه البلدان في دراسة الأدب الحــديث ممن دعوا بالفعل ، فاذا استثنينا روجر آلان سنجد أن النماذج الأمريكية المختارة قد جانبها التوفيق الى حــد كبير • فــاذا كان من المطلوب دعوة بعض الدارسين العرب الذين يعملون في الجامعات الأمريكية ، فان صالح جواد الطعمة ليس أهم العاملين العرب في الجامعــات الأمريكيــة ، ولا هو أفضلهم • فهناك ادوار سعيد وحليم بركات ومنح خوري وعيسى بلاطة وباقر علوان وآخرون • أما اذا ما انتقلنا الى الدارسين الأمريكيين والأجانب في حركة الاستشراق الأمريكي فسنجد أنفسنا بازاء قائمة طويلة مليئة بمن هم أهم كثيرا

لكن دعنا الآن من عثرات الاختيارات ، لأن لكل اختيار مهما كانت حكمة القائمين عليه ، هفواته ولا أقول سقطاته • ولنلتفت الى موضوع الندوة العلمية ، والى أسلوب تنظيمها ، لأن هذه الندوة هي أهم انجازات هذا المهرجان ، ليس فقط لأن معظم الأبحاث التي قدمت فيها تتسم بالجدية والخصوبة والثراء ، أو لأن الأبحاث قد كتبت خصيصا لها ، ولولا انعقادها لما قدر لعدد كبير منها أن يرى النور ، ولكن أيضا لأهمية الموضوع الذى كان مطروحا للبحث والجدال في قاعاتها : وهو الحداثة ، قضاياها النظرية والتطبيقية على السواء • وقد يبدو هذا الموضوع للوهلة الأولى وكأنه عنوان فضفاض ، ولكن تقسيم اللجنة الداعية له الى محاور أساسية ثلاثة أدى الى تحديد هذا الموضوع وتوضيح ملامحه من جهة ، والى فرض درجة من جدية المعالجة والتناول على الدارسين كان لها أثرها الطيب على الأبحاث المقدمة من جهة أخرى • وان أفلتت منها بعض الدراسات الضعيفة التى كان على اللجنة استبعادها حفاظا على جدية التناول ، وعمق المعالجة ، ووقاية للندوة من التردى الى حضيض المهاترات ، أو التوهان في سراديب فرعية لا جدوى من التخبط فيها •

غير أن أهم ما أصاب الندوة العلمية من سلبيات لم يكن هذه الأبحاث الضعيفة التى سرعان ما نحاها المنتدون جانبا ، وانما كان التنظيم السيء الذى جنى على هذه الندوة القيمة ، وجعل من المستحيل على أى من المشاركين فيها أن يحضر أو يشارك فى أكثر من ثلث الأبحاث المقدمة فقط . ذلك لأن البرنامج الزمنى للمهرجان اتسم بسوء التخطيط ، وعدم الوعى بأهمية الندوة من جهة ، أو بقيمة ما قدم اليها من ابحاث ، وبالتالى ضرورة الحوار العميق والجاد حولها من ناحية أخرى . فبعد أن بدد البرنامج الزمنى يومين فى رحلة الى الاسكندرية من أجل عقد أمسية شعرية ضعيفة بها ، ويوما فى التسجيل ، وآخر فى زيارة الآثار والمتاحف ، وكأن المنتدين قد جاءوا للسياحة والنزهة ، لا لتدارس قضية هامة لا تهم الأدب والمثقف العربى وحدهما ، وانما تتجاوزهما الى المجتمع والانسان العربى عامة . بعد أن بدد البرنامج الزمنى هذه الأيام الأربعة كدس أبحاث الندوة العلمية فى أقل من يومين ، ليكرس اليوم السابع والأخير لجولة حرة : أى جولة استبضاع ، وكأنه برنامج سياحى ، وليس برنامج مهرجان ثقافى جاد ، يحاول أن يقدم أرقى انجازات العقل العربى وابداعاته .

ولما كان من المستحيل عرض حوالى أربعين بحثا فى يوم ونصف ، ناهيك عن مناقشتها وادارة حوار جدى خلاق حولها ، لجأت ادارة المهرجان الى عقد ثلاث جلسات . كل جلسة منها ساعتان . تناقش فى الجلسة الواحدة حوالى خمسة أبحاث فى كل قاعة من قاعات الندوة العلمية الثلاث . أى أن كل جلسة يناقش فيها خمسة عشر بحثا ، ولا يستطيع أى مشارك الا الاستماع الى خمسة أبحاث ، أو المشاركة فى نقاشها ، لأن العشرة الأخرى تناقش فى قاعتين آخريين فى الوقت نفسه . واذا ما تجاوزنا عن ضيق الوقت المخصص لمناقشة الأبحاث . لأن تخصيص ساعة لقراءة ملخص الأبحاث الخمسة وساعة أخرى لمناقشتها ، فيه اجحاف شديد . ولا أغالى أن قلت استخفاف بالجهد الذى بذل فيها . واذا ما تجاوزنا عن الفوضى الناجمة عن رغبة البعض فى حضور بحث فى أحدى القاعات ، ثم الانصراف والذهاب الى قاعة أخرى لسماع بحث آخر وما يحدثه هذا من اضطراب ومقاطعة وتشويش . واذا ما تجاوزنا عن هذا كله ، فاننا لانستطيع التجاوز عن استحالة حضور أكثر من ثلث الأبحاث لبعض المشاركين الذين حضروا من أماكن متفرقة ، وقطع بعضهم آلاف الأميال سفرا ليلتقى بغيره من المشاركين ، ويتحاور معهم ، غير أن العبقرية التنظيمية للمهرجان ما لبثت أن حرمته من ذلك . وقد أدى هذا الى أن المشاركين لم يتمكنوا من التفاعل الحقيقى مع بعضهم البعض .

وكان الأجدى بمنظمى المهرجان أن يخصصوا أصابيح الأسبوع الست ، أو خمس منها على الأقل ، للندوة العلمية على أن تدور الندوة

بأكملها فى قاعة واحدة موحدة ، وليس فى قاعات منفصلة ومجزأة • وأن تعقد فى كل صباح جلستان ، كما حدث في يوم الخميس ، مدة كل منهما ساعتان • والا يزيد عدد أبحاث كل جلسة عن أربعة أبحاث بأى حال من الأحوال ، بالصورة التى تتيح للمشاركين قراءة الأبحاث سلفا ، والتعليق عليها تعليقا جيدا • فقد أدى حشد الجلسات بالأبحاث الى أن مقررى كل جلسة لم يستطيعوا قراءة الأبحاث التى ستقدم فى جلستهم ، وبالتالى لم يتمكنوا من تقديم أصحابها بشكل جيد ، أو حتى بالتعليق عليها تعليقا مفيدا ، ولا أريد أن اتوقف هنا عند اختيار مقررى الجلسات الذى جانبه الصواب كثيرا ، وتحكمت فيه اعتبارات غير علمية •

وفى نهاية هذا العرض أحب أن أشير الى بعض الأبحاث الهامة التى قدمت فى هذه الندوة مثل (بترتيب عرضها فيها) بحث محمد برادة (المغرب) عن « اعتبارات نظرية لتحديد مفهوم الحداثة » وبحث نبيلة ابراهيم (مصر) « مستويات لعبة اللغة فى القص الروائى » وبحث روجر آلان (أمريكا) عن « الرواية القصيرة في اللغة العربية » وبحث ماهر شفيق فريد (مصر) عن « تجليات الحداثة فى القصة المصرية » وبحث محمد مصطفى بدوى (مصر) عن « مشكلة الحداثة والتغيير الحضارى » وبحث خالدة سعيد (لبنان) عن « الحداثة المسرحية ومسيرة البحث عن الذات » وبحث ادوار الخراط (مصر) « قراءة فى ملامح الحداثة عند شاعرين فى السبعينات » وبحث فريال غزول (العراق) عن « فيض الدولالة وغموض المعنى فى شعر عفيفى مطر » وبحث جابر عصفور (مصر) عن « معنى الحداثة فى الشعر المعاصر » وغيرها من الأبحاث التى ستطبع فى عددين من أعداد مجلة (فصول) القاهرية ، وتصبح فى متناول القارىء الذى تهمه أمور الحداثة وأمور الأدب بصفة عامة •

القاهرة **مارس ١٩٨٤**

● السفر الثانى عشر

الابداع الجمعى وقضايا دراساته العلمية

من الأدواء التي تعاني منها الثقافة العربية في عدد كبير من أقطار الوطن العربي الدوران كثيرا في حلقات مفرغة . تتكرر فيها نفس القضايا، وتطرح عبرها نفس المشكلات كل حقبة من الزمن ، وكأنما كتب على كل جيل أن يخوض نفس تجارب الأجيال السابقة ، وان يحارب المعارك التي حاربوها ، والا يستفيد من تضحياتهم وخبراتهم وانجازاتهم . وقد أصاب هذا الداء الوبيل الحياة الثقافية العربية بالثبات . وجنى كثيرا على قدرتها على الفاعلية والتطور . لكن يبدو أن هناك مجموعة صغيرة من المجالات التي استطاعت الافلات من انشوطة هذا الداء الجهنمية . فتواصلت فيها انجازات الأجيال وتكاملت عطاؤهم . وحققت تراكمات الزمن بالفعل بعض التغيرات . وعدلت بصورة جذرية بعض الرؤى والتصورات . وميدان الأدب الشعبي ، والمأثورات الشعبية ، والذي كان قبل عقود قليلة من المجالات الهامشية ، بل والمحتقرة . واحد من هذه المجالات المحظوظة . فقد غيرت جهود العاملين فيه النظرة اليه تغييرا كليا . وكان من ثمار هذه التغييرانعقاد مؤتمر دولى للسير الشعبية ، وفي قلب أعرق الجامعات العربية وتحت رعايتها .

فلا شك أن السير الشعبية العربية من أهم الروافد المشاركة في صياغة الوجدان العربي ، وفي تكوين العقل العربي ذي الرؤية الثقافية والحضارة المتميزة . لانها الإنجازات الابداعية للعقل الجمعي العربي في تشوقه الى صيغة فنية قادرة على استيعاب هموم الانسان العربي ورؤاه المتباينة وصبواته ، وعلى صهرها في قالب قادر على ابراز عناصر التقارب والوحدة الثاوية في شتى صور الاختلاف والتعدد ، وفي صيغة تلمس وترا دفينا حساسا في أعماق المتلقي ، فتفجر في داخله طاقات الخلق والصمود والمقاومة . لهذا كان من الطبيعي أن نحتفي بانعقاد المؤتمر الدولى الثاني للسير الشعبية في القاهرة في الفترة من ٢ - ٦ يناير ١٩٨٥ تحت رعاية جامعة القاهرة ، وبالتعاون مع مركز حضارات البحر الأبيض المتوسط في باريس . وشارك فيه باحثون من مصر وتونس والسودان والجزائر والكويت ، بالاضافة الى دارسين من فرنسا وانجلترا

وايطاليا وبولندا والولايات المتحدة الأمريكية • وكان انعقاد هذا المؤتمر الكبير والجاد في جامعة القاهرة نوعا من الاعتراف الجامعي بأن هذه السير الشعبية لم تعد موضوعا ثانويا تنظر اليه الدراسات الأكاديمية باستعلاء، وتعتبره ادبا متدنيا يكتبه الأميون ، ويتوجهون به الى جماهير الأميين ، كما كان الحال حتى عهد قريب • فقد اسبغت جهود جيلين متتابعين من الباحثين والدارسين الجامعيين على هذا الأدب مقدارا كبيرا من الأهمية ، وكسبت له قدرا أكبر من الاحترام ، وقد سبق لهذا المؤتمر أن انعقد للمرة الأولى بالمركز الدولي للحمامات في تونس عام ١٩٨٠ ، وركز بحثه في دورته الأولى تلك على واحدة من أهم السير الشعبية الحية ، وأكثرها اثارة للجدل والنقاش ، ألا وهي السيرة الهلالية • فتناول ما تطرحه هذه السيرة الشائقة على باحثي الأدب الشعبي ، وعلى المهتمين بجمع نصوصها ، ورصد اختلافات رواياتها ، وتباينات دلالاتها ، وتابع دراسة تأثيرها على الواقع الثقافي ، وعلى الشخصية القومية في البلدان التي تتردد فيها أصداء هذه السيرة في الوجدان الشعبي ، وفي الأدب المكتوب على السواء •

وقد حاول المؤتمر الجديد أن يوسع أفق اهتماماته هذه المرة ، حتى تشمل السير الشعبية العربية كلها • وأن يخرج من دائرة السيرة الواحدة، حتى يرهف التنوع والتعدد قدرته على الدرس والمقارنة • لكن يبدو أن الشمول قد تحقق على حساب العمق ، وأن امكانيات المؤتمر التنظيمية لم ترق الى مستوى طموحاته العلمية العريضة • فغابت عن قاعته وفود عدد من الدول العربية التي اهتم باحثوها بقضايا السير الشعبية ، ويبدو أيضا أن الادارة القائمة على تنظيم هذا المؤتمر قد تأثرت بقوائم من سبق دعوتهم الى المشاركة في دورته الأولى ، والتي يمكن تبرير قصرها على مجموعة محدودة من باحثي الوطن العربي ، بطبيعة موضوعها آنذاك ، وهو السيرة الهلالية • فاقتصرت الدعوة على باحثي البلدان التي تنتشر بها هذه السيرة • ولذلك بدأ المؤتمر وكأنه امتداد لما جرى من قبل في تونس ، وأن مناقشات قاعات جامعة القاهرة مواصلة لمداولات صالات مركز الحمامات ، لقد انصب اهتمام معظم الباحثين من جديد على السيرة الهلالية التي استأثرت بأكثر من ثلثي أبحاث هذا المؤتمر ، وكأنها هي السيرة الشعبية الوحيدة أو الأساسية ، وليست مجرد واحدة من سير عديدة وشائقة •

أما وقد جرى توسيع أفق المؤتمر العلمي ليشمل السير الشعبية العربية كلها ، فقد كان على المؤتمر أن يوسع أيضا قائمة باحثيه ، وأن ينوعهم من ناحية المنطلقات ومجالات الاهتمام • وقد برهن المؤتمر نفسه على صدق هذه المسألة ، أن الباحثين ذوي الاهتمامات الجديدة والذين

ظهروا فى قاعة هذا المؤتمر لأول مرة ، تمكنوا بالفعل من اثرائه وفتح آفاق ورؤى جديدة فى ساحته • ومن المحتمل أن المؤتمر قد دعا عددا أكبر من الباحثين ،وان الحاضرين هم الذين استجابوا لدعوته • وربما كان لمشاركة مركز حضارات البحر الأبيض المتوسط بباريس دخل فى هذا الأمر • وهو مركز سيء السمعة بين قطاع عريض من الدارسين لمحاولاته المتكررة لاشراك باحثى الكيان الصهيونى فى مؤتمراته التى تناقش قضايا الثقافة العربية ، والتى يدعو اليها الكثير من كتاب العربية وباحثيها حتى يدير حوارا مغرضا فى بعض الأحيان بين مثقفى العربية والصهاينة • ومع أن المؤتمر الدولى الثانى للسير الشعبية لم يدع أيا من باحثى الكيان الصهيونى هذه المرة ، فان رعايته للمؤتمر قد تكون من العوامل التى أدت الى تقلص عدد المشاركين فيه ، وربما حالت الامكانيات المادية للمؤتمر دون توسيع قائمة باحثيه ، وكل ربما من هذه الربمات تحتمل الخطأ والصواب •

ولكن المؤكد أن دعوة باحثى البلاد العربية الغائبة كان بامكانها أن تثرى هذا المؤتمر ، وتعمق من استقصاءاته العملية الشائقة • والدليل على ذلك هو طبيعة الأبحاث التى تقدم بها كل من باحثيه ، والتى انعكست عليها ظلال الاهتمامات القطرية والشخصية الى حد كبير • فقد انشغل الباحث الوحيد الذى جاء الى المؤتمر من منطقة الخليج العربى ، وهو محمد رجب النجار من جامعة الكويت ،بسيرة فيروز شاه التى لم يهتم بها أى من باحثى القسم الأفريقى من الوطن العربى • اذ القى وجود الباحث فى الكويت ، وعلى مقربة من الخطر الفارسى ، ظله على اهتمامات الباحث ، برغم مصريته ، وحدد منظور رؤيته القومية الى هذه السيرة التى تحاول اعلاء شأن الفرس ، واسقاط الرموز البطولية والثقافية العربية • واذا كان اختيار المؤتمر لباحثيه العرب واسقاط باحثى قسم كبير من الوطن العربى من قائمته كان من مظاهر قصوره ، فان دعوته للباحثين الأجانب من المستشرقين المهتمين بالسير الشعبية اتسمت هى الأخرى بالعشوائية ، وسيطرت عليها العلاقات والأهواء الشخصية • لكن هذه مشكلة ينذر أن يخلو منها أى مؤتمر • ولنكتف هنا بتسجيل هذه الملاحظة ، حتى نتناول مادة البحث التى قدمت فى المؤتمر ، واتجاهاتها ، والقضايا التى تثيرها •

وقد انقسم حصاد هذا المؤتمر العلمى الى سبع ندوات ، خصصت أولاها للسيرة وانماط القصص الشعبى وتضمنت ستة أبحاث هى « المغازى كلون من ألوان السير الشعبية » للباحث الجزائرى عبد الحميد بورايو ،ويتناول فيها الغزوات النبوية ، وكيف تنطوى على مجموعة من

العناصر الأساسية للسيرة الشعبية » و « فتوح البهنسا وعلاقتها بالمغازى والفتوح والسير العربية من ناحية ، وبأناشيد البطولة الملحمية الغربية من ناحية أخرى » للباحث الانجليزى هارى نورس و « دراسة مقارنة بين حكاية الملك النعمان وملحمة رولاند الفرنسية » لهيام أبو الحسين (مصر) و « السير النجوية أصل السير الشعبية » لنصر أبو زيد (مصر) و « قاتل التنين » لاليزابيث ويكيت (كندا) · وهو بحث عن الصياغات الشعبية لسيرة مارى جرجس القبطية فى صعيد مصر ، و « الأساطير والحكايات الشعبية » لحسن الشامى (أمريكا) ·

أما الندوة الثانية فقد تضمنت عددا من الأبحاث حول الظواهر الموضوعية فى السير الشعبية مثل « مفهوم الشعر فى السير الشعبية » لأحمد مرسى (مصر) و « موضوعات السيرة الهلالية » للطاهر جيجا (تونس) و « نظرات فى سيرة الزير سالم » لمحمد حسين هلال (مصر) · بينما ركزت الندوة الثالثة اهتمامها على موضوع السيرة ورواتها من خلال أبحاث « السيرة الشعبية بين الشاعر والراوى » لعبد الرحمن الأبنودى و « السيرة الهلالية بين الشفاهية والتدوين » لصلاح الراوى (مصر) و « قصة الزير سالم واصل البهلوان » لجيوفانى كانوفا (ايطاليا) و « الرواية الشعبية والضبط الاجتماعى » لمحمد محجوب (السودان) ، ولكن أهم أبحاث هذه الندوة قاطبة كان بحث حافظ دياب « السيرة الشعبية : مقاربة حول منهجية اعادة الانتاج » وهو بحث حاول أن يرصد أساليب اعادة انتاج النص الشعبى ، والعناصر الفاعلة فى هذه العملية الشاملة والمعقدة ، وذلك من خلال منظور اجتماعى ومنهجى على درجة عالية من الدقة والاستيعاب · ينطلق بداءة من عملية تمحيص المفاهيم ، والتعرف على آليات تداخلها ، ثم يرصد تقنيات اعادة الانتاج المختلفة ، من التهذيب الى التناص ، الى الاستلهام ، ويربطها بديناميات هذه العملية الفاعلة من السياق الاجتماعى والثقافى ، الى الرواية والجمهور واللغة والوسائط الفنية · ويزود هذا الاطار النظرى الضافى بتجربتين تطبيقيتين شائقتين : أولاهما تجربة مكتوبة هى رواية (على الزيبق) لفاروق خورشيد · والثانية تجربة شفاهية هى تجربة أحد الشعراء الشعبيين الذين يمارسون رواية السيرة فى الريف المصرى ، وهو الشاعر فتح الله سليمان حواش ، ثم يختتم بحثه بمجموعة من المستخلصات الأساسية حول هذا الموضوع الهام ·

أما الندوة الرابعة فقد دارت حول موضوع لغة السيرة وبنائها وذلك من خلال أبحاث « تكنيك الشعر الملحمى » لأحمد عتمان (مصر) ، وهو بحث حاول أن يدرس آليات الانشـــاد كشكل من أشكال اعادة اخراج

الحدث وتقديمه ، وتأثير الأداء على العملية الإبداعية فى العمل الشفهى ، وأثر الدراسات الهومرية على دراسات الشعر الملحمي المعاصر ، وعلى الدراسات الفلكلورية بشكل عام • و « ظواهر نحوية فى سيرة سيف بن ذى يزن » لمحمود سليمان ياقوت (مصر) الذى حاول أن يستخدم الدراسات اللغوية ، وخاصة انجازات نعوم تشومیسكي المعروفة باسم النحو التحويلى فى تحليل نصوص السير الشعبية والأداء وفاعليتهما فى العمل •

أما الندوة الخامسة فقد اهتمت بمناهج تصنيف السيرة وترجمتها ، ومن هنا كان من الطبيعي أن يستأثر بها الباحثون الأجانب ، فقدمت روزلين جويك (فرنسا) بحثها عن « تصنيف الموضوعات والموتيفات فى مخطوطات السيرة الهلالية » ، وقدمت سوزان سليموفيتش (أمريكا) بحثا عن « الشعراء فى الصعيد وسيرة بنى هلال : قضايا النص والتسجيل » • كما قدمت زانوتا ماديسكا بحثا عن « اللغة والبناء فى السيرة الشعبية » وقدمت اليزابيث ويكيت نص دراستها عن التنين وترجمتها الانجليزية للنص ، فى محاولة منها لمناقشة المشاكل التى تطرحها ترجمة هذه النصوص • وخصصت الندوة السادسة لمناقشة قضايا السيرة كمصدر للابداع الفني الحديث من خلال أبحاث عبد الوهاب المؤدب (تونس) عن رواية « بندر شاه » وعبد الرحمن أيوب (تونس) عن الفن التشكيلي واستلهاماته للسيرة الشعبية ، وعبد الحميد حواس (مصر) عن السير الشعبية فى السينما ، وعبد التواب يوسف (مصر) عن « السير الشعبية فى أدب الأطفال » ، ولكن أهم ما شهده المشاركون فى المؤتمر فى مجال استلهامات التراث الحديثة كان العرض المسرحى الشـ ئق الذى قدمه المخرج الشاب أحمد اسماعيل عن « الشاطر حسن » من خلال نص شعرى لفؤاد حداد ومتولى عبد اللطيف •

أما آخر ندوات المؤتمر فقد تم تخصيصها لقضايا المرأة فى السيرة الشعبية • وكان أهم أبحاثها هو بحث نبيلة ابراهيم « نماذج المرأة ووظيفتها فى السيرة الشعبية » وبحث عبد الرحيم نصر (السودان) عن « السير الشعبية فى السودان » • وقد طرحت هذه الأبحاث كلها قضايا المنظور فى السيرة الشعبية ، وأثرها على صورة المرأة فيها ، وكيف أن مفهوم الرجل للبطولة هو المفهوم السائد بها ، حتى حينما تكون البطلة الأساسية للسيرة امرأة ، كما هى الحال فى سيرة (الأميرة ذات الهمة) • فمازالت الرؤية السائدة فى الواقع العربى هى رؤية الرجل ، برغم انقضاء ما يقرب من قرن على الدعوة لتحرير المرأة فى المجتمع المصرى ، وبرغم كل تحولات الواقع الاجتماعى التى يبدو انها لم تتغلغل بعد فى الوجدان الشعبى الجمعى ، كما تبرهن على ذلك دراسات هذا المؤتمر الشائقة •

وقد طرحت هذه الندوات السبع مجموعة من القضايا المنهجية الهامة ٠ وأولى هذه القضايا هي قضية المنظور الذى نتناول به هذا الابداع الجمعي من جهة ، والذى كتب أو بالأحرى خلق به هذا الابداع الشعبي من الناحية الأخرى ٠ فمن الناحية الأولى بدأ وكأن أكثر المناهج لدراسة هذه السير الشعبية والكشف عن كنوزها المذخورة هو المنهج الاجتماعى ٠ ليس فقط لأن هذا المنهج يأخذ فى اعتباره كل العناصر الفعلة فى عملية اعادة انتاج السيرة الشعبية فى رواياتها المختلفة ٠ ولكن أيضا لأنه أكثر ملاءمة لفهم ظاهرة الابداع الجمعى ، بطبيعتها الحركية التى تنأى عن الثبات ، وتجنح دائما الى التغير ٠ كما أن هذا المنهج الاجتماعى يستطيع أيضا أن يكشف لنا دور الواقع الاجتماعي والسياسى فى تحميل السيرة بالمضامين والدلالات والرؤى ، التى تتغير بتغيره ، برغم الثبات النسبى للاطار والشخصيات والأحداث ٠

أما القضية الثانية الهامة والتى فجرتها جلسة قضايا المرأة فى السيرة الشعبية فهى مسألة المنظور الفنى والفلسفى الذى تنطوى عليه هـذه السير ، والتى يبدو أن معظمها ، حتى ما خصص منها لبطولات المرأة كسيرة « الأميرة ذات الهمة » مبدعة من منظور الرجل فايديولوجية هذه السيرة الشعبية هى نفسها ايديولوجية سيطرة الرجل ، وسيادة رؤيته وتصوراته للقيم والمواضعات ، والأدوار والمكانات ٠ وهناك قضية ثالثة وهى مسألة ما الذي يبقى فاعلا من هذه السير فى فنون الابداع الفردى المكتوبة أو المرئية على السواء ٠ وطبيعة استلهامات هذه الفنون من السير ٠ وسبل تأثرها ، بدءا من التناص وحتى الاقتباس ٠ وكلها قضايا تثير الكثير من الأفكار الهامة ، وتشير الى أن تراكمات جهود دارسى الأدب الشعبى قد نضجت وبدأت تؤتى ثمارها ٠

القاهرة　　　　　　　　　　　　يناير ١٩٨٥

● السفر الثالث عشر

مؤتمر أدبي دولي على الطريقة الأمريكية

حضرت اجتماعات المؤتمر السنوى لنادى القلم الدولى ممثلا لمصر عام ١٩٨١ بمدينة بليد فى يوغسلافيا ، وتابعت الدورة الأخيرة ، وهى الدورة الثامنة والأربعون ، لهذا المؤتمر نفسه فى نيويورك فى الاسبوع الماضى ، وشتان ما بين الدورتين ، فبينما آثر نادى القلم اليوغوسلافى المضيف فى بليد أن يجعل الاجتماع الدولى لهذا النادى الأدبى الدولى العريق حدثا أدبيا خالصا ، وأن يترك الأدباء لشأنهم ليناقشوا قضاياهم فى مناخ هادىء يشحذ قدرة العقول على الحوار ، ومقدرة المخيلة على الابداع ، ركز نادى القلم الأمريكى على أن يجعل من انعقـاد المؤتمر فى بلاده حدثا سياسيا وأدبيا واعلاميا ضخما ، وأحاط الاجتماع بمناخ من الصخب والصراعات المتفجرة ، التى بدأت شظاياها فى التطاير فى الجو قبل أسـابيع من انعقاده ، واستمرت حتى جلسته الختامية • وبينما اختار نادى القلم اليوغوسلافى مكن انعقاد المؤتمر فى منتجع جميل ، بمدينة صغيرة أقرب ما تكون الى القرية هى مدينة بليد الجبلية الساحرة الواقعة على شاطىء احدى البحيرات الصغيرة فى جمهورية سلوفينيا قرب الحدود اليوغوسلافية النمسوية ، آثر الأمريكيون أن يعقدوا هذا المؤتمر فى مدينة نيويورك ـ أضخم مدن الولايات المتحدة ، وان لم تكن بالقطع أجملها • وان يغمروه بالحد الأقصى من الأضواء والبهرجة الدعائية والاعلامية ، أو باختصـار فضلوا تنظيمه على الطريقة الأمريكية •

ولكن ما هى هذه الطريقة الأمريكية ؟ وبماذا تتسم من صفات ؟ هذا سؤال هام أود الاجـابة عليه أولا ، لأنه سيريق الكثير من الضـــوء على بعض ما دار فى هذا المؤتمر الأدبى الهام ، وسيكشف لنا فى الوقت نفسه عن بعض سمات هذا الكيان الجغرافى والسياسى الضخم المعروف بالولايات المتحدة ، ذلك لأن هذه الطريقة الأمريكية هى شارة هذا الكيان الضخم • وهى احدى تبديات وعيه بنفسه ، وادراكه لدوره ، وتصوره لمكانته فى العالم • وقد يبدو للوهلة الأولى اننا نعرف الكثير عن الولايات المتحدة ، وعن طبيعة القوى الفاعلة فيهـا • ولكن زيارتى الأولى للولايات المتحدة كشفت لى عن وجود هوة كبيرة بين تصـــورنا لتلك الدولة العظمى وبين

حقيقتها ، وعن أن معرفتنا بها قد مرت عبر مرشح الثقافة الأوروبية والحضارة الغربية عامة ، وأن مرور هذه المعرفة عبر هذا المرشح جعلها خليطا من الوهم والحقيقة • خليطا من صورة الولايات المتحدة التى تتمنى أوروبا أن ترى فيها امتدادا فتيا لها ، وحقيقة هذا الامتداد الفعلية • وكلما ازداد ادراك أوروبا لسعة الفجوة بين ذاتها الحضارية ، وبين الولايات المتحدة ، كلما ازدادت فاعلية جانب الوهم التعويضى فى هذا التصور • ولكن تلك قضية أخرى كما يقولون •لابد أن نتركها جنبا حتى نستطيع العودة الى السؤال الأصلى •

وأهم سمات هذه الطريقة الأمريكية هى الضخامة المبهرة ، لا باعتبارها انعكاسا لضخامة الولايات المتحدة التى توشك أن تكون قارة كاملة ذات موارد طبيعية وبشرية هائلة ، وامكانيات اقتصادية وعلمية لا تحد ، ولكن باعتبارها تبديا لحضارة نرجسية ، حضارة بلغ فيها التركيز على الذات الفردية حده الأقصى ، بالصورة التى انقلبت معها هذه النرجسية المفرطة الى خواء نفسى وعقلى وحضارى • انها الضخامة التى تكشف عن تبدد الثقة بالنفس ، بينما تحاول التمويه على الندوب العميقة التى تركتها هزيمة فيتنام على الروح الأمريكية ، وعلى الحضارة الأمريكية برمتها • وهى أيضا الضخامة التى تحاول التستر على أضخم عجز فى تاريخ الميزانية الأمريكية ، أو بالأحرى فى تاريخ العالم ، وعلى أزمة الاقتصاد الذى يعانى من الركود النسبى ومن زيادة معدلات البطالة ، ومن تآكل النمط الأمريكى التقليدى تحت وقع هذه الأزمة ، ومن افلاس الليبرالية السياسى والعقلى معا •

انها الضخامة التعويضية التى تنهض على أساس واقعى بالفعل ، ولكنها تحاول فى الوقت نفسه التغطية على الكثير من جوانب القصور ، والتعمية على أقسى حالات الاغتراب والاستلاب الانسانى • وهى احدى تبديات الرغبة النرجسية فى البقاء الفردى ، وفى التحرر من كل قيود المواريث والأعراف والتقاليد الحضارية ، فالتركيز على الذات النرجسية يطرح هذه الذات ، لا فى مواجهة المجتمع وحده ، وانما فى مواجهة التاريخ والتراث معا • ولأن المجتمع الأمريكى مجتمع بلا تاريخ نسبيا ، فانه يتمرد على ميراث الحضارة الأم : الحضارة الأوروبية • وفى عملية تمرده على هذه الحضارة يعيد ، دون أن يعى ، انتاج أسوأ ملامح هذه الحضارة التى ينتقدها ، ويطيح أثناء عملية التمرد الفردى عليها بجل ايجابياتها ، خاصة وأن الحضارة الأم ذاتها تعانى ــ كما نعرف جميعا ــ من ازمات طاحنة •

ولذلك فقد تحول تمرد هذه الحضارة النرجسية على مجموعة القيم الأساسية التى ينهض عليها البناء الهيكلى للحضارة الأم الى حالة من اليأس

التدميرى ذى الطبيعة الانتحارية · لأن التمرد على الطبيعة الأبوية للمجتمع ، وعلى سلطة الأسرة ، وعلى مواضعات العلاقات الجنسية المحبطة ، وعلى الرقابة الأدبية والأخلاقية ، وعلى قيم العمل وأخلاقياته وغيرها من قيم النظام البرجوازى لم يؤد الى خلق فردوس التحقق الذاتى الموعود · وانما بدد الاحساس بالأمن الذى يخلقه الولاء للمجتمع · ولم يعوض التركيز على الذات ــ حتى بالمعنى الجسدى عن طريق الاهتمام المفرط بالصحة والاهتمام باللياقة البدنية ــ هذا الأمن المفقود ، بل دفع بهذه الذات الى المزيد من الاغتراب والاستلاب · وخلق تسلط الفردية العديد من أدواء النفس وعصابات القلق والتوتر ·

صحيح أن الانسان الأمريكى الحديث قد استطاع أن يتخلص من معظم قيم المجتمع البرجوازى القديم ، ومن عقد الذنب المصاحبة لها ، لكنه استبدل بها مشاعر القلق الضارية ، لأن التحرر من الماضى لا يؤدى بالضرورة الى الثقة فى الحاضر ، بل يحيط هذا الحاضر بقدر هائل من الشكوك ، فالاستهتار بالماضى وتتفيهه ، وربطه بالموضات القديمة والعادات التى عفى عليها الزمن ، وافراغه من محتواه التاريخى ودلالاته التاريخية ، ينطوى على تحطيم المرآة التى نرى فيها الحاضر على حقيقته ، وبالتالى حرمت الحضارة النرجسية نفسها ، باستسلامها الى نزعتها الطاغية لتأكيد آنيتها ، من أهم أدوات تحقق نرجسيتها : من المرآة · وأدت نزعتها الى تأكيد ذاتها الى تبديد هذه الذات وعدم القدرة على رؤية أى صورة مجسدة لها · فالماضى ليس مستودعا للخبرات والذكريات القديمة فحسب ، ولكنه المصدر الذى تستمد منه اللحظة الآنية أهميتها كنقطة على خط يمتد من الماضى الى المستقبل ، ويزودها انتماءها الى هذا الخط ، ودورها فى الحفاظ على استمراريته ، بهويتها · وقطع صلة الحاضر بالماضى ، يبت صلته بالمستقبل دون أن يشعر · ومن هنا ينطوى تنكر الحضارة النرجسية للماضى على يأسها من مواجهة المستقبل ·

وبدون فهم شتى أبعاد هذه الحضارة النرجسية التى خلقها المجتمع الأمريكى ، يصعب علينا معرفة حقيقة الكثير من ظواهر هذه الحضارة ، أو اكتناه أسرار تناقضاتها · لأن هذا الفهم هو الذى يفسر لنا كيف تحولت ثورة الشعب الأمريكى ضد تورط بلاده فى حرب فيتنام ، الى تأييد واسع لأشد الحكومات الأمريكية يمينية فى هذا القرن ، وهى حكومة ريجان · فلو أرجعنا هذه الثورة الى وعى الشعب الأمريكى بأن موقف بلاده السياسى فى حرب فيتنام لا ينهض على أساس عقلى أو انسانى · وانه يمثل عدوانا على كل قيم الاستقلال والحرية ، لاستحال علينا معرفة سبب تأييد نفس هذا الشعب لتدخل بلاده فى جرانادا ، أو فى نيكاراجوا ،

أو لتأييده للتمييز والعزل العنصري في جنوب افريقيا • فأين ذهبت صحوة الضمير الأمريكي الذي يرفض التدخل ويكره الظلم والاستبداد ؟ •

ولكن لو فهمت هذه الثورة باعتبارها أحد أعراض هذه الحضارة النرجسية التي استبدلت بالخلاص الروحي وبالقيم الانسانية نوعا من الخلاص الذاتي أو العلاجي الذي يهتم بالأعراض ولا يأبه بالأسباب ، والذي يركز على الجانب الجسدي من عملية المداواة العلاجية تلك ، لاستطعنا معرفة سر هذه التناقضات البادية • لأن ثورة الشعب الأمريكي على تورط بلاده في فيتنام لم تكن وليدة وعي ثوري أو سياسي ، ولكنها ناجمة عن رد فعل هذه النزعة النرجسية ازاء الموت : ازاء ساعة العطاء ، أو استئداء الثمن • فالذات النرجسية التي تنهض على شره الأخذ تتطلع دائما الى المزيد من الأخذ ، وتنحو الى الاستفادة من مجتمع الرخاء الأمريكي دون التضحية من أجله ، لأنها حقيقة لا تؤمن به ، ومن هنا كان السبب الرئيسي وراء هذه الثورة هو رفض دفع الثمن ، ورفض الدفاع عن القيم الأمريكية ذاتها عندما تعرضت للخطر بعيدا عن حدود الوطن ، ورفض الموت من أجل كيان هلامي هو المجتمع تنهض الحضارة النرجسية نفسها على نفيه والزراية به •

فالاهتمام بالذات وتضخيمها بكل ما يصاحب ذلك من مظاهر الغرور وعصابات عبادة الذات يطرح هذه الذات ـ غير الصحية ـ كبديل للكثير من القيم الاجتماعية والأخلاقية • فالحضارة النرجسية لا تؤمن بغير ذاتها • وحينما يبارك الفرد فيها أيا من القواعد أو القيم الاجتماعية ، فان مباركته تلك تنطوي على ايمان سري بأن هذه القيم لا تنطبق عليه ، ولن تحد من نرجسيته • فالفرد في هذه الحضارة قد استبدل بكل هذه القيم رغبة عارمة في الاستحواذ على الأشياء ، والمباهاة بها • ولكن الاستحواذ هنا غير الملكية التي نعرفها بمنطق الاقتصاد السياسي في القرنين الماضيين ، حيث يؤدي تراكم الممتلكات الى تحقيق الأمن ، وتوطيد المكانة الاجتماعية ، وتوفير ضمان ضد عوادي الزمان • انه هنا الاستحواذ كشره ، كقيمة مطلقة ، كتوق آني ومستمر لا يشبع ، ورغبة مستمرة في ارضاء هذه الرغبة الدائمة التي لا تشبع ، ومن هنا فانه كلما تقدم العمر بهذا النرجسي كلما ازداد تعاسة • ولكن البحث في طبيعة الشخصية النرجسية التي أفرزتها هذه الحضارة موضوع طويل ، قد نعود اليه في بعض مقالات قادمة عن أمريكا •

ولنرجع الآن الى المؤتمر والى الاسلوب الذي انعكست به شتى تبديات هذه الطريقة الأمريكية عليه • وبالاضافة الى بقية ملامح الحضارة النرجسية ، هناك أيضا تلك النزعة التجارية التي تسود فيها قيم السوق ،

والتى يصبح معها لكل شيء قيمة تسويقية وسوقية معا • وقد انعكس هذا الجانب الهام فى الطريقة الآمريكيه على الاستعدادات التمهيدية التى سبقت عقد هذا المؤتمر ، والتى بدأت بالحملة التى نظمها نورمان ميلار ، الكاتب الأمريكى المعروف ، ورئيس نادى القلم الأمريكى ، لجمع كمية ضخمة من الأموال للانفاق على هذا المؤتمر الكبير ، والذى رغب نادى القلم الأمريكى أن يجعله أضخم مؤتمر أدبى فى التاريخ ، بكل ما تنطوى عليه أفعل التفضيل هذه من فخامة واتساع • ومن هنا فقد كانت التقديرات الأولية أن هذا المؤتمر الذى سيستمر لمدة خمسة أيام سيتكلف ما يقرب من مليون دولار •

ولأن نادى القلم الأمريكى يحرص — على الطريقة الأمريكية — أن يفصل نفسه عن الدولة ، وان يعلن للجميع عن مصادر تمويله ، ولأن ميزانيته السنوية كلها لا تتجاوز نصف هذا المبلغ ، فقد أعلن ميلار عن حملة لجمع المال • يقوم فيهـا كتـاب أمريكا الكبار بدور النجوم الذين يقدمون للجمهور نوعا من العرض المسرحى الذى يعتمد على البراعة اللفظية ، وعلى المهارة فى الحـوار والمحاجة ، وتكونت الحملة من ثمـانية عروض من هذا النوع ، تباع التذكرة الواحدة — وهى تذكرة ثمانية الأجزاء صالحة لحضور العروض الثمانية — بمبلغ ألف دولار للتذكرة الواحدة • وقد أقيمت هذه العروض فى « مسرح بوث » ثم فى مسرح « رويال » فى برودواى ، حى المسارح فى مانهتن • لكن لعبة الانفصال عن الدولة فى الولايات المتحدة لعبة خادعة ، لأن هذه التذاكر الباهظة التكاليف ، والتى هى نوع من التبرعات غير المنظورة ، هى فى الواقع من أمور الانفاق المعفاة من الضرائب • أى أنها تمويل من الدولة ، ولكن بطريقة غير مباشرة ، تترك فيها الحكومة لكبار دافعى الضرائب ، ومن الذين تدار الدولة نفسها لمصلحتهم ، أن يقرروا أوجه الانفاق ، وأن تكون لهم كلمة مباشرة فى دعم ما يرونه من النشاطات ، وفى الانصراف عما لا يعجبهم منها ، بتركها لتموت على قارعة هذا السوق الرأسمالى المراوغ •

ومن البداية بدأت لعبة الضخامة — التذاكر الغالية التى يزيد ثمن التذكرة الواحدة عن تذكرة موسم الأوبرا فى المتروبوليتان • والمسارح الكبيرة التى تدور على خشبتها العروض • وقد آثرت عمدا استخدام كلمة العرض بدلا من المحاضرة أو المناظرة أو الجدل العقلى المنمق • فقد بدأت الحلقة الأولى بمواجهة بين عدوين لدودين ، وكاتبين من أبرز كتاب أمريكا المعاصرين هما نورمان ميلار نفسه وجور فيدال ، وضمت الحلقات الباقية أسماء لامعة مثل جون أوبدايك ، وسوزان سونتاج ذات الميول الصهيونية الواضحة ووليام ستايرون وودى الان وجوان ديديون وغيرهم • وبالطبع بيعت أكثر من سبعمائة تذكرة كل منها بألف دولار ، وبدا لمن لا يعرف

حقيقة المنهج الأمريكي أن العائد كله شخصي ولا دخل للدولة فيه • ولكن من يعرف حقيقة الأمر يجد أن الدولة هي دافعة هـذا المبلغ كله ولكن ــ على الطريقة الأمريكية ــ طريقة الاستقطاعات أو الاعفاءات الضريبية • فكل من اشترى مثل هذه التذاكر الغالية أدخلها ضمن نفقاته المهنية المعفاة من الضرائب ، أو بالأحرى دفعها بالنيابة عن الدولة لحملة نادى القلم لجمع المال ، بدلا من دفعها للدولة كضريبة • فقد اشترى معظم هـذه التذاكر الناشرون ووكلاء الأدباء ودور الصحف وأجهزة الاعلام وغير ذلك من الهيئات والأفراد التى تعرف أن هذا المبلغ سيستقطع من دخلهـا ، وأن ما تدفعه فيها هو من نصيب الضرائب على كل حال • ومن هنا دفعت الدولة حقيقة هذا المبلغ دون أن تدفع شيئا فى الظاهر •

وثمة جانب آخر من جوانب هذه الطريقة الأمريكية التى تجعل لكل شيء ، حتى ولو كان مؤتمرا أدبيا ، قيمة تسويقية • فقد استطاع ميلار الحصول على مائتى غرفة فى واحد من أفخم فنادق مانهاتن « فندق سان موريتز » مجانا طوال المؤتمر ، وهل كانت هذه الغرف حقا مجانا : لقد حسبت قيمتها لآخر سنت ، وهى فى الواقع ١٧٥ ألف دولار طوال مدة المؤتمر • لكن دونالد ترامب صاحب هذا الفندق ، وأحد كبار العقاريين فى مانهاتن وافق على التبرع بهذه الغرف عندما علم أن بين المدعوين لهذا المؤتمر ستة من الحائزين على جائزة نوبل فى الآداب ، وسته كتاب آخرين ، على الأقل ، يحتمل فوزهم بها فى السنوات المقبلة • ومن هنا فانه يستطيع أن يستخدم أسماءهم لا فى الدعاية لفندقه فحسب ، ولكن فى تسمية الغرف التى يقيمون فيها على أسمائهم ، وفرض أسعار خاصة لها تعوض على مر السنين هذه الخسارة • وأين الخسارة ؟ لن يظهر أى سنت من هذا المبلغ الضخم فى جانب الدخل من حساباته ، ومن هنا سيخصم من صافى الربح قبل دفع الضرائب • وبدلا من أن يذهب معظم هذا المبلغ الى خزانة العم سام الفيدرالية ، فانه سيعود عليه بفائدة دعائية ولن يخسر شيئا • أليس العم ســام اذن هو الدافع لكل هــذه التكاليف ولكن بطريقة غير مباشرة ؟

بقى ملمح آخر من ملامح هذه الطريقة الأمريكية وهو الاعتماد على العناصر « التطوعية » • وهذا أيضا قناع آخر لاخفاء بعض ملامح الوجه الأمريكى ، وابراز بعضها الآخر • فقد أدرك منظمو المؤتمر أن عددا كبيرا من كبار الزوار ومشاهير الأدباء الذين دعوا لحضور هذا المؤتمر لابد من استقبالهم فى المطار ، واصطحابهم الى الفندق ، أو بتعبير نورمان ميلار نفسه « لابد أن نتصرف بالاسلوب الأوروبى المتحضر الذى اعتاده أعضاء منظمة نادى القلم الدولى » ، وهى منظمة أوروبية قبل أن تكون منظمة دولية ، ولكنهم أدركوا أيضا أن هذه العملية ستكلفهم كثيرا ، خاصة وأن

هناك أكثر من مائة كاتب اجنبى كبير • وحتى تتغلب ادارة المؤتمر على هذه التكاليف قررت « بيع » عملية الاستقبال تلك ، بطرحها فى سوق النشاطات التطوعية • وحتى أوضح هذا قليلا ، أشير الى أن عملية النشاطات التطوعية تلك ليست الا جزءا من عملية التسويق التجارية الكبرى • واذا تركنا التجريد والتعميم جانبا وقلنا مثلا أن استقبال كاتب كبير مثل الكاتب الفرنسى كلود سيمون الحائز على جائزة نوبل لهذا العام ، أو مثل جونتر جراس كاتب المانيا الكبير فى مطار كينيدى واحضاره فى سيارة خاصة وبسائق خاص الى مانهاتن فى قلب نيويورك ، حيث يقع الفندق الذى سيقيم به ، ثم مصاحبته بنفس السيارة معظم أيام المؤتمر يتكلف ألف دولار أو أكثر أو أقل قليلا • فان هناك ، من طلاب الأدب الفرنسى أو الألمانى ، من يتوق الى ان تتاح له فرصة معرفة هذا الكاتب شخصيا ، والحديث معه وتوصيله حيثما يريد • ومن هنا تقوم احدى الهيئات التطوعية بعملية التوفيق بين الجانبين • فتوفر على المؤتمر تكليف السيارة الخاصة والسائق الخاص ، وتتيح للطالب أو الباحث فرصة قضاء عدة ساعات مع الكاتب الكبير مقابل القيام باستقباله وتوصيله فى سيارته الخاصة ، أى سيارة الطالب ، وهكذا تم التوفيق بين احتياجات الجانبين على الطريقة الأمريكية •

وبالاضافة الى هذه الملامح العامة للطريقة الأمريكية ، هناك ملمح آخر قد يبدو متناقضا مع ملمح الضـــخامة أو نتيجة له وهو الاجتزائية • فالضخامة تؤدى الى عدم الفاعلية ، وحتى تتحقق هذه الفاعلية فلابد من التجزىء والتقسيم • ومن هنا عمد نادى القلم الأمريكى الى تجزئة الأدباء المشاركين فى هذا المؤتمر الى مجموعة من اللجان الصغيرة التى تبحث كل لجنة منها موضوعا من موضوعات المؤتمر • ولأن الطريقة الأمريكية تميل بطبيعتها الى الضخامة فان هذه الضخامة تؤدى كذلك الى ضخامة التجزئة : أى الى تعدد اللجان الصغيرة ليس فقط لضخامة العدد ـ فقد شارك فى هذا المؤتمر ما يزيد على ستمائة كاتب ، كان ثلثهم تقريبا من الكتـــاب الأمريكيين ـ ولكن أيضا لضخامة عدد الموضوعات التى طرحت على هذا المؤتمر • ومن هنا توشك التجزئية أن تلغى ، كعادتها ، مميزات الضخامة • فقد وجد عدد كبير من الكتاب أنفسهم فى مكان واحد حقا ، ولكن تجزئة المؤتمر ، وقلة عدد جلساته العامة التى تضم الجميع ، حالت دون تحقيق أهم فوائد مثل تلك المؤتمرات ، وهى التعارف والتفاعل الانسانيين بين مختلف المشاركين فيها من الكتاب ، الذين يعرف بعضهم البعض على الورق حق المعرفة ، ويتوق الى مثل تلك المناسبات ليحول هذه المعرفة النظرية على البعد الى معرفة انسانية ملموسة ، معرفة واقعية وحميمة •

اذا كانت الاستعدادات الضخمة لمؤتمر نادى القلم الدولى الثامن والأربعين ، والذى عقد فى مدينة نيويورك بين ١٢ ـ ١٧ يناير ١٩٨٦ تشير الى طبيعة الطريقة الأمريكية التى تهوى الضخامة وتعشق البهرجة ، واذا كانت الميزانية الكبيرة التى حشدت له عبر عملية جمع المال المعفاة من الضرائب ، تومىء بطريقة غير مباشرة الى مساهمة الحكومة الأمريكية فى تمويل هذا المؤتمر ، فان جلسة هذا المؤتمر الافتتاحية أثارت بطريقة سافرة قضية علاقة هذا المؤتمر بالادارة الأمريكية • وفجرت أكثر من قنبلة أدبية فى قاعته منذ بداية مداولاته ، وأحاطت دور منظمة نورمان ميلار ـ رئيس نادى القلم الأمريكى ورئيس لجنة تنظيم المؤتمر ـ بقدر كبير من الشكوك والاتهامات ، التى انهالت عليه من أعضاء المؤتمر الأمريكيين أنفسهم ، قبل أن يثيرها عدد كبير من كتاب العالم المرموقين • وتشير تلك الاتهامات الى ان نورمان ميلار قد عقد صفقة ، أو ما يشبه الصفقة مع الادارة الأمريكية • فقد أدرك نورمان ميلر الذى أراد أن يكون هذا المؤتمر جديرا باسم الدولة العظمى التى تزعم لنفسها حق الدفاع عن الحرية ، وتقديم نموذج مثالى لازدهارها ، وأن يكون أضخم مؤتمر فى تاريخ نادى القلم الدولى ، أدرك أن هناك عقبة كبيرة أمام طموحه هذا تتمثل فى قانون « ماكاران ـ وولتر » للهجرة والجنسية والصادر عام ١٩٥٢ ، والذى ينص على حرمان أى أجنبى ينتمى الى احدى المنظمات الشيوعية أو الفوضوية ، أو يروج لأفكار مثل هذه المنظمات حتى ولو لم ينتم اليها ، أو يجهر بأى آراء مناهضة للسياسة الأمريكية ، من حق الحصول على تأشيرة دخول الولايات المتحدة • اذ ينطبق هذا القانون على عدد كبير من كبار الكتاب الذين وجه اليهم نادى القلم الأمريكى الدعوة لحضور هذا المؤتمر ، ومن بين الكتاب الموضوعين على القائمة السوداء بمقتضى هذا القانون كاتبان حاصلان على جائزة نوبل للآداب وهما جابرييل جارسيا ماركيز (كولومبيا) وكلود سيمون (فرنسا) بالاضافة الى جونتر جراس (المانيا) وجريام جرين (بريطانيا) وعدد كبير من أبرز كتاب أمريكا اللاتينية •

وقد أدرك نورمان ميلار ، صاحب (العراة والموتى) و (الليالى المصرية) وغيرها ، والذى بنى جزءا كبيرا من سمعته الأدبية على أساس انه أحد كتاب اليسار الأمريكى ، أن منع كتاب اليسار العالمى من حضور هذا المهرجان سيضر بالمهرجان وبسمعته معا • ولذلك توجه ميلار الى وزارة الخارجية الأمريكية ، وطلب منها التعاون معه ، من منطلق وطنى وقومى ، فى انجاح هذا المؤتمر ، ومنح تأشيرات دخول لعدد كبير من الكتاب العالميين الكبار الموضوعين على القائمة السوداء • وأدركت الادارة الأمريكية أن نجاح هذا المؤتمر قد يساهم فى تحسين سمعة حكومة ريجان

التى لا تعادل شعبيتها الكبيرة داخل الولايات المتحدة ، الا عدم شعبيتها خارجها ، وسوء سمعتها لدى قطاع كبير من الرأى العام الدولى عامة ، والرأى العام الأدبى والثقافى خاصة ، ومن هنا استجابت وزارة الخارجية الى طلبه الى حد ما ، ووعدت بمنح تأشيرات دخول لكل من يتقدم لطلبها من الكتاب ، ومنحت بالفعل عددا من الكتاب الذين كانت أسماؤهم على قائمة الممنوعين ، مثل كلود سيمون وجونتر جراس وماريو فارجاس أيوسا (بيرو) تأشيرات دخول ، وان منعت البعض معرفتهم بأنهم ممنوعون من دخول الولايات المتحدة بناء على قانون « مكاران ـ وولتر » من التقدم أساسا بطلب هذه التأشيرة ـ كما هى الحال بالنسبة لجبرييل جارسيا ماركيز ٠

وليس واضحا اذا ما كانت استجابة الخارجية الأمريكية الجزئية لطلب نورمان ميلار قد تمت كجزء من صفقة سرية ما ، أو أن احساس ميلار بالامتنان ازاء جميل الخارجية الأمريكية هو الذى دعاه الى الاستجابة ، لما قال فيما بعد انه اقتراح من جون كينيث جالبرايت رئيس الاكاديمية الأمريكية للفنون والآداب بدعوة جورج شولتز ، وزير الخارجية الأمريكية، لالقاء كلمة الافتتاح فى هذا المؤتمر الأدبى الدولى الكبير ٠ ولكن الواضح أن هذه الدعوة أثارت عاصفة ساخنة قبل تنفيذهـا وبعده ٠ فقد وجه نورمان ميلار دعوته الى وزير الخارجية الأمريكى دون استشارة اللجنة التنفيذية لنادى القلم الأمريكى ، وهى اللجنة المنظمة للمؤتمر ٠ ولكنها قبل ذلك اللجنة الممثلة للنادى المضيف والذى لا يضم مستر ميلار وحده ، وانما يضم معه ألفى كاتب أمريكى آخرين ، كما قال أحد المحتجين ٠ وقد أثارت هذه الدعوة عددا من أعضاء تلك اللجنة ذاتها فور معرفتهم بها ٠ ناهيك عن أعضاء النادى كله ٠

ولكن ميلار أصر على أن قد سبق السيف العزل ، وان وقت الغاء الدعوة قد فات ، لأنه ليس ممكنا سحب الدعوة بعد أن قبلها وزير الخارجية الأمريكى ، وظهرت أنباء هذا القبول فى أجهزة الاعلام ٠ ويبدو أن معارضة الكتاب الأمريكيين للدعوة كانت معارضة واهنة الى حد ما ٠ لأننا نعرف من الآراء التى أعلنها بعض الكتاب المعارضين لها ، مثل الصهيونية سوزان سونتاج ، أن اعتراضها عليها كان لعدم لياقتها ، وان اعتراض البعض الآخر كان خشية من أثرها على استقلالية نادى القلم الأمريكى ٠ ولأننا نعرف انه تقرر فى نهاية الأمر ، وباصرار من نورمان ميلار ، أن يلقى وزير الخارجية خطاب المؤتمر الافتتاحى ٠ وان كان الكاتب الأمريكى أ٠ ل٠ دكترو ، وهو من أعضـاء لجنة ادارة نادى القلم الأمريكى ، نشر رأيه المعارض من حيث المبدأ لتلك الدعوة فى صحيفة (نيويورك تايمز) وقال فيه « أن تلك الدعوة أكثر من عار ، انها تكاد أن تكون فضيحة ،

اذ ينتهك من خلالها أعضاء لجنة نادى القلم الأمريكى الادارية والمشرفون على المؤتمر قيم منظمتهم · وكل ما تمثله من معنى ، الى حد ربطها أو بالأحرى طرحها تحت أقدام أشد الحكومات التى عرفتها هذه البلاد يمينية من الناحية الأيديولوجية » ·

وهذا الاعتراض الفكرى والمبدئى ، لا مسألة عدم اللياقة أو استقلالية نادى القلم الأمريكى ، هو الذى دفع عددا كبيرا من الكتاب الضيوف الى الاحتجاج · فقد وقع خمسة وستون كاتبا ، بينهم عدد من الكتاب الأمريكيين أنفسهم على رسـالة احتجاج يعربون فيها عن معارضتهم لخطـاب وزير الخارجية من ناحية المبدأ ، وطالبوا نورمان ميلار بقراءة هذه الرسالة فى الجلسة الافتتاحية وقبل خطاب جورج شولتز ، ولكن نورمان ميلار لم يقرأ الرسالة وقدم وزير الخارجية الأمريكى مباشرة ، بالرغم من الأصوات العديدة التى كانت تنادى من قاعة مكتبة نيويورك العامة التى تمت فيها مراسيم الجلسة الافتتاحية ، مطالبة اياه بقراءة رسالة الاحتجاج التى لم يقرأها وحنث بوعده بأن يفعل ذلك · وما أن بدأ جورج شولتز فى القاء خطابه حتى نهضت الكاتبة الكبيرة نادين جورديمر ، ومعها بقية كتاب جنوب افريقيا المناهضين لحكومة العزل العنصرى هناك مثل سيفو سيباملا وبرتين بريتنباخ ، وغادروا قاعة الجلسة مقاطعة للخطاب ، واحتجاجا على موقف الحكومة الأمريكية المؤيد لحكومة جنوب افريقيا العنصرية ·

ويبدو أن وزير الخارجية الأمريكى قد علم بالاحتجاجات الشديدة على دعوته لالقاء خطاب المؤتمر الافتتاحى ، وكيف لا يعلم وقد نشر دكتورو مقاله الذى يعترض فيه على ذلك فى أوسع الصحف الأمريكية المحترمة انتشارا ، ويبدو انه أراد تحسين صورة حكومة ريجان اليمينية أمام أبرز عقول العالم الابداعية · ولذلك جاء خطابه مسرفا فى الليبرالية بالنسبة لأحد وزراء حكومة ريجان · ولكنها تلك الليبرالية النابعة من رغبة جورج جورج شولتز فى أن يناسب مقاله المقام الذى يلقيه فيه · فمناسبة المقال للمقام ، كما يقول فصحاء العرب ، هى احدى سمات البلاغة ، كما أنها من حسن الفطن ، وهى هنا علامة على حصافة الوزير وكياسته ، وليست دليلا على أى تغير اتجاهى فى الحكومة الأمريكية · وقد بدأ شولتز خطابه ـ بالطبع ـ بالاشارة الى أن دعوة نورمان ميلار له للحديث أمام هذا المؤتمر دليل على روح التسامح التى تتسم بها الحياة الأدبية الأمريكية · وهى اشارة مبطنة الى أن الذين يعترضون عليه لا يتسمون بروح التسامح تلك · ثم انتقل الوزير بعد ذلك ليعرب عن مدى تسـامحه ، ويرحب بجميع الضيوف قائلا ان أمريكا فخورة بوجودكم على أرضها ·

لكن الوزير انتقل بعد هـذه المقدمة الى تحية المؤتمر لاتخاذه قرار السماح له بالحديث · لأنه قرار من أجل حرية الكلمة · وكأنه لا يعرف

أن المؤتمر لم يتخذ هذا القرار ، وان نورمان ميلار وحده هو صاحب هذا القرار الغريب • واستمر متحدثا عن موضوع الحرية ، وعن قضية المؤتمر الأساسية « حيال الدولة وحيال الأديب » محذرا من الأخطار العقلية والأخلاقية التى تترتب على عملية شخصية الدولة أو ربطها بشخص بعينه ، وفصلها بذلك عن سياقها التاريخي والاجتماعي ، أينطوى هذا التحذير على تنصل شولتز المبطن من ريجان وسياساته ؟ • أم يهدف الى محاولة غض النظر عن اتجاه الحكومة الأمريكية الراهنة والتركيز على التواريخ الغابرة ، عندما كانت الولايات المتحدة دولة ذات مبادىء • وجعلت تمثال الحرية رمزا لأهم هذه المبادىء ؟ أم أن الهدف ، كما يشير الجزء التالى من خطابه مباشرة ، هو توجيه مدار مداولات المؤتمر الى ما سماه شولتز « بالبلاد التى تخرس الكتاب ، وتسجنهم بل وتقتلهم ، اذا ما تبين لها أن كتاباتهم تهدد السلطة السياسية للحاكمين فى تلك البلاد » وابعادها عن الولايات المتحدة التى يكتب فيها الأدباء ويتحدثون وينشرون دون عائق سياسى كما يقول مستر شولتز ، وهو أمر ليس صحيحا بأى حال من الأحوال ، لأن واقع الكتاب، ، ومصادرة حق الكتابة ، بل وحتى الاجهاز على الكتاب أنفسهم يتم كذلك ، كما أظهر بعض الكتاب الأمريكيين أنفسهم ، فى الولايات المتحدة ولكن بطريقة مختلفة • وأسلوب مغاير •

ويبدو أن وزير الخارجية كان يحدس ذلك ، ومن هنا فقد ركز على مسألة نسبية الموقف ، وعلى ضرورة المقارنة بين حالة الأدباء فى مختلف النظم السياسية ، وصب الاهتمام على النظم والدول التى تصادر حرية الكلمة بطريقة فظة ومباشرة • وكأنه يدعونا الى غض النظر عمن يفعلون نفس الشىء بطريقة غير مباشرة ، وهى طريقة غالبا ما تكون أشد فعالية واقوى بطشا • اذ قال شولتز « انه لمن المفارقة أن يقدر بعض المثقفين حرية الكلمة فى البلاد التى لاتوجد فيها مثل تلك الحرية ، وان يهاجموها فى البلاد التى تزدهر فيها ، وان على المثقفين التمييز بين الحرية وغيابها» • ثم خلص من ذلك الى المفارقة الحقيقية فى هذا الموقف كله عندما قال « ان بيننا من العناصر المشتركة أكثر مما تظنون • أن حكومة ريجان تلتزم ، أكثر من أى حكومة أمريكية أخرى فى هذا القرن ، من الناحيتين الفلسفية والفعلية بالحد من تدخل الحكومة فى حياة الأفراد وتفكيرهم وأسلوب معيشتهم » وخلص من هذا كله الى القول « لا تندهشوا من حقيقة أن رونالد ريجان وأنا نقف فى جانبكم » عندها لم يتمالك بعض الكتاب أنفسهم واصدروا عدة أصوات مستهجنة • وكأنهم يقولون : ياخسارة الكتاب الذين يقف فى صفهم رونالد ريجان وجورج شولتز

وأمثالهما من غزاة جرانادا ، ومرتكبي المآسي البشعة في نيكاراجوا ، ومؤيدى حكومة التمييز والعزل العنصريين فى جنوب أفريقيا ·

وحتى يؤكد شولتز أنه يقف حقا فى جانب الكتاب ، أو بالأحرى حتى يبيض وجه حكومة ريجان اليمينية ، آثر شولتز أن يستجيب فى خطابه الى النداء الذى وجهه جون كينيث جالبرايت رئيس الأكاديمية الأمريكية للفنون والآداب فى كلمة الافتتاحية الى الحكومة الأمريكية بالغاء قانون « ماكاران ـ وولتر » لعام ١٩٥٢ ، راجيا أن يتقدم الرئيس الأمريكى الى مجلس الشيوخ بطلب الغاء هذا القانون فى خطابه القادم · وقال شولتز استجابة لهذا النداء « اننا لن نحرم أبدا أى شخص من حق الدخول الى الولايات المتحدة بسبب الآراء أو المعتقدات التى يعتنقها » وقد سعد كثيرون بمثل هذا التصريح من مسئول أمريكى كبير ، والذى يتناقض بشكل واضح مع القانون المذكور ، بينما أمل عدد أكبر فى ألا يكون هذا مجرد تصريح للاستهلاك المحلى ، ما يلبث أن ينسى بعد انتهاء الجلسة ، ولم ينس مستر شولتز فى نهاية حديثه أن يحاول مراضاة الكتاب ، وكأنهم أطفال صغار ، بعد أن حذرهم بعدم الانفصال عن الدولة، لأن هذا يؤدى الى الحكم عليهم بالهامشية ، ويعزلهم عن جذورهم وتراثهم وحياة مجتمعهم ، التى تتغذى عليهم طاقاتهم الابداعية ، وذلك بأن ختم حديثه بالقول بانه يعتقد أن حيوية المجتمع الاقتصادية والثقافية معا تنطلق من الابداع الفردى وليس من الدولة ·

وما أن انتهت الجلسة الأولى الافتتاحية تلك بكل ما صاحبها من فوضى وزحام ، حتى بدأت العاصفة فى التجمع أو بالأحرى فى الانفجار · وزاد من غضبها أن ظهور وزير الخارجية فى قاعة القراءة الرئيسية بالمكتبة العامة فى نيويورك صاحبه ظهور عدد كبير من الحرس السرى ، ورجال الأمن والمخبرين الصحفيين ، الى الحد الذى تعذر معه على عدد لا بأس به من الكتاب الضيوف دخول المبنى ، وحجزهم رجال الأمن فى الشارع فى برد نيويورك القارس · الى الحد الذى دفع ماريو فارجاس أيوسا الذى تمكن من الدخول لأن أحد الصحفيين تعرف عليه وجذبه الى الداخل من الصراخ : ان هناك كاتبين فائزين بجائزة نوبل واقفين فى الشارع وقد منعا من الدخول وهما يتعجبان : ماذا يجرى هنا ؟ · ولهذا كانت جلسة الصباح التالى أشبه ما تكون بمحاكمة علنية لنورمان ميلار · ولنادى القلم الأمريكى من ورائه وبدأت تلك الجلسة باحتجاج عدد كبير من الكتاب الضيوف على عدم قراءة بيان الاحتجاج الذى وقعه خمسة وستون كاتبا ، كان من بينهم ثلاثة رؤساء سابقين لنادى القلم الأمريكى : هم جلاواى كينيل ، وريتشارد هاوارد ، وريتشارد جيلمان ، ونائبه رئيس

النادى فى الدورة الحالية وسوزان سونتاج ، وعدد آخر من الكتاب الأمريكيين والأجانب من بينهم نادين جورديمر نائبة رئيس نادى القلم الدولى • ولكن مستر ميلار اعتذر مرتين : اعتذر لأنه دعا وزير الخارجية دور استشارة ناديه ، واعتذر لأنه لم يقرأ خطاب الاحتجاج ، وان قال انه أبلغ جورج شولتز بمضمونه ، وهذا الاعتذار أيضا من تجليات الطريقة الأمريكية فى التعامل مع الأمور ، وفى تمرير ما لا يمكن تمريره من المهازل •

وكانت من ظواهر هذه الجلسة العاصفة الايجابية أن الاحتجاج على خطاب وزير الخارجية وعلى دعوته للمؤتمر جاء من الكتاب الأمريكيين بقدر ما جاء من الكتاب الضيوف • اذ قالت جريس بيلى ، وهى من أبرز كتاب الأقصوصة الأمريكية الجادة ، ان شولتز مسئول كغيره من المسئولين عن تعذيب الكتاب فى جنوب أفريقيا ، وفى شتى الدول التى تؤيد حكومة ريجان الأمريكية نظمها القمعية ، وقال أ • ل • ولتر : ان نادى القلم الدولى منظمة حساسة تضم العديد من الضيوف الأجانب الذين لا قوا شتى صنوف المعاناة على أيدى الحكومات التى تؤيدها الحكومة الأمريكية الحالية • أما نادين جورديمر (جنوب أفريقيا) فقد أعلنت عن احساسها بأنها لا تستطيع الانصاف لممثل الحكومة التى تؤيد المذابح التى ترتكب فى بلدها باسم العنصرية البغيضة ، واصرت على قراءة البيان الذى وقعه الكتاب • وقد جاء فى هذا البيان الموجه الى جورج شولتز « أن الحكومة التى تمثلها لم تفعل أى شىء لمناصرة قضية حرية التعبير ، لا فى الولايات المتحدة ولا خارجها • وان وزارة الخارجية الأمريكية قد منعت فى الماضى عددا كبيرا من الكتاب من دخول الولايات المتحدة مستندة فى ذلك الى قانون « ماكاران ــ وولتر » •

أما الشاعرة روزاليو موريلو • وهى شاعرة من نيكاراجوا وزوجة لرئيسها دانيل اروتيجا سافيدرا ، فقد اعترضت هى الأخرى من منطلق شعبها الجريح الذى يعانى من تدخل الولايات المتحدة فى شئونه ، وشنها حربا عدوانية ضده • لكن أبرز هذه الاحتجاجات ، وأكثرها حدة واقناعا كان احتجاج جونتر جراس الذى بدأ اعتراضه قائلا « اننى لا أشعر بارتياح عندما أجد أن أول ما أتلقاه فى نيويورك بعد أن قطعت رحلة طويلة من أوروبا هو محاضرة عن الحرية والأدب من السيد جورج شولتز » وأشار كذلك الى التناقض الواضح فى الحديث عن الحرية كلاما • وقمع حرية الآخرين فى التعبير عن رأيهم فعلا ، بعدم السماح للرأى الآخر بالتعبير عن وجهة نظره أمام وزير الخارجية ، والامتناع عن قراءة بيانهم • وقال : « اننا جميعا كتاب ونعرف حقيقة معنى أن نمنع من التعبير عن رأينا وفداحة هذا الموقف • وان هذا المنع لم يحدث فى بولندا أو بلغاريا ، ولم يحدث

فى كوبا · وانما حدث هنا فى نيويورك ، وهذا هو التناقض بعينه » ·
وقال جراس كذلك « اننا نحن الكتاب ننصت كثيرا للسياسيين ، ولكنى لم التق بأى سياسى ، على كثرة من قابلت منهم ، قادر على الانصات » ·

وحينما حمى وطيس الاحتجاج صعد نورمان ميلار الى المنصة ليدافع عن نفسه ، وعن وزير الخارجية معا · وقال ان أشد ما يضايقه أن يجد نفسه فى موقف الأديب البيروقراطى أو القوميسار الذى يمنع الآخرين من الحديث · وأشار الى ان جورج شولتز فاجأه بآرائه الليبراليه · وانه لم يقرأ الخطاب لأنه أعد صورة معينه للجلسة ، ولم يقبل أن يقلب الآخرون هذه الصورة رأسا على عقب · وقال انه أخبر جورج شولتز بمحتوى البيان ، وانه ناقش معه قانون « ماكاران ــ وولتر » وكان عذر ميلار من النوع الذى ينطبق عليه تعبير عذر أقبح من ذنب · ولذلك ثار صخب شديد فى القاعة احتجاجا على مثل هذه الاعتذرات السخيفة · والمهاترات التى لا تحترم عقول الآخرين · وهنا قال ميلار « اننى اتحدث دفاعا عن نفسى ، وان كان حديثى لا يعجبكم فاننى أطلب التصويت على استمرارى فى الحديث أو اعتزالى المنصة » وطلب أ · ل دكترو من الحاضرين التصويت ، فجاء التصويت برفع الأيدى شبه متعادل · ومن هنا أعلن دكترو أن التصويت لم يحسم المسألة ، ولكنى احسمها أنا وأطالبك بأن تخرس ، وتكف عن هذه المهاترات ، وترك ميلار المنصة ، وانتهت بذلك بداية هذا المؤتمر العاصفة · انتهت بالانتصار لحرية الكلمة، ولنقاء التعبير ، وللمنطق الحر السليم ، ضد مهاترات النزعة الأمريكية فى التمويه على ممارساتها القمعية والمتخلفة ·

وبعد أن تحدثنا طويلا عن هذه البداية العاصفة لهذا المؤتمر الأدبى الساخن ، علينا أن نتناول بشيء من التفصيل أهم قضايا هذا المؤتمر ، وأبرز الموضوعات التى عرضت على المشاركين فيه · ومن البداية لابد من الاشارة الى ضخامة هذا المؤتمر ، فقد شارك فيه أكثر من ستمائة كاتب كان ثلثهم تقريبا من الولايات المتحدة · بينما جاء الكتاب الباقون من أكثر من أربعين دولة تمتد من بيرو غربا حتى اليابان شرقا ، وتضم معظم دول أوروبا وأمريكا اللاتينية ، وان كان تمثيل الوطن العربى فيها ضئيلا الى أقصى حد ، بالرغم من أهمية هذه المنظمة الدولية كمنبر أدبى وانسانى يساهم فى وضع الأدب العربى بحق على خارطة الأدب والثقافة الانسانية ·

وقد كان موضوع المؤتمر الرئيسى هو « خيال الدولة وخيال الكاتب » أو بالأحرى مخيلة الدولة وآلياتها الفاعلة فى مقابل مخيلة الكاتب · وهو موضوع ينطوى على درجة كبيرة من الأهمية لو نوقش بعيدا عن الاستغلال

السياسى والدعائى له · ولكن هل من الممكن حقا فصل الأدب عن السياسة، أو مناقشة مخيلة الدولة دون الوقوع فى أنشوطة تأثيرها الطاغى ؟ وهل من الممكن الحديث عن خيال الكاتب دون أخذ عملية التفاعل بين هذا الخيال والسياق الاجتماعى والسياسى الذى يمارس فيه فعاليته ، وتتشكل ضمن اطاره مكوناته وعناصره بعين الاعتبار ؟ وهل من الممكن الحديث عن «الدولة» باداه التعريف فى مثل هذا السياق ، وكأن هناك « دولة » واحدة ، أو كأن الدول متشابهـة · أو حتى الحديث عن الأديب أو الكاتب أيضـا بنفس الصورة ، وكأن هناك دولة نمطية وكاتب نموذجى ؟

لقد اجابت مـداولات المؤتمر على هذه الأسئلة جميعـا بالنفى · اذ تراوحت المعالجات المختلفة لتلك القضية الهامة بين التأمـلات الفلسفيـة الراغبة فى الكشف عن آليات عمل مخيلة الدولة والتعرف على طبيعة خيالها وعلى أسلوب عمله ، وبين المعالجات السياسية المباشرة التى تطرح قضايا الصراع الأبدى بين الدولة والكاتب · أو بتعبير العرب القدماء بين السيف والقلم ، والتى تسعى الى الكشف عن أهليـة كل منهما للاضطلاع بالدور الرئيسى فى ساحة الصراع الاجتماعى والحضارى الأكبر · وقد ظهر من خلال تلك المداولات أن هناك فى الواقع أكثر من دولة ، وان مفهوم الكاتب للدولة يرتبط مهما كانت درجة تجرده وموضوعيته وجنوحه الى التفلسف والتنظير الى حد كبير بطبيعة الدولة التى جاء منها ، وبنوعية النظام السياسى السائد فيها ، وبخصوصية الثقافة التى ينتمى اليهـا ، وبموقف الكاتب الأيديولوجى والفكرى من قضايا الأدب والمجتمع على السواء ·

فبينما قام كلود سيمون ، كمعظم ابناء ثقافته ، بفرنسة الموضوع واعادة طرحه بطريقة مغايـرة تنهض على أن السؤال الحقيقى ليس هو : كيف تتخيل الدولة ، وانما كيف تعمل مخيلة المجتمع ككل · تميز طرح ماريو فارجاس أيوسا (بيرو) بتجسيد وجهة نظر مجتمعات أمريكا اللاتنية *التى تتسم الدولة فى معظمها بالبطش العسكرى والاستبداد · اذ حذر من* أن هدف الدولة الرئيسى هو النمو والسيطرة · أما كوبو أبى (اليابان) فقد آثر الغاء الموضـوع برمته ، مشيرا الى ان الدولة مؤسسـة لا خيال لها ، وليس لديها القدرة على التخيل · ناهيك عن الابداع · واتفقت معه فى هذا الرأى نادين جورديمر (جنوب أفريقيـا) التى تتميز الدولة فى بلدهـا بالفظاظة وانعدام الخيال · لأن الخيال قيمة انسانية ، والدولة هناك عارية من أى قيمة انسانية · أما وانج منج (الصين) فكان الصوت الوحيد الذى قال بالاتساق الكامل بين الكاتب والدولة ، لأن العلاقة بينهما عنده مثل العلاقة بين السفينة (الكاتب) والمياه (الدولة) التى لولاها لما طفت السفينة على السطح ، جاعلا الكاتب ـدون أن يدرى ـ تحت رحمة الدولة

الكاملة ، وتابعا لاهوائها وطبيعة تموجاتها • أما جون ابدايك (الولايات المتحدة) فانه حاول التقليل من أهمية الدولة ، وشبه دورها بدور ساعى البريد بين الكاتب وناشره وقرائه على السواء • داعيا الى أن الدوله ليست الوحش الذى نخاف منه • لكن جورج كونراد (المجر) عارض هذا الرأى بطريقة غير مباشرة ،وقال ان دور الكاتب ازاء الدولة ليس دور التبعية أو الولاء ، وانما الحذر واليقظة والترقب • وحاول جيرى جروسا (شاعر تشيكى يعيش فى المنفى) أن يمد ملاحظة كونراد المراوغة على استقامتها الدعائية ، فاعلن أن على الكاتب الحرب على الكراهية التى تترعرع فى ظل سيادة الأيديولوجيات والمعتقدات المذهبية الصارمة •

ثم جاء دور المواجهات العاصفة فرد أ • ل • دكترو (الولايات المتحدة) على جون ابدايك بان الدولة لا تمثل لديه دور ساعى البريد الذى يسعى الى تحقيق التواصل بين شتى أفراد المجتمع ومؤسساته • وانما تتجسد — فى رأيه — فى صورة ترسانات الصواريخ ، لا صورة صناديق البريد • وقام صول بيلو (الولايات المتحدة) ليدافع عن المشروع الأمريكى وعن الحلم الأمريكى ، وليخلص من هذا الدفاع الى أن المشروع الديموقراطى الغربى قد نجح • لكن جونتر جراس (المانيا الغربية) ما لبث أن تحداه لأن يسمع صدى كلماته حول نجاح المشروع الأمريكى فى الأحياء الفقيرة فى بلده • واعترف بيلو بوجود ما سماه « بجيوب الفقر فى أمريكا » ولكنه أصر على نجاح المشروع الديموقراطى ككل • وعندما سأله سلمان رشدى (كاتب هندى الأصل يعيش فى انجلترا) بتهكم وما هى مهمة الكاتب اذن اذا كان المشروع الديموقراطى قد نجح الى هذا الحد ؟ اجاب بيلو بأن الكاتب ليست له مهمة وانما عليه الاستجابة للالهام • واثار موضوع الالهام الغريب هذا عددا من الكتاب الذين علقوا عليه مثل — الان جينسبيرج وسوزان سونتاج (الولايات المتحدة) بشىء من الكياسة والتهكم ، ومثل ميلانو آرجوتا (السلفادور) والذى يعيش فى المنفى فى كويستاريكا الذى علق عليه بشىء من الحدة والغضب ، مستنكرا أن ينكر كاتب معاصر أن للكتاب دورا ومهمة ، بينما يواجه زملاؤه الكتاب الموت بانتظام كاحتمال حقيقى فى عدد من دول أمريكا اللاتينية ، وبسبب من سياسات بلده ، الولايات المتحدة ، فى هذه المنطقة •

وفتح هذا الباب أمام عدد من الكتاب الذين عانوا بحق على ايدى دول لا تتوفر فيها حرية الكلمة ، أو يصل فيها الخلاف بين بعض الكتاب والدولة الى حد المواجهة التى تدفع الجانبين الى الوقوع فى عدد من الأخطاء الفادحة ، ولا يستطيع اى كاتب يحترم مهنته ، ويعنى بكرامة الكلمة وحريتها الا أن يدين أى دولة ، مهما كان موقفها الفكرى ، تصادر حرية

الكلمة الأدبية المخلصة • ولكن هذا لا يحـل بعض الكتاب من النقـد اذا ما وقعوا فى انشوطة الحرب الباردة ، واذا ما دفعوا الآخرين الى التشكيك فى نواياهم ومدى اخلاصهم عندما يسمحوا لأنفسهم بأن يصبحوا اداة فى يد اعداء بلادهم • وقد كان هذا هو ما حدث بالنسبة لمجموعة من الكتاب الذين يمكن أن نطلق عليهم ضحايا الحـرب الباردة • وقـد اشترك فى المؤتمر مجموعة كبيرة من هؤلاء الكتاب الذين ينتمون الى عدد من بلدان الكتلة الاشتراكية أساسا ، ولكنهم يعيشون فى المنفى ، سواء أكان هذا المنفى فى أوروبا الغربية أو فى الولايات المتحدة مثل هربوتو باديلا (كوبا) وآدام زاجايفسكى (بولنـدا) وفاتسلاف ميلوتز (بولنـدا) وجوزيف بروديسكى وفاسيلى اكسيونوف (الاتحاد السوفيتى) وجورجى جاسا (تشيكوسلوفاكيا) ودانيلو كيش (يوغوسلافيا) • ولاشك فى أن من حق الكاتب ، فى الدول الاشتراكية أو الرأسمالية على السواء ، بل ومن واجبه ، أن ينتقد الدولة ، وان يكون ضمير مجتمعه اليقظ ابدا • والذى لايعرف المهادنـة • ولكن يجب فى نفس الوقت أن يكون اخلاصـه الأول والآخير لشعبه ولوطنه ، ولا يسمح لاعداء هذا الوطن باستخدامه فى لعبة الصراع بين الدول •

ومع أن انتقاد عدد من هؤلاء الكتاب لدور الدولة فى البلدان التى جاءوا منها كان نابعا من تجربة شخصية ، ويتميز بعضه بسلامة النيـة وطيب القصد ، الا أن صدور هذا النقد من منصة مؤتمر دولى ، وفى الولايات المتحدة ، احاط هذا الانتقادات بهالـة من الشك والريبة ، وخاصـة اذا ما وضعنا هذا الموقف فى مواجهة جونتر جراس الذى قال تعليقا على انتقاد أحد الكتاب الأمريكيين له ، لانه لا ينتقد الاتحاد السوفيتى • وانما يركز كل نقده على الولايات المتحدة • مع أن الكاتب يتمتع فيها بحرية أكثر من تلك التى يتمتع بها كتاب دول المجموعة الاشتراكية ، علق جراس على هذا بأنه فى الولايات المتحدة ، وليس فى الاتحاد السوفيتى ، وان وجود فارق فى الدرجة بين الدولتين العظميين ، لا يعنى بأى حال أن الوضع فى أمريكا مقبولا ، وأن من المؤسف أن ندافع عن أخطاء الغرب ، بالقول بأن الحال فى الشرق أسوأ كثيرا •

والواقع أن عددا كبيرا من الكتاب الأمريكيين حرصوا على تأكيد أن موجة النقد الشديـدة للولايات المتحدة فى المؤتمـر ليست بأى حال من الأحوال فى صالح الاتحاد السوفيتى الذى وجهت دعوة لثمانية من كتابه، كان بينهم ايفيجينى يفتبشينكو واندرية فوزنيز ينسكى ولكنهم رفضوا الحضور ، اذا ما لم يستبعد من المؤتمر الكتاب السوفيت فى المنفى الأمريكى• وجدير بالذكر أن آبرز هؤلاء الكتاب ، الكسندر سولجينيتسن ، رفض

حضور هذا المؤتمر هو الآخر ، يعد أن سأم من لعبة الحرب الباردة ، ولابد هنا من الاشارة الى ان وعى الكتاب بوجود فروق بين وضع الكاتب فى كل من الدولتين الكبريين كان أمرا ثانويا بالنسبة ، لاحساسهم بطبيعة الخطر الداهم الذى يمثلانه كلاهما بالنسبة للحياة على كوكبنا : الأرض · ومع ذلك أعرب عدد كبير من الكتاب الأمريكيين عن قلقهم من شدة الهجوم على بلدهم ، والتغاضى عن أخطاء الدول الأخرى · خاصة وانه كلما ذكرت أخطاء الدول الآخرى ربطت أيضا بالولايات المتحدة ، والاشارة الى أن قوة الولايات المتحدة هى التى توفر الحماية للدكتاتوريات البشعة فى باكستان وتركيا وشيلى وغيرها ، كما أعرب الكتاب الأمريكيون عن غضبهم لثورة الكتاب على خطاب شولتز ، وعدم التعليق بأى شكل نقدى على خطاب امادو مختار امبو الأمين العام لليونسكو ، الذى جعلت أمريكا ازاحته من منصبه احد شروط عودتها الى تلك المنظمة الدولية الهامة · ولكنهم تناسوا أن عقد هذا المؤتمر فى أمريكا هو الذى ساهم فى زيادة حدة انتقادات الكتاب لها · وان محاولة منظميه الأمريكيين تسييس المؤتمر ـ الذى اتسم فى دوراته العديدة السابقة بطابع أدبى خالص ، كما نجد من قراءتنا للسفر السابع فى هذا الكتاب ـ هى التى انقلبت على منظميه بعكس ما كانوا ينشدون · ولم ينفعهم فى هذا المجال دفاع بعض انصارهم عنهم مثل عاموس عوز (من دولة الكيان الصهيونى) الذى كان ملكيا أكثر من الملك فى هذا المجال ،وكان دفاعه تكرارا لآراء شولتز حول نسبية دور الدولة واهمية التميز بين مختلف الدول فى هذا المجال ·

واذا ما تركنا قضية الأديب والدولة جانبا ، وحاولنا التعرف على بقية القضايا الأخرى التى طرحت فى ساحة هذا المؤتمر سنجد أن المؤتمر استطاع ، برغم بدايته العاصفة ، أن يناقش فى الأيام التالية مجموعة هامة من القضايا الأدبية ، قبل أن تتفجر فى ساحته عاصفة أخرى قرب نهايته ، فقد كانت هناك جلسات لمناقشة « قضايا الهوية القومية » و « الاغتراب والدولة » و « الأدب واليوتوبيا » و « الأدب والمعارضة » و « قضايا الترجمة » و «أدب الأطفال » و « قضايا المسرح » و « القصة العلمية أو أدب الخيال العلمى » و « الأدب الأسبانى فى الامبراطورية الانجلو أمريكية » وغير ذلك من القضايا التى كانت تناقش فى قاعات مختلفة فى وقت واحد بصورة ادت الى تفتت المؤتمر ، والى انقسامه الى مجموعات ذات اهتمامات جزئية · خاصة وان تلك الجلسات المتواقتة كانت تعقد فى أماكن مختلفة ، وليس فى قاعات مختلفة بمكان واحد ، بالصورة التى يستحيل معها على أى كاتب الانتقال من جلسة الى أخرى ، أو حضور أكثر من مناقشة ·

وكانت جلسة « الكتابة والرقابة » من امتع هذه الجلسات ، فقد بدأت بتقرير قدمه مايكل سكاميل رئيس لجنة الكتاب المسجونين فى نادى القلم الدولى عن وضع الكاتب فى العالم • اشار فى بدايته الى تدهور وضع الكتاب فى العالم بصفة عامة • وان هناك أربعمائة وخمسين كاتبا ، من قارات العالم الخمس ، يعانون من السجن أو الاحتجاز فى معسكرات العمل ، أو فى المصحات العقلية ، أو غير ذلك من أشكال اضطهاد الكتاب واختطافهم وقمعهم • وقال التقرير أن أعلى نسبة من هؤلاء الكتاب موجودة فى بلدان الكتلة الشرقية والشرق الأوسط • واستمع أعضاء الجلسة التى رأسها آرثر بيلر (أمريكا) ونادين جوردييمر ، وماريو فارجاس أيوسا ، وبير فاستبيرى (السويد) وهو رئيس الهيئة الدولية لنادى القلم ، الى شهادات مفصلة عن وضع الكتاب فى الاتحاد السوفيتى ، والفيليبين ، وايران ، وتركيا ، ورومانيا ، وبولندا ، وأورجواى ، بالصورة ، التى ازداد معها الوضع قتامة ، وتأكد بها أن مهنة الكتابة الأدبية ، برغم ما يحيطها من الق وضوء ، هى مهنة المكابدة والمعاناة •

وامتدادا لتلك الجلسة العامة ، كانت هناك جلسة فرعية حول هذا الموضوع نفسه عن « الرقابة فى الولايات المتحدة وكندا » جريا على عادة مؤتمرات نادى القلم الدولية بعقد جلسة لمناقشة موضوع الرقابة فى المنطقة التى يعقد فيها المؤتمر • ومع أن عددا من كتاب العالم الثالث على وجه الخصوص ، أعربوا عن دهشتهم لتخصيص جلسة لهذا الموضوع ، فان من حضر مداولاتها منهم سرعان ما تبددت دهشته • صحيح أن الكاتب الأمريكى يتمتع نظريا بحرية أكبر من تلك التى يتمتع بها غيره من كتاب العالم ، وهذا ما يضاعف من مسئوليته ازاء هذه القضية بالنسبة لغيره من الكتاب • لأن الحرية الانسانية لا تتجزأ • وصحيح أيضا أن الحكومة الأمريكية لا تمارس رقابة مباشرة على الأعمال الأدبية ، ولكن المجتمع الأمريكى كله يمارس على كتابه رقابة من نوع مختلف ، قد تكون فى بعض أبعادها أكثر احباطا وقمعا من الرقابة المباشرة •

وقد أشار جاى تاليسا الى اللجنة الجديدة التى عينها الرئيس الأمريكى ريجان لاعادة النظر فى مسألة الأدب المكشوف ، والأعمال الفنية المثيرة للغرائز ، أو التى تتسم بالبذاءة ، حتى تعيد هذه اللجنة النظر فى قانون عام ١٩٧٠ ، المتعلق بهذا الموضوع ، والذى يعتبره قطاع واسع من اليمين الأمريكى قانونا متحررا ، لأنه فصل بين تصوير الأعمال الجنسية الفاضحة ، وبين السلوك الاجرامى • كما أشارت باربرا باركر الى أن ستا وأربعين ولاية ، من الولايات المتحدة الأمريكية الخمسين ، قامت فى العام الماضى بازالة أعمال أدبية من المكتبات العامة ومنعتها من

التداول – المجانى – بين الجمهور ، وكذلك من مكتبات المدارس بدعاوى أخلاقية أو سياسية • وأن ٤٠٪ من محاولات الحجب تلك ، قد نجحت فى تحقيق أهدافها • وحتى الذين قاموا بمدح النظام الأمريكى ووصفوا أمريكا « بأنها أعظم بلد على وجه الأرض » ، مثل كيرت فونجت ، ما لبث أن اعترف بأن بعض رواياته قد منعت من مكتبات المدارس ، وازيلت من فوق رفوف المكتبات العامة • فاذا علمنا أن قوانين حقوق المؤلف تزود الكتاب بنسبة معينة من المال كلما استعيرت أعمالهم من المكتبات العامة ، ادركنا مدى تأثير هذا الأجراء على الكتاب • وكيف أنه قد تحول الى نوع من الرقابة غير المباشرة على أعمالهم • ناهيك عن تحكيم النزعة التجارية فى رقاب المؤلفين ، وزعم الدولة بأنه ليس لها دخل على الاطلاق بعمليات تمويل الكتاب ، وتركها لهذا الأمر فى أيدى أصحاب المؤسسات التجارية، أو الخيرية ، حسبما اتفق •

واذا ما انتقلنا الى كندا وجدنا ان مارجريت اتورد – رئيس نادى القلم فى كندا – قد أشارت بالرغم من اشادتها بموقف كندا ، التى قالت انها تستحق تسعة من عشرة بالنسبة لموقفها من الرقابة ، الى أن هناك انتهاكات لحرية تداول المطبوعات فى بلدها • وان موظفى الجمارك يعينون أنفسهم رقباء ، ويمنعون الكتب القادمة من الولايات المتحدة الى المكتبات المهتمة بمطبوعات الشذوذ الجنسى ، والى المكتبات المتخصصة فى مطبوعات تحرير المرأة • كما نددت بموقف الولايات المتحدة الذى تمنع بمقتضاه أعمال فارلى مورات ، الكاتب الكندى ، من دخول أمريكا • وهنا أشارت روز شتايرون (الولايات المتحدة) الى قانون « مكاران – وولتر » • فقام نورمان ميلار مدافعا عن حكومة ريجان فى هذا المجال ، وقال ان هذه الحكومة باعتبارها حكومة محافظة فان من الطبيعى بالنسبة لفلسفتها السياسية ألا تقوم بالحد من حرية الكلمة ، وان لدى هذه الحكومة فرصة رائعة لتحسين سمعتها بالغاء مثل هذا القانون •

وقد أثارت جلسة الاغتراب هى الأخرى بعض القضايا الهامة ، وخاصة عندما تناول الأدباء من مختلف المجتمعات والخلفيات الحضارية هذا الموضوع الهام ، وكان من التعليقات المثيرة فى هذا المجال اعتراف تونى موربسون (وهو كاتب أمريكى أسود) بأنه لم يشعر فى أى لحظة فى حياته بأنه أمريكى ، لأن وقائع الحياة اليومية تذكره أبدا بأنه أسود ، وبأنه ليس أمريكيا ، وتحدث جراس عن نوع آخر من الاغتراب : الاغتراب الذى يتشح بالخوف الدائم على مستقبل البشرية ، وربط هذا أو بالأحرى برهن عليه بالاشارة الى ردود فعل الكتاب الأمريكيين والصحافة الأمريكية على انتقاداته لأمريكا ، واشارته خاصة الى أن ٣٠٪ من السكان يعيشون

تحت مستوى الحد الأدنى للمعيشة ، فى حالة من الفقر تمنعهم حقا من التمتع بحريتهم • وقد وصف فى الصحف بأنه مناهض لأمريكا ، وقال تعليقا على ذلك « لم يحدث من قبل اننى اتهمت بأننى مناهض لأمريكا ، لاننى قلت شيئا نقديا عنها ، هذا شيء جديد ومخيف فى الوقت نفسه • لأن الولايات المتحدة هى القوة العظمى فى الغرب • وعندما تظهر هذا الاحساس بعدم الأمن ، والعجز عن تقبل النقد ، ورفضه كل نقد لها على الفور ، فان هذا يكون له صدى فى غيرها من الدول الغربية : وخاصة المانيا الغربية •

وكانت هناك كذلك جلسة ممتعة عن الترجمة ، نوقشت فيها قضايا هذا الفن الهام الذى يعمل على توسيع أفق الأعمال الأدبية ، وعلى تضييق الفجوة الثقافية بين مختلف قراء العالم ، وعلى تعميق أواصر التفاهم والتواصل بينهم على اختلاف ثقافاتهم • وقال جونى بانج (كوريا) ان المترجم يحتاج الى خيال يوازى على الأقل خيال الكاتب الأصلى ، أن لم يفقه • لأن المترجم الجيد لابد أن يعرف اللغتين الى درجة تمكنه من اعادة خلق ، لا الكلمات والجمل وحدها ، وانما روح العمل الأصلى ، وكل ظلاله وايحاءاته • وقالت جوستين كابلانه (أمريكا) ان المترجم هو البطل المجهول الذى يمكن اللغة والأدب من عبور حواجز اللغة الأخرى وآدابها • وأشاد جورج أمادو (البرازيل) بدور المترجم باعتباره أحد القوى المانعة لحدوث الكوارث الاجتماعية والحضارية عن طريق اقامة جسور التواصل، وازالة حواجز سوء الفهم ، وفقدان الثقة ، لأن الترجمة تعمل على توحيد عقلية القراء فى شتى انحاء العالم • فالأدب لا يعرف الحواجز ، لكن حاجز اللغة ينهض كعقبة بينه وبين عدد كبير من القراء ، والمترجم هو الذى يزيل هذه العقبة •

وقد شارك فى هذا النقاش عدد كبير من أبرز مترجمى الأدب فى العالم ، اذ كان من بينهم خورجى راباسا ، مترجم الأدب الأسبانى الى اللغة الانجليزية وخاصة أعمال ماركيز وبورجيز وغيرهم ، ورالف مانيهايم مترجم جونتر جراس ، وغيره من روائع الأدب الألمانى ، وقال راباسا ان بورجيز قال له مرة « لا تترجم ما قلت ، ولكن ترجم ما كنت أردت أن أقوله » • وقال جلاوى كيسنيل (الولايات المتحدة) ومترجم مجموعة كبيرة من الشعراء الفرنسيين ، ان على المترجم أن يميز بين أصوات الكتاب المختلفين ، وان يحذر من أن يفرض صوته عليهم • لكن هذا الصوت الأدبى الصرف الذى ما لبث أن شد المؤتمر بعيدا عن الصراعات العاصفة الى قضايا الأدب والكتابة ، سرعان ما تراجع أمام زحف العاصفة التى أخذت تتجمع فى ساحة المؤتمر قرب نهايته ، والتى تزعمتها الكاتبات الأمريكيات اللواتى

أردن تخصيص جلسة مستقلة لقضايا المرأة ، واحتججن بأن تمثيل المرأة في هذا المؤتمر أقل كثيرا من حجم اسهاماتها فى عالم الكتابة ، ووجودها فيه • وقد استشاط غضبهن عندما رفض نورمان ميلار تخصيص جلسة لهن ، قائلا بأن بين الكاتبات قليلات من اللاتي يمكن اعتبارهن مثقفات • لأن معظمهن كاتبات أولا ، والمثقفات بينهن نادرات وأن سوزان سونتاج هى هذا النمط الذى يشير اليه نمط المثقفة أولا ، التى أصبحت كاتبة بعد ذلك •

وقد قادت بيتى فريدان ، وهي كاتبة أمريكية من زعماء حركة تحرير المرأة ، هذا الهجوم وايدتها فيه ايريكا يونج (أمريكا) ومارجريت أتوود (كندا) وسينثيا ماكدونالد وعدد أخر من الكاتبات • وقد هددن بانتزاع المنبر بالقوة اذا لم يسمح لهن بتقديم وجهة نظرهن ، وتوصل المؤتمر الى حل وسط ، وهو أن يسمح لهن بالقاء بيان يعبرن فيه عن احتجاجهن ، الذى انصب أساسا على نقص تمثيل المرأة ، وانطوى على اعتراف ضمنى بأن المقياس الثقافى والعقلى ليس هو المقياس الصحيح فى هذا المجال ، وانما مقياس التمثيل العددى • وكأنهن يعترفن بأن مستوى الكتابات النسائية أقل من أن تصمد للحكم الأدبى والثقافى وحده • وهكذا تمخضت هذه العاصفة الثانية عن هزيمة المرأة ، من حيث ارادت الانتصار لها • خاصة وأن ميلار أصر فى تلك الجلسة الختامية التى سمح فيها لهن بالقاء بيانهن هذا ، على الرد بشكل تفصيلى عليه • وكان رد ميلار تأكيدا لموقفه السابق المعروف بعدائه للمرأة ، وباعتبارها أقل قدرة على الكتابة من الرجل • اذ أن له قول مشهور فى هذا المجال وهو أنه « لكى تصبح كاتبا لابد أن تكون لك خصيتان » وهو تعبير مشهور فى اللغة الانجليزية يعنى لابد أن تكون رجلا بالمعنى التقليدى للرجولة ، التى ترتبط بمفهوم الذكورة والسيطرة • وقد قال ميلر أنه كانت هناك ١٢ كاتبة أمريكية من بين أعضاء لجنة الاعداد للمؤتمر البالغ عددها ٢٨ كاتبا • وأن هذه اللجنة وجهت الدعوة لأربعة وعشرين كاتبة اعتذرن جميعا ، وان لم يشأ أن يطلب اعداد قائمة أخرى بعد اعتذارهن لانه لم يشأ أن يحقق التوازن العددى على حساب القيمة الأدبية ، وان القضية المطروحة على هذا المؤتمر ليست النهوض بمستوى الكاتبات ، فجميعهن من الطبقة الوسطى ، ولكن القضية الأساسية هى التميز الأدبى •

وهكذا انتهى هذا المؤتمر على الطريقة الأمريكية بحق •• اذ بدأ بعاصفة ، وانتهى بعاصفة أخرى • ولكن الفرق بين العاصفتين كان كبيرا •

وبعد أليس الفارق كبيرا بين هذا المؤتمر ، وبين مؤتمر نادى القلم الذى قرأنا عنه فى السفر السابع من هذا الكتاب ؟ ألا يكشف هذا الفرق عن طبيعة الطريقة الأمريكية فى التعامل مع القضايا الأدبية ، او بالأحرى افسادها ؟ هذا سؤال أتركه للقارىء ، عله يستطيع أن يخرج من المقارنة ببعض الفائدة ·

نيويورك ـ لوس انجليس　　　　　　يناير ١٩٨٦

● السفر الرابع عشر

ندوة أسئلة الرواية العربية بالرباط

الرواية العربية بين التنظير والممارسة : ابعاد النص واشكاليات الحداثـة

عقدت فى المغرب على مدى أربعة أيام من ٣٠ أكتوبر حتى ٢ نوفمبر ندوة على درجة كبيرة من الأهمية نظمها اتحاد كتاب المغرب بالاشتراك مع لاتحاد العام للكتاب العرب بعنوان ندوة « أسئلة الرواية العربية » وشارك نيها الى جانب عدد كبير من كتاب المغرب ونقاده ودارسيه مجمـوعة من الروائيين والنقاد من مصر وسوريا وفلسطين وليبيا والعراق • وقـد أتسمت هذه الندوة ، كعادة الندوات التى ينظمها اتحاد كتاب المغرب ، بقدر كبير من عمق البحث وجدية التناول ودقة التنظيم ، وبتحقيق قدر ملحوظ من التوازن بين الاستقصـاءات النظريـة والمعالجات التطبيقيـة للنصوص الروائية ، ذلك لأنها أنطلقت كما يكشف عن ذلك عنوانها من مسألة تتجاوب بصـدق مع النزوع المغربى العميق للاهتمـام بموضوع « الأسئلة » ، والميل الى التريث طويلا عند مرحلة السؤال : ادارته على مختلف وجوهه ، والتأكيد على صحته ، واختبـار طريقة طرحه ونوعيـة الحساسيات التى يثيرها مثل هذا الطرح • لأن الانشغال بصياغة السؤال هو بحق الخطوة الأولى والضرورية فى تناول أى موضوع أدبى بشكل جـدى •

وقد أثرت هذه النزعة المغربية الأصيلة الندوة ، وجعلتها ساحـة مفتوحة للحوار العميق بين مختلف الاتجاهات والمقتربات والمناهج النقدية• ومسرحا لطرح مجموعة كبيرة من الأسئلة النظرية والتطبيقية التى تتعلق بوضع الرواية العربية الراهن وبمختلف قضاياهـا • كما كان حرص الندوة على تحقيق قدر ملحوظ من التوازن بين الدراسة النقدية والشهادة الروائية التى يدلى بها الروائى حول تجربتـه الأدبية من العوامل التى خلصت الندوة من الجفاف النظرى الذى يولع به كثير من نقادنا المغاربة • فقد كانت شهادة الروائى بمثابة النغمة الصحيحة التى تنزل كالقـرار

كلما احتدم الجدل والنقاش وهدد الندوة بالحيدة عن هدفها • وكانت هذه الشهادة هي كذلك المدخل الرئيسي الذي دلفت منه الى ساحة الندوة مجموعة من الأسئلة الغائبة عن الجدل النقدي والأبحاث ، وخاصة تلك الأسئلة التي تتعلق بالشروط الاجتماعية لعملية الابداع ، وبطبيعة الواقع الحضاري والسياسي الذي يمارس فيه المبدع عمله ، وأثر هذا كله على آليات عملية الكتابة وتحققها • ولكن علينا قبل التريث التفصيلي عند أي من هذه الأسئلة أو الشهادات التي أثارتها ، أن نتعرف أولا على أهمية الأسئلة التي استهدفت الندوة التعامل معها طرحا ومناقشة وتحليلا •

ويتعلق أول هذه الأسئلة بدلالات صيغة الاضافة التي تربط المضاف أي « الأسئلة » بالمضاف اليه أي « الرواية العربية » ، فهل الأسئلة التي تعنيها هي أسئلة الرواية العربية ، أي الأسئلة التي تطرحها الرواية العربية على الكتاب والقراء على السواء ؟ أم هي أسئلة وهموم هؤلاء الكتاب والقراء والنقاد أيضا حول هذه الرواية ، وما يتوقعونه منها من اجابات ؟ والواقع أن الاضافة هنا ذات دلالة مزدوجة ، وأنها تنطوي فيما يبدو على الجانبين معا • ومن هنا تناولت الندوة بعض الأسئلة التي تطرحها الرواية العربية ، وأولها سؤال الهوية أو سؤال الكينونة ، لأن أخصب الأسئلة هي تلك التي تطرحها الذات على نفسها قبل أن تتوجه بهمومها للآخرين • وهذا السؤال هو الذي يستطيع أن يبلور لنا ملامح « الكوجيتو » الروائي العربي • لاننا اذا ما لم نكتشف آليات عملية تفكير الرواية العربية في روائيتها أولا ، وفي عربيتها ثانيا ، فلن نتعرف على هويتها ولن نستطيع استكناه حقيقة كينونتها • كيف ترى الرواية العربية نفسها من الداخل ؟ وما هي مبررات وجودها ؟ وما هي أبرز الملامح والقسمات التي تتعرف بها على ذاتها ؟ وأين تضع نفسها على خريطة الخطاب العربي الشامل الذي يضم كل أشكال الكتابة ؟ ومن هم أسلافهم ؟ وكيف ترى علاقتها بهؤلاء الأسلاف ؟

لأنه اذا استطاعت الرواية أن تجيب على أسئلة الهوية والكينونة تلك ، فسيكون بمقدورها أن تتناول أسئلة الدور والفاعلية ، وأن تحدد طبيعة علاقتها بالواقع • ما هو جوهر هذه العلاقة ؟ وما هي القواعد التي ينهض عليها نظام الاحالات في النص الروائي ؟ وهو النظام الذي تنبثق عنه عملية احالة النص الى كل ما هو خارجه من وقائع ، وأماكن ، وأحداث ، ونصوص •• وما هي العلاقة بين الفضاء الروائي والفضاء الواقعي ؟ هل هي علاقة تماثل ؟ أم علاقة تناظر واختلاف هل يتحكم في هذه العلاقة منطق السببية ؟ أم أنها تنهض على آليات العملية الجدلية المعقدة ؟ لأننا

بدون أن نتعرف على طبيعة هذه العلاقة لن نستطيع طرح أسئلة الدور والفاعلية . تلك الأسئلة التى تفترض بداءة أن للنص وجودا ، وأن علاقاته بالواقع الذى صدر عنه ويطمح الى القيام بدور فيه قد فهمت ، والتى تنحو الى استقصاء ملامح طبيعة استجابة القراء والنقاد والكتاب على السواء للنص الروائى . كيف يطرح النص الروائى نفسه على القارىء ؟ ما هى الافتراضـات التى يتصور أن القارىء يسلـم بها ؟ وما هى المصادرات أو البديهيات التى ينطلق منها بالرغم من أنه يسقطها كلية من ساحته ؟ وما هى طبيعة الفعالية التى ينشدها النص ؟ وأهم من هذا كله ما هى العناصر والعوامل الفاعلة فى عملية تأويل النص الروائى وتلقيه ؟ وما هى حدود هذا التأويل ؟ وكيف نرهف من فاعلية التلقى حتى نستطيع رأب الفجوة بين النص والقارىء ؟

واذا انتقلنا الى الشق الثانى من الجانب الدلالى المزدوج فى صيغة الاضافة بالعنوان سنجد أن هذا الشق يطرح علينا مجموعة أخرى من الأسئلة ، هل استطاعت الرواية أن تلبى حاجة القارىء العربى للتعبير عن نفسه ؟ وما هو مدى اقترابها من هموم قارئها ومشاغل وطنها ؟ وما هى العلاقة بين صورة الواقع العربى كما صاغهـا العقـل العربى ، وتلك الصورة التى تتبدى له على مرايا الابداع الروائى ؟ هل أدى امعان الرواية العربية الحديثة فى الانشغال بذاتها ، بلغتهـا ، واستراتيجيات القص فيها ، وقضايا السرد ،والصوت والمنظور الى عزلتها النسبية عن الواقع وهمومه ؟ هل يغلقها ذلك عن العالم من حولها ؟ ويزب عنها قطاعات كبيرة من القراء الذين تربوا على مواضعات القص التقليدى ؟ وهل يمكن فصل الانشغال بالذات عن الانشغال بالعالم ، واعتباره انشغالا عنه ؟ وهناك بالاضافة الى هذه الأسئلة جميعا سؤال النقد : ماذا حقق فى هذا المجال ، وأين موقعه على خريطة عملية طرح الأسئلة ، ومحاولة الجواب عليها ؟ وسؤال المرأة العربية كاتبة وناقدة وقارئة : أين هى الآن فى ساحة الرواية العربية ؟ هل تعكس الرواية صورتها الحقيقية دون وساطـة الرجـل ومرشح تحيزاته ؟ هل انبثقت فى روايتنا ، رواية تعبر بصدق وتمكن عن منظور المرأة للعالم ؟ وهل يمكن حقا الحديث عن منظور للمرأة فى أدبنا ؟ لقد أصبح لدينا الآن مجموعة من النساء اللواتى يشاركن بفاعلية واقتدار واضحين فى بلورة ملامح الحساسية النقدية الجديدة من فريال غزول فى العراق ، الى لطيفة الزيات وسيزا قاسم ورضوى عاشور وهدى وصفي ونهاد صليحة بمصر ، الى فاطمة المرنيسى فى المغرب ، ولكن هل استطاعت المرأة المساهمة بنفس المقدار فى الرواية ؟

وهناك كذلك سؤال القطيعة والاجتزاء الذى يفرضه علينا الواقع العربى المتردى : هل يمكن أن تنهض الرواية بدورها ، وأن تجيب على تلك الأسئلة ، ونحن نقيم فى وجهها السدود ، ونمنعها من التواصل مع جمهورها العربى العريض ؟ ذلك لأن أخلص المتابعين لما يدور فى الساحة الروائية العربية تغيب عنه معالم كثيرة وهامة من المشهد الروائى فى بقية الأقطار العربية ٠ ان فداحة القطيعة التى يفرضها الاجتزاء علينا تجعل محاولاتنا للاجابة على أسئلة الرواية ناقصة ، ما لم نتناول السؤال الهام : كيف يمكن أن نضمن أن يعرف الروائى العربى بكل المغامرات التى يقوم بها أشقاؤه الروائيون فى سائر أرجاء الوطن العربى ؟ وكيف نوفر للباحثين والنقاد ، ناهيك عن القراء العرب فى شتى أقطار الوطن العربى ، كل ما يصدر من روايات فى بقية أقطاره ؟ أيمكن الحديث عن عربية الرواية ونحن نحاصرها فى أقطارها ؟

وحتى تجيب الندوة على بعض هذه الأسئلة فقد طرحت فى ساحتها سبعة عشر بحثا وثمانية شهادات لروائيين عرب ٠ وأدارت حول هذه الأبحاث نقاشا واسعا اتسم بقدر كبير من الجدية ، وعمق الحوار ، بغية الوصول الى أجوبة لبعض الأسئلة المطروحة تارة ، وبهدف اعادة صياغة السؤال المطروح تارة أخرى لتغيير مركز الثقل فيه أو تحوير مسار الاهتمام به ٠ وكانت الشهادات التى قرأت على مدار أيام الندوة الأربعة هى شهادات الروائيين العرب ابراهيم أصلان وعبده جبير (مصر) وفؤاد التكرلى وسامى مهدى (العراق) ، ومحمد عزيز الحبابى ، وأحمد عبد السلام البقالى ، والميلودى شغموم ، وخناثة بنونة (المغرب) ، وكان من المقرر كذلك أن يلقى كل من جبرا ابراهيم جبرا (فلسطين) وأحمد ابراهيم الفقيه (ليبيا) بشهادتيهما ضمن برنامج الندوة ، لكن الأول اعتذر لمرضه ، بينما وصل الثانى متأخرا ٠ أما أبحاث الندوة فمن الممكن تقسيمها الى أربعة مجموعات أساسية : تضم الأولى الأبحاث النظرية التى انصرف اهتمامها كلية الى هم التنظير مثل بحث مطاع صفدى « بحثا عن النص الروائى » ، وبحث مبارك ربيع «سؤال الحداثة فى الرواية العربية»، بينما تضم الثانية الأبحاث النظرية التطبيقية التى كان التنظير مركز اهتمامها كذلك ولكنها حرصت على أن تكون تنظيراتها طالعة من قلب الممارسة النقدية والتطبيق على الرواية العربية مثل دراسات فريال غزول « الرواية الشعرية فى الأدب العربى » ، وحميد الحمدانى « المنولوجية والحوارية فى الرواية العربية » ، وسعيد يقطين « صيغ الخطاب الروائى وابعادها النصية » ، وبحث كاتب هذه السطور « الرواية والواقع : دراسة فى آليات تغير قواعد الاحالة الأدبية » ٠ أما المجموعة الثانية فهى

مجموعة الدراسات التطبيقية النظرية ، التى تهتم بالجانبين حقا ، ولكن بؤرة التركيز فيها على التطبيق ، وليس الهم النظرى فيها الا رغبة فى ارهاف أدوات النقاد التطبيقيـة ليكون أكثر قدرة على سبر أغوار نصـه مثـل دراسات رشيد بنحـدو « حينما تفـكر الروايـة فى الروائى » ، وعبد القادر الشاوى « مفهوم الشهادة الروائية » ، وسعيد علوش « عن الوظيفة اللغوية فى الرواية المغربية » ، ومحمد عز الدين التازى « لعبة السرد فى رواية الوجوه البيضاء » ٠أما المجموعة الرابعة والتى استأثرت بنصيب الأسد من الأبحاث فهى مجموعة الدراسات التطبيقية البحتة التى تندرج تحتها دراسات : خلدون الشمعة « المثاقفة باعتبارها وعى الحداثة : نموذج ثائر محترف » ، ومحمد الجزائرى « الرواية العربية جدل الرؤية والتسجيل » ، ومحيى الدين صبحى « بعد زمانه : والجوازات الممكنة فى الرواية متعددة الوجوه » ، ونواف أبو الهيجـاء « اشكاليـات الروايـة الفلسطينية خارج الأرض المحتلة : اشكاليـة المكان » وبشير القمـرى « دينامية الشكل فى روايات عبده جبير » ، وأبراهيم الخطيب « ملاحظات حول تخلق لعبة النسيان » ٠ ولأهمية هذه الأبحاث ، وحيوية القضايا التى تطرحها بالنسبة لواقع الرواية العربيةفسوف نتوقف عندها بالتفصيل بحثا بحثا ٠

ولنبدأ أولا بالحديث عما دار فى جلسة افتتاح أعمال هذه الندوة التى افتتحت يوم افتتاح معرض الكتاب الدولى الأول فى الدار البيضاء ٠ ولم يكن افتتاح الندوة فى نفس الموعد الذى تهتم فيه الدولة بافتتاح معرض للكتاب اتسم بالاغراق فى توجهاته الغربيـة والفرنسية خاصـة مصادفة ، لأن اتحاد كتاب المغرب (وهو الاتحاد الذى يتميز باستقلاله ، وتفرد شخصيته كمنظمة شعبية جماهيرية ، وجدية توجهاته) حرص على تأكيد تلك الاستقلالية من ناحية ، وعلى طرح صورة حية للجانب العربى للشخصية المغربية فى مواجهة عناصر التغريب من ناحية أخرى ٠ لذلك حرص الاتحاد فى جلسته الافتتـاحية تلك أن يبرز الجـانب العربى فى توجهاته٠فقد بدأت الندوة بجلسة افتتاحية قدمها الأستاذ أحمد اليابورى، رئيس اتحاد كتاب المغرب ، وتحـدث فيها القاص العراقى الكبير فؤاد التكرلى عن تصور الروائى العربى المعاصر للأسئلة التى تطرحها عليـه الرواية العربية فى مرحلتها الراهنة ، وعن طبيعة الهموم التى تشغلـه بالنسبة لقضاياها الفنية والمضمونية ٠ ثم تحدث بعده كاتب هذه السطور مبلورا كعربى مصرى منظور النقد العربى المعاصر لقضايا الرواية ، ولأكثر أسئلتها الحاحا على الناقد والقارىء على السواء ٠

واختتم هذه الجلسة الافتتاحية الأستاذ أحمد اليابورى الذى أشار الى أهمية تناول أسئلة الرواية العربية اليوم لأن الرواية العربية قد أكملت ، بعد مسيرة قرن من الزمن ، دورتها التامة من المقامة الى المقامة ، وعادت مرة أخرى الى التراث العربى الذى بدأت به مشيرا الى ظهور المقامات ك (المقامة اللامية) للقاص العراقى جمعة اللامى ، والى البنية الحلزونية لرواية (الحرافيش) لنجيب محفوظ ، أو بنية الحديث الدائرية فى (حدث أبو هريرة فقال) للكاتب التونسى الكبير محمود المسعدى • كما أنها اقتربت كثيرا فى الآونة الأخيرة من المنطلقات الفلسفية مركزة على قضايا علاقة الذات بماضيها وبالآخر • وهذان الأمران يتطلبان فى نظره ضرورة التوقف عند أسئلة الرواية ، أو بلورة تلك الأسئلة بشكل جديد حتى نتخلص من مسألة عدم مبارحة النقد للمواقع التى أسسها عندما كانت الرواية فى مرحلة الاقتباس الأولى • حيث كان الأسقاط هو السمة المميزة للنقد الروائى العربى ، مع تفاوت فى الدرجة واجتهادات قليلة تطمح الى استخلاص قوانين قد تلتقى مع القوانين العامة للنص الروائى العالمى ، ولكنها لاتركز على القوانين والملامح والسمات الصانعة لخصوصية الظاهرة الروائية العربية • ولهذا طرح اليابورى مسألة ضرورة الاهتمام بالأسئلة الخاصة بنظرية الرواية العربية بطريقة مغايرة لتلك الطريقة التقليدية التى تابع فيها النقد دراساته للرواية العربية وفق النظرية التطورية ، التى تربط الرواية بأصولها التاريخية عبر سلسلة من التحولات المختلفة • داعيا الى ضرورة الاتجاه صوب مفهوم الرؤية والتأسيس •

وهذا هو الأمر الذى يبدو أن الندوة استجابت له بالفعل فى مداولاتها بشكل خاص ، وان لم تخل تلك المداولات من مسحة واضحة من الولع المغربى المعروف بالتعامل مع الانجازات النقدية الحديثة ، والاستسلام لاغراءات الاسراف فى شرح مكوناتها ، بدلا من التسليم بوجود حد أدنى من الالمام بتلك المكونات بين جمهور المتخصصين على الأقل • وحتى نتعرف على تفاصيل ما جرى فيها ، علينا أن نتريث ازاء ما دار فى ساحتها • لأن العرض التفصيلى للندوة هو الذى يستطيع أن يدخل القارىء فى خريطتها ، وأن يترك له وحده استنتاج مدى توفيقها فى التعامل مع أسئلة الرواية العربية • ومن البداية أحب أن أؤكد على أن العرض الذى أقدمه للندوة هنا ، والذى أطمح الى أن يعكس روحها وأن يشير الى أهم القضايا التى طرحت فى ساحتها ، هو عرض فى غيبة نصوص الأبحاث والشهادات التى لم تتوفر للمنتدين أبدا ، وعرض يعتمد على بعض الملاحظات المسجلة على الملخصات التى قرئت علينا ، وعلى الذاكرة وهى

بطبيعتها خؤون ، ومن هنا فانه يستميح القارىء والمشاركين فى الندوة العذر ان كان به بعض الظلم لبعض الأبحاث ، وهو ظلم ان وقع فعن حسن قصد ، وليس أيسر من أن يرفعه النص الكامل للبحث اذا ما توفر فى أيدى القراء والمهتمين • وقد وضعت الندوة منذ جلسة العمل الأولى النمط الذى سارت عليه بقية الجلسات • وهو تقديم مجموعة من الأبحاث ، ومجموعة من الشهادات التى تفاوت عددها فى كل جلسة • وبعد تقديم الشهادات والأبحاث ، يفتح باب الحوار والمناقشة •وحتى يكتسب النقاش درجة من الجدية والعمق ، وحتى يحظى كل بحث بالعناية المرجوة ، فقد أوكلت ادارة الندوة الى أحد المشاركين فى أعمالها مهمة التعقيب على بحث بعينه ، بحيث يحظى كل بحث بتعقيب مدروس ضاف من باحث متخصص قرأ البحث المطروح بعناية قبل الجلسة ، وأعد ملاحظاته عليه ، ثم يفتح بعد هذا التعقيب باب المناقشة للمشاركين فى الندوة جميعا • وقد ضمن هـذا النظـام جدية المناقشة وعمق الحوار • وحصـول كل بحث على الحد الأدنى من الإهتمام الجدير بـه •

وقد بدأت الجلسة الأولى ببحث نظرى للروائى والباحث السورى الأستاذ مطاع صفدى بعنوان « بحثـا عن النص الروائى »يطرح عـدة قضايا تنطلق من تعريف الرواية بأنها تعبير عن احساس بالفقدان يثير القارىء من خلال السرد والتخييل ، وتقديم عالم أقرب الى العالم الحلمى ، الذى يشغل لحظة غير زمانية ، ولكنه قادر على الوجود فى الزمن وخلق هذا الإحساس الحاد بالفقدان • والذى يرى الباحث أن فعل «روى» ليس الجذر الملائم للتعبير عن جوهر الرواية ، يقتصر على توصيف فعل النقل ويربط ما يروى بأصل خارجه • ذلك لأن مطاع صفدى يصر على أن النص الفنى ليس وسيطا لنص آخر ، وأنه يكتب كاتبه ويطرح منطقه على قارئه • ومن هنا فمن الضرورى أن تتخلص الرواية العربيـة من عقـدة تصوير الواقع ، وأن يتخلص النقد العربى من أحبولة المضاهـاة بين الأصـل والنسخة • ولأن الرواية العربية والنقد العربى معها لم يفعلا ذلك بعد ، فانهما يبدوان لديه وكأنهما غير موجودين حقـا ، لأنهما لم يتخلصا من فخ الإعلام ، أو من الوقوع فى مصيدة الايديولوجيـا • فاعادة انتـاج عزلة النقد عنده ليست فى الواقع الا دليلا اضافيا على عزلة المنقود • ومع أن فى هذا الطرح شىء من الوجاهة ، فقد اتسمت أطروحته فى هذا المجال بقدر من الاسقاط النابع من تقديم الأجوبة قبل الأسئلة • ويتبدى هذا الأمر بوضوح شديد عندما يشرع فى ضرب بعض الأمثلة للتدليـل على محدودية الأفـق الروائى العربى بسبب وقوع النص فى شرك مسألة « الرواية » وسرده لما هو خارجه • لأن المثال الرئيسى الذى يعتمد عليه

فى هذا المجال هو استخدام نجيب محفوظ للمكان فى رواياتـه ، وهو استخدام يتعامل ـ فى رأيه ـ مع المكان ككيان هندسى ، لا روائى ، ويتسم لذلك بالنمطية ، والنمذجة السكونية الناجمة عن أن محفوظ يكتب فى نصه ما هو خارج نصه ، متحريا شخصيات الروايـة خارج نصهـا ، ومتعاملا مع أحداثها خارج حدثيتها • لكن هذا البحث الشائق يثير مجموعة من الأسئلة الهامة ، التى بلورها باقتدار وفصاحة محمد برادة فى تعقيبه اللاذع الناجز على هذا البحث : لماذا الرواية وحدها بحثا عن الفقدان ؟ أليست كل أشكال الكتابة والتفكير بنت هذا الاحساس ؟ واذا كان الأمر كذلك ، فما الذى يجعل للرواية خصوصيتها فى هذا المجال ؟ وهل يمكن فصم عرى علاقة الرواية كلية بالواقع ؟ وما هى الأطروحات البديلة فى هذا الصـدد ؟

أما البحث الثانى فقد كان للناقـد المغربى رشيد بنحـدو بعنوان « حينما تفكر الرواية فى الروائى » أو بالأحرى حينما تفكر الرواية فى نفسها وفى روائيتها داخل الرواية ، حيث توازى لحظـة التفـكير تلك لحظة الكتابة وتتخللها ، ويتدخل الروائى فى النسيج النصى لروايته ، وتتخلل النسيج حوارات ساخرة مع نصوص أخرى أو مع جوانب متعددة من النص نفســه • ويدعى ذلك فى بعض الأحيـان بشكلنة المحكى فى المصطلح النقدى المغربى ، وفى أحيان أخرى بالرواية داخـل الرواية • ويرى رشيد بنحدو أن هذه الظاهرة التى أخذت تتغلغـل فى الروايـة العربية الحديثة هى احدى سمات حداثيتها ، لأن ظهور « الميتارواية » أى الرواية التى تتحدث عن أسرار عملية الخلـق الروائى نفسهـا من مظاهر انشغال النص بذاته ، وبآليات تطوره الداخـلى ، انها نوع من تأمل النص لذاته فى مرايا نصية مختلفة ، واتخاذ الكتابة ذاتها موضوعا للكتابة • كما أنها تنطوى على محاولة لطرح القراءة داخل عملية الكتابة نفسها ، وارتسام بعض امكانات أو مشاريع القراءة • انها الجدل المستمر بين القراءة والكتابة من أجل ارهاف حدة العلاقة بين السارد والمسرود من جهة ، وبين السارد والمسرود له من جهة أخرى • ويبلور الباحث ملامح هذه الظاهرة ووظائفها النصية المختلفة ، السلبية منها والايجابية ، من خـلال التعامل مع نصوص روائية معاصرة هى « وردة للوقت المغربى » لأحمد المدينى ، و «رحيل البحر» لمحمد عز الدين التازى ، و « الديناصور الأخير » لفاضل العزاوى ، و « يحدث فى مصر الآن » ليوسف القعيـد مميزا من خلال تفكر النصوص الأربعة فى روائيتها بين نمطين أساسيين•

يقتحم فى أولهما المؤلف الخطاب النصى من الخارج ، مما يجعل تدخله عبئا على النص يتم من خارجه ، ولا يحقق أى دور ايجابى فيه • انه

نوع من التقعر الذى يحاول فيه بطل النص أن يكون مشاركا للمؤلف في عملية التأليف ، دون أن تنطوى تلك المشاركة المصطنعة على تأمل أو استبصار عميق بآليات النص الداخلية • وهذا النمط الذى يتسم بالاقحام والتكلف هو ما نجده بحق فى روايتى يوسف القعيد وفاضل العزاوى • وهو نمط من التدخل الذى لا يندرج ضمن الاقتصاد العام للنص ، والذى يتسم بعدم وظيفيته ، وبوجوده فى نص أدبى على درجة من الادعاء والسطحية والضحالة كما هو الحال فى رواية القعيد • أما النمط الثانى فهو النمط الذى تتحقق خلاله وظائف هذه الاستراتيجية النصية بوضوح ، لأنه يقدم خطابا سرديا يندرج فيه تفكير الرواية فى روائيتها ضمن اقتصاد النص كما هو الحال فى روايتى المدينى والتازى وينهض هذا التفكير بمجموعة من الوظائف الحكائية : منها ارتسام القراءة فى الكتابة ، والانزياح عن المألوف الروائى ، وخلق نص مواز يدور بينه وبين النص الأصلى جدل حوارى مستمر ، يمكن فيه التمييز بين النص وصنوه ، برغم أنهما يشغلان نفس الفضاء من حيث مجال السرد فيهما ، وذلك من خلال الانزياح عن المألوف الروائى من ناحية ، أو انزياح النص عن صنوه ، كلما بدا أنه توحد معه من ناحية أخرى • لكن الذى غاب عن هذا البحث الجميل الذى تحقق فيه قدر كبير من التوازن بين التنظير والتطبيق هو البحث فى محتوى هذه الظاهرة الجديدة ، ودلالاتها الجمالية والفكرية بالنسبة للرواية العربية المعاصرة ككل ، وكيف يمكن أن تكون مثل هذه الاستراتيجية النصية جزءا من الرؤية الروائية الجديدة ؟ وما هى المعايير التى تساعدنا على حسم تصنيفها وتحديد دورها فى النص الروائى؟ وما هى العلاقة بين هذه الاستراتيجية النصية الجديدة ومتغيرات الواقع الحضارى العربى ؟

وكان البحث الثالث فى هذه الجلسة هو بحث الكاتب المغربى عبد القادر الشاوى « مفهوم الشهادة الروائية » ، وهو البحث الذى بعث به الشاوى الى قاعة الندوة من وراء القضبان حيث يقضى سنوات سجنه السياسى • وهو بحث تطبيقى يتناول فيه بداءة الوضع الاعتبارى لمفهوم الشهادة التى يدلى بها الروائيون وعلاقتها بسوء الفهم الشائع بين الروائى والناقد • وما اذا كان سوء الفهم هذا مبررا للشهادة التى تنطوى عادة على موقف فكرى عام يخاله الروائى موضوعيا ، بينما هو فى جوهره موقف ذاتى ، لأن الشهادة لا تصدر الا عن الشاهد ، وهى لذلك صوت الأنا • ثم يعمد بعد ذلك الى تحليل شهادات عدد من الروائيين العرب الذين شاركو فى ملتقى الرواية العربية الذى عقد فى مدينة فاس قبل عدة أعوام (وهم : أدوار الخراط ، وعبد الحكيم قاسم ، وصنع الله ابراهيم ،

وعبد الكريم غلاب ، وأحمد المديني ، وخناثة بنونة) وفق خمسة مفاهيم أساسية أولها جدالي وهو النقد ، وثانيها وثالثها أيديولوجيان وهما الواقع والصراع ، ورابعها وخامسها تجنيسيان وهما اللغة والتجريب • ويستخلص من ذلك مجموعة قيمة من النتائج منها أن الشهادة خطاب موجه ، ومقصديته اعلامية لأنه يتغيا اعلام القارىء • وهي لذلك خطاب أيديولوجي له غاياته المحددة ، كما أنها خطاب متدمج له سياقه ومعضلاته البنيوية • ذلك لأنه الشهادة كخطاب تنطوى على اعادة انتاج القضايا التى تشغل النقاد والمبدعين ، وعلى مجموعة من المؤشرات المومئة الى نص الروائى المبتغى • كما أنها تعبير عن غياب نظرية عربية للرواية • وهنا يضع الباحث يده على بداية الطريق لبحث جديد نأمل أن يواصل طرح الأسئلة المتعلقة به واستقصاء اجاباتها المحتملة ولو من وراء القضبان • لكن الذى غاب عن بحث الشاوى فى هذا المجال هو أن الشهادة تنطوى عادة على اعادة انتاج قضايا نصوص الشاهد نفسه ، وتعلن عن غربته المضمرة • وهى أيضا محاولة منه لتحديد مداخل معينة لقراءة أعماله أو تصنيفها بغية رد غربة تلك النصوص •

أما جلسة الأبحاث الثانية فقد ضمت أربعة أبحاث كان أولها للناقد المغربي حميد لحمداني بعنوان «المنولوجية والحوارية فى الرواية»، وهو بحث يعتمد على تمييز الناقد الروسى العظيم ميخائيل باختين بين الرواية المنولوجية ذات الرؤية الأحادية للواقع ، والرواية الحوارية ذات الرؤية الشمولية له ، والتى يتدمج فيها ما هو واقعى بما هو لغوى • وتتحدد الرؤية المنولوجية عنده انطلاقا من العلاقة بين الكاتب والشخصية، وهى العلاقة الناجمة عن سيطرة الكاتب على الشخصية • مما يحصر وعيها فى الاطار الثابت لوعى المؤلف • ذلك لأن هيمنة الكاتب أو الراوى تتسق هنا مع هيمنة الأحادية • ومع أن الرواية المنولوجية قد توهم أحيانا بأنها ذات صيغة حوارية ، فإن التماهى بين الكاتب والراوى فيها يؤدى الى طمس معالم التوزيع المتكافىء للرؤى الأيديولوجية ، كما أن الجدل بين الرؤية السطحية ذات الصبغة الحوارية ، والرؤية العميقة ذات الطبيعة المنولوجية يحسم فيها لصالح الرؤية العميقة التى يرتبط فيها حضور الرواية بعملية تأويل الواقع العيانى والرغبة المستمرة فى الاحالة اليه والتعليق على مجريات أموره • وهذا ما يجعل دور الراوى سلبيا فيها الى حد ما بسبب واحدية التأويل وواحدية الدلالة الأشارية للنص كله • أما الرؤية الحوارية فى الرواية فانها لا تتحقق إلا عندما يحصل وعى الشخصيات على حرية كافية تمكنه من التخلص من وعى المؤلف • لأنه بدلا من السلطة المطلقة لأيديولوجية الكاتب تهيمن فيها تعددية الأصوات،

فتتسم الرواية تبعا لذلك بغنى الصراع بين الأصوات والرؤى الأيديولوجية المتناقضة : ذلك لأن الكاتب يسمح فيها أيديولوجيته فى اطار صراع مجموع الرؤى من أجل تحقيق نوع من ديموقراطية التعبير داخل الرواية. كما تتسم تلك الرواية كذلك بعرضها للحقيقة من منظورات متعددة فى لحظة واحدة . مما يؤكد نسبية الحقيقة . ويتيح للقارىء النهوض بدور ايجابى فى عملية التأويل ، وهو دور بالغ الأهمية بسبب غنى الرواية الحوارية التأويلى ، وثراء جهازها الأشارى باحتمالات دلالية متعددة . وقد قام الباحث بعد عرضه التفصيلى لسمات هذين النوعين بتطبيق هذه التفرقة على رواية (الوطن فى العينين) للكاتبة السورية حميدة نعنع ، وخلص من هذا التطبيق الى أنها رواية منولوجية . وقد كان الأجرى به أن يختار عملين أو مجموعة أوسع من الأعمال يمكنه تحليلها من الخروج من اهاب النقل عن باختين الى ابداعه النقدى الخاص بتكريس جهد أكبر لتطبيق منهج باختين بطريقة تتيح له تحقيق اضافته الخاصة . كما أن أهمية النصوص التى يستخدمها فى التطبيق هى التى تمنح النتائج مصداقيتها ، لأن ثانوية النص الذى طبق عليه توحى بأن الكاتب اختار النص الذى يمكنه من اسقاط رؤاه النقدية عليه ، وتحويله الى مركبة ميسورة لتلك الرؤى ، أو بالأحرى فهمه لرؤى باختين فى هذا المجال - كما أن عدم تحليله لنص تتحقق فيه شروط الرواية الحوارية جعل بحثه مفتقرا الى التوازن التطبيقى .

وكان البحث الثانى فى هذه الجلسة هو بحث الناقد العراقى محمد الجزائرى عن « الرواية العربية بين الرؤية والتسجيل » وهو بحث يفرق فيه الباحث بين الجانب التسجيلى فى الرواية ، سواء مال هذا التسجيل الى الوثائقية ، أم بقى فى نطاق النسخ الدقيق للواقع ، وبين ما يدعوه بمصطلح الرؤية ، وهو المصطلح الذى يشير الى تملص الرواية من تسجيليتها ، حتى ولو حافظت على وثائقيتها ، للتحليق فى آفاق الرمز التى تثرى العمل بالاحتمالات التأويلية المتعددة . وينطلق الجزائرى من هذه التفرقة الى تناول مجموعة كبيرة من الروايات العربية الحديثة التى يستخدمها للكشف عن مختلف درجات التسجيل والرؤية وتنويعاتهما فى الأعمال الروائية من ناحية ، ولتحديد طبيعة الثنائية الفاعلة بين هذين المفهومين من ناحية أخرى . وقد أثقل الكاتب بحثه بالاشارات والاحالات الى أكثر من خمسين عملا روائيا ، دون أن يمنح عملية التحليل التفصيلى جهدا يمكن القارىء من متابعة اجتهاده الخاص . كما أن عدم اتاحة هذا البحث الطويل الذى تجاوز المائة صفحة للمنتدين ، وعدم اعداد الباحث

لملخص دقيق له لقراءاته ، والاكتفاء بقراءة فقرات والقفز على أخرى ، لم يمكن المتابعين من استيعاب طروحاته أو تكوين موقف نقدى واضح منها •

أما البحث الثالث في تلك الجلسة فكان بحث الناقد السورى محى الدين صبحى «بدر زمانه : والجوازات الممكنة فى الرواية متعددة الوجوه» وهو دراسة تفصيلية لأحدث روايات القاص المغربى المعروف مبارك ربيع • يطرح فيها مجموعة من القراءات المحتملة لتلك الرواية الثرية انطلاقا من مفهوم « الجواز » الذى يفرق بين الأحداث التى يجوز أن تكون قد وقعت ، والأحداث المتوهمة داخل النص نفسه • وهو مصطلح مغاير لمفهوم « الامكان » الأرسطى لأنه لا يميز بين الممكن والواقعى ، كما يفعل المصطلح الأرسطى ، ولكن بين المتوهم والمعاش داخل عالم النص الروائى وبمنطقه • فكل ما يدور فى النص الروائى يندرج تحت لواء المتوهم اذا ما نظرنا اليه من خارجه ، لكن النظر الى تلك الأحداث من داخل منطق النص نفسه ، هو الذى يفرض على الباحث استخدام مفهوم « الجواز » الذى يحافظ فيه البطل على أشكاليته عندما نضعه فى عالم الوهم ، والذى دفعته الرواية نفسها الى استنباطه • فمن الممكن قراءتها كذلك باعتبارها ذكريات أحمد البالغ وهو يسترجع حياته فى السجن ، ومن الممكن قراءتها كذلك على عدة وجوه أخرى ، لأنه ليس بها أى مقياس يمكننا به فرز الواقعى من المتوهم • ذلك لأن مستويات الحدث الثلاثة بها وهى المستوى الواقعى ، ومستوى الكوابيس ، ومستوى الحكاية الشعبية مستويات يمتزج فيها الواقعى بالخيالى ، وتعادل فيه قوة الخيالى وتأثيره قوة الواقعى وتأثيره • ومن هنا يعيد الباحث دراسة النص وفق مجموعة من البؤر التى تتيح له ابراز فاعلية الجدل النصى بين الحكاية الشعبية ، وحكاية البطل « أحمد » (وهو الجدل الذى لا نعرف فيه أى الحبكتين هى الحبكة الرئيسية ، وأيهما هى الحبكة الثانوية) • وتلك البؤر هى بؤرة السرد الذاتى ، وبؤرة السرد النفسى ، وبؤرة السرد الجمعى • ومن خلال هذه البؤر الثلاث يبدو غنى الرواية وانفتاحها على مجموعة من القراءات والاحتمالات التأويلية المتداخلة ، وهى احتمالات كان يمكن أن تزداد ثراء لو طرح الناقد أكثر من مدخل للتعامل معها ، ولو طامن من اغراقه فى مقتربات المنهج النفسى فى تعامله واياها •

أما آخر أبحاث تلك الجلسة فكانت دراسة الباحث المغربى منيب البوريمى عن « الفضاء الروائى فى روايات عبد الكريم غلاب » وهى دراسة تطبيقية لروايات هذا الكاتب المغربى من منطلق الفضاء الروائى الذى يحدده الدارس منذ البداية بأنه تصور مفهومى وليس مكانا متعينا • اذ يتجاوز معناه اللغوى كمكان جغرافى مشترك ومحايد ، ليغزو مجموعة

من المجالات المعرفية المختلفة التي لا يعني فيها الفضاء المكان الواقعي الفني المشترك أو المدرك ، بقدر ما ينطوي على المكان في الزمان ، حيث لا يمكن الفصل بين المادة والحركة ؛ ان مفهوم الفضاء هذا هو بنية تصورية ذهنية حاملة لعناصر غير متجانسة وليس لديها امكانية التواصل • ولهذا فانه المفهوم القادر على استيعاب الكثير من سمات العالـم الروائي في تصور الباحث • ومن هنا ينطلق منه في دراسة تفصيلية لروايات الكاتب المغربي غلاب من هذا المنظور الخاص للفضاء الروائي • دون أن نعرف اذا ما كان مشروعه مجرد دراسة لجزئية من جزئيات عالم هذا الكاتب المغربي ، أم أنه طرح بديل لأي تناول نقدي آخر لهذا العالم ؟ وهل يستطيع هذا المدخل أن يكشف لنا عن كل أبعاد هذا العالم الذي يتسم بشيء غير قليـل من التقليدية ؟ وهل يمكن حقا الفصل بين الحساسية النقديـة الجديـدة وخاصة مناهجها المتطورة في التناول ، وبين الحساسية الأدبية التي تصدر عنها الأعمال الأدبية نفسها ؟ هذه هي بعض الأسئلة أو بالأحرى بعض الاشكاليات التي يطرحها هذا البحث •

هذا وقد تضمنت جلسة الدراسات الثالثة هي الأخرى أربع دراسات كانت أولها دراسة كاتب هذه السطور « الرواية والواقع : دراسة في تغير قواعد الاحالة الأدبية » وهو بحث يطمح على الصعيد النظري الى بلورة مجموعة من القوانين والمحددات المستقاة من مسيرة الرواية العربية للتعرف على طبيعة التغيرات التي انتابت قواعد احالتها الأدبية الى الواقع الحضاري الذي تصدر عنه • وحتى يتعرف البحث على طبيعة التغيرات التي انتابت العلاقة بين النص الروائي الذي يصدر عنه ، لجأ الى خلق علاقة تناظـر وتوازن بين ثلاث مجموعات من المتغيرات تنقسم كل مجموعـة منهـا الى قسمين أو بالأحرى مرحلتين منفصلتين وان كان بينهما شيء من التداخل• وأولى هذه المجموعات الثلاث هي مجموعة التغيرات الحضارية بما في ذلك التاريخية والاجتماعية والنفسية والقومية ، وثانيها هي مجموعة المتغيرات المتعلقة بموقف الكاتب من تراثه النصي ، ووعيه بهويته وهويـة النص الذي يبدعه ، وبنوعية الحوار الذي يجريه النص الروائي مع هذا التراث، سواء أكان هذا الحوار بالقطيعـة أو بالاندمـاج الكامل فيه • وثالثها مجموعة المتغيرات الفنية المتعلقة بطبيعة الاستراتيجيات الفنية ، ودلالات الشكل ، والوظائف الفنية المختلفة التي يستخدمهـا الكاتب في نصـه الروائي • وتبدأ الدراسة بالتعرف على التغيرات التي انتابت هذا الواقع العربي على الصعيد المعرفي الذي ينطوي على البعدين التاريخي والأيديولوجي على السواء • ويلاحظ في هذا المجال أن هذا الواقع الذي ساد تاريخيا منذ بدايات عصر النهضة وحركة الاحياء ، وحتى نكبة ضيـاع فلسطين

التى جاءت فى أعقاب الحرب العالمية الثانية ، اتسم بما يمكن دعوته بالرؤية الريفية أو التقليدية للعالم • أما المرحلة الثانية ، والتى تمتد منذ الحرب العالمية الثانية وحتى اليوم ، فانها تتسم بما دعاه بالرؤية الحضرية أو الحديثة للعالم ؛ وهى الرؤية النابعة من تعدد المناخات الثقافية ، والغياب النسبى للتجانس الثقافى الناجم عن تفتت الواقع الاجتماعى ، وتجزئته ، وتعددية أنساقه التى غاب عنها تكامل المجتمع التقليدى النسبى • وعلى المستوى القومى يجد الباحث أن هذا الاختلاف بين هاتين الحالتين من الوجود الاجتماعى أو من ادراك الذات المعرفى لنفسها وللعالم من حولها ، يناظره اختلاف آخر على المستوى العربى وان تأخر عنه نسبيا من الناحية التاريخية • وهو بشكل عام الاختلاف بين الواقع العربى الواقع تحت السيطرة المباشرة للقوى الاستعمارية والأجنبية ، وبين واقع ما بعد الاستقلال بتناقضاته الاجتماعية والسياسية المختلفة •

ثم ينتقل بعد ذلك الى تناول المجموعة الثانية من المتغيرات المتصلة بعلاقة الكاتب والنصوص الروائية العربية المكتوبة فى المرحلتين ، بتراثهما النصى من ناحية ، وبواقعهما الحضارى من ناحية أخرى • وقد اتسمت المرحلة الأولى فى هذا المجال بالنزوع الى تأسيس مجتمع عصرى على أساس النمط الغربى الذى كان مزدهرا وقتها الى حد كبير ، أو على الأقل كانت هذه هى صورته التى تنعكس على مرايا الذات العربية المتطلعة الى النهوض ببرنامجها التحديثى الطموح • وأدى هذا على صعيد البنية الأدبية الى تأسيس النماذج الأولى للرواية العربية على غرار نماذج غربية معروفة حتى فى بعض الأحيان للقارىء العربى من خلال الترجمة • أما فى المرحلة الثانية فقد أصبح الحوار مع النص التراثى ضرورة ملحة بعد افلاس المشروع الحديث • وبعد ان أخذت مسألة تأسيس المجتمع العصرى تنحو صوب الاهتمام بالخصوصية وابراز أوجه الاختلاف فى المشروع الحضارى كله • وأصبح تعميق الوعى بالتراث ، الشفهى منه والمكتوب ، ضرورة أساسية لأن اشكال الكتابة الأدبية الحديثة وصلت الى قلب المؤسسة التقليدية • و تنفصل طبيعة الحوار مع النص التراثى عن أشكالية هوية النص الروائى الجديد ، ومدى وعى الكاتب بدوره فى واقعه ، ودور عمله فيه • ومن هنا انطلق النص الروائى الواثق من حدود هذا الدور فى رحلة طويلة لتأسيس ما يمكن تسميته بقواعد الاحالة التقليدية ، بكل ما يتصل بها من تقاليد ومواضعات أدبية فى نصوص المرحلة الأولى • ثم ارتد على عقبيه فى المرحلة الثانية وقد أثقلته أسئلة الشك فى كل الرواسى والثوابت لينقض كل ما رسخته قواعد الاحالة التقليدية من مواضعات ، وليبدد كل ما قدمته من مصادرات • وبدأت تلك التساؤلات فى التغلغل

في بنية النص الروائي الجديد ، حتى أصبح من العسير على أسلافه الاقربين التعرف على ملامحه وقد انتابتها مجموعة كبيرة من التغيرات والتحورات . لان الشك في الدور ما لبث أن أدى الى تغيير مفهوم الهوية نفسه .

وبعد هاتين المجموعتين من المتغيرات ينطلق البحث بعد ذلك لتناول موضوع قواعد الاحالة وعلاقة النص بالواقع ، معتمدا في هذا المجال على تفريق رومان ياكبسون الشهير بين البنية الأساسية التي تنهض عليها الكناية ، والبنية الأساسية التي تصوغ أسس الاستعارة . ولكنه يطور فكرة ياكبسون ويخرجها من اطار اللغة والصيغة البلاغية الى مجال التصنيف والتأريخ الأدبي ، واصلا في ذلك الى عدد من المقولات الأساسية وهي : (١) أن الحساسية الأدبية تغيرت مرتين على مدى تاريخ الأدب العربي الحديث . (٢) أن هذا التغير انتاب كل أشكال الكتابة ، لأنه تغير في جوهر الرؤية من هنا فهو عابر للأجناس والأشكال الأدبية . (٣) أن جوهر التغير كامن أساسا في مسألة علاقة النص بالواقع ، وقواعد احالته له . (٤) الحساسية الأولى أو التقليدية تنهض على أساس علاقة النص الكنائية بالواقع ، حيث يتصور النص نفسه جزءا من هذا الواقع ، أو امتدادا لفظياله ، واستمرارا موقفيا لصورته وتصوراته . (٥) أن الحساسية الجديدة أو الحديثة (وهي من الحداثة بمفهومها المعروف) تنهض على أساس العلاقة الاستعارية بالواقع ، حيث هناك درجة عالية من الانفصال والاستقلال النسبي بين طرفي الاستعارة : النص : الواقع . وكلما ازدادت درجة التباين بينهما كلما برزت وتبلورت عملية الجدل المستمر بين العالمين .

ثم تنتقل الدراسة بعد ذلك الى المجموعة الثالثة من المتغيرات التي تعقد بينها مجموعة من علاقات التناظر والتوازي ، وهي المتغيرات الفنية التي تتعلق بطبيعة الاستراتيجيات النصية ، أو ما دعاه الباحث بالمحتوى الدلالي للشكل ، ودوافع الأدوات الفنية التي يستخدمها الكاتب في نصه الروائي . وتميز في هذا المجال بين ما تسميه بالكتابة الروائية التقليدية، وما تدعوه بالكتابة الروائية الحديثة ، أو ما يسميه أصدقاؤنا المغاربة بالخطاب الروائي الحداثي . لتخلص من عملية التقابل التفصيلية بين مجموعة أساسية من العناصر الروائية الى وجود تغير أساسي في قواعد الاحالة بين هذين النوعين من الكتابة . من حيث الفضاء الروائي ، ومن حيث المنطلق ، ومن حيث الشخصية الروائية ، ومن حيث البنية الروائية، ومن حيث اللغة الروائية وتتناول هذه التغيرات بشيء من التفصيل .

وكانت الدراسة الثانية في هذه الجلسة هي دراسة الباحث المغربي سعيد يقطين « صيغ الخطاب الروائي وأبعادها النصية » ، وهي دراسة تنطلق من التحليل اللغوي للنص الأدبي ، مفترضة أن انزياح الرواية الجديدة عن تقنيات الواقعية التقليدية يتطلب اهتماما خاصا بصيغ خطابها ، والبحث عن وظائف السرد الجديد في النص • ذلك لأن هيمنة صيغة السرد الواحدة في الرواية التقليدية ، قد تحولت الى تعددية الأصوات في الرواية الحديثة وهي ظاهرة لابد من التريث عندها لمعرفة أسبابها قبل الانطلاق الى البحث عن أشكال السرد المتنوعة وصيغ الخطاب التي تغطي الجانب اللغوي وتهتم بدراسة السياق وتناول أنواع السرد المختلفة من منطلق لغوي ونحوي ، أما أبعاد تلك الصيغ النصية التي يشير اليها العنوان فهي التي تهتم بالجانب التناصي في عملية الكتابة ، وبالرغم من اسهاب الباحث في تقديم مسح نظري موسع لاستقصاءات النقد الغربي في هذا المجال ، واغراقه في تقديم تقسيمات شديدة التخصص ، فان الجانب التطبيقي الذي عمد فيه الى تحليل فقرتين من « الزيني بركات » هو في حقيقته مقاربة في التعرف على الفرق بين السرد والغرض • يوظف فيه الباحث النص في خدمة التنظير النقدي ، وليس العكس • لأن النظرية لا توضح لنا خصوصية النص • وربما كان له العذر في ذلك ، لأن النص الذي استخدمه لا يمكن بأي حال من الأحوال اعتباره رواية حديثة • ليس فقط لأن الخاصية الأولى للرواية الحديثة • وهي تعدد لغات السرد غائبة منه كلية ، اذ يتسم على صعيد اللغة بالثبات والرتابة ، ولكن أيضا لأنه يقع في نطاق ما يعرف في الانجليزية باسم Parody والتي يمكن ترجمتها بـ « الاستنساخ » وهي عملية التقليد والمحاكاة لنص سابق ، بغية ركوب دلالاته وتوظيفها لابلاغ رسالة محددة • ومن هنا جنى استخدام مثل هذا على مشروع يقطين النظري وأوهن من قيمة استقصاءاته النقدية • كما أن الظاهرة التي استدعت الاهتمام بصيغ الخطاب ، وهي تعدد الأصوات داخل النص الروائي غير متحققة في العمل • صحيح أن يقطين برهن على أن لغة هذا العمل تنتمي الى لغة الأخبار التقريرية ، لا لغة القص والتجسيد الأدبية ، الا أن اختياره لهذا النص لم يخدم فكرته الرئيسية عن تعدد صيغ الخطاب ووظيفيتها •

أما الدراسة الثالثة فكانت دراسة الكاتب الفلسطيني نواف أبو الهيجاء « اشكاليات الرواية الفلسطينية خارج الأرض المحتلة : اشكالية

المكان » وهى كما يقول الباحث جزء من دراسة ضافية لاشكاليات الرواية الفلسطينية عموما يكتفى هنا بتقديم اشكالية واحدة منها هى اشكالية المكان • وهى اشكالية يفرضها على الباحث نزوع الفلسطينى العميق الى الاستقرار فى المكان ، وطلبه الدائم للمكان الثابت ، ومعاناة الكاتب الفلسطينى من عملية الاقتلاع • انه كاتب محروم من فضائه الجغرافى الخاص ، ومن هنا يصبح المكان عنده قضية قبل أن يكون فضاء ، وتصبح الحركة فى الزمان تشبثا بالمكان ، واستحضارا له • ويصبح اندماج الذات فى الموضوع ظاهرة أساسية فى الكتابة الفلسطينية التى لا تستطيع التعامل مع ترف الانفصال عن موضوعها اذ يكفيها أنها انفصلت عن أفقها ومكانها • ومن هنا يلاحظ الباحث أن الزمان الفلسطينى محسوب جماعيا لأن الافتقار الى المكان يدعم الوحدة بين الروائى والشعب الذى يعبر عنه ، علها تنوب عن ذلك المكان المفقود ، أو تهب الكاتب نوعا جديدا من الرواسى والمرتكزات التى لا غنى عنها فى الانطلاق الى العالم • كما أن هذا الاحساس العميق بالافتقار الدائم للمكان يرهف حدة العلاقة بين المكان الطبيعى والمكان المفترض ، ويجعل العالم الروائى هو القضية • وبالرغم من صحة هذه الملاحظة كمنطلق لدراسة اشكالية المكان باعتبارها احدى الاشكاليات الهامة والفاعلة فى الكتابة الفلسطينية ، فان الباحث لم يكشف لنا ، على الأقل فى العرض الموجز الذى قدمه لبحثه ، عن تميز معالجة الرواية الفلسطينية للمكان من ناحية التناول الروائى لا من حيث الموقف الفكرى ، وعلى السمات التى تميزها فى هذا المجال عن غيرها من النصوص الروائية العربية التى أولت المكان عناية خاصة • ولو استطاع الباحث أن يبلور استراتيجيات التعامل مع المكان فيها • ودلالات مختلف تلك الاستراتيجيات النصية لأضاء لنا جانبا هاما من جوانب هذا الابداع الروائى المتميز •

وكان آخر أبحاث تلك الجلسة بحث القاص المغربى مبارك ربيع « حول سؤال الحداثة فى الرواية العربية » وهو بحث أقرب ما يكون لشهادات المبدعين بالرغم من اغراقه الظاهرى فى الجانب النظرى • انه يطرح سؤال الحداثة : ما معناها ؟ وما هى المظاهر التى تتخذها ؟ وكيف يتحقق انفتاحها على صيغ الحياة الاجتماعية بصورة مستمرة ؟ ويرى الباحث أن تفتح النص بصفة عامة على الحياة ، وقضايا المجتمع هو مظهر الحداثة الطاغى • حيث تجد الرواية مرجعيتها فى مجتمعها • وتوظيف الفعاليات الروائية المختلفة فى التعبير عن ايديولوجيتها والتزامها وانحيازها لأحلام وهموم القطاعات العريضة من شعبها • ذلك لأن ماهية الرواية العربية فى رأيه سابقة على وجودها ، فقد تحدد لها دور ووضعت لها غاية

قبل أن توجد . ومن هنا فان الحداثة عنده ، هى صنو الاقتراب الحميم من تحسس نبض الواقع والتعبير عنه ، وهى نقيض التجديد الذى يتخذ فى بعض الأحيان مظاهر بهلوانية . لأن تجديد الحداثة تجديد غائى ، يكتسب مشروعيته من غائيته . ومن هنا فان البحث فى الرواية الحديثة مادامت قد حققت شرط حداثتها هنا لابد أن ينصب على مجتمع الرواية لا رواية المجتمع . لأن الرواية مجتمع له قوانينه الخاصة المغايرة كلية لقوانين المجتمع الخارجى ، كما أن لها سيكلوجيتها الخاصة المتميزة ، والتى لا يمكن معها الزعم بأى حال من الأحوال بأن تناقضات الرواية هى تناقضات الحياة الاجتماعية .

أما الجلسة الرابعة فقد ضمت ثلاثة أبحاث كان أولها بحث الناقد السورى خلدون الشمعة « المثاقفة باعتبارها وعى الحداثة : نموذج ثائر محترف » الذى ينطلق من مناقشة اشكالية مفهوم المثاقفة ، وكيف يمكن أن تكون تعبيرا عن وعى بالحداثة ، وهل يمكن البحث فى حداثية عربية من خلال تعاملها مع الآخر ؟ وحتى يجيب على هذين السؤالين فقد اختار تحليل رواية مواطنه مطاع صفدى « ثائر محترف » على نحو يستجيب لتلك الاشكالية ، فى محاولة للاجابة على سؤال ثالث : هل نعتبر مرجعية العصر شرط المعاصرة ؟ وبالتالى هل نعتبر المثاقفة جزءا من حصيلة الوعى بعصرنا الراهن ؟ ويميز الباحث فى تحليله ذلك بين ثلاثة مستويات مختلفة من مستويات تلك العلاقة وهى : مستوى الانعكاس المتمثل فى استخدام المعاجات الفلسفية الوجودية فى الرواية ، ومستوى التفاعل بين ثقافتين، واتصاله بعناصر الأداء الفنى من تقنيات وثيمات ، ومستوى التأثر واتصاله بتأسيس علاقة هامة فى مجال البحث المعرفى داخل النص . وتعتمد الدراسة فى تناولها للرواية على مجموعة من الملاحظات المتعلقة بمدى تحقق تلك المستويات المختلفة فيها ، وبمدى المبررات التى تدفعها الى وضع كاتبها فى سياق التفكير الوجودى . حيث يتعامل مع الشخصية كسد . ويحقق سديمية الرواية التى تتخلى فى خلوها من ارقام أو عناوين للفصول ، وخضوعها لجزافية المزاج الروائى فى خلق اللحظة . كما تتجلى وجودية الرواية عنده فى استخدامه للفعل المضارع زمنا لغويا وتاريخيا وفى اعتماده على الشكل الدائرى للتاريخ الذى تتحقق به فكرة نيتشه عن العود الأبدى . ويميز الباحث كذلك فى الرواية بين ثلاث دورات : ذاتية ، وجنسية ، واجتماعية ، ضمن اطار الصراع الملحمى الذى تؤكد فيه الرواية توقه الرومانسى الى مسألة الكشف الفورى ، وهى مسألة تتحاور فى النص مع تقنية البطل حامل النمى لتحقيق نوع من التماهى بينهما بطريقة تتسم بتلك الجدلية الثرية بين الذات والحد الوجودى .

وكان البحث الثاني في تلك الجلسة هو بحث الدكتور سعيد علوش « الوظيفة اللغوية في الرواية المغربية » الذي لابد أن تقرأ فيه لغوية العنوان على أنها مستقاة من اللغو وليس من اللغة . وهي توجهة لاحدى الوظائف الست التي يحددها رومان ياكوبسون في تناوله لوظائف اللغة التوصيلية المختلفة ، وهي الوظيفة التي لا تقوم فيها اللغة بتوصيل رسالة محددة ، وانما تقوم من خلال انعدام الرسالة ذاك يخلق نوع واه من التواصل ككليشيهات التحايا اليومية وبعض اللزمات الشخصية التي لا معنى لها . وينطلق البحث من افتراض أن الكتابة الروائية تنتج من الذاكرة الجمعية ، ومن استدعاءات الأسلاف ، ومن كثير من مكونات الوعي الجمعي والأدبي ، التي تناول بعضها بشيء من التفصيل بيير ما شري في « نظريته للانتاج الأدبي » وميشيل فوكو في دراسته الشائقة « ما هو المؤلف ؟ » . ويختبر افتراضه ذلك من خلال تناوله لهذه الوظيفة الخاصة للغة في رواية أحمد المديني (الجنازة) التي يتنصل فيها الراوي بداءة من الرواية معلنا لا مصداقية معرفته بوقائعها وبالتالي روايته لتلك الوقائع، ويلعب في الوقت نفسه دور « شاهد عصر ينفتح على وهم عصرنة الدولة وأنماط التحديث اللامشروطة منها والمشروطة » كما يختبره كذلك من خلال تناول وظيفة أخرى في قراءته لتلك الرواية هي الوظيفة المرجعية والمعرفية للغة . متوخيا عبر هاتين الوظيفتين ابراز بعض المكونات الأساسية في (الجنازة) وفي الرواية المغربية بشكل عام . ويحدد في هذا التحليل مجموعة من الاستراتيجيات المستخدمة في الخطاب الروائي ، من التكرار الى الخطاب الاستنساخي التمويهي ، الى التكرار المعجمي ، الى تقنية المرآة المشروخة ، الى التدخل التقريري ، الى عملية القلب البسيطة منها المركبة .
ويخلص من هذا كله الى مجموعة من النتائج أو الملاحظات الهامة على بنية الرواية ووظائف أدواتها النصية . منها أن اعتماد الرواية على المنولوج الداخلي ، كخطاب تداعيات ، يشكل نوعا من المعارضة اللغوية للخطاب الرسمي ، والتخلي عن البطولة واستبدالها بالأدوار اللغوية ، واختلاق صراع بين السارد والروائي ، والاعلان عن لاجدوى الكتابة ثم الانخراط في فعلها الابداعي ، وادانة الواقع الجنائزي للاغتيال في شكل بيان روائي نقدي ، وتدخل الناقد في المؤلف لحسم عجز الروائي عن ايجاد انسجام داخلي لنصه ، والايهام بتصفية الحساب مع الشكل القديم ، والمزج بين انفعالية الشعرية ولامنطقية النثرية المكسرة للغة ، واستخدام التكريس الطقسي النابع من التكرار لصرف الانتباه عن المحتوى السياسي الشائك للرواية وغير ذلك .

أما البحث الأخير في تلك الجلسة فكان للناقد المغربي بشير القمري عن « دينامية الشكل في روايات عبد الله جبير » وهو بحث يفترض أن

ما يسميه بدينامية الشكل ، أى تغيره وتحركه المستمرين ، من سمات الحداثة فى الرواية العربية • ولذلك يختار لبحثه نصين من العربية الحداثية هما روايتى الكاتب المصرى عبده جبير (تحريك القلب) و (سبيل الشخص) • ليبرهن عبرهما على أن الرؤية الحداثية تفترض دينامية الشكل ، لأن الشكل فيها جزء أساسى من محتوى الموضوع ذاته ، ولأنهما يثيران نفس القضايا التى يمكن أن تطرح فى نطاق الكلام المسكون بالأسئلة • وحتى يكشف عن دلالة الشكل فى هاتين الروايتين فانه يقترح أن من حق أى ناقد أن يختار مرجعه المنهجى ، شريطة أن يوافق ذلك الأسئلة المثارة • ويكشف تحليله عن أن (تحريك القلب) مسكونة بهاجس الحداثة الشكلية ، بينما تحترم (سبيل الشخص) صيرورة تقليدية ما ، ولذلك تعمد الرواية الأولى الى تدمير الشكل الكلاسيكى ، وتهتم بالجانب التوزيعى للكتلة النصية ، بينما تحاول الرواية الثانية الوقوف عند حدود الرؤية المحايدة • ولذلك تنطوى الرواية الأولى على وجود وعى قصدى باستاطيقية الكتابة ، وتنهض على أساس تعاقبى يعتمد على التقطيع والتشطير والشذرات التى يمكن أن يكون بينها تلاقح عضوى، يتم أساسا بالتأشير على الفضاءات طارحا مسألة العلاقة بين الكتابة الروائية والكتابة السينمائية • أما الرواية الثانية فان قراءتها تطرح على الناقد تجنب الاهتمام بالتشكيلية كما فى الرواية الأولى ، والتركيز على المحايثة ، والاهتمام بالكيفية التى ينتقل بها ضمير الأنا بالتدريج من الحالة الفردية ليصبح صوتا للتعبير الجمعى ، ومن هنا كشفت الدراسة عن امكانية وصول التحليل الى بعض النتائج التى تؤكد أن للشكل الروائى نفسه محتواه الخاص الذى يثرى الرؤية والموضوع •

وتبقى بعد ذلك جلسة الأبحاث الأخيرة التى ضمت ثلاثة أبحاث كان أولها بحث الناقدة العراقية اللامعة فريال جبورى غزول « الرواية الشعرية فى الأدب العربى » وهو بحث يهدف الى تأسيس بيوطيقا جديدة للابداع والحداثة • تأخذ فى اعتبارها الثورة الجمالية الجديدة التى جعلت قلب المعايير معيارا هاما فى حد ذاته • وفى نطاق هذه البيوطيقا الجديدة تقدم تصورها للرواية الشعرية التى تتلاقح فيها الرواية بأجناس أخرى كالدراما والشعر وتصبح ساحة لاصطراع الأجناس الأدبية المختلفة ، راصدة فى هذا المجال آليات تسلل الوهج الشعرى الى بنية النسيج الروائى العربى ، وذلك من خلال تحليلها لثلاث نماذج روائية أولاها من مصر وهى رواية (الزمن الآخر) لادوار الخراط ، وثانيتها من لبنان وهى (أبواب المدينة) لألياس خورى وثالثتها من المغرب العربى وهى (حدث أبو هريرة قال) للكاتب التونسى محمود المسعدى • وترى أنه مع أن العلاقة بين الشعر والسرد

قديمة ، فان الرواية الشعرية تتميز بتلاحم السرد فيها بالغنائية ، فهي بالدرجة الأولى قصة تستخدم بعض الوظائف الشعرية بينما الشعر القصصي شعر له وظيفة خبرية • ذلك لأن الوظيفة الشعرية في تلك الرواية نابعة من تمحور النص على ذاته تمحورا جماليا وانشغاله بنسيج اللغة ومع أن القص بطبيعته تعاقبي والشعر بالضرورة مقطعي ، فان الرواية الشعرية العربية استطاعت أن تحقق تفاعل القص والشعر دون أي صراع بينهما ، وكأن الشعر يرهف البنية القصصية بينما يرهف القص الدفقة الشعرية ويطيل نفسها • وتحدد الباحثة المقومات الأساسية للرواية الشعرية وتجلياتها المختلفة في النصوص التي اختارت تحليلها • ومن أبرز تلك المقومات ما تدعوه بالتواري الخبري ، أي انزواء الوظيفية الخبرية في أعماق النص وذاكرة المتلقي • ومنها كذلك استقلال الفصل ، وتذبذب وجهة النظر ، وتمازج الضمائر السردية بين المتكلم والغائب ، واضفاء البعد الأسطوري على الشخصية ، والمزج بين ما قاله البطل وما هم أن يقوله ، ولم يقله ، والتواصل الحميم مع التراث ، وغير ذلك من السمات العامة ، التي لا تنفي تمايز كل نص من نصوص هذا النوع من الروايات عن غيره من النصوص الأخرى وتفرد منطلقاته اللغوية والرؤيوية معا •

وكان البحث الثاني في تلك الجلسة للكاتب المغربي محمد عز الدين التازي « لعبة السرد في رواية الوجوه البيضاء لألياس خوري » وهو بحث ينشغل بأسئلة الحداثة ، ويسعى الى التعرف على الحدود الفاصلة بين الرواية التقليدية والرواية الجديدة ، ولكنه يؤثر أن يحقق ذلك من منطلق المتعين ، ومن خلال التركيز على نص روائي محدد • ويطرح هذا النص عليه بداءة اشكالية القراءة : هل يقرأ الرواية باعتبارها رواية بوليسية ، لأنها رواية بحث عن قاتل ؟ أم باعتبارها رواية لتعدد وجهات النظر بسبب تعدد الأصوات وشهادات الشخوص بها ؟ أم باعتبارها رواية عن حرب بيروت ؟ ومن خلال الاهتمام بعملية السرد ، وزمنه ولغته ، يختبر الافتراضين الأولين ويرفضهما واحدا بعد الآخر • ثم يتابع نظام تبلور السرد في الرواية ليكتشف أنه بتمحوره حول حادثة القتل في الظاهر ، ولكنه يتركز في العمق على فضاء الحرب • لأن تنظيم الرواية للسرد عن طريق تناسل الأحداث ، ولأن القراءة التي تعيد ترتيب تلك الحوادث تعاقبيا تشيران الى أنه ليست هناك حكاية أساسية في الرواية • وأن مقتل بطلها ليس الا حيلة ايهامية لتقديم الموضوع الرئيسي فيها وهو الشهادة اليومية على حرب بيروت ؟ ويدعم هذا التصور أن اللعبة السردية في النص تلجأ الى استعمال التكرار ، وتحول من خلاله بطلها المحدد الى تجل من نوع خاص للبطل الجمعي الجديد • ومن هنا يجد الباحث أن لعبة السرد في النص هي في الواقع لعبة المعنى فيه •

أما آخر أبحاث الندوة فكان بحث الناقد المغربي ابراهيم الخطيب « ملاحظات حول تخلق لعبة النسيان » وهو بحث ينطلق من ملاحظة الكاتب غياب الدراسات التي تهتم بعملية التخلق من ساحة نقد الرواية العربية . ويعتمد الكاتب على بعض التصريحات التي أدلى بها الكاتب والناقد المغربي الكبير محمد برادة مؤلف هذه الرواية الجميلة الشائقة (لعبة النسيان) بأنه كان يفكر في كتابة هذه الرواية منذ اثنتي عشر سنة ، للزعم بأن مجموعته القصصية الأولى ، (سلخ الجلد) التي كتبت قصصها في نفس الوقت الذي كان يفكر فيه في كتابة الرواية ، هي الرحم الذي خرجت منه الرواية . لأن معظم عناصر السرد ، وبعض خيوط المحكي متوفرة بهـا . ويتناول البحث ثلاثة مستويـات يبرز من خلالها مسألـة التخلق وهي : مستوى السرد ، ومستوى اللغة ، ومستوى الرؤية (رؤية العالم) . ففي المستوى الأول يجد أن ثمة حدثا أساسيا يروى في قصة « سلخ الجلد » ثم يظهر مرة أخرى في الرواية ، وفي المستوى الثاني يلاحظ أن ترجمة الدارجة إلى الفصحى في بعض أقاصيص المجموعة قد تحولت الى توازي المستويين في الرواية ، حيث نجد أن اللغة الدارجة هي لغة الشخصيات المستدعاة من الذاكرة ، وأن اللغة الفصحى المنطوقة لغة مستهجنة مليئة بالأفكار ولكنها لا تخلق عالما بحيوية وتوهج العالم المتذكر . أما مستوى الرؤية فانه يجد أن الرؤية السائدة في الرواية ، وهي رؤية العالم من خلال عملية تدهور يعقبها أفق مفتـوح لاحتمالات حيـاة جديدة ، تجد بذورها الجنينية في قصة « بعد الظهر على الأسفلت ذات مساء » التي تزاوج بين الإنهيار الاجتماعي والأفق المفتوح للتغير ، لكن الرواية تضيف الى هذه الرؤية أن العالم الجديد الطالع من رحم الأفق المفتوح عالم هجين غير أصيل ينطوي لحظة تخلقه نفسها على بذور دماره القاتلة . وبرغم المجهود الجميل في تتبع أصول النص والكشف عن عملية تخلقه يبقى السؤال مطروحا ، ماذا يقـدم لنا هـذا التتبع ؟ وكيف يسـاهم في اضاءة النص موضوع الدراسـة ؟

من خلال هذه الأبحاث جميعا ومن خلال الجدل الثري الذي دار حولها استطاعت الندوة أن تطـرح من الأسئلة أكثر مما قدمت من أجوبـة . وصاغت عبر أسئلتها جميعا تلك الرغبـة الحادة في بلورة طريقـة لرأب الصدع بين التحليل التطبيقي للرواية العربية والاستقصاء النظري الموجه له ، بالصورة التي تبدو معها وكأنها فاتحة لسلسلة من الاستقصاءات التي نرجو لها ان تتبلور في ملتقيات قادمة .

الرباط نوفمبر ١٩٨٧

● السفر الخامس عشر

خصوصية العقل العربى .. ماهيتها وقضاياها

استضاف النادى العربى فى لندن مؤخرا الكاتب والمفكر المغربى المعروف الدكتور محمد عابد الجابرى ، أستاذ الفلسفة بجامعة محمد الخامس بالرباط ، ليلقى محاضرة عن موضوع شائق ومهم وهو (خصوصية العقل العربى) • وقد اسعدنى الحظ بحضور هذه المحاضرة التى تثير مجموعة كبيرة من قضايا الفكر العربى وشجونه • والواقع أن كتابات الجابرى قد أثارت الكثير من الاهتمام منذ أن نشر رسالته التى حصل بها على درجة الدكتوراه بعنوان (العصبية والدولة : معالم نظرية خلدونية فى التاريخ الاسلامى) • ومنذ أن تعاقبت كتاباته الهامة بعد ذلك لتثبت أن رسالته للدكتوراه ليست نهاية المطاف ، كما هو الحال بالنسبة للكثير من كتابنا وباحثينا الذين استناموا الى دعة الكسل العقلى ، وأراحتهم طمأنينة المنصب من عناء البحث ومعاناة قلق الأسئلة • فقد ظل الجابرى مشغولا فى كتاباته التالية (نحن والتراث) ١٩٨١ و (الخطاب العربى المعاصر) ١٩٨٢ ثم مشروعه الكبير عن نقد العقل العربى الذى بدأه بـ (تكوين العقل العربى) ١٩٨٤ وتبعه بـ (بنية العقل العربى) ١٩٨٦ والذى سيكمله بكتابه القادم (بنية الخطاب السياسى) بهاجس البحث الدائم وقلق التساؤلات المعرفية الذى لا يشبع • لأن السؤال المعرفى الذى يشغل الجابرى بالدرجة الأولى وهو ماهية بنية العقل العربى لا يقنع بالاجابات السهلة ، وانما يسعى دائما الى تمحيص السؤال ، واعادة طرحه على عدة أوجه • فطرح السؤال عنده لا يقل أهمية عن الوصول الى جواب فى عالم سرعان ما تفقد فيه الاجابات البسيطة مصداقيتها •

مشروع فكرى

وتكتسب تلك المحاضرة أهميتها من أنها كانت محاولة لتلخيص مشروع الجابرى الفكرى الطموح ، وهو تلخيص واف لأن صاحب المشروع نفسه هو الذى قام به • ولأن مشروع الجابرى الفكرى مشروع كبير بكل معنى الكلمة فانه يثير ، كغيره من المشروعات الكبيرة الجادة ، العديد من

القضايا ويطرح كثيرا من التساؤلات • وقبل الحديث عن هذه القضايا والتساؤلات ، سأعرض أولا لتفاصيل مشروع الجابرى الفكرى الذى استغرق عشرين عاما من حياته العلمية كما طرحه علينا فى لندن • ثم أدخل بعد ذلك فى حوار معه • وقد بدأ الجابرى عرضه بالربط بين خصوصيات العقل العربى والوضع العربى باعتبار أن هذا المنطلق هو المدخل الرئيسى للبحث عن طريق التجديد التى آن الأوان للمضى فيها : تجديد العقل والوضع معا • فخصوصية العقل العربى هى جزء لا يتجزأ من خصوصية الوضع العربى الراهن•هذا الوضع الذى يصفه الجابرى بأنه فترة انتقال تبدو فى وعينا وكأنها طالت أكثر من اللازم•هى فترة طال فيها الصراع بين القديم والجديد وطالت فيها آثار هذا الصراع المرير الذى تحول الى نوع من تعايش النقائض ، والى شىء من الازدواجية التى طبعت العقل العربى بثنائيتها المشحونة بالنقائض • فاذا ما نظرنا حولنا سنجد أن تلك الثنائية تتجسد فى شتى مناحى الحياة العربية ففى العمارة هناك الأكواخ الطينية جنبا الى جنب مع الأبراج المعمارية الحديثة والمبانى الشاهقة • وفى مجال التقنية يجاور المحراث الخشبى الكومبيوتر فى البلد الواحد • وفى المجال الاجتماعى نطور المؤسسات العلمية والعقلية الحديثة بينما لازالت المرأة تعانى من رفع الحجاب ولازالت التقاليد القبلية والبنية الأسرية ذات الطابع الأبوى هى القاسم المشترك فى واقعنا الاجتماعى • أما على الصعيد السياسى فان الأبوة السياسية وآليات علاقة الراعى بالرعية حتى ولو انبثق هذا الراعى من بين صفوف الرعية تجاور الحكومة الحديثة والبرلمانات التى تضارع فى حداثتها آخر منجزات العقل الأوروبى • وفى المجال الثقافى تتجسد هذه الثنائية بين القديم والحديث بأجلى صورها فى هذا الصراع الأبدى الذى يخوضه كل جيل من مثقفينا ، دون أن يبدو أنه بسبيله الى الحل •

خصوصية الوضع العربى

وقد يبدو لاوهلة الأولى أن هذه هى حال العالم الثالث عموما • لكن خصوصية الوضع العربى فى هذا المجال هى أن القديم الذى يحكمنا فيه هو تراث حى يسيطر على واقعنا قانونا وسياسة وتشريعا وتفكيرا • وهو تراث وقف عند مرحلة معينة من التطور ، ومع توقفه هذا فلا يزال حيا وفاعلا فى الواقع العربى الراهن لا يمكن نكران أثره فى تشريعاتنا وخطاباتنا المختلفة وطريقة تفكيرنا • والخاصية الثانية لهذا الوضع هى أن التراث فيه مرتبط بالدين ، وان كل محاولة للتنصل منه تصور على الفور على أنها محاولة للتنصل من الدين ذاته ، اذ اكتسب هذا التراث

نوعا من القداسة التي لا يستحقها . ومن هنا فان من الصعب تدشين أى قطيعة حقيقية معه . والواقع أنه لا ضير في عدم تجاوز الدين وتراثه ، شريطة ألا يكون تأويل الدين سياسيا وأيديولوجيا بالدرجة الاولى . أما الخاصية الثالثة فهى أن الحداثة التى عرفها المجتمع العربى منقولة إليه من بيئة غير بيئته ونتيجة لاشكاليات وصراعات وتواريخ مغايرة لاشكالياته ومقدراته وتواريخه . ويزيد من تعقيد هذا الوضع أن تلك الحداثة حداثة أوروبية صادرة عن خصم تاريخى ، ولذلك فمن الطبيعى أن يربط الفكر السلفى بين تلك الحداثة وبين الغرب المرفوض لتاريخه العدوانى معنا . بالصورة التى يصبح معها رفض الغرب أحد معايير الوطنية عنده . والخاصية الرابعة هى تراجعية الصراع بين القديم والحديث ، الذى يبدو وكأنه لا يحسم كما يتصور البعض بفعل الزمن نفسه ، لصالح الجديد ، وانما لمرارة المفارقة لصالح ازدياد مواقف القديم تكلسا . فسلفية الأفغانى ومحمد عبده أكثر تقدما من سلفية تلميذهما رشيد رضا . وسلفية رشيد رضا أكثر تقدما من سلفية تلميذه حسن البنا وأتباعه من الاخوان المسلمين ، وسلفية الاخوان القدامى أكثر تقدما من سلفية الجماعات الاسلامية الجديدة .

وقد تبلورت هذه الظاهرة ، فى رأى الجابرى ، نتيجة لتمحور الصراع بين القديم والجديد : أو الصراع الفكرى عامة بين ثلاثة اتجاهات : أولها تيار الرفض باسم الدين وحماية الذات القومية . وهو تيار يستقى مرجعيته من التراث ويبشر بمقولة أن تراثنا يكفينا . وثانيهما موقف النخبة العصرية التى تبنت الفكر الأوروبى بأيديولوجياته الحداثية ودعت الى القطيعة مع الماضى . أما التيار الثالث فهو تيار توفيقى يأخذ من الغرب بطرف ، ومن الماضى بطرف . ولا يمكن بأى حال من الأحوال الدفاع عن الموقفين الأولين . لأن الاغتراب فى الماضى كالاغتراب فى الغرب تماما . ولهذا كانت ردود الفعل من الطرفين هى التجذر فى الموقف والتشبث بالدفاع عن آرائهما التى تنطلق برغم تعارضها البادى من موقف معرفى متماثل . ولذلك فان ردود رشيد رضا وحسن البنا لا تختلف من الناحية الموقفية عن ردود سلامة موسى وشبلى شميل برغم تباينهما الاتجاهى . فالصراع بينهما فى جوهره هو صراع بين سلطتين مرجعيتين متناقضتين جذريا ولا يمكن التوفيق بينهما . وهذا نفسه هو سر اخفاق التيار الثالث.

التجديد من الداخل

لذلك فان الحل لمعضلة الفكر العربى الراهنة لا يكون باللجوء الى أى من تلك الدروب الثلاثة التى طرقت من قبل ، ولم تسفر عن حل . بل

شاركت في صياغة الأزمة التي يعاني منها العقل العربي المعاصر • وانما يكمن الحل في النظر لقضية الحداثة من منظور أنه لا يمكن تجديد أي ثقافة الا من داخلها • وهذا لا يعني بأي حال من الأحوال العزلة والانغلاق. لأن الثقافة بنية ومن خصائص البنى الاحتكاك والتصادم • فالثقافات تتداخل وتتفاعل ، ولكن التداخل يهدف الى ابراز الخصوصية والتعرف على العناصر المميزة للذات • فمن خلال الآخر يتم الوعي بالذات • ولا بد هنا من التخلي عن فكرة وجود ثقافة عالمية والاعتراف بوجود ثقافات متعددة في أي مرحلة تاريخية • وهذا لاينفي أن بعض تلك الثقافات ينتصر ويهيمن في فترات تاريخية بعينها • وهنا لابد من التفرقة بين الثقافة العالمية التي تعرف بذلك لأنها الثقافة المهيمنة في فترة معينة ، وبين الثقافة القومية التي تبلور شخصية شعب من الشعوب ، وتصوغ عقلية أمة من الأمم : والاعتراف بتعدد الثقافات لابد وأن يرافقه وعي بقوانين تفاعل تلك الثقافات من ناحية ، وببنية كل ثقافة على حدة من ناحية أخرى • ويؤدي بنا هذا الوعي الى الاهتمام بعملية تبيئة الثقافات ، باعتبار أن اعادة استنبات عناصر أي ثقافة من جديد داخل الثقافة الأخرى هو السبيل الوحيد لاستيعابها كمكون أساسي من مكونات الثقافة الأصلية • وتبيىء أي عناصر ثقافية دخيلة يكون أيسر في مراحل انتصار أي ثقافة وهيمنتها منه في مراحل ترديها أو خمولها • ومن هنا لم تشعر الثقافة العربية في عصور ازدهارها بأي غضاضة في تبييء عناصر كثيرة من الثقافة اليونانية الغربية • فتمت تبيئة المنطق برفع الخصام بينه وبين النحو ، وتمت تبيئة الفلسفة بادخالها في الدين • أما الأدب والميثولوجيا فلم ينقلا ، ولا يمكن أن ينقلا ، لأن الأدب هو أكثر عناصر الثقافة التصاقا بخصوصيتها وبنيتها الذاتية •

والآن الى السؤال الهام : كيف يمكن لنا الآن تبيئة عناصر الثقافة الحديثة في واقعنا العربي العقلي الراهن ؟ يرد الجابري على هذا السؤال بأنه لا يمكن تبيئة عناصر التجديد دون تجديد العقل المفكر داخل الثقافة نفسها • وهو أمر لابد أن يبدأ بنقد العقل المكون ، الذي يبقى فاعلا كنظام معرفي ولا شعوري يحكم التفكير ويوجهه لأن التفكير محكوم بسلطات مرجعية • لذلك لابد من نقد العقل العربي الراهن والكشف عن تاريخ تكوينه وكيف تكونت آليات التفكير الفاعلة فيه ، وهذا هو جوهر مشروع الجابري الذي نفذه في كتبه الصادرة حتى الآن • فالعقل يحمل الماضي وقد أدخله في دائرة المقدس • ولابد من تعرية بنية العقل العربي للكشف عن أن كثيرا من عناصرها دنيوية ، ولا تدخل في دائرة المقدس • وعملية التعرية هذه هي العملية التي قامت بها أوروبا منذ القرن السادس عشر ،

وهي عملية لم يمارسها الواقع العربي حتى الآن • وقد اختار الجابري نقطة الانطلاق في مشروعه الفكري ذاك عصر التدوين ، لأنه كان البداية الحقة المبررة من داخل التراث ومن داخل الثقافة نفسها • واكتشف في النهاية أن الثقافة العربية قد تكونت على أساس ثلاثة نظم معرفية تبلور بنيتها وتحدد طريقة تفكير أهلها ورؤيتهم وهي : نظام بياني ينهض على البلاغة وعلومها ، ونظام العرفان المستقى من الموروث الهلينيستي والذى يقوم على النزعات العقلانية ، ونظام منطقى أوسطى يونانى خالص تبنته الثقافة العربية فى عصر المأمون • ومن خلال هذه النظم المعرفية الثلاثة تكونت بنية ثقافية تنهض على ثلاث سلطات أساسية : سلطة اللفظ وموضوعه النص وقوانين انتاج الخطاب وتفسيره ، وسلطة الأصل التابعة من نصية الفكر العربى القائم على سلطة نص سلفى أو أصل لغوى أو دينى ، وسلطة التجويز المنبثقة عن فكرة الجبر والقدر • وقد نبه ابن رشد الى أن هذه ليست قضية دينية وكشف عن بعدها السياسى وطبيعتها الدنيوية • لكن العرفانيون استفادوا كثيرا من هذا المبدأ الذى زودهم بأساس قوى للقول بالمعجزات والكرامات والخوارق ، وللتخلى ضمنيا عن العقلانية ومنطقها السببى •

خصوصية العقل العربى

وعلى ذلك يمكننا القول بأن العقل العربى عقل يتعامل مع الألفاظ أكثر من تعامله مع الأشياء والمعانى • وهو عقل تعتمد آلية التحصيل فيه على القياس ، وارجاع كل شيء لأصل ما • عقل يعتمد مبدأ التجويز ، أى مبدأ اللاسببية • وقد حاول الجابرى فى كتابه (الخطاب العربى المعاصر) أن يكشف عن مدى تحكم تلك البنية فى الخطاب السلفى • لكن أهم اكتشافاته فى المجال هى : أنه وجد أن نفس البنية هى التى تتحكم فى خطاب النخبة العقلية الغربية ، التى تخضع آليات تفكيرها لنفس النسق ، وان اختلفت بالطبع تبدياته عما هى عليه بالخطاب السلفى • فالخطاب العربى المعاصر برمته يتسم ببنية أساسية محكومة بنسق يتكون من أربع محاور رئيسية : هيمنة النموذج السلفى ، ورسوخ آلية القياس الفقهى ، والتعامل مع الممكنات الذهنية وكأنها معطيات واقعية ، وتوظيف الأيديولوجى للتغطية على النقص المعرفى • وهذه السمات هى التى تحدد خصائص العقلية العربية المتحكمة فى الوضع الراهن • وهى التى ينبغى أخذها بعين الاعتبار أثناء البحث فى كيفية تجديد العقل العربى ، والمجتمع العربى المعاصر معه • ومن هنا يرى الجابرى حتمية نقد الثقافة العربية من الداخل ، والكشف عن آليات تعاملها مع تلك المحاور الأربعة • ووجد

أن الأندلسيين قد اعترضوا على تلك المحاور فى محاولة منهم لتجديد الفكر العربى من الداخل ودون أن تعترضهم العوائق التى عرفها الفكر المشرقى ، وذلك نتيجة لمعطيات موضوعية وظروف تاريخية • فقد استطاع ابن رشد وابن حزم والشاطبى وابن مضاء الأندلسى وغيرهم طرح بدائل جذرية لتلك المحاور : فبدلا من سلطة النص طرحوا فكرة اعادة تأصيل الأصول ، ورفعوا شعار المقاصد مما وسع باب الاجتهاد وطوره • وبدلا من فكرة الأصول طرحوا مسألة الإستقراء والاستنتاج الأرسطى بعد تبيئتها بادخال الكليات العددية ومنهج المتقدمة بديلا عن القياس • وبدلا من سلطة التجويز قالوا بمبدأ النظام وأهمية السببية وخاصة لدى ابن رشد •

حوار مع المشروع

وبهذا ينتقل الصراع نقله جوهرية ليصبح صراعا بين قديمنا وجديدنا ، لا بين قديمنا وجديد الآخر • وبهذه النقلة يكتسب الجديد مرجعيته من داخل الثقافة ولا تسهل هزيمته من خارجها كما كان الحال فى الاستقطاب القديم بين الأنا والآخر ، وتحديث الفكر العربى ، وتأصيل الحداثة من داخل التراث العربى نفسه ، ليسا غاية فى حد ذاتهما ، وانما هما وسيلة لتغيير الواقع العربى والعمل من داخله ودون الزراية بخصوصياته • وهذه كلها من الأمور الطيبة ، ولكن هناك مجموعة من الاعتراضات على بعض سمات المشروع وليس على غاياته • لأننا نتفق جميعا على أن الغاية من أى مشروع فكرى تحديثى هى النهوض بالواقع العربى المتردى • ذلك لأن هذا المشروع الفكرى الكبير برغم أهميته ينطوى على بعض السلبيات التى أود أن أوضحها هنا فى صورة حوار يرمى الى الوصول بالمشروع الى درجة أكبر من الاتساق والفاعلية • ومن أهم الانتقادات التى وجهت الى هذا المشروع ، والتى يعيها صاحبه ، هى فصله المتعمد بين ما هو معرفى (ابستمولوجى) وما هو مذهبى (أيديولوجى) • فلكل معرفة محتواها المذهبى الذى لا يمكن نكرانه • حتى ولو زعمت الحياد والفراغ من أى مضمون أيديولوجى • واذا كان هذا الفصل خيارا منهجيا بالدرجة الأولى ، فان فصل المعرفى عن المذهبى يهدف فى مستوى من مستوياته الى نزع القداسة عما هو دنيوى • وهذا ما مكن الجابرى من الخوض فى الكثير من الأمور الحساسة دون أن يثير حساسية أو احتجاجا • كما أن هذا الفصل مكنه من الا ينتج خطابا أيديولوجيا تسهل معارضته بخطاب أيديولوجى معارض : لأن معارضة مثل هذا الخطاب المعرفى لابد وأن تتم هى الأخرى على أساس معرفى ، ولابد من

أن تنهض معارضته على وقائع ومعلومات من داخل الثقافة نفسها وليس من خارجها .

وإذا كان من اليسير الرد على الاعتراضات التى تنهض فى وجه فصل الجابرى بين المعرفى والمذهبى ، فان من العسير الرد على الاعتراضات النابعة من اقامة الجابرى لمشروعه الفكرى على تناقض جوهرى على الصعيد المعرفى بين الذات القومية والآخر الحضارى ، بينما يعتمد مشروعه برمته على أساس منهجى غربى يستفيد من الانجاز البنيوى ومن أركيولوجية المعرفة عند ميشل فوكو . وبرغم استفادته من مشروع فوكو المنهجى فانه لم يول مسألة العلاقة الفاعلة بين المعرفة والسلطة عناية كافية . لأن تلك العلاقة هى التى أضفت على الدنيوى تلك القداسة الزائفة التى كانت تنهض بوظيفة اجتماعية وسياسية هامة . ولا يمكن نزع القداسة عن تلك المعارف الا بالكشف عن أسباب تخلقها وآليات عملها فى مؤسسة السلطة . ومن هنا نقترب من الكشف عن الجدل الدائم بين المعرفى والأيديولوجى . هذا فضلا عن أن الجابرى فى تركيزه على المعرفى يتغاضى كثيرا عن الأشكاليات التى تنطوى عليها الهوة القائمة بين ممارسات الثقافة وممارسات الواقع العربى الذى يقبل انسانه فى حياته اليومية منجزات العلم الغربى ، دون القبول بمبادئه العقلية . بل ويقبل منجزات الثقافه الغربية (وخاصة على صعيد الاستهلاك الشعبى لفنون السينما والتلفزيون) دون القبول بأساسها العقلى . وهى الهوة القائمة بين ما يحدث ويمارس من ناحية وما يستقر فى الوعى ويشارك فى صياغة البنية العقلية من ناحية أخرى . كما أن الجابرى لم يكشف عن الكثير من التوترات والاشكاليات النابعة من التناقض الكائن فى جوهر العلاقات الأساسية داخل بنيته العقلية تلك بين سلطتين متعارضتين هما النص والأصل فى ناحية والتجويز الذى يعتمد على الغائهما أو على الأقل التغاضى عنهما من ناحية أخرى .

لندن   يناير ١٩٨٨

● السفر السادس عشر

معاداة السامية الجديدة والعربى كضحية مزدوجة

لاشك أن ظاهرة معاداة السامية واحدة من أخطر الظواهر التى عرفهـا التـاريخ الحـديث ، ومن أكثر قضـايا القرن العشرين امتلاء بالتناقضـات والمفارقـات • ومع أن هذه القضية تبـدو للوهلـة الأولى - وخاصة لدى الرأى العام الغربى - وكأنهـا من القضايـا التى تخص اليهود وحدهم ، الا أنها فى الواقع من ألصق القضايا بالعرب المعاصرين لسببين رئيسين : أولهما أن العرب ساميين وبالتالى فان عداء السامية ، لو كان حقا اتجاها عرقيا محددا ، يخصهم بنفس القدر الذى يخص به غيرهم من الساميين • بل انه يخصهم بصورة مضاعفة لأنهم ضحايا مثل هذه النزعة العنصرية كساميين مرة ، وضحاياها مرة أخرى وقد أدت الى انفجار واحد من أكثر الصراعات دموية ومن أشدها جورا بشعب بأكمله ، هو الشعب الفلسطينى ،ألا وهو الصراع العربى الصهيونى • فقد أدى حل اشكال العـداء التقليـدى للسامية ، وما نجم عنه من عقـد الذنب الأوروبيـة تجـاه اليهود ، على حساب الشعب العربى الفلسطينى ، الى تفجير الوضع العربى برمته والتأثير بشكل دائم على تطوراته • أما السبب الثانى فهو أنه اذا كان اليهودى قد استطاع أن يتحلل كلية من أسر قيود العداء للسامية التى عانى منها فى الماضى ، وأن يسبب للعربى أثناء هذا التحلل الكثير من المآسى والأهوال ، فان الموجة الجديدة من العداء للسامية التى تجتاح العالم الغربى اليوم - بجناحيه الأوروبى والأمريكى - موجهة بالدرجة الأولى للعرب ، بل وظلت موجهة ضدهم لعقود متتابعة ، دون أن يفلح العرب فى تحويلها الى قيمة سلبية ممجوجـة • وهى السر فى أن الغربى الليبرالى قد يجد أن من السهل عليه أن يأخذ موقفا واضحا من أى من القضايا العنصرية المطروحة عليه ، كقضية التمييز العنصرى فى جنـوب افريقيـا ، ولكنه يجد الأمر صعبا للغاية عنـدما تتعلق المسألة بقضية فلسطين ، برغم أن القضية الفلسطينية لا تقل عدالة أو وضوحا عنها • بل ومما يزيد الأمر تعقيدا ، أن العلاقة التاريخية بين الغرب عامة والأوروبى منه بصفة خاصة ، والعرب تتسم بقدر كبير من التوتر والتعقيد الذى يعود الى فترة الحروب الصليبيـة ، بل وربمـا الى فترة المواجهـة

الباكرة بينه وبين الحضارة العربية والاسلامية الصاعدة في فترة صدر الاسلام •

لهذا كله تكتسب الندوة الموسعة التي أقامتها الجمعية العربية بأكسفورد قبل أسابيع ، تحت عنوان « العداء للسامية : العرب واليهود » ولمدة يوم كامل أهمية كبيرة • ليس فقط لأن الموضوع الذي بحثته على درجة كبيرة من الحيوية ، ولكن أيضا لأنها دعت للمشاركة فيها باحثين ومؤرخين من العرب واليهود معا • من أوروبا ومن الشرق الأوسط في آن • فقد افتتح الندوة ورأس نصفها الأول المؤرخ الانجليزي روجر أوين أستاذ تاريخ الشرق الأوسط بجامعة أوكسفورد • وكان أول المتحدثين فيها المؤرخ الفرنسي اليهودي مكسيم رودنسون • ولذلك كان من الطبيعي أن يبدأ حديثه بمحاولة لتعريف ما هي معاداة السامية • والمصطلح في حد ذاته ينطوي عنده على تناقض حاد • لأنه كما عرفته أوروبا كان مقصورا على معاداة اليهود ، اما لأنهم قوم بالغو التفوق ، أو لأنهم بالغو الرداءة • واذا ما درسنا الحقائق التاريخية سنجد أن التعبير قد صاغه أعداء السامية أنفسهم ، وأنه تعبير مشحون بالدلالات السياسية • ولأن السياسة متحركة باستمرار فالتعبير نفسه متحرك ومتغير الدلالات • ومن هنا لابد من تفسير مسألة السامية أولا لمعرفة أسباب العداء لها • انها مسألة غير موجودة ، فالسامية عنده لا وجود لها كهوية عرقية • هناك حقا لغات سامية ، ولكن ليس ثمة من سامية بالمعنى المطلق • فالتعبير يفترض أنهم أخلاف مجموعة معينة من البشر في الشرق الأوسط ، ولكن اثبات هذا الأمر عرقيا وتاريخيا من أكثر الأمور صعوبة ، ومن أشقها اثباتا • لكن مصطلح العداء للسامية صيغ تاريخيا للتعبير عن كراهية اليهود ، سواء لأنهم شعب طيب ، أم لأنهم مجموعة سيئة من البشر • ولا يمكن أن نتجاهل العلاقة بين تبلور هذا المصطلح وبين الحرب • فالحروب عادة ما تؤدي الى انتشار كثير من الأفكار ذات الصبغة الأيديولوجية الغريبة ، كالعداء للألمان مثلا في بقية أنحاء أوروبا أثناء الحرب •

واذا ما عدنا الى التاريخ سنجد أن هناك بعض المؤشرات التي تشير الى أن اليهود كانوا مجموعة ممن عاشوا في فلسطين في الألف السابق على الميلاد • يقول مجموعة من المؤشرات لأن معظم الوثائق المتعلقة بهذه المسألة قد فقدت ، ولم يبق منها الا النزر اليسير • لكن هناك عنصرا من الغباء في كل فكر قومي • وهذا العنصر هو الذي أدى الى ذلك الاستقطاب الذي ينهض على التمييز من جهة ، والاحساس بالاضطهاد لدى اليهود كأقلية من جهة أخرى • وهذا هو قانون الأقليات • لذلك يمكن القول بأن الكثير من المسائل التي ترتبت على هذا ليست ناجمة عن احساس

اليهود بالاضطهاد بقدر ما هي نتيجة لآليات قانون الأقليات الاجتماعية · وهذا هو ما حدث للخزر في القرنين السابع والثامن ، وما جرى لأقليات كثيرة أخرى في الصين والهند ، وما حدث للغجر في أوروبا الحديثة · لكن هناك مجموعة أخرى من العناصر التي أدت الى تميز اليهود كحالة في المجال الأوروبي · أهمها دخول عنصر الدين في الموضوع لكون المسيحية فرع من اليهودية ، مما أدى الى اعتبار اليهود نوعاً من العدو في الداخل ، الذي يستحق توجيه طاقة العداء اليه ، والذي يتسم العداء له عادة بقدر من الافراط والمبالغة في اللاعقلانية ، أكثر مما هي الحال بالنسبة للعدو في الخارج · ومما ساعد على تفاقم الأمر احتفاظ اليهود بالكثير من الخصائص الاجتماعية لما يعرف باسم الطبقة المنبوذة ، مما أهلهم لأن يصبحوا فريسة سهلة للتضحية بها كلما تازم الموقف · هذا بالاضافة الى أن التقابل ـ في العقلية الأوروبية ـ بين الثقافة الاغريقية بمنحاها الجمالي والطبيعي ، والثقافة اليهودية بنزعتها التشاؤمية ، لم يعمل لصالح اليهود · كما أن التوتر بين هذا الميراث الثقافي وبين الواقع الذي احتفظ فيه اليهود بتميزهم وتماسكهم ورفضوا الذوبان الثقافي هو الذي أدى الى عزلهم اجتماعيا ، والى فقرهم اقتصاديا ، وترشيحهم نفسيا للعب دور الضحية · هذا فضلا عن أن اختلاف اللغة ما لبث أن ساهم في بلورة هذا التمايز والاختلاف مما سهل عملية الانفصال عن الآخر ، وبالتالي ترشيحه ، بأقل ما يمكن من القلق ، لأن يكون كبش الفداء ·

واذا ما نظرنا الى هذه العناصر جميعا الآن سنجد أن مجموعة من التغيرات الجذرية قد طرأت عليها فبدلت الكثير من ملامحها · ذلك لأن التغيرات التي عرفتها أوروبا في العقود القليلة الماضية قد أدت الى تغيير المواقع · فلم يكن اليهودي هو هذا الفقير المنبوذ الذي يتكلم لغة غريبة ، أو يتكلم اللغة المحلية بلكنة مميزة · كما أن تكوين الدولة الصهيونية قد لعب دورا كبيرا في تغيير الصورة · وخاصة لادراك تلك الدولة أهمية الولايات المتحدة ودورها ، لا في السياسة الدولية فحسب ، وانما في صياغة « رؤية العالم » التي تسود في المجال الأوروبي ، والتي تمارس دورا مؤثرا في الاعلام العالمي برمته · ومن هنا فان أي مصطلح لابد وأن يفهم في سياقه التاريخي والاجتماعي · ولا يمكن تناوله بشكل تجريدي ، لأن التجريدات هي التي تفتح الباب ، لا أمام سوء الفهم فحسب ، وانما أمام الرؤى العنصرية والأفكار ذات الأفق الضيق · وبالرغم من أن كثيرا من الأفكار التي طرحها مكسيم رودنسون في هذا المجال على درجة كبيرة من المعقولية · الا انه لم يكن على درجة كافية من اللباقة ، أو سمها الموضوعية أو الكياسة ، لتطوير تلك الأفكار وتشخيص ما حدث في الواقع المعاصر · حيث لم يعد اليهودي هو كبش الفداء الذي يضحي به

فى ساحة الأزمات الاقتصادية ، أو الدعائية الغربية عامة ، والأوروبية خاصة ، وانما حل محله في هذا الموقع العربي مرة أو الأفريقي الأسود أخري ، فقد أصبح هؤلاء هم الأعضاء الجدد لتلك الأقليـة المضطهـدة والمنبوذة ؟

وهذا هو ما تصدت الباحثة الكبيرة مجلى مرسى الأستاذة بجامعـة السوربون للبرهنة عليه من خلال تناولها للواقع الفرنسى المحسوس ، وما يدور فيه من مواقف وصراعات · وتنبع قوة ملاحظات مجـلى مرسى من انطلاقها من واقع ملموس ، ارتفعت فيه نسبة الجرائم العنصرية بشكل ملحوظ فى السنوات الأخيرة ، وتصاعد فيه تأييد قطاعات غير ضئيلة من الشعب الفرنسى للجبهـة الشعبيـة بأيديولوجيتهـا العنصريـة البيـنة وممارساتهـا الفاشية الواضحـة · وحتى تكشف لنـا عن دلالات هذه التحولات العميقـة فى رؤية الواقع الفرنسى للمشـكلة ، تقلب فـكرة رودنسون الأساسية حول الميراث الدينى المشترك بين اليهودية والمسيحية رأسا على عقب · فاليهودية فى نظر المسيحى ليست فى حقيقـة الامـر الا نسخة سلبية من المسيحيـة · واليهـود تبعـا لذلك هم ضحايا طقوس التخلص من الشر · ولذلك لم يتعرض اليهود للاضطهـاد فى المجتمـع الأوروبى ، طالمـا ظلوا فى هذا الهامش الاجتمـاعى الذى يليق بالتصور السلبى لهم · ولكن عندما أخذوا فى التحرك من الهامش الى المـركز ، وبدأوا السيطرة على قطاعات من المجتمع الفرنسى فى القرن الماضى ، بلغ العداء للسامية ذروته ، كتعبير أيديولوجى ، مهما كانت درجة تطرفـه أو لاعقلانيته ، عن حقائق اجتماعية متغيرة · ومن هذا المنطلق الذى يربط بين الأيديولوجية ومتغيرات الواقع الاجتماعية والسياسية والتاريخية فى فهم الظاهرة تتناول الباحثة ما يدور فى الواقع الفرنسى المعاصر ، كنموذج للكثير من التغيرات التى نجدها فى كثير من المجتمعات الأوروبية المشابهة · وتشير فى هذا المجال الى تغير التركيبة الاجتماعية لواقع اليهود فى فرنسا بعد الحرب وتحركهم الى مركز صناعة القرار السياسى ، وخاصة فى المنظمات اليسارية ، والى الأثر العاطفى لظهور الفكرة الصهيونية عليهم ، وخاصة بعد أن تجاوزت نطاق الوهم الى ساحة التحقق فى الواقع ·

وعندما تجرى مقابلة بين هذه التغيرات والتغيرات التى تمت على الصعيد الآخر : أى الصعيد العربى نجد أننا بازاء صورة معكوسة لما جرى لليهود · وخاصة فى مرحلة الستينات التى شهدت تدفق الكثير من عرب الجزائر ومن يسميهم الفرنسيون بالحفاة ، أو المعمرين من ذوى الأقدام السوداء ، من الجزائر أثناء حرب الاستقلال وفى أعقابها مباشرة · فقد كانت الصورة الشائعة التى لا يمكننا نسيان دور الاعلام الصهيونى فى

صياغتها ، هي أن العربي قد جاء الى فرنسا من أجل الانتقام من المستعمر السابق ، أو من أجل احياء أطماع انتقامية قديمة ، خاصة وأن المهاجرين العرب فضلوا الاقامة بجنوب فرنسا ومالطة وأسبانيا، وكلها من الأماكن التي سيطر عليها العرب قبل ذلك بقرون عديدة ٠ مما أثار الريب حول نواياهم ونزعاتهم ٠ واذا ما أضفنا الى ذلك أن العرب ـ كاليهود ـ أصحاب دين آخر ، ولكنه على عكس اليهودية التي يراها المسيحي كنسخة سلبية من المسيحية ، دين مختلف كلية ، يرى الفرنسي أنه دين محرف ٠ وهذا هو السبب في أن الفرنسي لم يكن يسميهم بالمسلمين ، وانما بالمحمديين ، ويسمي دينهم بالمحمدية ، في محاولة لنفي فكرة الديانة المستقلة عنهم واعتبارهم من أتباع شخص جاء بدين محرف وليس بدين سماوي لـه ما لليهودية أو المسيحية من قداسة ٠ وهذا الموقف القـديم من الاسـلام من العناصر الفاعلة في صياغة موقف العقل الفرنسي من العرب ٠ ولهذا لم يكن غريبا أن نجد لفولتير مسرحية بعنوان (محمد المحتال) ٠ والأغرب من ذلك أن الفرنسي يوشك أن يحدد العرب بالمهاجرين الذين وفدوا من المغرب والجزائر الى فرنسا في الستينات ، بما في ذلك عـدد كبير من اليهود الذين هاجروا في نفس الفترة لفرنسـا من المغرب أو من مصر ٠ ولذلك نجد أن يهوديا مصريا سابقا ، يدعى جاكبسون وهو شخص أصبح مليونيرا بعد هجرته لفرنسا ، يرتدي الزي العربي ، بل ويعتمده المجتمع الفرنسي كممثـل للعرب ٠ وليس هذا التشويش قـاصرا على الانسان العادي ، بل انه هو الطريقة التي يفكر بها المثقفون والعاملون في مجال الاعلام عامة ٠

وتعدد الباحثة مجموعة كبيرة من الوقائع الراسمة لاتجاهات موقفية معينة في المجتمع الفرنسي ، تشير الى تغير معنى العداء للسامية على صعيد الممارسة الفعلية في المجتمع الفرنسي ، وتحوله الى عداء للعرب خاصـة وللمسلمين عامة ، بالرغم من أن الاسلام هو ثاني أكبر الأديان في فرنسا، وأكبرها قاطبة من حيث الممارسة الفعلية للشعائر ٠ ولا تستطيع في هذا المجال أن تفصل بين هذه الحالة وبين تردي الوضع العربي عامة ٠ لأن الفرنسي يؤمن بالدولة القوية ذات الجيش القوي ، ولا يستطيع أن يتصور بلده الا داخل نطاق هذه الصورة الذهنية ، ويرغب بالتالي في التعاون مع الدولة القوية ، بينما يزدري الدولة الضعيفة أو المهزومة ٠ ولا يمكن الفصل في هذا المجال بين الدولة ورعاياها ، أو بين الفكرة ومن يمثلونها ٠ وليس هذا الموقف مجرد رأي عاطفي للفرنسي ، بل قوة فاعلة تنعكس على كثير من التشريعات والاجراءات اليومية التي يعيشها المواطنون الفرنسيون الذين شاء حظهم التعيس أن يكونوا من أصل عربي ، أو أن يضعهم المجتمع الفرنسي في هذا الاطار التصوري الذي يتحولون معه على الفور الى مواطنين

من درجة أدنى • فالغربى أو حتى اللبنانى المسيحى مثلا يستطيع أن يحصل على الجنسية الفرنسية فى غضون ستة أشهر ، بينما يظل العربى وحتى اللبنانى المسلم ينتظر اجراءاتها لأعوام وأعوام •

واذا كانت مجلى مرسى قد برهنت من خلال الأمثلة العديدة التى عرضتها من التشريعات الفرنسية ، أو من مواقف الرأى العام الفرنسى ، أو من أحداث السنوات الأخيرة ، على أن مفهوم العداء للسامية فى الغرب عامة وفى فرنسا خاصة قد انقلب كلية وأصبح هو العداء للعرب ، فان المحامية اليهودية لياشيميل ، التى جاءت الى الندوة من فلسطين المحتلة ، قد طرحت على المنتدين مجموعة كبيرة من الأدلة والوقائع التى تثبت أن العربى لا يعانى من موجة عداء السامية الجديدة فى أوروبا وحدها ، وانما فى بقعة عزيزة من وطنه العربى نفسه ، وهى فلسطين الواقعة فى الأسر الصهيونى • فبالاضافة الى وجود أكثر من ثلاثة ملايين فلسطينى فى المنافى والمهاجر محرومين كلية من حق الحياة فى وطنهم ، أو حتى من زيارته ، فان هناك أكثر من مليونى فلسطينى فى الأسر يعانون من شتى أشكال التمييز الذى يجعل الحياة اليومية جحيما لا يطاق ، ويجعل مكابدة تفاصيلها نوعا من البطولة الدائمة • فقد استغرق تعداد أشكال التمييز والاضطهاد التى تمارسها سلطات الكيان الصهيونى ضد الفلسطينيين بشقيهم : فلسطينيى ما بعد ١٩٤٨ ، وفلسطينيى ما بعد ١٩٦٧ أكثر من ساعة كاملة • كانت أهميتها بالدرجة الأولى نابعة من أنها شهادة شاهد من أهلها ، وبالتالى لا يمكن اتهامها بالمبالغة والتحيز كما لو صدرت عن الفلسطينيين أو العرب • فبالاضافة الى نزع الأراضى وهدم البيوت وتقديم أرض القرى الفلسطينية الى شذاذ الآفاق من المستوطنين وغير ذلك من أشكال التمييز التى نعرفها جميعا تحدثت ليا شيميل عن ألوان أخرى من الاضطهاد التى يتعرض لها الفلسطينيون من قسرهم على العمل بالجيش، والتمييز ضدهم فى التعليم ، وعدم السماح لهم بمواصلة التقدم الى درجات علمية أعلى الا بشق الأنفس • وحرمانهم من حق الاجتماع ، ومن حق التنقل من منطقة الى أخرى فى أراضيهم الا باذن من غاصبيها ، ومن حق تشكيل النقابات ، وتعريضهم بشكل عشوائى لشتى أشكال الاعتقال الادارى ، ومنعهم من الزواج من خارج القرية نفسها ، والا فلن تسمح سلطات الاغتصاب البشعة بتوحيد الأسر ، بينما ينادى أنصارها فى كل مكان بحق يهود روسيا فى الهجرة منها لنفس السبب •

وسردت ليا شيميل مجموعة كبيرة من الوقائع التى تكشف عن الطبيعة الغريبة للقانون الصهيونى وعن شتى أشكال التمييز « القانونى »

الذى يمارسه ضد الفلسطينيين • ذلك لأن هـذا القـانون الغريب يحكم بالعقاب الجماعي على الأسرة برمتها اذا ما ارتكب فرد من أفرادها عملا ما يفسره المحتل على أنه ضده • وكأنها تأخذ البرىء بجريرة المذنب ، أو ترهب الجميع حتى يشكل المجتمع الفلسطينى نفسه شبكة قمع مانعة تحمى مصالح المحتل • بل لقد ذكرت حالات محددة هـدمت فيها قرى بأكملها لمجرد الشك فى أن عملا ما انطلق منها ، ثم تكتشف السلطات بعد ذلك أن هذا الشك كان تقديرا خاطئا ، ومع ذلك ، وتحت ظل الحكم التعسفى العسكرى لا تستحق القرية التى عوقبت خطأ أى تعويض أو حتى مجرد اعتذار • ومن أشكال العدالة الصهيونية الغريبة ، أن المحاكم الهزلية هناك حكمت على مستوطن يهودى بستة أشهر من العمل الادارى لأنـه قتل صبيا فلسطينيا لا يتجاوز عمره ١٣ سنة • بينما حكمت على يهودى آخر بالسجن لمدة خمس سنوات لأنه باع بندقية الى فلسطينى من غزة • فقتل الفلسطينى عمل تافه لا يستحق أكثر من حكم طفيف ، لا بالسجن، وانما بالعمـل الادارى فى مكاتب الشرطة أثناء النهـار والعودة للمنزل ليـلا • أما تسلح الفلسطينى فجـرم كبير لابد أن يودع مقترفه وراء القضبان لخمس سنوات ، حتى وهو يهودى •

ولا اريد هنا سرد أشكال العدالة الصهيونية الزائفة ، ولا صنوف تفننها فى اضطهـاد الفلسطينيين ، ولكنى أود أن أشير الى نقطة هامـة قدمتها ليا شميل للمنتدين الذين أدركوا من سردها المفصل ذاك السر وراء اندلاع الانتفاضة الفلسطينية العظيمة فى وجه أعتى القيود وأقوى الجيوش • هذه النقطة تتعلق بمواجهة العدو الصهيونى لتلك الانتفاضة العظمى • فبدلا من أن يكتفى باستخدام الجيش لمواجهتها ، وهو الجيش الذى سبق له أن واجه جيوشا أكثر منها عدة وعتادا ، فانه يعمم الاحساس بالمشاركة فى قمعها عن طريق استدعاء الاحتياطى ، واشراكه فى اجراءات قمعهـا الوحشية ، وذلك لعـدة أسباب : أولهـا فى رأيى هو التحسب للمستقبـل وتفويت الفرصـة على من يريدون التنصـل من ذلك العـار الضميرى فيما بعد • وثانيها خلق احساس لدى الرأى العام العـالمى ، والصهيونى منه خاصة ، بأن هذه الانتفاضة كبدت الاقتصاد الصهيونى المريض أكثر مما يحتمل حتى تتصاعد حملة جمع التبرعات • وثالثهـا تكريس الاحساس بأن الصهيونى والفلسطينى كائنان من نوعين مختلفين، يجمع كل منهما طاقته لمواجهة الآخر • ورابعها الرغبة فى اتاحة الفرصة داخل فلسطين المحتلة لليهود الشرقيين لابراز أنهم أشد عداء للعرب من يهود الغرب • وكلها أسباب تؤكد على أنه ، حتى بعد أربعين عاما من النشأة الكيان الصهيونى ، لا تزال المؤسسة الصهيونيـة فى حاجة دائمـة الى استخدام أى أزمة طارئة لتحقيق التماسك المفقود بين أفراد جاءوا من

شتى بقاع الأرض ، ومن ثقافات متنافرة ليخلقوا ظاهرة الاستعمار الاستيطاني البشعة في قلب وطننا العربي ٠

أما آخر أبحاث الندوة فكان البحث الذى قرأه الباحث الفلسطيني عباس شبلاق حول يهود العالم العربي ، في محاولة للكشف عما اذا كان العالم العربي قد عرف شيئا من عداء تلك السامية التي اخترعتها أوروبا ٠ وعما اذا كان المصطلح نفسه مرتبطا بتعقيدات العلاقة بين التراثين المسيحى واليهودى وبالتطورات الاجتماعية والتاريخية والحضارية للواقع الأوروبى نفسه ٠ فمفهوم معاداة السامية ليس مفهوما ميتافيزيقيا، وانما هو منتج حضارى له علاقة بالتفسير التاريخى النفسى الاجتماعى للواقع الذى صدر عنه ، ومارس به فعاليته ٠ ويهتم عباس شبلاق أساسا بمجموعة من القضايا الهامة ٠ منها كيفية تحول اليهودى من ضحية الى واحد من أبشع الظالمين في التاريخ ، وكيفية استخدام أوروبا للمصطلح لنشر الفكرة الصهيونية ، وتشجيع اليهود على الهجرة الى فلسطين ٠ بل انه لايزال يستخدم لتعميق العداء بين اليهود والعرب داخل الكيان الصهيونى ٠ فأى نظرة على كتب التاريخ التى تدرس فى المدارس اليهودية فى الوطن المحتل تكشف مدى تزييف تاريخ اليهود فى العالم العربى لصالح هذه المسألة ٠ ويقدم عباس شبلاق هنا فكرة هامة طالما أغفلنا أهميتها وهى مسألة أوروبية الفكر الصهيونى ٠ وأضيف اليها هنا أن هذا الفكر قد انبثق عن أوروبا فى فترة ميلاد شتى أشكال الفكر العنصرى المقيت من فاشية ونازية وصهيونية ٠ وأنه اذا كانت أوروبا قد دفعت ثمنا فادحا لتطهير ضميرها العقلى من أدران هذا الفكر فى الحرب العالمية الثانية ، فان أخطاء النازى ضد اليهود وعقدة الضمير الأوروبى الناجمة عن ذلك ، والتى استخدمتها الصهيونية بمهارة حاذقة ، هى التى أعمت الرأى العام الغربى عن رؤية الطبيعة الفاشية للفكرة الصهيونية لعقود طويلة ٠

لهذا كله يسرد عباس شبلاق تطور الفكرة الصهيونية فى العالم العربى ، وكيف أنها وردت اليه متأخرة نسبيا عن انتشارها فى أوروبا ، وكيف ساهمت فى تهديد حرية وحياة عدد كبير من اليهود فى الشرق ، وكيف عارضها كثير منهم لهذا السبب ٠ وكيف أنها اخفقت فى جذب أى منهم الى فلسطين الا بعد الحرب العالمية ٠ بل لقد كشف لنا عن أن الكثير من القوى السياسية العربية قد اهتمت منذ وقت باكر بالتفرقة بين اليهود والصهيونية ٠ وعن أن كراهية اليهود فى العالم العربى لا علاقة لها بالعداء للسامية ولكنها نابعة من آليات الصراع الوطنى فى المنطقة ، فهى ظاهرة لا علاقة لها بأى تفكير عرقى أو عنصرى ، على عكس ما يريد

بعض الصهاينة اشاعته عن العرب ، وانما هي بنت الصراع ضد ما اقترفته الصهيونية وما تزال تقترفه من بشاعات على الأرض العربية ٠

وبعد كل هذه الأفكار والآراء ألا يحق لنا الآن أن نتساءل : كيف استخدم العداء للسامية كحائل دون رؤية بقية العالم لحقيقة عنصريـة المؤسسة الصهيونية ؟ وكيف أن عقدة الضمير الأوروبية قد أصبحت من عناصر خلق حالة العمى الفكرى والمفهومى الذى يحول دون تقييم موضوعى لحقائق الوضع فى فلسطين المحتلة ؟ وكيف يدفع التاريخ المتماثل الى موقفـين متناقضين : اذ أن حالة العداء للسامية فى مرحلتهـا الأولى قد خلقت نوعا من التآزر الكامل بين اليهود ، بينما تؤدى موجة العداء الجديدة للسامية والموجهة ضد العرب الى تناحر بينهم ، والى توزعهـم الى شيع وأحزاب متطاحنة ؟ هذه أسئلة أرجو أن نمعن التفكير فيها حتى نعثر على طريق للخلاص ٠

أكسفورد　　　　　　　　　　　　　　ينـــاير ١٩٨٨

● السفر السابع عشر

معهد العالم العربى ولقاء الكتاب العرب والفرنسيين

أقـام معهـد العالم العربى فى باريس على مدى أيام ثلاثة (٣ ــ ٥ مارس ١٩٨٨) لقاء بين الروائيين العرب والفرنسيين ، شاءت لى المقادير أن أشارك فيه ، مع أننى لم أدع اليه · وهذا اللقاء هو اللقاء الأول من نوعه الذى ينظمه المعهد ، بعد افتتاحه بشكل رسمى فى أواخر شهر نوفمبر الماضى · ولا تنبع أهمية هذا اللقاء من أنه الأول من نوعه فحسب ، ولكن أيضا من أنه يكشف لنا عن نوعية الأهداف التى يرمى المعهد الى النهوض بها ، وعن طبيعة تصوره الخاص للدور المنوط به تحقيقه · وقبل الحديث عن هذا اللقاء وما دار فيه من حوارات خصيبـة أو مناقشات ضافيـة ، وقبل تقييمه من منطلق الحرص على تحقيق أهدافه ، وارهاف فعاليته ، أود أولا أن أقدم للقارىء نبذة مختصرة عن تلك المؤسسة الفريـدة من نوعها : (معهد العالم العربى) لأن هذا المعهد بمجرد انشائه فى باريس، أهم رموز الغرب الثقـافية فى الوجدان الثقـافى العربى ، وبمجرد قيامه شامخا على الضفة اليسرى لنهر السين ، وهى الضفة التى ارتبطت بشتى الحركات الثقافية والفكرية التى أثرت مغامرة الثقافة الفرنسية والأنسانية على السواء · يشكل علامة فارقة فى تاريخ الحوار العريق والمتجدد أبدا بين الثقـافتين العربيـة والفرنسية خاصـة ، وبين الحضارتين العربية والأوروبية عامة · وهو حوار لم يبدأ عقب صدمة المواجهة الأولى ابان الحملة الفرنسية بين الحضارتين فى العصر الحديث كما يتوهم البعض ، ولكنه يعود الى قرون عديدة قبل ذلك عندما وصل العرب الى جبال البرانس والى مشارف ليون ، بعد استيلائهم على الأندلس · وقد اتسم هذا الحوار منذ بدايته وعبر مراحله المختلفة بقدر كبير من التوتر والصراعية · وان كانت اقامة هذا المعهد فى حد ذاتها تنطوى على محاولة للاجهاز على تلك الصراعية ، والدخول بهذا الحوار الى مرحلة جديدة من الحرية والاخاء والمساواة ، اذا ما استعرنـا الشعارات العزيزة على الفرنسيين فى هذا المجال : أى شعارات ثورتهم الفرنسية الكبرى ·

١ ــ المعهد ... أصله وفصله :

وقد بدأت فكرة المعهد قبل ما يقرب من عشر سنوات ، وبدأت أولى مراحل بلورتها في عقد تأسيس هذا المعهد الذى وقعه فى ٢٨ فبراير ١٩٨٠ سفراء ١٨ دولة عربية ، (هم كل أعضاء جامعة الدول العربية باستثناء مصر ومنظمة التحرير الفلسطينية) ورئيس الجمهورية الفرنسية (وهو فاليرى جيسكار ديستان) آنذاك ووزير خارجيته ، والذى تقول وثيقة تأسيسه أنه مؤسسة « تهدف الى تطوير معرفة العالم العربى وبعث حركة أبحاث معمقة حول لغته وقيمه الثقافية والروحية . كما تهدف الى تشجيع المبادلات والتعاون بين فرنسا والعالم العربى ، خاصة فى ميادين العلوم والتقنيات ، مساهمة بذلك فى تنمية العلاقات بين العالم العربى وأوروبا » . ولأن فرنسا تتصور لنفسها دورا رياديا فى مجال الثقافة الأوروبية عامة ، فقد حرصت فيما يبدو على التأكيد فى تأسيس المعهد على تنمية العلاقات بين العالم العربى وأوروبا برمتها ، لا بينه وبين فرنسا وحدها . وهذا في الواقع ما يعطى المعهد بعدا ثقافيا وحضاريا واسعا . ولأن فرنسا لا تعتبر نفسها مجرد دولة مضيفة للمعهد ومشاركة فى انشائه فحسب ، وانما تعد نفسها نائبة عن الحضارة الأوروبية برمتها . فقد تعهدت بأن تدفع نصف ميزانيته ، وأن يكون لها نصف عدد مقاعد مجلس ادارته ، ونصف عدد الموظفين العاملين فيه . ولأن المعهد مؤسسة فرنسية ، خاضعة للقانون الفرنسى ، فقد كان على فرنسا أن تدفع ٦٠٪ من ميزانية المعهد الكلية ، وأن تدفع الدول العربية مجتمعة ٤٠ ٪ من هذه الميزانية ، حتى اذا ما استردت فرنسا ٢٠٪ من ميزانية المعهد ومصروفاته على هيئة ضرائب ، بحكم وجود المعهد فى أرض فرنسية ، وخضوعه لقوانينها الضريبية ، يكون ما بقى حقا من مساهمتها هو نصف الميزانية الفعلية للمعهد .

وحتى ندرك مدى ضخامة هذا المشروع الثقافى والحضارى الكبير نشير الى أن حجم الاستثمار الأولى فيه بلغ ٣٤٠ مليون فرنك فرنسى ، أنفق منها ١٢٠ مليون فرنك على انشاء هذا المبنى البديع الذى يقع على نهر السين فى مواجهة كاتدرائية نوتردام العريقة ، وكأنه يقيم حوارا معماريا بين الأثر التاريخي التليد ، والأثر العربي الجديد . أقول الأثر العربي الجديد ، لأن روح التصميم المعمارى هي بالدرجة الأولى تقطر للروح العربية ، ولما فى آثارها من جمال معمارى . تقطر لها فى شفافيتها التى انعكست على شفافية المبنى الذى يستخدم الزجاج كمادة بنائه الأساسية ، والأرابيسك العربى كوحدته البنائية وقد أخضعه لامكانيات المواد المعدنية الجديدة . والواقع أن جدار المعهد الجنوبى ، وهو جدار

كبير يرتفع بارتفاع المبنى كله الذى يصل الى تسع طوابق ، وهو لحسن الحظ الجانب الذى لا يطل على النهر ، يعد تحفة معمارية من حيث جمال التصميم ، وعبقرية اخضاع المواد الجديدة لجوهر الفكرة المعمارية العربية القديمة • لأنه يجسد نوعا من التقطير الفريد لفكرة الأرابيسك التى ترمى الى السيطرة على الأضاءة وترقيقها ، وذلك باستخدام الخلايا الكهروضوئية للتحكم فى ثقوب المشربيات المعدنية الجديدة التى صيغ منها كل الحائط الزجاجى الجنوبى لمبنى هذا المعهد الجميل • فتضيق فتحاتها كلما أشتد الضوء ، وأشرقت الشمس بضوئها الباهر ، وتتسع تلك الفتحات كلما حجبتها السحب ، وما أكثرها فى جو باريس الأوروبى المتقلب • فبدلا من تلك المشربيات الثابتة التى كانت بنت العالم العربى ذى المناخ المستقر والضوء الباهر ، ها هو معمار المعهد يلجأ الى فكرة المشربيات المرنة المتحركة ، التى تتواءم مع تحول مناخ باريس وتقلب جوها •

وعندما اختار هذا المعهد الطريق الصعب معماريا ، ورفض استئجار أحد القصور أو المبانى الجاهزة ليجعلها مقرا له ، فانه لم يفكر فى اقامة مبنى على الطراز العربى القديم ، بل استلهم هذا التراث العريق كى يحقق نوعا من التساوق بين بنائه والعمارة الباريسية المحيطة به من ناحية ، وبين آخر منجزات العمارة الحديثة (من البناء بالهياكل الفولاذية والزجاج واللدائن) ، وجوهر التصميم المعمارى التقليدى العربى من ناحية أخرى • وقد جاء المبنى ، باجماع كل من شاهده ، محققا لهذا التوازن الصعب ، مندمجا فى المعمار الباريسى ومتفردا فيه فى آن واحد ، يواجه جامعة جوسيو بمشربياته الرمادية الجميلة ، وكأنه يقيم بتلك المشربيات حوارا بالتناقض مع مبانى الجامعة العملية القبيحة ، وينفتح على جزيرة القديس لويس بجدرانه الزجاجية الشفافة التى تنعكس عليها مبانى الجزيرة التاريخية ، وتتداخ فيها تكوينات مدينة باريس كلها مذكرة بأن المعهد يرمى الى استيعاب تلك الحضارة والاشعاع عليها فى وقت واحد ، والى اقامة حوار معها ينهض على الفهم والندية وشفافية الروح • أما مدخل المعهد المطل من الناحية الغربية على بوليفار سان جيرمان الشهير والمؤدى الى الحى اللاتينى : حى الجامعة والحركات الثقافية والفكرية ، فانها تستوحى بتكويناتها الرخامية الجميلة ولونها اللبنى رشاقة المئذنة الاسلامية ، وصلابة الحضارة العربية وسماحتها •

وقد دفع جمال مبنى المعهد العدو قبل الصديق الى الاعتراف بروعته، ولكن أعداء الحضارة العربية وهم بالقطع كثيرون ، راهنوا منذ البداية على أن الشىء الوحيد فيه هو مبناه • وأنه كما قالت الصحافة الصهيونية بالذات ليس الا قناعا لاخفاء قبح الواقع العربى ، أو للمداراة على العمليات

الارهابية التى تدور فى سراديبه • بالرغم من حرص المعهد على شفافية التصميم ، وفتحه كل أبوابه للجمهور ، وطموحه لأن يكون المعادل العربى لمركز جورج بومبيدو الثقافى الذى أصبح مركزا مفتوحا للاشعاع الفنى وكعبة لقصاد النشاط الثقافى من كل أنحاء العالم • لكن مهما فعل العربى فهو مستهدف من الاعلام الصهيونى المغرض والقوى • ومن البداية بدأت المقارنة بين المعهد ومركز بومبيدو الشهير الذى يقصده أكثر من مليون زائر كل عام • ومع أن حجم المعهد لا يزيد من حيث المساحة على ربع مساحة مركز بومبيدو الشهير ، فقد صمد المعهد حتى الآن فى ساحة المقارنة • فقد زاره فى الشهر الأول لافتتاحه ٤٠ ألف زائر ، وهو رقم لو استمر لبلغ عدد زواره ضعف زوار مركز بومبيدو محسوبا بالنسبة لمساحته • والواقع أن هناك قدرا كبيرا من التشابه بين المؤسستين لا من حيث الوظيفة وحدها ، وانما من حيث البنية الداخلية كذلك • فكلاهما يضم متحفا ومكتبة كبيرة ومجموعة من قاعات العرض والمحاضرات ، وان كان المعهد قد تفوق حتى الآن على المركز • فاذا كان مبنى المركز بتصميمه الحديث قد أثار ، ولا يزال ، زوبعة كبيرة انقسمت حيالها الآراء بين معضد لحداثته ومستهجن لقبحه ، فان تصميم المعهد قد نال اعجاب الأعداء قبل الأصدقاء وأجمع الجميع على روعته وسمو ذوقه • واذا كان المركز قد احتاج لبعض الوقت حتى يكتسب هذا العدد الكبير من الجمهور ، فان المعهد قد اجتذب قطاعا كبيرا منهم منذ الأسابيع الأولى • واذا كان المركز قد تخصص فى الفن والثقافة الحديثة الى حد كبير ، فان المعهد يرمى الى الجمع بين العراقة والمعاصرة •

٢ ـ رسالة المعهد ووظيفته ••• ملاحظات مبدئية :

وهذا هو الفارق الكبير بين رسالتى المؤسستين • فرسالة المعهد مغايرة لتلك التى يرمى المركز الى تحقيقها • لأن المعهد لا يريد أن يقدم الوجه المعاصر للثقافة العربية فحسب ، ولكنه يطمح الى الاحاطة بكل جوانب العراقة القديمة فيها • ومن هنا فان المتحف الذى يشغل خمس طوابق من المبنى الرئيسى لا يقتصر على مجموعة الفن المعاصر من رسم ونحت ، كما هو الحال فى مركز بومبيدو ، ولكنه يحول طوابقه الخمسة الى طبقات خمس من الحضارة منذ ما قبل الاسلام من العهد الحميرى والقبطى والساسانى والبيزنطى حتى العصر الحديث ، مرورا بشتى مراحل التراث الاسلامى وفنونه الزاهرة • ولأن المكتبة التى تحتل ستة طوابق من برج المبنى تحرص على تقديم شتى مراحل الثقافة العربية ، منذ الأدب الجاهلى وحتى الأدب المعاصر • أما قاعات العرض والمحاضرات فمن المأمول أن يشغلها المعهد بنشاط كبير حتى يجتذب الجمهور الفرنسى

قبل العربى ، ويحاول من خلال هذا النشاط الاجهاز على تلك الفكرة السقيمة التى أراد بها الغرب التقليدى أن يؤكد للمتخصصين فيه أنه كانت للعرب فى سالف الأزمان حضارة قديمة زاهرة ثم اندثرت ، وكان لهم مجد غابر ما لبث أن زال • أما غير المتخصصين فيه فقد تولت أجهزة الصحافة والاعلام الغربى تشويه صورة العربى لهم • بالدرجة التى يمكننا القول معها بأن الاعلام الغربى قد عرف لفترة طويلة نوعا جديدا من عداء السامية : هو عداء العرب • وهو عداء لعب دورا رئيسيا فيه ساميو الأمس الذين عانوا من هذا الاضطهاد من قبل • والواقع أن هذا العداء الدفين وهذه الصورة المشوهة التى يعدها كثير من الصحفيين الحقيقة ، هى التى دفعت عددا من الصحفيين الفرنسيين الذين وقعوا فى شراك هذه الصورة القوية ، وهاجموا المعهد قبل رؤيتهم له ، الى الاعتذار للعرب وللمعهد بعد مشاهدتهم لحقيقته ، وتعرفهم على طبيعة الصورة التى يقدمها • وهو الأمر الذى نأمل له الاستمرار والامتداد خارج نطاق الواقع الفرنسى الى بقية أجزاء المشهد الأوروبى •

واذا كانت مسألة تعديل تلك الصورة من المهام الأساسية التى يطمح مثل هذا المعهد الى تحقيقها ،فان اقامة حوار حقيقى مع الحضارة الغربية ، ومع الواقع الثقافى الفرنسى ، وعلى أساس من التكافؤ والندية لا تقل أهمية عنها • والواقع أن هذه المهمة هى المهمة التى يجب أن تتصدر وعى القائمين على المعهد أو المفكرين فى انشائه • فمن مصلحة الثقافتين والحضارتين معا أن يقوم مثل هذا الحوار ، وأن يمد جسورا وطيدة من الفهم والصداقة بين الحضارتين ، وأن يجهز على تلك الاسترابات الدفينة لدى كل منهما تجاه الأخرى • ولكن لابد ألا نغفل عن أن علاقات الحوار الحضارى محكومة عادة بشرطين أساسيين : أولهما علاقات القوة السائدة والمسيطرة ، بما فى ذلك المصالح المتشابكة ، ومدى وعى كل من طرفى الحوار بها • وثانيهما مدى ادراك كل طرف لواقع الآخر ، ومدى معرفته بآليات تفكيره ، لأن المعرفة ليست مفصولة ، بأى حال من الأحوال ، عن آليات القوة والسيطرة • خاصة ونحن فى عالم تتحول فيه المعارف بسرعة مدهشة الى وقائع ، وتتعقد فيه تلك المعارف ولا يعادل تعقدها الا يسرها وامكانية اخضاعها للسيطرة • ومن منطلق الوعى بأهمية الدور الذى ينبغى على المعهد القيام به ، ومن موقع الحرص على الرسالة الأساسية التى ينبغى عليه النهوض بها ، أود أن أورد هنا بعض الملاحظات قبل أن نتناول الطريقة التى أدار بها المعهد أولى فصول هذا الحوار الحضارى الثقافى الهام فى أولى ندواته بعد افتتاح مقره الجديد •

(أ) أولى هذه الملاحظات هى مسألة عضوية مصر فى هذا المعهد ، وتمثيل فلسطين فيه • فلا يمكن تصور ثقافة عربية حديثة ، أو حتى

حضارة عربية معاصرة تغفل اسهام مصر العربية الثقافي ، وهذا أمر لم يستطعه المشرفون على المعهد الذين اعترفوا باسهام مصر فى المتحف أو المكتبة أو حتى فى الندوة التى خصصت للرواية • فلم يكن ممكنا مناقشة الرواية العربية دون أن يكون الاسهام العربى المصرى فى مركز هذا النقاش • لكن الاعتراف باسهام مصر مع تغييبها عن الفعالية أمر لن يستفيد منه سوى أعداء العرب والعروبة معا • خاصة وأن مصر الثقافية عربية قلبا وقالبا ، لا تستطيع أية انحرافات سياسية من نظام أو شخص أن تنال من تلك الحقيقة الناصعة التى أكدها التاريخ ، وعمقتها نضالات الشعب المصرى • بل ان مصر الثقافية كانت ولا تزال فى مقدمة فيالق المقاومة الشعبية الواسعة لجحافل الانهيار ، أو القضاء على عروبة مصر ومصريتها • أما فلسطين فهى قلب القضية العربية ومجمع تبلورها الفكرى والأيديولوجى • حيث لا يمكن لأى حوار عنها أن يكون ذا معنى بدونها • ولذلك فاننى أدعو هنا الى أن تحتل كل منهما مقعدها فى هيئة هذا المعهد، وأن تشارك كل منهما بكل ثقلها الحضارى والرمزى فى كل نشاطاته • ليس فقط لأهمية اسهام كل منهما ، ولكن لأن الثقل الحضارى والثقافى لهما هو الذى يستطيع أن يلعب دورا رئيسيا فى ساحة الحوار المرتقب •

(ب) ثانى هذه الملاحظات هى وقوع الجانب العربى فى خطأ مبدئى وهو انشاء المعهد كمؤسسة فرنسية ، وليس كمؤسسة دولية • وليست هذه مسألة شكلية بأى حال من الأحوال ولكنها مسألة جوهرية ، لأنها تقلل من الضمانات التى يمكنها أن تحمى الجانب العربى • وقد بدأ الكثيرون يستشعرون آثار هذا الخطأ • ليس فقط من خلال غلبة النفوذ الفرنسى عليه حتى الآن • ولكن أيضـــا لأن عدم تأسيسه وفق الأعـــراف الدولية ،بضمانات حصص التمثيل هو الذى جعل الجانب العربى فيه تنويعا آخر على الجانب الفرنسى ، وليس ندا له أو مختلفا عنه • فقد سيطر عليه وظيفيا ـ ضمن نطاق الحصة العربية ـ عناصر عربية اسما ، ولكنهـا فرنسيـة الهوى والمنزع ، تحوم حول بعضهـا شبهات العمـل لا لصالح العربى ، وانما لمصلحة « المكتب الثانى » الفرنسى • هذا فضلا عن أن غياب نظام الحصص بدأ يؤدى الى ظهور أشكال التعصب القطرى الكريهة • وهى أمور أقل ما تؤدى اليه هو الاجهاز على فرصة الندية ، وبالتالى القضاء على فكرة الحوار قبل أن تبدأ • ولابد من البدء فورا بتغيير التركيبة الوظيفية للمعهد ، حتى يمكن تغيير التركيبة الموقفية فيه •

(ج) ثالث هذه الملاحظات هى ضرورة أن يكون للجانب العربى فيه رؤية فكرية قومية واضحة ، على قدر كبير من الصلابة والتماسك ، تتبلور من خلال حوار فكرى عربى ـ عربى أولا لبلورة مرتكزات الحوار

مع الآخر الأوروبى • وذلك حتى لا تظهر الخلافات العربية ـ العربية على السطح ، وبالتالى تتأكد عبر سلوكيات الجانب العربى كل الأفكار الشائهة عن العرب ، والتى ينبغى أن يكون هدفنا من الحوار هو تعديلها • ان الموقف العربى المتماسك فكريـا هو المنطلق الأول لأى حوار مع الغرب نطمح فى أن يكون له معنى •

٣ ـ اشكاليات الحوار وقضاياه :

والآن وبعد أن تناولنا طبيعة تركيبة معهد العالم العربى وتكوينه ومراميه ، نبدأ الحديث عن اللقاء الذى عقده هذا المعهد ، وافتتح به أولى لقاءاته الأدبية فى مبناه الجديد الجميل المشرف على نهر السين • وقد دار هذا اللقاء الذى نظمته مديرية العلاقات الثقافية بالمعهد ، بالتعاون مع المجلة الأدبية الفرنسية (ماجازين ليتيرير) واذاعة فرنسا الثقافية تحت عنوان «الابداع الروائى اليوم» ، على مدى ثلاثة أيام (٣ ـ ٥ مارس ١٩٨٨) فى مبنى المعهد• وشارك فيه عدد من الروائيين والنقاد العرب والفرنسيين• وسأبدأ بعرض ما جرى فى هذا اللقاء جلسة بجلسة ثم أعلق عليه • ومن البداية فقد شاء منظمو هذا اللقاء فيما يبدو ، أن يجمعوا بين طبيعة اللقاء الأدبى الجاد ، وفرنسا مولعة بجدية الجدل والنقاش عندما يتعلق الأمر بالثقافة ، وبين شعبية اللقاء وتوسيع دائرة تأثيره الجماهيرية والاعلامية • والثقافة الجادة فى فرنسا ليست بعيدة عن الاهتمام الشعبى الواسع بأى حال من الأحوال • ولا أدل على ذلك من أن واحدا من أكثر برامجها التليفيزيونية نجاحا هو برنامج «أبوستروف» ، الذى يقدمه بيرنار بيفو فى أكثر أوقات الارسال حيوية ، وفى واحدة من أكثر أمسيات الأسبوع شعبية • وكأنما أراد (معهد العالم العربى) بحرصه على شعبية اللقاء أن يرد على هذا البرنامج الثقافى الناجح الذى لا يدعو صاحبه الكتاب العربى أبدا ، رغم حرصه الدائم على دعوة عدد غير قليل من الكتاب الأجانب ، ومن بينهم اليهود والصهاينة أيضا • ولذلك لم يلجأ المعهد الى شكل مائدة الحوار المستديرة التى يجلس حولها المتحاورون فى غرفة مغلقة يتداولون ما يعرض عليهم من قضايا ، وانما الى شكل المنصة التى يدور عليها الحوار بين المشتركين أمام جمهور واسع من الحضور الذين غصت بهم قاعة المسرح والمحاضرات الرئيسية بالمعهد ، والذين يشير عددهم الذى قارب الألف فى أيام اللقاء الثلاثة الى قدر ملموس من النجاح • خاصة اذا ما عرفنا أن جانبا كبيرا من الحضور كانوا من المتخصصين : من نقاد وأساتذة أدب وطلاب بحث وصحفيين • وأن الحوار كان ، فى أغلبه على درجة غير قليلة من التخصص• ولا يمكن هنا الفصل بين شكل ادارة اللقاء والمضمون الذى ينطوى عليه هذا الشكل • لأن طريقة تنظيم أى لقاء تتضمن جزءا غير هين من رسالته،

وتشارك في تحديد طبيعته ، ومستوى المعالجة فيه · فالمنصة سيميولوجيا هي شكل التوصيل من جانب واحد : وهي جزء من الطبيعة الخطابية لعملية التوصيل لا الطبيعة الحوارية له · لأنها تفترض لعب دور للتأثير على السامعين وجذب انتباههم لا من أجل ادارة حوار معهم ، وانما من أجل توطيد مكانة المتحدث لديهم · وهذا ما أثر على مجريات الحوار فى هذه الندوة ·

فبعد كلمتين افتتاحيتين قصيرتين من باسم الجسر ، مدير معهد العالم العربى (وكان حرى بمدير هذه المؤسسة أن يكون شخصية عربية مرموقة يحترمها العرب حتى يمكنها أن تكسب احترام الفرنسيين) وبدر الدين عرودكى ، مدير العلاقات الثقافية به ، بدأ الحوار بجلسة حول المكانة التى يحتلها الكاتب ، والروائى خاصة ، ضمن حضارته · قدم فيها كل من الروائى الفرنسى ألبير ميمى والكاتب العربى الفلسطينى جبرا ابراهيم جبرا تصوره عن هذه المكانة ، ثم عقب على هذا التصور عدد من الكتاب الفرنسين (فرانسواز جايار ، وديدييه ديكوان ، وعبد الوهاب المؤدب) والعرب (مطاع صفدى وعبد السلام العجيلى) ، ثم فتح المجال للقاعة للاسهام فى التعقيب ، وادارة حوار بينها وبين المنصة · وقبل مناقشة أى من تلك التعقيبات التى تكشف لنا عن مدى تحقق الحوار الرئيسيان حول هذا الموضوع ·

٥ ـ الوعى والصمت والبعد التاريخى للمعرفة :

وقد بدأ ألبير ميمى حديثه بطرح مسألة الوعى واشكالياته فى العمل الابداعى ، وكيف أن زيادة جرعة الوعى فيه تؤدى الى نضوب العناصر الابداعية · لكن شحوبها يفقر العمل كذلك · وربما كان العنصر الذى يضمن وجود درجة من درجات الوعى فى كل نص مكتوب ، هو نوع من اللاوعى الذى يدفع الكاتب الى أن ينطق بلسان مجتمعه لا عن طواعية وانما لاستحالة انغلاقه عن قضايا هذا المجتمع أو تجاهله لما يعانيه من بؤس · فالكاتب لا يستطيع أن يتجاهل الحياة الجمعية لواقعه · واذا ما قمنا بتحليل مضمون الأعمال الروائية التى كتبت فى مرحلة من المراحل سوسيولوجيا سنلاحظ أن كتاب زمن معين مشغولون عادة بمجموعة معينة من القضايا المتواترة التى تفصح عن مشاغل هذا المجتمع نفسه · لأن الكتابة الروائية هى فى حقيقتها مجموع الأجوبة التى تقدمها مجموعة ما عن تساؤلات مجتمعها · أجوبة عن تساؤلات العيش وهموم الواقع وصبوات البشر ، لأن الانسان حيوان حالم ، وحياته الخيالية جزء لا يتجزأ من حياته كلها ·

واذا ما أصبح الخيال جزءا من الواقع او تبديا من تبدياته ازدادت اهمية تناول مسألة التزام الكاتب من منظور أكثر اتساعا من المنظور السارترى ، وازدادت كذلك أهمية مسألة العلاقة بين الكتابة والسلطة ٠ فكل نص مهمــا بدا ممعنــــا فى مبــارحة الواقع ينطوى على معنى ٠ وبالتالى فهو فى علاقة مع السلطة المهيمنة على هذا الواقــع مهمــا كانت طبيعه هده العلاقه من الصدام أو الممالأة ٠ ومن هنا لابد من الاهتمام بدور السلطة فى هذا المجال بأجهزتها المختلفة من شرطة ورقابة وقمع ٠ فالثقافة تواجه عادة بالقمع والمضايقات ، وادراكه لهذه الحقيقة هو الذى يدفعه لألا يحسد الذين يصمتون أو يحنق عليهم ٠ ففى كل ثقافـة تراث من الصمت لأن الكتابة عامة مربوطة بالتراث بمعناه الواسع ٠ وهذا الاهتمام بالتراث هو الذى يضفى على الثقــافة طابعها القومى ، وهو الذى يبلور ماهيتها ، ويصوغ خصوصيتها ٠ وهذا الموضوع من المسائل التى شغلته منذ أكثر من ثلاثين عاما ٠ لكن انحصار أى ثقافة فى دائرة من الانغلاق الشوفينى ، الناجم عن تضخيم أهميــة التراث دون اخضاعــه للتأويل المستمر ، هو الذى يفقر تلك الثقافة ، وينال من انسانية أسهاماتها ٠ ومن هنا فان الذى يحدد مكانة الكاتب فى ثقافته ، ليس فقط نوعية الأجوبة التى يقدمها على تساؤلات اللحظة الحضارية التى يتعامل معها ، وانمــا طبيعة موقفه من التراث ، ومن العالم ٠ وفى هذا المجال يطرح ألبير ميمى اخطر ما فى تصوره من أفكار ، اذ يرى أن السبيل الى تحقيق حوار بين الثقافتين العربية والفرنسية (وهو ممن يعتبرون أنفسهم مؤهلين للادلاء بدلوهم فى هذا المجال لأنهم من الذين يعرفون فى فرنسا باسم الحفاة ، أو أصحاب الأقدام السوداء ــ وهو أسم يطلق على الفرنسيين الذين انحدروا من أصلاب المستعمرين المعمرين الذين ولدوا فى شمال أفريقيا) هو فى نسيان الماضى ، أو طرحه جانبا ، والتركيز على الحاضر ٠ وهو رأى غريب يدعو الى اسقاط البعد التاريخى للمعرفة ٠ وأى معرفة بلا بعــد تاريخى هى معرفة ناقصة أو زائفة ٠ وغرابة هذا الرأى بالنسبة لنا لا تنفصل عن كونه جزءا من استراتيجيات الهدف الفرنسى من انشاء المعهد ، الذى يريد لنا نسيان الماضى ، والبدء بصفحة جديدة ليست ولن تكون بيضاء بأى حال ٠ كما ان غرابته لا تنفصل عن آراء ميمى عن صمت الكاتب ، وعن ربط هذا الصمت بالتراث ٠

واذا كان ألبير ميمى يدعو الى اسقاط البعد التاريخى لمعرفتنــا ، وخاصة البعد التاريخى لعلاقات الصراع والتبعية الاستعمارية ، فان كلمة جبرا ابراهيم جبرا (وهى كلمة معدة سلفا) قد انطلقت ، لحسن الحظ ، من ابراز اهمية البعد التاريخى ، عندما أكدت على أن هذا اللقاء لم يكن ممكنا قبل ثلاثين عاما ٠ واذا كانت مبررات جبرا فى ذلك هى أن رقعة الرواية العربية لم تكن قد اتسعت بعد ، بالقدر الذى يمكننا معه عقد

مثل هذا اللقاء وبهذا القدر من الغنى ٠ فلم تكن ثمة رواية عربية يعتد بها حينذاك خارج مصر ٠ أما الآن فقد شملت مظلتها كل أقطار الوطن العربى ٠ فاننى أود أن أضيف اليها مبررا آخر وهو أن القول بالحوار يفترض بداءة الندية ، وهى أمر لم يكن ممكنا فى ظل علاقات السيطرة الاستعمارية ، و حتى بعد التخلص من نيرها مباشرة ٠ ذلك لأن النقطة التالية فى محاضرة جبرا التى عنوانها « الروائى العربى والمجتمع » هى ابراز أثر الرواية الفرنسية من فلوبير وستندال الى بروست وجيد وسارتر وكامى تؤكد أن طريق الحوار فى مرحلة السيطرة الاستعمارية لابد من أن يكون ذا اتجاه واحد من الثقافة المتفوقة الى الثقافة الخاضعة ٠ وكان من آثار مرحلة السيطرة الاستعمارية تلك أن وجد جبرا نفسه ، ووجدت معه الرواية العربية هى الأخرى نفسها ، فى مرحلة من التساؤلات المستمرة حول تبرير الذات والهوية ٠

٥ ـ الكاتب ٠٠ واشكاليات الكتابة :

ومع أن منطلق جبرا ليس منطلق الباحث السوسيولوجى ، وانما منطلق الروائى الذى يتحدث عن تجربته الذاتية وعلاقتها بالمجتمع الذى نشأت فيه ، فانه يجد أن الكاتب يواجه اشكاليات معقدة تتداخل عناصرها وتتفرع الى شعور بحاجات تنهال عليه من عصره ٠ ولا يفلح فى منحها التعبير الدقيق ٠ فالزمن العربى مبتلى بالفواجع التى يدفعه تفاقمها الى اليقين بأن الابداع هو السبيل الوحيد الى حسم المشكلات التى لا يمكن التغلب عليها ٠ لأن الكتابة عنده تنتصف لنفسها باعتبارها تأمل الذات فى الكون وتحريك شيء ما فيه ، انها الحياة بشكل غزير وملح ٠ والتأكيد على الحياة تأكيد على دلالاتها التاريخية ، ومهما انعزل الكاتب عن الواقع أو التاريخ أثناء فعل الكتابة ، فانه ليس كيانا منفصلا عن الكيانات التى تجعل لوجوده معناه ٠ فمن البعدين الواقعى والتاريخى معا تنهض الكتابة الروائية ببعدها الروائى الذى يتخلق معه واقع جديد ؛ يطمح الى اضفاء البهاء على عالم يعج بالفوضى ٠ واقع محكوم انسانه بالوعى : الوعى كمعرفة وكمصدر للألم ٠ لكن الرواية عنده ليست بديلا لأشكال المعرفة الأخرى ، لانها تنطوى على نوع من المعرفة غير القطعية : انها توحى وتنذر وتثير التساؤلات ٠ فلدى الروائى احساس عميق بمعنى الحياة المأساوى الذى تدفعه معه مأساويته الى الاستزادة منه ـ كما يقول الفيلسوف الأسبانى أونامونو ـ لأنه الحس بالحياة نفسها ٠ ولا غرو فالمجتمع لا يرى الروائى محركا لقوى الفعل فيه ، بل ومحركا أيضا لقوى الحلم ، تلك القوى التى تفوق فاعليتها فى كثير من الأحيان فاعلية الفعل ٠ ولذلك كان بروست على حق حينما قال ان يحلم المرء حياته أروع من أن يحياها ٠ وكلما اتسعت التجربة العربية ، وتعقدت حياة المجتمع الحضرية ، واحتلت فيه

المدينة مكانا مركزيا ، وتعقدت الأحلام واتسعت الفجوة بينها وبين الواقع، كلما ازدادت أهمية الرواية والروائي ، واحتلا معا مكانة أبرز من مدينة الشعر برغم أن الشاعر لا يزال هو لسان القبيلة .

وبعد أن قدم المتحدثان الرئيسيان تصوراتهما بدأت تعقيبات المنصة بكلمة عبد الوهاب المؤدب الكاتب الفرنسي – التونسي التي استهلها بالاشارة الى أن الذى يجمع المشاركين فى هذه الندوة هي احدى خصائص هذا القرن الجديد : وهي الهجرة والتنقل بين الاقاليم واللغات . فألبير ميمى الذى ولد في تونس يعيش فى باريس ويكتب بالفرنسية ، وكذلك المؤدب نفسه بالرغم من أن الأول ينحدر من أصل فرنسى ، والثاني من أصل عربى ، لكن لغة الكتابة وهي الفرنسية وحدت بينهما . وكذلك جبرا الذى ولد فى بيت لحم فى فلسطين المحتلة ، ويعيش في العراق ، ويكتب بالعربية والانجليزية أحيانا . وهذا نفسه دليل على تغير فى مكان الروائي وفى مكانته . حيث أصبح التنقل اللغوى والجغرافى عنصرين متناظرين تصبح معهما المغامرة الشكلية والتعبيرية فى الرواية نوعا من الرابطة التى توحد بين مجموعة من العناصر البشرية التى ترمى الى التغلب على هذا الشتات وتلك السيولة الوجودية الجديدة .

ثم تحدث الروائي السورى عبد السلام العجيلي فعلق على تصور البير ميمي عن علاقة الابداع بالوعي ، وأراد أن يحصر دور الوعي فى المجال التنفيذى ، أو الاجرائي ، من العملية الإبداعية ، لأن لللاوعي فى نظره الدور الأساسي فيها ، وله الأسبقية على الوعي في هذا المجال . كما تناول كذلك أفكاره التي طرحها حول الالتزام مؤكدا ضرورة ، أو بالأحرى ، حتمية أن يكون الأديب ملتزما . مشيرا في هذا المجال الى الاختلاف فى المفهوم والممارسة معا بين الكاتب العربي ونظيره الفرنسي . اذ أن الكاتب العربي كما يقول يحاول جهد طاقته الاختلاف عن نظيره الفرنسي ، ويحاول تغيير أشكال وصيغ التفكير والكتابة ، بالصورة التي تحقق هذا التمايز المنشود . كما أثار العجيلي اشكالية العلاقة المعقدة بين الكاتب والسلطة باعتبارها من القضايا المنبثقة عن أطروحة الالتزام . لكن أهم الأفكار التي طرحها كانت تلك التي تتعلق بانطواء الرواية من حيث الجوهر والممارسة معا على نوع من التناقض مع الطبيعة العربية ، بخصائصها الشفاهية ، وبنزوعها الى الاستجابات ذات الطابع الجمعي . وقد أكد هذه الحقيقة كذلك الكاتب والباحث والروائي السورى مطاع صفدى الذى أبرز فى كلمته الموجزة دور الثقافة الفرنسية ، وطبيعة الحوارات الفكرية والثقافية التى أدارها الكاتب العربى معها . كما أكد أن الابداع هو الخلاصة الأساسية لكل ثقافة ، وغير ذلك من التعميمات التى أخفقت فى اقامة حوار مع أى من طرحى هذه الجلسة الرئيسيين .

٦ ـ الرواية وسطوة المؤسسات الاعلامية :

ولما جاء دور الكاتب الفرنسي ديدييه ديكوان رئيس جمعية ادباء فرنسا ، وهي جمعية يناهز عمرها ١٥٠ عاما ويبلغ عـدد أعضائهـا ١١ ألف كاتب ، بدات حقا فصول التباكي على وضع الروائي ومكانته في عالمنا المعاصر • لأنه انطلق من القول بأن وظيفته تلك تتيح له التعميم بشأن وضع الكاتب الغربي عامة ، والكاتب الفرنسي خاصة • ومن خلال مراقبته للواقع الفرنسي ، يشعر بأن ثمة نوعا من التناقض عند الحديث عن وضع الروائي لا وضع الرواية نفسها • وهذا التناقض هو الذي دفعه الى المقارنة بين وضع الكتاب ، والعمل التليفزيوني ، حيث لا يقرأ أكثر الروايات نجاحا أكثر من ٥٠ ألف قارىء بينما يشاهد العمل التليفزيوني الناجح ١١ مليون مشاهد • بل ان الأمر يزداد تفاقما لأنه كلما حصل الكاتب على فرصة للظهور في أجهزة الاعلام الجماهيرية الواسعة تلك لا يستخدم تلك الفرصة لتدعيم مكانة روايته ، بل لابراز مكانته الشخصية ككاتب في مجتمع ما • ومن هنا تزداد فاعلية الأجهزة السمعية والبصرية على حساب الكلمة المكتوبة بمشاركة من الكتاب أنفسهم • وهذا أمر ينطوى بالقطع على شيء من المفارقة • لأنه يربط الكاتب بشكل لا واع بأجهزة المؤسسة الرسمية ، التي يشكل ابداعه تحديا لها • وقد استأثرت هذه المسألة بتعقيب عدد كبير من المشاركين ، سواء من المنصة أو من القاعة ، وأدى اختطافها للأضواء ، الى اغفال الكثير من القضايا التي طرحها المشاركون من ناحية ، وسيادة النغمة المنولوجية لا الحوارية على الجلسة من ناحية أخرى • وما أخطر أن تؤسس الجلسة الأولى لأى ملتقى طبيعة النغمة الغالبة التي سرعان ما تسيطر على بقية الجلسات • وما أخطر الموقف عندما تكون تلك النغمة هي المنولوج الذي لا يسمح بالحوار وانما تتكرر فيه الأصوات وكأنها لا تسمع بعضها البعض ، وتسيطر معه الرغبة في الحديث لتأكيد الذات لا لاضافة شيء لموضوع الجـدل والنقاش • لأن سيادة المنولوجية في هذا النقاش تعني الاجهاز كلية على هـدف اللقاء الأساسي • كما تحرمنا من التوصل الى مجموعة من الاستقصاءات المضيئة حول وضع الكاتب ،والأسباب التي تعرقـل من فعاليتـه في واقعـه ، والوسائل التي يمكن أن تساهم في ارهاف حدة هذه الفعالية وتعميقها • وهذه النغمة هي التي أثرت للأسف الشديد على بقية الجلسات، وعلى طبيعة تناول المشاركين للقضايا المطروحة عليهم •

أما الجلسة الثانية فقد خصصت لمناقشة « وظيفة الأدب والرواية اليوم » وكان المتحدثان الأساسيان فيها هما الروائي الفرنسي آلان روب جرييه والكاتب المصري ادوار الخراط • وقد بدأ جرييه الحـديث بأنه يهتم كثيرا بالنظريات الأدبية ، وينتمي حقا الى نظرية أدبية تقول بأنه

ليس هناك حقيقة مطلقة للأدب • وهي نظرية تؤدى الى التغاضي عن الفروق الفاصلة بين الأجناس الأدبية المختلفة ، لان الكاتب يبحث في حقيقة الأمر عن شيء يتأتى ولا تعرف مهيته ، وبالتالى فان ماهية التعبير الأدبي الذى يطمح الى استيعاب هذا الشيء الهيولى لا ينبغي حصرها داخل اطر مسبقة• وهنا يشير جريبيه الى ضرورة ملاحظة أن الرواية ، بالرغم من أنها تعبير لغوى تتغير باستمرار ، مع أن اللغة تتسم بقدر من الثبات النسبي • وهذا راجع في تصوره الى ان الرواية بطبيعتها غير متوافقة مع الوضع السائد على العكس من اللغة التى هى مندغمة في الآيديولوجية المهيمنة • ذلك لأن الرواية تتمحور في المنطقة التى قال عنها فاليرى انها جماع بين الشيئين اللذين يهددان العالم باستمرار : النظام والفوضى ، أولهما عنصر رومانى والآخر سلتى • وهذان العنصران متصارعان باستمرار في الشخصية الفرنسية • وأول عناصر النظام التى تعارضها الرواية وتشتبك معها هو اللغة الرومانية الأصل ، والتى نجحت في اقتلاع كل العناصر السلتية من الثقافة الفرنسية • واذا كانت وظيفة الرواية عنده تتحقق فى تخلقها على الحافة المتواترة بين هذين القطبين المتناقضين ، فان هذا لا يلغى تصوره بأن هناك نوعين من الكتاب : أحدهما يعى جيدا ما يريد أن يحققه وهو بذلك كائن في قلب العنصر الرومانى ، والآخر لايدرك ما يريد الافضاء به • ومن هنا اتسمت الرواية بهذا الاستقطاب بين الوعي والفوضى ، وهو استقطاب يوحى فيه جريبيه بأن الاقتراب من قطب الفوضى يجعل الرواية أكثر ابداعية وحيوية وتميزا •

٧ ـ الرواية بين الالتزام والوعى والفوضى :

ولأن الأفكار التى أثارها آلان جريبيه اتسمت كالعادة بقدر من الاثارة، فان المنصة لم تستطع معها صبرا ، وطالبت بالتعقيب عليها قبل أن تتيح الفرصة لادوار الخراط لتقديم تصوره المغاير حول هذه القضية الأساسية • فأشار الروائي السورى حنا مينه الى رفضه لأساسيات تصور جريبيه ، والى أن هذا الرفض ينطلق من واقع مغاير ساخن لا يسمح بتناول المواضيع المترفة • كما رد عليه المستشرق والكاتب الفرنسى أندريه ميكيل بأن العالم العربى يعيش مأساة يومية ، وبأن لأشكال الكتابة العربية أهميتها التى لا تسمح بالعبث بها بمثل هذه الطريقة التى يقترحها جريبيه • فهناك فروق كبيرة بين بحث جريبيه عن شيء يتأتى ولا تعرف ماهيته ، وبين الواقع العربى الساخن والمتفجر ، والذى يطرح نفسه بقوة على أى تأمل جاد • وقد استغرق هذا الجدل وقتا طويلا مما جنى على مداخلة ادوارد الخراط الضافية والمعدة سلفا حول موضوع الجلسة والتى سعت الى أن تطرح مفهوما متكاملا حول وظيفة الرواية فى ظل تغيرات

جذرية فى الحساسية الأدبية ، وفى طبيعة العلاقة بين الرواية والواقع أدت الى تغير فى طريقة طرح الأسئلة وفى أسلوب تناول المشكلة • ذلك لأن مأساوية الواقع العربى تدفعنا الى التركيز على وظيفة الفن الاجتماعية ، والتغاضى عن وظائفه الأخرى التى لاتقل عنها أهمية • ولأن طغيان الصورة على الكلمة ، والاعلام على الفن يدفعان الأدب الجاد الى هامش الاهتمام الاجتماعى والثقافى على السواء • وبدأ الخراط مناقشة هذه المسألة الحساسة بتناول مشكلة اللغة وعلاقة الروائى بها باعتبار أن اللغة مصدر للثراء ولكنها عبء على الكاتب فى الوقت نفسه • ولكنه ما أن شرع فى الاقتراب من جوهر المسألة حتى أسكته رئيس هذه الجلسة بفجاجة (وهو بالمناسبة مدير العلاقات الثقافية بمعهد العالم العربى) ، وحرمنا من الاستمتاع ببقية تصوره الذى بدأ واعدا باضاءات والماعات هامة •

بل ان رئيس الجلسة هذا ما لبث أن تناسى طبيعة دوره ، وهو ادارة حوار حقيقى بين الجانبين حول موضوع وظيفة الرواية ، فطلب من الكاتب المصرى جمال الغيطانى ، لا أن يعقب على الأفكار التى طرحها المتحدثان الأساسيان فى هذا المجال ، وانما أن يحدثه عن طبيعة العلاقة بين الرواية والتاريخ ، مما أثار ثائرة الناقد والروائى المغربى محمد برادة فاحتج على طريقة ادارته للندوة • وقد كان جمال الغيطانى أكثر وعيا بطبيعة الدور الذى عليه أن يلعبه فى الندوة من رئيس الجلسة ، فلم يقع فى شرك الانحراف بها عن موضوعها ، انما طرح من خلال مدخل تاريخى وظيفة الرواية فى استنقاذ اللحظة والتجربة الانسانية من التلاشى الذى يحكم به عليها انصرام الزمن • فالرواية عنده هى الجهد الانسانى الذى يقاوم هذا الفناء الذى يهددنا باستمرار • فتسعى الى الامساك باللحظة ، ولكنها تمسك بها من منظور الواقع الذى يعيشه الكاتب والمجتمع الذى يتوجه اليه • والاهتمام بهذا البعد الاجتماعى للقص هو الذى دعا الغيطانى الى طرح مشكلة العلاقة بين الشكل الروائى العربى والتصورات الغربية السائدة فى هذا المجال • ودعا فى هذا الصدد الى ضرورة العودة الى استلهام الأشكال القصصية العربية ، والى تأسيس النص الروائى العربى على قواعد الكتابة القصصية العربية • مما أدى الى قيام حوار مثير حول هذه المسألة بينه وبين الكاتب الفرنسى أندريه ميكيل أكد أن من الضرورى أن يعرف كل من الجانبين ثقافة الآخر وانجازه حتى يقوم بينهما أى حوار له معنى • فميكيل مستعرب فرنسى قبل أن يكون كاتبا أو روائيا • بل ان انجازه الروائى الفرنسى نفسه يعكس اهتماماته بالثقافة العربية وتأثره بعوالمها • وكان حريا بالفرنسيين الذين شاركوا فى الحوار أن يقرأوا بعض الأعمال العربية المتاحة فى ترجمات فرنسية حتى يكونوا أكثر معرفة بمن يحاورونهم •

ثم تحدث بعد ذلك القاص المصرى بهاء طاهر فبدأ بالدفاع عن الالتزام بالمعنى الذى نادى به ابن المقفع من أن وظيفة الأدب هى اصلاح الحاكم والرعية · فقد تصور الكاتب المصرى منذ عصر النهضة أن له دورا فى حركة التحرر · فالشكوك التى تساور الكتاب المعاصرين عما اذا كان للادب وظيفة لم تساور كاتبا مثل عبد الله النديم ، الذى ارتبط بقضايا واقعه ، واستلهم رؤى قرائه ، وتبنى قضاياهم · واستعرض بهاء طاهر بعد ذلك كيفية تطور مسألة رؤية الكاتب لدوره · فالكاتب يرى من البداية أن دوره الأول هو المشاغبة ، واثارة القلق · والدعوة الى طرح الأسئلة ، وتشجيع النزعة الى التفكير · وحتى يستطيع الكاتب أن يقوم بهذا الدور الهام فلابد أن تتاح له وسائل الاتصال الواسع بالجماهير · لكن حرمان الكاتب من دوره القيادى فى وسائل الاتصال الجماهيرية ، وقصرها على كتاب المؤسسة السياسية المدجنين ، هو الذى يحول دون استخدام هذه الأجهزة لاطلاق وتفجير طاقات الجماهير ، ولرأب الفجوة بين الكاتب وجمهوره الواسع العريض ، مما يحصره داخل وظيفة ضيقة · فلابد للكاتب عنده من أن يحقق رسالته ودوره كرائد لحركة المجتمع صوب التغيير · ولابد لذلك فى رأيه من أن يصل الكاتب الى وسائل الاعلام الجماهيرية ويستغلها للتعبير عن رأيه ، والوصول الى جمهوره الطبيعى العريض · فبهذه الطريقة تحقق الرواية عنده وظيفتها الأساسية ، وتشارك بفعالية فى صياغة الوعى ، وفى تغيير الواقع وبناء مستقبل جديد · وقد عقب بعد ذلك كل من ألان روب جرييه وحنا مينه · وليس المهم هنا طبيعة تعقيباتهم ، بل المهم أن رئيس الجلسة الذى قمع ادوار الخراط بحسم لم يتمكن من القيام بنفس الدور بالنسبة لجرييه الذى انفرد بمعظم الحديث فى هذه الجلسة · فهل كان يكيل بمكيالين ؟ أم أنه الضعف الأبدى ازاء الأوروبى والاستئساد على العربى ؟

٨ ـ الرواية كطريقة للتعبير وقضية اللغة :

أما الجلسة الثالثة فقد كان موضوعها هو « الرواية بوصفها طريقة فى التعبير » وكان المتحدثان الأساسيان فيها هما الروائى والناقد الفرنسى فيليب سوليرس والروائى والدارس السورى هانى الراهب · وقد بدأ فيليب سوليرس حديثه بالاشارة الى ضرورة ألا نغرق الفن فى السياسة والمجتمع · لأن هذا التوجه هو من سمات الأيديولوجيات المتخلفة · فالرواية فن ، وللفن أشكالياته الخاصة التى يجب أن تستأثر باهتمام الروائيين · ومن أهم هذه الاشكاليات أن الرواية برغم جهودها سرعان ما تفقد المشروعية عندما تستعمل اللغة · لأنها بالدرجة الأولى مشروع لغوى ، وهى لذلك تصطدم بقدر هائل من سوء التفاهم عندما تطالب

بانبعاث الفن من الشعب • فالفن ليس الا مجرد تجربة فى اللغة مزاحة ثانويا ، عن الواقع ، لأن اللغة نفسها انزياح أولى عنه • ولا ينفى هذا عند سوليرس الاعتراف بوجود علاقة أساسية بين الكائن ومحيطه ، أو بينه وبين المرجعيات المختلفة المشـاركة فى بلورة هذا المحيط • لكن الواقع الثقافى يطرح علينا نماذج هامة من الابداع الذى يتحقق مع نفى المبدع عن الواقع الذى يصدر عنه • وفرنسا من أكثر مناطق العالم خبرة بتلك النماذج التى يؤدى نفيها عن واقعنا الى تفجر مواهبها الابداعية بها • كما هو الحـال بالنسبة لهمنجواى وجويس ونابوكوف وبيـكيت ويونيسكو وغيرهم من المنفيين من بلاد أخرى • وقد أثارت كلمة سوليرس تلك سخط الكثيرين لاستخفافها بجوهر الموقف الذى طرحته معظم الاسهامات العربية حتى ظهورهـا • ولأنها كانت تتسم بقدر كبير من التعـالى والاستخفاف بالآخر ، دون الحوار الحقيقى معه •

أما مداخلة هانى الراهب التى عنونها ب « مقدمة وسبع أفكار عن الرواية العربية » ، والتى اشتكى من عدم اتاحة الوقت له لاكمال عرضها، فقد انطلقت من الربط بين ظهور الرواية وتكون الطبقة البرجوازيـة ، وطرحت أن التوازى بين هذه الحالة والواقـع الروائى العربى هو الذى يفسر لنا كيف أن صعود نجيب محفوظ وهبوطه روائيا كان مرتبطا بصعود تلك الطبقة وهبوطها • وأن انهيار الرؤية البرجوازية للعالم قد تواقت فى ساحة الرواية العربية مع بزوغ الرواية الجديدة • لأن هناك تفاعلا أساسيا بين الرواية والواقع باعتبارها امكانية للتغيير ، وليست مجرد أداة للتعبير • ولهذا فان الرواية العربية الجديدة تنطلق من قطيعة مع الراهن ورفض للقيم التقليدية والتاريـخ الرسمى ، وتسعى للبحث عن بنية حداثية جديدة • لكن انتاج هذه البنية الحداثية ما يلبث أن يواجه سلطة الرسمى والسائد ، وسلطة الدولة الراسخة بالتحديد • ومن هنا يجد الروائى الجديد نفسه مواجها بضرورة التعامل مع الموروثات الثقافية والقيمية بطريقة نقدية وانتقائية فى آن ، تسعى الى مواجهة عناصر التسييد والتغييب فيه • ولكن هذه المحاولة لابد أن تعى أن السلطـة ستواجهها بمحاولة تقديم ثقافة بديلة ، ليست هى بالقطع الثقافة التقليدية ، لأن السلطة الواعيـة تعرف أنهـا قد نفقت ولكنهـا ثقافة تتزيى بزى حداثى زائف • يحاول الغاء الجوهر والتركيز على التشكلات السرابية له • وهذا الوعى الذى يسود عادة فى ظل مجتمع لا يمكن أن يتحمل أكثر من فرد حر واحد هو الحاكم عادة •

وبدأ التعقيب على هذه الجلسة بكلمة الروائى الفلسطينى أميل حبيبى ، الذى يبدو أن كلمة سوليرس قد استثارته ودفعته الى بدء حديثه

بتنبيه الكتاب الفرنسيين الى مسألة أن الواقع العربي ينطوى تاريخيا وتراثيا على معاناة حادة من القمع الأوروبي • والى أنه مطلوب ممن أعطاهم التاريخ امكانية التطور أكثر منا أن يأخذوا هذه النقطة في الحسبان حين تقوم المواجهة التاريخية • فمن الضرورى أن يعترف أبناء الحضارة الأوروبية بدور أنظمتهم كمعوق أساسي للتطور الطبيعي في الشرق • وانطلق من هذا المدخل الى الحديث عن الشعب الفلسطيني وعن البرهان الكبير على وجود هذا الشعب وهو انتاجه للأدب • وان كان تعامل كتاب هذا الشعب مع الأدب يتم بالطريقة التي تعامل بها أجدادنا مع الموسيقى، يعزفونها ببراعة دون معرفة مسبقة بالنوتة الموسيقية • فانتاج الأدب في حد ذاته هو في تصوره من أبلغ الاجابات على النظرة الاستشراقية الأوروبية السائدة حول الشرق بأن الشرقيين لا يحسنون غير الكلام • لكن المسيء حقا للشرق في نظره ، هو أن الشرقيين لا يحسنون الكلام ، بل انهم حقا ممنوعون من الكلام •

وعقب بعد ذلك الروائي والناقد اللبناني الياس الخورى بالحديث عن تجربته الروائية ، التي تنطلق من أن الرغبة في الكتابة عنده هي صنو الرغبة في تغيير الكتابة السابقة علينا ، وفي نسيان كل تقاليدها • فالتجربة الأساسية للروائي عنده هي تجربة الصراع مع اللغة • تجربة ادخال المحكى والمعاش الى قلب لغة عمرها أكثر من الف عام • ترتبط بقدر هائل من القداسة ، وبكثير من الأوهام والأحلام المتعلقة بالبعث ، بعث الماضي بالتحديد • والكتابة ضمن نطاق هذا الصراع المستمر مع اللغة هي رحلة في الداخل ، وفي الخارج في وقت واحد • هي الرحلة التي يعيشها الكاتب وهو يرى واقعه يتحول بشكل درامي وسريع •

٩ ـ مكانة النقد ودوره :

أما آخر الجلسات التي تتعلق بالرواية فقد كانت جلسة عن مكانة النقد ودوره • وقد قدم كلمتيها الرئيسيتين جان جاك بروشيه ، رئيس تحرير (الماجازين ليتيرير) والناقد والروائي المغربي محمد برادة وشارك فيها عدد من الكتاب العرب من بينهم الروائية اللبنانية حنان الشيخ ، والناقد والروائي المغربي أحمد المديني والناقد السورى جورج طرابيشي والروائي الجزائرى الطاهر وطار ، وكاتب هذه السطور • كما شارك في التعقيب عليها القاص المصرى بهاء طاهر • ولأنه ليس من حقي وقد طال عرض هذه الندوة أن أبتسر مداخلات المشاركين جميعا ، وقد وقع أكثر من خلاف فكرى حاد بينهم ، ولأنني أريد أن أتريث طويلا عند آخر جلسات هذه الندوة ، فان من حقي على الأقل أن أبتسر مداخلتي الخاصة دون ملامة أو تثريب • فقد أشرت الى أن الأشكالية التي

عرضت علينا الندوة مجموعة من تجلياتها المختلفة فى غياب المشروع النظرى الروائى • وغياب تاريخ نقدى دقيق لأشكال القص ولاستراتيجياتها المختلفة فى الثقافة العربية • وغياب الدراسة التى تبحث فى التناظر بين تلك الاشكال والاستراتيجيات وبين البنى الاجتماعية والأطر الثقافية السائدة بما فى ذلك العلاقات التناصية • وقد أدى هذا الغياب الى محاولة الروائيين طرح أنواع من التنظير الذى يؤكد تأمله وجود فجوة مذهلة بين التصور النظرى والانجاز الروائى التطبيقى • وقد كشفت المناقشات عن ثلاثة أنظمة تصورية طرحت كلها بشكل منولوجى دون أن تتخلق آليات حوار حقيقى بينها حتى داخل المعسكر العربى نفسه • وهى تطور تقليدى، وآخر حداثى ، وثالث توفيقى •

وقد نتجت هذه الحالة عن اكتفاء النقد بدور المتابعة وتجاهله لأدواره الأساسية الأخرى من اعادة تمحيص وتقييم الأفكار والرؤى،وطرح مجموعة من التصورات التى ترود المغامرة الابداعية وتفتح أمامها دروبا جديدة للتجريب ، واعادة ترتيب سلم المكانات الأدبية كل فترة من الفترات • كما نتجت كذلك عن الاخفاق فى فرز العلاقة بين النقد والاعلام ، خاصة وأن هذا الفرز يؤدى الى فرز العلاقة بين النقد والسلطة لأن الاعلام عندنا من الأجهزة التى تسيطر عليها السلطة • وهذا الفرز سرعان ما يؤدى الى فرز العلاقة بين الكتابة ومؤسسة السلطة عامة بأجهزتها القمعية والترغيبية معا • لذلك كله لابد اذن من خلق مشروع نقدى يبلور أجرومية الكتابة ويضع القواعد الخاصة بنحوها • ولن يتحقق هذا المشروع الا فى مناخ من الديموقراطية • فلابد أن يسود الحوار بدلا من المنولوج • ولابد أن يصبح للانجاز الأدبى الدور الرئيسى فى تقييم الكاتب وفى تحديد مكانته دون أن يكون له آخر الأدوار فى عالم تلعب فيه علاقات السلطة الدور الرئيسى • ولابد أن تتملص الثقافة كلية من أسر التبعية ، وأن يزداد وعى الواقع العقلى بكل مكوناته الاجتماعية ، وأن تتراجع التعميمات والخرافات ؛ وأن نتخلص على صعيد التفكير والتصرف معا من آليات العلاقة الأبوية والتصورات القبلية ، فبدون هذا كله لن يتحرك الانجاز الروائى من هامش الواقع الى مركزه ، ولن يكون للأدب دوره الذى يطمح الى تحقيقه •

١٠ ــ قضية الترجمة واشكاليات عبور الحدود اللغوية :

تبقى هنا آخر جلسات الندوة ، وهى تلك التى خصصت ل «مشكلات ترجمة ونشر الأعمال الأدبية » • ولا يمكن الفصل بين قضايا الحوار العربى الأوروبى ، أو قضايا العلاقة الشائكة والمعقدة بين الأنا والآخر وبين قضية ترجمة الأدب العربى الى اللغات الأوروبية خاصة • لأننا حينما

نتحدث عن ترجمة الأدب العربي فإن ما يخطر على الذهن فورا هو ترجمته للغتين الانجليزية والفرنسية ، لا اللغة الصينية مثلا ، بالرغم من ان عدد قراء هذه اللغه قد يتجاوز ضعف عدد قراء هاتين اللغتين مجتمعتين • فالمسألة هنا ليست مسألة عدد القراء ، وانما هي مسألة تلك العلاقة المعقدة بين الحضارتين العربية والأوروبية • وهي العلاقة التي يمكن وصفها بذلك المصطلح الانجليزي الخاص بعلاقة « الحب ـ الكراهية » ، التي يظل فيها العنصران المتضادان فاعلين بنفس الدرجة تقريبا • دون أن ينطوي ذلك على أي تناقض أو عدم انسجام • وقد طرحت مسألة الترجمة من جديد على صعيد البحث في لقاء الكتاب العرب والفرنسيين ذاك • وكان هذا الموضوع هو أهم موضوعات اللقاء في تصوري • ليس فقط لأنه الموضوع الذي يكشف أكثر من غيره عن جدليات تلك العلاقة المعقدة ، ولكن أيضا لأنه الموضوع الذي يبارح الاستقصاءات النظرية والرؤى والمفاهيم الى الوقائع الصلدة والجزئيات المحسوسة • فالترجمة والنشر هي الساحة التي تطرح فيها قضايا هذا الحوار نفسها على الواقع ، وتصطدم فيه بالتالي بالكثير من مشكلات العلاقة التاريخية بين الشرق والغرب •

هذا فضلا عن أن الترجمة عملية تتحقق في ساحة صياغة القيمة الأدبية ، وهي من أكثر الساحات خلافية بالنسبة للنص الأدبي • فترجمة أي عمل أدبي تضفي عليه قيمة اضافية • وفي هذه القيمة شيء موضوعي ، وآخر زائف • فالموضوعي هو أنها شهادة للعمل المترجم بأنه يستطيع أن يخاطب ثقافة أخرى وشعبا آخر • وأنه ينطوي على بعض الاستقصاءات والاضاءات التي تتجاوز المحلي الى الانساني • أما الزائف فهو أن الترجمة ، وخاصة اذا ما أخذنا في اعتبارنا عقد الدونية ازاء الغرب ، وهي عقد لها أسبابها الموضوعية بلا شك ، تنطوي ، لدى كل من المتلقي وصانع القيمة الاعلامي ، على افتراض ضمني بأن هذا العمل الذي حظي بمباركة الغرب وقبوله أفضل من غيره من الأعمال الأخرى التي لم تنل مثل هذا « الشرف » • وهو افتراض ينطوي في مستوى من مستوياته، على أننا مازلنا ننظر الى الغرب باعتباره من صناع القيمة حتى داخل ثقافتنا نحن • خاصة أننا لا ننظر لثقافتنا الخاصة باعتبارها من مصادر الحكم القيمي على الثقافة الغربية • ناهيك عن أن يفكر الغرب للحظة في أن ترجمتنا لعمل دون آخر تضفي عليه أي قيمة على الاطلاق • ولو فعل ذلك لخرج بنتيجة غريبة مؤداها أن موريس لبلان وجورج سيمينون ، أو حتى برناردان دي سان بيير أفضل من مارسيل بروست ومارجريت يوسانار في فرنسا ، وأن أجاثا كريستي أفضل من جيمس جوس في الثقافة الانجليزية • بل لو كانت كثرة المترجمات في حد ذاتها دليلا على امتداد الجسور وتحقق الفهم الصحيح لكان علينا أن نتوقع فهما أعمق

بين الثقافتين ، من هذا الذى طالعنـا بـه الحوار بين الروائيين والكتاب العرب والفرنسيين فى هذا اللقاء •

فلو نظرنا الى قائمة ما ترجم من الأدب العربى الحديث الى الفرنسية فى العقدين الأخيرين وحدهما لفاجأتنا كثرة ما بها من أعمال • فقد ترجمت ثلاثة دواوين لادونيس ، وديوانان للسياب ، ومجموعتان لمحمود درويش وعبد الوهاب البياتى • كما ترجمت ثلاثية نجيب محفوظ (بين القصرين، قصر الشوق ، السكرية) وروايتاه (زقاق المدق) و (اللص والكلاب)• وثلاث كتب ليوسف ادريس هى (الحرام) و (النداهة) و (بيت من لحم) وروايتان للطيب صالح هما (موسم الهجرة الى الشمال) و (بندر شاه) ، وكتابان لعبد السلام العجيلى هما (قناديل أشبيلية) و (تليفريك دمشق) وكتاب لكل من : فؤاد التكرلى (الرجع البعيد) ، غسان كنفانى (رجال فى الشمس) ، جمال الغيطانى (الزينى بركات) ، اميل حبيبى (المتشائل) ، صنع الله ابراهيم (نجمة أغسطس) مجيد طوبيا (دوائر عدم الامكان) ، حنان الشيخ (حكاية زهرة) ، بشير خريف (الدجلة فى عراجينها) ، محمد شكرى (الخبز الحافى) ، الياس خورى (الجبل الصغير) ، عبـد الرحمن منيف (شرق المتوسط) وغيرهم • وهنـاك بالاضافة الى هذا كله أكثر من مائتى رواية كتبها كتاب عرب من المغرب الكبير (الجزائر والمغرب وتونس) يكتبون أساسا باللغة الفرنسية برز من بينهم الطاهر بن جلون الذى حصل هذا العام على جائزة الجونكور الأدبية ، ومحمد ديب ، وكاتب ياسين ، ومولود فرعون ، ومولود معمرى ، وادريس شرايبى ، وعبد الكبير الخطيبى ، ورشيد بوجدرة ، وآسـيا جبار ، وفريدة بلغول ، ومراد بربون ، ورشيد ميمونى ، ونبيل فارس ، ومحمد خير الدين ، وعبد الوهاب المؤدب ، وأمين المعلوف •• وغيرهم •

وبالرغم من هذا الحصاد الغزير كشف الحوار عن جهـل الكتاب الفرنسيين ، روائيين ونقاد ، للأدب العربى ، اللهم الا أندريهميكيل الذى يعرفه لا بحكم كونه كاتبا فرنسيا ، وانما بحكم كونه مستشرقـا دارسا للأدب والثقافة العربية وتاريخهما • ورافقت هذا الجهل معرفـة نسبية متفاوتة بين الكتاب العرب بالثقافة الفرنسية • بدءا من راسين وكورنى وفلوبير وبلزاك حتى سارتر وكامى وجيد وبروست وألان روب جرييه وفيليب سولرس • هذه المفارقة هى فى الواقع من تجليات تلك العلاقة غير المتوازنة بين الشرق والغرب • وقد طرحت مناقشات الجلسة الهامة والخاصة بالترجمة والنشر الكثير من تجليات هذه العلاقة • وكشفت عن أن الغرب حينما يترجم الأدب العربى لا يريد فحسب أن يساهم فى صياغة صورة العربى فى العقل الغربى ، وانما يطمح ، كما قال فيليب كاردينال،

مترجم يوسف ادريس الى الفرنسية ، الى المشاركة في صنع طريقة رؤية العربى لنفسه • فالغرب لا يزال يشعر بأنه المتفوق ثقافيا ، بعد أن مارس لقرون طويلة صور التفوق الفعلى فى مراحل سابقة كثيرة • ولان الغرب يشعر بهذا التفوق ، فانه لا يحس بأى جدوى من الاهتمام بالثقافات الاقل أهمية • ولذلك فانه بالرغم من أنه من النادر أن يبحث المترجم العربى للنص الغربى عن أى دعم لنشره ، فان النص العربى المترجم الى الفرنسية يواجه الكثير من الصعوبات التى أوجزها بيير برنارد رينان صاحب « دار سندباد » التى تخصصت فى نشر الترجمات الفرنسية للأدب العربى فى مشاكل التمويل ، ومشاكل التوزيع ، ومشاكل الاختيار ، والمشاكل المتعلقة بطبيعة اللغة العربية وميلها للاسهاب ، والمشاكل المتعلقة بصورة الاسلام فى الغرب عموما ، ومشاكل تجاوز الحاجز الاعلامى ، ومشاكل دعم اليونسكو أو غيرها من المؤسسات للنص المترجم من العربية ، وغير ذلك من المشاكل •

والواقع أن هذه المشكلات كلها هى فى حقيقتها مجموعة من التجليات المختلفة لقضية أساسية وهى أنه اذا كانت الدول تضع مجموعة من القيود والشروط السياسية لمنع الآخرين حق عبور حدودها والدخول الى أراضيها ، وهى شروط تنبثق عن رغبة تلك الدول في حماية مصالحها والحفاظ على ترابها الوطنى ، فان عبور الحدود اللغوية يخضع هو الآخر لمجموعة من الاجراءات والاشتراطات أشد صرامة وأكثر سياسية من تلك التى يخضع لها البشر • لأنه اذا كان من الممكن طرد الشخص غير المرغوب فيه من بلد ما ، فان النص الذى يسمح له بالعبور يصعب طرده مرة أخرى• ولهذا لم تعبر كثير من النصوص الأدبية العربية حقا حاجز اللغة برغم ترجمة أعمال عديدة من الأدب العربى الحديث ، ولم تصبح جزءا من الثقافة العالمية ، ولم تفرض وجودها على جمهور القراء العريض • فلماذا يحدث ذلك ؟ هذا هو السؤال الصعب الذى سأحاول الاجابة عليه هنا • فبرغم تلاحق صدور ترجمات الأعمال الأدبية العربية ، واتساع نطاق اختيارات تلك الأعمال ، وتنوع هويات كتابها • لم يتمكن الأدب العربى الحديث من اختراق حاجز اللغة ، وكسر الطوق الذى يحصره فى دائرة المتخصصين الضيقة • وهى الدائرة التى تتكون عادة من دارسى هذا الأدب باعتباره موضوعا من موضوعات الأقليات الغريبة المثيرة لحب الاستطلاع ، أو من المتعاطفين مع القضية العربية ، الذين يريدون تشجيع انتاجاتها ، ومن هنا ينطبق عليه المثل القائل بمحاولة اقناع المؤمنين ، أو من أعداء هذه الثقافة الذين يطمحون الى العثور فى هذا الأدب على ما يؤكد تحيزهم ضده ، فيفرحون بالعثور على شاهد من أهلها يشهد بما يريدون ، أو بما يمكن أن يبرهن على صدق دعاواهم الزائفة ضد هذه الثقافة •

فبرغم كل هذه الترجمات التعددة ، والأسماء المتنوعة ، والخيارات التى لا يمكن انكار جودة بعضها وقيمته الفنية العالية ، ظل الأدب العربى محصورا فى دائرة ضيقة من الجمهور هى دائرة المتخصصين ، أو المهتمين بشكل مهنى عادة بشئون العالم العربى ، أو بهمومه الاجتماعية والحضارية والسياسية • وظلت فكرة القارئ العادى عنه ، أسيرة النظرة التى تشكلت من خلال قوالب الاستشراق القديمة التى حصرت آدابه العالم الثالث ، أو بالأحرى حاصرتها ، فى حدود دائرة الغرابة والطرافة • وينهض هذا المفهوم على مركزية الذات الحضارية الأوروبية ، ولا غرو فهى الذات المزدهرة والمتفوقة حضاريا فى الوقت الراهن • كما ينطوى على هامشية الآخر المختلف ، ومحاصرته فى دائرة الغريب والطريف وغير العادى • مما يشكل عائقا يحول دون اعتبار الانسان فيه خدينا للذات ومعادلا لها• لأن هذا الأمر ، ظل قاصرا على الثقافات الأوروبية ، التى تنطوى اختلافاتها على قدر كبير من التماثل • والتى يستطيع أى فرد فيها ، وضع نفسه بسهولة ، فى مكان الآخر والتوحد مع تطلعاته ، وفهم همومه ومشاكله •

وهناك بالاضافة الى مسألة الطرافة تلك مسألة أخرى أكثر أهمية وأعظم خطرا ، وهى أن معظم هذه الاختيارات مازالت محصورة فى دائرة النظرة الاستشراقية القديمة للعالم العربى • فالغرب الذى يريد أن يؤكد ديموقراطيته يسخر الخطاب الاستشراقى لتأكيد ذاته القومية وخصائصها الايجابية • وذلك من خلال ابراز اختلاف تلك الذات عن الآخر النقيض • فاذا أراد الغرب مثلا أن يرسخ فى ذاته طبيعته الديموقراطية فان أفعل السبل فى هذا المضمار هى استخدام النقيض ، أى ابراز مدى استبدادية المشرق ، ومدى بشاعة تلك الاستبدادية • وليس أفعل فى هذا المجال من اختيار الأعمال الأدبية التى تؤكد هذه الصورة ، حتى يشهد بما يريدون شاهد من أهلها • واذا ما أراد ابراز مدى تقدمه ، فان أفعل السبل فى هذا المجال أن يقدم هذا التقدم وقد انعكس على مرايا تخلف الآخر المختلف • وقد جنت هذه النظرة على الاختيارات ، وجعلتها قاصرة على ما يكرس هذه الرؤية ، ويمنع القارئ العادى بالتالى من الاقبال على اختياراتها • لكن العامل الرئيسى الذى عمل على سجن ترجمات الأدب الحديث فى دائرة المتخصصين الضيقة ، وحال دون وصولها الى القطاعات العريضة من القراء المتعطشين الى قراءة الأدب الجيد مهما كانت هويته ، ومهما اختلف مصدره ، هو عملية الترجمة ومنطقها • فمازال الكثيرون من مترجمى الأدب العربى الحديث من المتخصصين وأشباه المتخصصين الذين يتعامل معظمهم مع النص الأدبى باعتباره وثيقة اجتماعية أو سياسية لا عملا ابداعيا خلاقا • ويضع بعضهم دقة الترجمة فوق أدبيتها • فتجيء ترجماتهم أشبه بترجمات

الوثائق الاجتماعية أو السياسية ، دقيقة فى معظم الأحيان وحرفية ، ولكنها خالية من كل نبض أدبى ، عارية من أى روح شاعريـة ، وخالية من أى توتر فنى • فالترجمـة الأدبية القـادرة على اختراق حاجز اللغة ، هى الترجمة التي لا يكفى أن يجيد صاحبها اللغة التى ينقل عنها ، وأن يكون ابن اللغة التى ينقل اليها ، وانما لابد أن يتوفر له الحس الأدبى ، وأن تكون لديه القدرة على خلق معادل أدبى للنص الذى يترجمه • لا يقنع بنقل الجملة حرفيا ، وانما يطمح الى نقل ظلالها الايحائية ، وايقاعاتها الشعرية الشفيفة ، وتوترات تراكيبها الداخلية ، وموسيقى تتابعاتهـا الأسلوبيـة • فلكل هذه الخصائص وظائف هامة فى اللغـة الأدبيـة ، لو تجاهلها المترجم ، أو أغفل دورها لأجهز على روح النص ، ولم يتبق له منه غير جثة هامدة من الحروف والكلمات • ولهذا فلازال الأدب العربى ينتظر المترجم الأديب ، الذى سيحقق له ما حققه جورجى راباسا لأدب أمريكا اللاتينية ، أو ما حققـه فيتزجيرالد من قبله لرباعيـات الخيام ، وما حققه المنفلوطى لأعمال فرنسية متوسطة القيمـة ، ولكن ترجمتهـا المشرقة جعلتها جزءا هاما من تراث العربية وأدبها الحديث •

باريس　　　　　مارس ١٩٨٨

● السفر الثامن عشر

مفهوم الجامعة والعيد المئوى التاسع لأقدم جامعة أوروبية

انعقدت في الفترة من ١٦ يوليو الى ١٣ أغسطس ١٩٨٨ في مدينة بولونيا الايطالية الدورة الثالثة للجامعة الصيفية العربية الأوروبية . وذلك في اطار الاحتفال بمرور تسعة قرون على تأسيس أول جامعة في أوروبا • وقد أسعدني الحظ بالمشاركة في هذه الدورة المتميزة • ولذلك أود أن أشرك القارىء معي في التعرف على القضايا والأفكار التي انبثقت عنها ، وأن أطرح عليه بعض الأفكار المتعلقة بمفهوم الجامعة ذاته والذى كان مدار التأمل بمناسبة هذا العيد المئوى التاسع لانبثاق فكرتها في أوروبا كلها • ذلك لأن المتأمل لما آل اليه حال الجامعات العربية يدرك أننا في حاجة الى وقفة طويلة نتأمل فيها فهمنا لفكرة الجامعة ذاتها ، ونعيد لتلك الفكرة الهامة قيمتها التي أهدرتها الممارسات الخاطئة ، ونال منها التردى والتدهور الذى انتاب الواقع العربي كله في المرحلة الأخيرة• بل ان فكرة الجامعة الصيفية العربية الأوروبية ذاتها لا تنفصل عن هذه الرغبة القوية في المراجعة الجذرية لفهمنا لطبيعة الجامعة ودورها• بل ربما انبثقت عن التوق العارم الى تصحيح هذه الفكرة • والى تخليص مفهوم الجامعة مما لحقه من ركود وتشوهات ، قبل أن تنبثق عن السعى الى اقامة حوار خصب وفعال بين الثقافتين العربية والأوروبية • لأننا لا نستطيع فصل شكل الجامعة الصيفية العربية الأوروبية • وطبيعة ممارساتها العلمية ، عما ينطوى عليه هذا الشكل الجديد من مفاهيم ومنطلقات فكرية وفلسفية تتعلق بمفهوم الجامعة ذاته • وقد يبدو أننا نحاول الخوض في البديهيات ، وأننا نعرف جميعا ما هي « الجامعة » • ولكن حقيقة الواقع العربي هي التي تتطلب العودة الى تأسيس ما كنا نتصور أنه بديهي والى التأكيد على المسلمات التي عصفت بها رياح التدهور ، واغتالتها قوى التردى ، والى الحديث من جديد عن الأصول حتى ندرك مدى انحرافنا عنها ، وبعدنا عن جوهرها •

وليس هناك أوفق من المنهج التاريخي في هذا المجال • لأن الاحتفال بالعيد المئوى التاسع لتأسيس أول جامعة في أوروبا ، اتاح لنا الفرصة

للتعرف على طبيعة المسـيرة التى قطعها مفهـوم « الجامعة » نفسه عبر التاريخ ، وعلى نوعية التغيرات التى انتابت المؤسسة التى أنشئت لتحقيقه· وكيف ساهمت تلك التغيرات فى بلورة أبعاد المفهوم المختلفـة ، أو فى تحرير بعض جوانبه · وتوسيع أفق البعض الآخر · خاصة وان الكتاب التذكارى القيم الذى أصدرته الجامعة بهذه المناسبة أتاح لنا التعرف على تفاصيل تلك المسيرة · وعلى بعض أبعاد الحوار الهام الذى دار بين مفهوم الجامعة نفسه وبين المتغيرات السياسية والاجتماعية للواقع الذى صدرت عنه بالصورة التى تكشف لنا عن الأدوار المتعددة التى تلعبها الجامعة فى حياة مجتمعها ، وتوشك أن تكون برهانا قويا على أطروحة ميشيل فوكو الأساسية حول علاقة المعرفة بالسلطة · وحول التشابك الشائق والفعال والمعقد بين آليات القوة والسيطرة وآليات اكتساب المعرفة أو استخدامها· ذلك لأن المتتبع لتاريخ أول جامعة أوروبية ــ كما كتبته الجامعة نفسها ــ يلاحظ كيف أصبحت الجامعة بالتدريج مركز تجميع الحاجات الاجتمـاعية العقلية ، ومصدر تقنين المشروعية السياسية ذاتها · اذ يكشف لنا تاريخها عن أن سعى الجامعة للحفاظ على استقلالها ، كان رديف توقها الى ممارسة عملية التحكيم المراوغة والمعقدة فى ساحة الصراع الدائر بين السلطـة والشعب · أو فى ساحة اسباغ رداء من المعقولية أو ما يسمى أحيانا بـ « الموضوعية » على نوعية معينة من تلك العلاقات · وجامعة بولونيا من أفضل الأمثلة فى هذا المجال · ليس فقط لأنها جامعة أوروبية ، ولكن ايضـا لأنها الجامعة التى خرج منها أكثر من بابا (ألكسندر الثالث ، وانسونت الرابع) والتى درس فيها دانتى ، وبترارك ، وكوبرنيكوس ، وايراسموس ، وتوماس بيكيت ، وكارلو جولدونى ، وجيوسيو كاردوتشى (الحائز علىجائزة نوبل فى الآداب عام ١٩٠٦ والذى جعل الجامعة محور التجديد وهمزة الوصل بين القديم والحديث) ، وعدد كبير من أبرز علماء ايطاليا ومثقفيها ، على مدى القرون التسعة الماضية · وهى أيضا الجامعة التى خرج منها أبرز كتاب ايطاليا المعاصرين وعلى رأسهم أومبرتو ايكو ، عالم السيميوطيقا ، ومؤسس معهد علوم الاتصال بها ، ومؤلف الرواية التى أخذت بالباب أوروبا فى السنوات الأخيرة ·وهى رواية(اسم الوردة)· كما أنها الجامعة التى سمحت للنساء بالانضمام اليها · بل والتدريس فيها منذ القرن الثانى عشر ، اوقبل قيام أى من الجامعات الأوروبية بذلك·

لهذا كله كان من الطبيعى أن يتحول الاحتفال بالعيد المئوى التاسع لتاسيس هذه الجامعة الى احتفال بعيد فكرة الجامعة نفسها · وأن يتبلى عبره احساسها بمسئوليتها تجاه الثقافة الأوروبية كلها · وقبل الحديث عن الجامعة وعيدها أود أن أشير على عجل الى المدينة نفسها · فقد كانت هذه هى زيارتى الأولى لتلك المدينة الايطالية الجميلة بيرجيها المائلين

(برج آسينيللى وبرج جارسيندا) ، وشخصيتها المتفردة • فقد لفتت المدينة نظرى بتميزها المعمارى الذى لا تستطيع الا أن تنعى معه فوضى العبث المعمارى بالقاهرة • فهى ثانى مدينة ايطالية ـ بعد البندقية ـ من حيث حفاظها على معمارها التاريخى القديم • لكنها أول مدينة ايطالية من حيث جماعية طابعها المعمارى ، فبدلا من أهمية البنايـات الكبرى ، والقصور والكنائس العملاقة فى روما وفلورنسا وميلانو والبندقية تتميز بولونيا بجماعية التخطيط المعمارى للمدينة ككل • وكان المدينة بأكملها وحدة معمارية وزخرفية عملاقة تمتد على طول خمسة وثلاثين كيلو مترا من الواجهات ذات البواكى والأقواس • ولهذا كان غياب الميادين الواسعة ضرورة أملتها الواجهات المعمارية المتماثلة الممتدة فى كل شوارع المدينة• وكان التخطيط المعمارى على صورة عجلة العربات الخشبية القديمـة ، بمركزها الدائرى الذى يقع فيه البرجان وبشوارعها العديدة التى تتفرع منه كأقطار عجلة عملاقة محاولة لادارة المدينة كلها حول محورها ، لتحقيق أعلى درجة من التناسق والتناغم • ولا أستطيع أن أفصل تلك الشخصية الجماعية عن حقيقة وجود الجامعة ومركزيتها فى حياة المدينة (والكلمتان: الجماعية والجامعة صادرتان عن نفس الجذر اللغوى فى العربية ، وهو أمر له دلالته) • كما لا نستطيع أن نفصل وجود أول جامعة أوروبية بها عن أنها كانت أول مدينة أوروبية تلغى الرق فى عام ١٣٥٦ • وكان هذا فى الوقت الذى كانت فيه واحدة من أكبر المدن الأوروبية اذ كان تعدادها آنذاك قرين تعداد باريس •

نعود الآن الى تاريخ جامعة بولونيا ، والذى يوشك أن يكون تاريخا لمسيرة فكرة الجامعة نفسها فى العقل الأوروبى • وكيف أن استقلاليتها كانت صنو سعيها الدائم للتجذر فى الواقع الذى صدرت عنه والذى تسعى الى أن تكون من أدوات حاكميته • وتحدد الجامعة نفسها تاريخ ميلادها بتاريخ تبلور المبادىء التى صنعتها وهى : (١) وجود مكان يتيح لباحث أن يحدد اطارا لمجال بحثه من أجل توسيع نطاق المعرفة • (٢) أن يتيح هذا الاطار للباحث أن يقوم بنقل معارفه الى مجموعة من الطـلاب الذين يتابعونه بملء حريتهم ، وأن يكون هذ الأمر مستقلا كلية عن أى مؤسسة بما فى ذلك الكنيسة والدولة • (٣) يستطيع المجتمع عند الضرورة أن يلجأ الى هذا المركز العلمى ـ البحثى ليستفيد من علمه أو ليسخر انجازاته لغايات عملية أو تطبيقية • وقد توفرت هذه المبادىء الثلاثة للجامعة فى أواخر القرن الحادى عشر • أو بالتحديد عام ١٠٨٨ • فقد كان هذا العام هو التاريخ الذى تحررت فيه الجامعة من سلطة الكنيسة ، فبدون هذا التحرر لم تكن ثمة جامعة • لأن الجامعة ـ كالدولة وكالانسان ـ لا تتحقق ذاتيتها ، قبل أن تتحقق لها استقلاليتها ، ولا تتبلور هويتها قبـل أن

تشعر باستقلالها الكامل عن غيرها من المؤسسات الأخرى • فالعنصران الأساسيان اللذان لا تكون بدونهما جامعة هما الحرية والاستقلال • ولابد أن تتوفر الحرية على جانبي المعادلة ، بمعنى حرية الباحث فى تحديد موضوعه • وحرية الطالب فى الانضمام الى الجامعة ، وفي متابعة الموضوعات التى يختارها بمحض ارادته • ودون املاء من أحد • وقد كان هذا العام أيضا هو التاريخ الذى بدأ فيه اساتذة النحو والبلاغة والمنطق دراسة القانون فى الجامعة • ومن هنا تحويلها الى مصدر للحاكمية الاجتماعية • وقد يتفق الكثيرون معنا فى أهمية حرية الباحث التى لا يزدهر بدونها البحث • ولكن حرية الطالب ، التى توشك أن تكون غائبة عن نظمنا الجامعية العربية أهم منها بكثير • لأن فرض موضوع الدراسة على الطالب يقلل من امكانيات تفوقه فيه وابداعه داخل اطاره من ناحية • كما يوهن من احساسه بأهمية الحرية العلمية منذ بداية مدارجه على طريق الجامعة من ناحية آخرى •

واذا كانت هذه المبادىء الأساسية هى التى بلورت مفهوم أول جامعة أوروبية • فان مسيرة تلك الجامعة من التطور هى التى صاغت بقية مبادئها • وأول تلك المبادىء هو مبدأ تراكم المعرفة من خلال الاسهاب فى التعليق على الانجاز السابق • أو مبدأ اللجوء الى الحواشي والتفسيرات والتعليقات الذى تعرفه الدراسات العربية القديمة • وتقنين منهجية هذه الحواشي الى الحد الذى جعل بولونيا أول مركز أوروبى يهتم بمنهج التأويل • ويرسى أسس الهرمنيوطيقا «علم التأويل» النظرية والتطبيقية على السواء • سواء أكان مجال تلك الهرمنيوطيقا تأويل النص الدينى أو الدنيوى • وقد كان لتأويلات جامعة بولونيا التشريعية ، منذ جراتيان وتلاميذ أرنيريوس • الفضل فى تغيير طبيعة العلاقة بين الكنيسة والدولة فى القرن الثانى عشر • وفى ميلاد الملكيات القومية فى أوروبا ، وهو ما حدث فى فرنسا وانجلترا • وما أن جاء القرن الثالث عشر حتى كانت الجامعة قبلة طلاب المعرفة فى أوروبا كلها • وبؤرة لجدل يصيب شرره المتطاير بعض القوى الاجتماعية والسياسية بالخوف • مما دفع مجمع المدن الايطالية ، عقب انتصاره على الأمبراطور فريدريك بارباروسا ، راعى الجامعة فى هذا الوقت ، الى مطالبة أساتذة الجامعة بالقسم بألا ينشروا تعاليمهم خارج أسوار المدينة ، أو بالأحرى خارج أسوار الجامعة • وكان هذا نوعا من العقد الاذعانى الذى سلمت فيه الجامعة بحق السلطة المدنية فى أن تختار اجتهاد الجامعة أو ترفضه • مقابل تسليم تلك السلطة بقدسية الحرم الجامعى ، وحق أساتذته فى نشر أفكارهم بحرية داخله • وهو مبدأ آخر مهم ، فحرمة الجامعة هى ضمان حريتها فى الاجتهاد والتفكير ، وهى معيار حرمة العقل الجمعى كله • وان

تمرد عدد من الأساتذة على هذا العقد ، وطالبوا بحريتهم فى نشر أفكارهم داخل الجامعة وخارجها • وكان نتيجة هذا التمرد تأسيس جامعة جديدة فى « بادوا » عام ١٢٢٢ •

واذا كانت مسيرة الجامعة حتى هذا الوقت متركزة على حماية حقوق الباحثين والأساتذة ، فان النصف الأخير من القرن الثالث عشر وبدايات القرن الرابع عشر شهدا اهتمام الجامعة بحماية طلابها (الذين بلغ عددهم أكثر من ألفين فى هذا الوقت) ضد شتى صنوف الاستغلال المادى والمعنوى ، سواء أكان الاستغلال متمثلا فى جشع أصحاب البيوت أم فى تضييق السلطات الدينية أو الدنيوية عليهم • فأسست كليات خاصة لاقامتهم وتوفير الرعاية والحماية لهم • خاصة وأن عددا كبيرا منهم كانوا من الطلاب الأجانب : وجلهم من الأوروبيين • وهكذا تأكد مبدأ هام وهو مسئولية الجامعة عن توفير مناخ من الحماية والحرية لطلابها حتى تزدهر اجتهاداتهم • ويثمر سعيهم لتحصيل العلم بلا مخاوف أو قيود • فأين هذا من طلاب جامعاتنا الذين نتركهم فريسة للجشع والقهر ، والذين يشارك الأساتذة أنفسهم فى استغلالهم بأثمان الكتب المرتفعة تارة ، وبالدروس الخصوصية أخرى • بل ان الجامعة كانت بسبب استقلالها المادى والمعنوى تترك أمور ادارتها الى طلابها • ولم تتدخل الدولة فى ادارتها حتى القرن السادس عشر حيث فرضت الحكومة البابوية سلطتها المادية والمعنوية عليها • ولكن الجامعة سرعان ما استعادت استقلاليتها بعد فترة قصيرة وأدارها مزيج من الطلاب والأساتذة ، ثم أصبح لها مدير من بين الأساتذة • منذ مطلع القرن الماضى وحتى الآن • ومن هنا أرست الجامعة مبدأ الاستقلال الكامل حتى ولو اعتمدت على الدولة فى تمويلها، وهذا مبدأ بالغ الأهمية •

ويوشك أن يكون تطور بنية الجامعة هو تطور المعرفة الأوروبية ذاتها ، أو سجلا لدخول بعض أنواع من تلك المعارف الى مدار الاهتمام الاجتماعى والجامعى معا • مما يوثق عرى العقد الاجتماعى غير المكتوب بين الجامعة ومجتمعها ، فبعد أن كانت الجامعة قاصرة على دراسة القانون لأكثر من قرنين من الزمان ، أضيفت اليها فى القرن ١٤ كلية الآداب • وبدأ التركيز على دراسة البلاغة ، وتأسيس كلية التوثيق وادخال دراسة الفلك • وفى القرن ١٥ بدأ الاهتمام بدراسة اللغات القديمة وخاصة اليونانية والعربية • ثم دخلت الهندسة والرياضيات • وفى القرن ١٦ أصبحت بولونيا مركزا للدراسات الأرسطية الجديدة ، وبدأت الفلسفة تحتل مكانة متميزة على خريطة الموضوعات المدروسة فيها • وفى القرن ١٧ بدأت بها دراسة الطب المنظمة مع أن التشريح كان يدرس فيها منذ ثلاثة قرون كجزء من العلوم الطبيعية • وفى القرن ١٨ عاد الاهتمام

بالرياضيات وبدأت دراسة قوانين الاقتصاد بعد أن كانت تلك الدراسة قاصرة على الجانب المالي والحسابي وحده منـذ القرن ١٥ · كما أعقب الثورة الصناعية ادخال دراسة الكهرباء ومختلف فروع التكنولوجيا اليها · ولم تتوقف الجامعة أبدا عن النمو · فأحدث معاهدها الجديدة هو معهد علوم الاتصال بكلية الآداب ، وهو المعهد الذى أسسه ايكو · ومن هنا اصبحت تضم ثلاث عشرة كلية بعد أن بدأت بكلية واحدة · وأصبح بها عشرات المعاهد التى لا تلبى فيها حاجة المجتمع أو العصر فحسب ، وانما ترود حركتهما معا ، وتستشرف مستقبل تطورهما · لأن الجامعة التى تطمح لأن تحظى بمكانتها الجديرة بها فى مجتمعها عليها أن تكون عقل هذا المجتمع المفكر وضميره اليقظ الذى يقاوم محاولات السلطات لاستمالته أو تنويمـه ·

لقد جعلنى هذا الدرس الجامعى البولونى أشفق على حال الجامعات عنـدنا ، لأن مسيرة جامعة بولونيا هى مسيرة مع التطور الحق ، وهذا ما لا أستطيع قوله عن مسيرة الكثير من جامعاتنا · لأن ماضى عـدد كبير منها أكثر اشراقا من حاضرها · ولأن مستوى دراساتهـا واجتهاداتهـا لا ينفصل عن اهدار حرية البحث فيها · أو العصف بحقوق طلابهـا · لأن قهر الأساتذة فيها حولهم الى مستبدين صغار يمارسون قهر طلابهم بلا حرمة للعلاقة بين الأستاذ وطالبه · ويستغلونهم بالمغـالاة فى أثمان الكتب التى لا يجرؤ كثير منهم على طبعهـا لتفاهـة مادتها ، وبالـدروس الخصوصية التى تجعل الطالب يشعر بانه سيد أستاذه ماديا على الأقل ، ويفقد بالتالى الكثير من احترامه له · فهل من أمل فى صلاح حال جامعاتنا؟ هذا تساؤل لا أملك هنا اجابة عنه · أما حديث الجامعة الصيفية العربية الأوروبية ، فهو موضوعنا هنا ·

فقد انعقدت فى مدينة بولونيا الايطالية كما ذكرت الدورة الثالثة للجامعة الصيفية العربية الأوروبية ، وهى جامعة فريدة بين الجامعات· لأنها جامعة تقترب من المفهوم الفلسفى أو المثالى المجرد للجامعة أكثر من اقترابها من الجوانب الهيكلية والمؤسسية المعروفة لها ، والتى انحرفت بهـا عن جوهرها فى حالات عديدة · فليس لتلك الجامعة مبنى أو مقر دائم ، وليس لها ميزانية مرصودة ومصـدر ثابت للتمويل ، ولا برامـج محددة للدراسة ، ولا طلاب دائمين تتلقى منهم المصروفات · وليس فيها أساتـذة متفرغون تنفذ بهم برامجها البحثية الطموحة ، ومع هذا فهى أقرب الى مفهوم الجامعة المثالى من كثير من الجامعات العربية التى أعرفها · أو هى أقـرب الى أن تكون جامعة الجامعات ، ومجمع الخبرات والاجتهادات المعرفية الحرة · ذلك لأن هذه الجامعة التى دعا اليها الباحث العربى الدكتور محمد عزيزة

صاحب الدراسة الشهيرة الرائدة عن (الاسلام والمسرح) يتوفر لها برغم فقرها المادى الكثير مما تفتقر اليه معظم الجامعات العربية.اذ تنهض الجامعة على فكرة المناخ العلمى والمعرفى المفتوح.الذى يتيح فرصة الحوار الحر الخلاق لأساتذتها وطلابها على السواء ، والذى يتسق مع تأسيس الجامعة في قلب فكرة الحوار بين ثقافتين من أعرق ثقافات عالمنا المعاصر ، وهما الثقافة العربية والثقافة الأوروبية ، ومن أكثرها حاجة الى هذاالحوار عله يبدد حواجز الريبة وفقدان الثقة بين هاتين الثقافتين الكبيرتين ، والتى تراكمت عبر سنوات من التوتر والعداء . وهى فضلا عن هذا كله جامعة تعى أهمية الحرية ، وضرورة الاستقلال الكامل عن كل المؤسسات والأنظمة العربية منها والغربية ، حتى يمكنها أن تكون نموذجا لحرية البحث ، وساحة للحوار المعرفى الخالى من العقد والاشكاليات .

وقد أنشئت هذه الجامعة منذ ثلاث سنوات ، وعقدت دورتها العلمية الأولى بالحمامات فى تونس عام ١٩٨٦ . ثم عقدت دورتها الثانية فى فاليتا بجزيرة مالطه عام ١٩٨٧ ، وكانت دورة هذا العام فى بولونيا هى دورتها العلمية الثالثة . وينهض التخطيط لدورات الجامعة على مبدأ ديموقراطية المشاركة حيث يقوم مجلس الجامعة العلمى باختيار أربعة موضوعات كل عام فى مجالات اهتمام الجامعة الأربعة (وهى : الفكر والثقافة والعلوم والسياسة من الموضوعات العديدة التى يقترحها أعضاؤه . ويخصص لكل موضوع أسبوع كامل لبحثه من مختلف وجوهه . وتفتح الجامعة حلقات بحثها تلك لمشاركة الباحثين والطلاب دون شرط غير الرغبة والجدية . أما تمويل دورات الجامعة العلمية فانه يتم بطريقة تعاونية ، اذ تستضيف الجامعة هيئة علمية توفر للمشاركين فيها من الباحثين الاقامة الكاملة ، وتدبر لهم قاعات المحاضرات وامكانيات الترجمة . بينما يقوم الباحثون من خلال جامعاتهم الأصلية أو مؤسساتهم بتأمين نفقات الانتقال الى المكان الذى تنعقد فيه دورتها . وقد اختارت الجامعة حركية الموقع لاثباته حتى تنشر فكرتها على أوسع نطاق من ناحية . وحتى تتيح للمشاركين فيها فرصة أوسع من التنوع المثرى للحوار من ناحية أخرى ، وحتى لا تقع تحت تأثير آليات سيطرة الموقع الجغرافية على فعالياتها أو طريقة ادارتها من ناحية ثالثة . وقد استطاعت هذه الطبيعة الحركية للجامعة مع ديموقراطيتها وتعاونيتها أن تجعلها نموذجا فريدا فى عصرنا للأكاديميات القديمة التى كان يسعى اليها الباحثون والمفكرون من مشارق الأرض ومغاربها لتداول الأفكار وتمحيص الرؤى والاجتهادات فى شتى فروع المعرفة دون عوائق أو تحفظات .

وقد جذب تفرد فكرة هذه الجامعة وأهميتها اليها عددا كبيرا من الباحثين والمفكرين والأدباء حتى ضم مجلسها العلمى ما يقرب من ثلاثين

شخصية من الجامعيين والأدباء والفنانين والمحررين والناشرين · فقد ضم المجلس جامعيين من عدد كبير من الجامعات الغربية والعربية ، ففيه أساتذة من جامعات باريس ولندن ومدريد وبولونيا وموسكو وتورونتو وميريلاند الأمريكية ونامور البلجيكية وأنقرة ، وجامعات بغداد والرياض والجزائر ومراكش وتونس والمجمع اللغوى بالقاهرة ، بالاضافة الى عدد من المعاهد والهيئات المتخصصة كالكوليج دى فرانس ، ووكالة الفضاء الأوروبية ، والجمعية الأوروبية للبحث ، والمؤسسة الأوروبية للثقافة ، ومعهد روبير شومان لأوروبا وعدد من الناشرين والمحررين · فأضفى هذا الحشد الكبير على دورة الجامعة الثالثة ثقلا علميا جعلها من أبرز النشاطات التى استضافتها جامعة بولونيا ضمن فعاليات الاحتفال بالعيد المئوى التاسع لتأسيسها ، أو بالأحرى لتأسيس أول جامعة أوروبية ، وان لم تكن بالقطع أول جامعة فى العالم لأن جامعتى القرويين بفاس والأزهر بالقاهرة أقدم منها بزمن طويل · ولقد كان استضافة الجامعة الصيفية العربية الأوروبية عملا له دلالته الهامة لأنه ليس استضافة من أقدم جامعات أوروبا لأحدثها فحسب، ولكنه ينطوى على اعتراف بأهمية الشكل الجامعى الجميل الذى أحيته تلك الجامعة الصيفية وبعثت به أعياد الجدل العلمى الحر الذى طمسته ضخامة المؤسسات الجامعية التقليدية · ذلك لأن أحد أهم انجازات تلك الجامعة الجديدة هو الغاؤها لطغيان الجوانب النفعية على العملية الجامعية التى جعلت الحصول على المؤهلات والشهادات أهم من العملية الأكاديمية نفسها· فألغت تلك الجامعة مفهوم الشهادة لصالح مفهوم الحوار العلمى الحر ، وعلقت الهم النفعى لصالح الهم المعرفى ، وتخلت عن اقامة عوائق المصروفات وغيرها من العوائق المادية فى وجه طلابها ، حتى تعيد لمفهوم الجامعة نقاءه · وتخلصه من تلك الماديات التى أبهظت كاهل العملية الجامعية وطمست بهاء أرستوقراطية المعرفة عندما حولتها الى نوع فج من أرستوقراطية الطبقة وجاه المادة ·

فالجامعة الصيفية العربية الأوروبية جامعة حرة بكل معنى الكلمة · تفتح أبوابها لكل قادر على الارتقاء الى مستوى حواراتها دون عائق من مادة أو مؤهلات · وتحيل قاعاتها الىمنتديات للجدل الخلاق الذى لا يستهدف غير اثراء معارفنا واقامة حوار حقيقى جاد بين الثقافتين العربية والأوروبية · ومن هنا فقد أزالت العنصر المادى كلية من العملية المعرفية ، وأعادت لها بهاءها القديم · فلا يحصل أساتذتها على أى عائد مادى من مشاركتهم فى فعالياتها ، ولا تستأدى طلابها أى رسوم لقاء استفادتهم مما تقدمه من معارف · وما تطرحه من اجتهادات · بل انها تحاول ــ رغبة منها فى تحقيق أعلى قدر من ديموقراطية العملية المعرفية ــ أن تدبر لبعض طلابها الذين يسعون الى قاعاتها من مناطق بعيدة امكانية الاقامة ونفقاتها،

حتى لا تكون المادة عائقا دون مشاركتهم في نشاطاتها • لأن الرغبة الحرة في المشاركة في النشاط المعرفي هي المحك الأول لصدق المبادرة العلمية في عرف هذه الجامعة العربية الأوروبية الجديدة ، والتي ترمي الى نشر نموذجها العلمي المنفتح على أوسع رقعة ممكنة من العالمين العربي والأوروبي • ولهذا كان اصرارها على الحركة الدائمة والانتقال كل عام من بلد الى آخر • ولهذا أيضا أهيب بجامعاتنا العربية أن تشجع هذا النموذج الجامعي الجديد ، وأن تستضيف دورات الجامعة القادمة ، حتى تعيد تأسيس الاهتمام بالجانب البحثي للجامعة ، بعد أن طغى عليه عندنا الجانب التلقيني • وطمس جل امكانياته الابداعية الخلاقة لكن دعوة دورات الجامعة الى بعض أقطار وطننا العربي لها دور اضافي آخر وهو محاولة خلق توازن بين جانبي الجامعة العربي والأوروبي • حتى لا يطغى الجانب الأوروبي ويستأثر بنصيب الأسد من المشاركة من ناحية ، وحتى يكون هذا التوازن شكلا من أشكال التوازن والندية المطلوبة لتحقيق أقصى درجات الجدية في الحوار بين الثقافتين العربية والأوروبية من ناحية أخرى •

صحيح أن من يستعرض برنامج الدورة الحالية للجامعة يجد أن هناك قدرا لا بأس به من التوازن بين التمثيل العربي والتمثيل الأوروبي في المشاركة في فعالياتها من حيث أسماء المشاركين ، ولكننا اذا ما نظرنا الى مؤسسات هؤلاء المشاركين سنجد أن الغرب يحظى بنصيب الأسد في هذا المجال • لأن عددا كبيرا من الباحثين والجامعيين العرب الذين شاركوا في هذه الدورة جاءوا اليها ممثلين لجامعات أوروبية تحقيقا للدور الذي يلعبه هؤلاء الباحثون في مؤسسات الغرب العلمية • ولنستعرض معا برنامج هذه الدورة حتى يتعرف القارىء على تجسيد هذه المسألة من ناحية ، وحتى يدرك مدى تنوع برنامجها وخصوبته من ناحية أخرى • ويتكون برنامج الدورة الثالثة — كالعادة — من أربعة أسابيع يخصص كل واحد منها لمجال معرفي معين • وينقسم الأسبوع الى محترفين أو ورشتين أو مائدتين مستديرتين أو سمها ما شئت فما زالت ترجمة الـ (ورك شوب) الانجليزية أو (أتيليه) الفرنسية من الأمور التي لم نستقر على ترجمة موحدة لها حتى الآن ، وان آثر برنامج الدورة أن يستعمل « محترف » وهي الترجمة التي سأستخدمها في هذا العرض وكان الأسبوع الأول مخصصا لملتقى الفكر وكان محترفه الأول عن « الفكر الاسلامي والحركة الفكرية في فترة قيام أولى الجامعات الأوروبية » ودارت فعالياته طوال ثلاثة أيام وشارك فيها جمال الدين العلوي (جامعة فاس) وجلال العمراني (المركز الطبي للبحث بباريس) والشيخ بو عمران (جامعة الجزائر) و س • بورنيت (جامعة شيفيله) وأوفيد كابيغاني (جامعة بولونيا)

ويورى كوتشبتى (اليونسكو) وهانس فايبر (جامعة أمستردام) وتيريز درويارت (جامعة لوفان) وارنست فورتان (جامعة بوسطن) وسارسينو انجلوت (جامعة مالطة) ومحسن مهدى (ج . هارفارد) وميشال مارت (ج . بودابست) وعزت قرنى (ج . عين شمس) وجوزيف بويخ (ج . مدريد) وسنان تسبيبة (ج . بير زيت) .

أما المحترف الثانى فقد كان موضوعه « فى التجديد : تفسير متعدد الأوجه لهذا المفهوم وتحليل ممارسات التجديد فى مختلف الميادين » ودارت مداولاته على امتداد ثلاثة أيام شارك فيها جاك بيرك (الكوليج دى فرانس) والمهدى المنجرة (ج . الرباط) وتيارى جودان (مركز الدراسات المستقبلية بباريس) ومحمد بن أحمد (ج . تونس) وعبد الوهاب حشيش (ج . فلوريدا) وسويشى كاتو (ج . طوكيو) وعلى كازانسجيل (ج . أنقرة) وعبد الوهاب المؤدب (منشورات سندباد بباريس) ومحمد معتصم (ج . باريس رقم ١) وموريس ريتور (معهد روبير شومان لأوروبا) وجورج تل (ج . نامور) . أما الأسبوع الثانى فقد خصص لملتقى الثقافات وانقسم هو الآخر الى محترفين كان أولهما محترف « قراءات متقاطعة » الذى قدم فيه متخصصون أوروبيون قراءاتهم لنصوص أدبية عربية . وقدم فيه متخصصون عرب قراءاتهم لنصوص أدبية غربية . وشارك فيه أدونيس (اليونسكو) وجى دى بوشير (الجمعية الدولية لكتاب اللغة الفرنسية بمنتريال) وفوزى بوبية (ج . الرباط) والكاتب المصرى جمال الغيطانى ولوسيت هيلر (ج . كولونيا) وهيلرى كيلباتريك (ج . بون) ومنى ميخائيل (ج . نيويورك) وكارمن رويث برافو (ج . مدريد) وايريك سالين (ج . فيلادلفيا) وفاليرا كيرباتشينكو وفلاديمير شاجال (ج . موسكو) وكاتب هذه السطور . أما المحترف الثانى فكان عن « الفن فى المدينة : دمج الفنون التشكيلية فى الفن المعمارى للمدن واستلهام التقاليد المعمارية فى احياء أسلوب جديد وخلق علاقة جديدة بين العمل التشكيلى والجمهور ، وقد انقسم الى قسمين قدم فى أولهما عدد من الباحثين والفنانين العرب تجربة المدن العربية فى هذا المجال من خلال تجربة مدينة أصيلة المغربية ومدينة جدة السعودية ومدينة بغداد العراقية . أما القسم الثانى فقد تخصص لتقديم تجربتين فرنسيتين فى هذا المجال هما تجربة منطقة « لا ديفانس » بغرب باريس . وتجربة مدينة باريس الجديدة التى يجرى العمل فيها الآن .

هذا وقد خصص الأسبوع الثالث لملتقى العلوم والتقنيات ، وانقسم الى ثلاث محترفات أولها عن الطب والعلوم الصحية : اسهام العلوم العربية الاسلامية فى التجديد العلمى الأوروبى فى العصر الوسيط وعصر النهضة ، وشارك فيه العربى بوقرة وسليم عمار (تونس) ورشيد بنغازى

(باريس) وسونجا برينتجس (ج · لايبزج) وأحمد جبار (ج·دورساى) وأحمد الحسن (ج · تورنتو) حكمت الحمصى (ج · حلب) ويعقوب العبيد (ج · الكويت) وأودلف يوشاكثيتش (ج · موسكو) أما المحترف الثانى فكان عن « العلوم والتقنيات الزراعية : التغذية فى البحر الأبيض المتوسط · الماء والزراعة المتوسطية » وشارك فيه لويس مالاسيز (ج · بولونيا) وأوان آكندرسن (ج · دوام) وحبيب عايب (القاهرة) ومحمد بصرى (الرباط) وشاذلى العروسى (تونس) وأميليوبيريز (ج·مورسيا) وكارلوس بورتاس (ج · لشبونة) وفلاديمير سيبالتيك (ج · زغرب) وكان المحترف الثالث عن « دور الاتصال فى تكوين التجمعات الأقليمية فى أوروبا والعالم العربى وأفريقيا » وشارك فيه عدد كبير من الاعلاميين الأوروبيين والعرب ·

اما الأسبوع الأخير فقد خصص لدراسة « العلاقات العربية الأروبية بين الأمس واليوم » وانقسم الى ثلاثة محترفسات كان أولها عن « تاريخ القانون : الوضع القانونى للأقليات حقوقها ومسئولياتها فى نظر القانون الكنسى والقانون الاسلامى » وشارك فيه حيسيات كابوتر (ج · بولونيا) وعبد الوهاب بوحديبة (ج · تونس) وعز الدين ابراهيم (ج · الامارات العربية) ورينيه ماتز (ج · سترا سبورج) وجلوريا جارسيا (ج · سنتياجو) وكان المحترف الثانى عن « العلاقات الاقتصادية الدولية بين المجموعات الأوروبية والعالم العربى » وشارك فيه كلود نيجول (ج · نيس) وهاشمى عليا (ج · تونس) ولويجى دى كومت (ج · روما) وبيسار خادر (ج · لوفان) واليخاندرو لوكار (ج · مدريد) وهيلى لوكى (ج · أودنس بالدنمارك) وكان المحترف الثالث والأخير عن «القانون الدولى العام المقارن : وجهات النظر الأوروبية والعربية والأفريقية» وشارك فيه هيرفيه كاسان (ج · باريس ٥) وعبد الوهاب بخاتى (ج · وهران) وفيكتور أوف جيبالى (ج · جينيف) وآن جونتلى (ج · بولونيا) وعزوز كاردون (ج · قسنطينة) وكلوفيس مقصود (ج · الدول العربية) أمادو سايدو (نادى داكار) وغيرهم ·

من هذا كله ندرك مدى تنوع الموضوعات التى تدارسها المشاركون فى الدورة الثالثة للجامعة الصيفية العربية الأوروبية ، ومدى تعدد الجامعات والمؤسسات التى جاءت منها بالصورة التى ندرك معها أن هذه الجامعة الفريدة استطاعت أن تكون ـ برغم عمرها الغض ـ ساحة حرة للحوار بين المدارس والتيارات المختلفة ، وأكاديمية جامعة تصب فيها انجازات مجموعة متنوعة من الجامعات والباحثين ·

بولونيا   اغسطس ١٩٨٨

● السفر التاسع عشر

قضايا التحديث والحداثة العربية في ندوة القيروان

شاركت في ندوة « العرب والحداثة » التي نظمتها كليـة الآداب والعلوم الانسانية بالقيروان قبل أيام • وتنظيم تلك الكلية الفتيه لندوة عن (الحداثة) في أعرق المدن التونسية وأكثرها محافظة عمل له دلالته، خاصة وأن هذه المدينة أكثر من غيرها من المـدن التونسية تشهد مـدا أصوليا ملحوظا ، وخاصة في تلك الفترة التي تسبق الانتخابات التونسية، والتي تتبلور فيها الاستقطابات الفكرية بصورة يمتد معها هذا الاستقطاب عادة الى الجامعة ، بل ويسفر عن أكثر أشكاله حدة في ساحتها • ولما كان على رأس هذه الكلية استاذ مرموق هو حسين الواد الذي يؤمن بالعقلانية، وبأن دور الجامعة الأول هو تنمية القدرة على الحوار والتفكير الموضوعي الهادىء ، واشاعة المعرفة العقلانية بين الطلاب لارهاف قدرتهم على تحكيم العقل وتجنب السلوك القطيعي ، ويحرص على أن يكون النقاش بكليته على أرقى المستويات التي حققتها استقصاءات العقل العربي في هذا المجال ، ويطمح الى ارساء مستوى رفيع للبحث الأدبي والفكري في هذه الكلية الفتيه التي تأسست قبل أربع سنوات ، فقد نظم تلك الندوة الكبيرة الناجحة برغم ضيق الامكانيات المادية التي حالت دون أن تتجاوز الدعوة حدود النطاق العربي الى النطاق الدولي ، حيث أراد أن يدعو اليها ــ كما تكشف عن ذلك الدعوة الأولى للندوة والتي بدأ الاعداد لها قبل ثمانية أشهر ، عددا من أبرز المهتمين في جامعات العالم بتلك القضية •

وبرغم ضيق الامكانيات ، واعتذار عدد من الذين وجهت لهم الدعوة في آخر لحظة وبعد قبولهم المشاركة فيها ، وبصورة لم تمكن الكلية من توجيه الدعوة الى غيرهم ، بما في ذلك عدد من الأسماء المرموقة في هذا المجال ، والتي يطرح اعتذارها في اللحظة الأخيرة ذاك أخلاقيات العمل الثقافي للمناقشة • فمن حق كل كاتب أو باحث أن يقبل أو يرفض أي دعوة توجه اليه • ولكن ليس من حقه بأي حال من الأحوال أن يقبل تلك الدعوة التي توجه اليه في المرحلة الأولى من التحضير ، ثم يعتذر عنها في اللحظة الأخيرة ، فلا يتيح فرصـة للهيئة الداعية لاستبداله بمن يسـد مكانه ، ويؤثر بذلك سلبيا على برنامج الندوة ، ويخلق فجوات في مخططها •

برغم كل تلك المعوقات استطاعت الندوة أن تحقق الكثير ، وأن تطرح فى الساحة التونسية نموذجا جادا للندوة العلمية الفكرية التى تحرص على التعامل الموضوعى مع مادتها ، وتسعى فى الوقت نفسه الى أن تكون أداة تنوير ، وعاملا من عوامل التغيير فى مجتمعها الذى يستشرف مرحلة تاريخية جديدة • ولذلك عملت الكلية على صعيد البنية التنظيمية للندوة (وكل بنية لها محتواها الفكرى والموقفى) أن تفتح مداولاتها على جمهور الطلاب الواسع ، فقد كان عدد الحاضرين فى مدرج قاعة الندوة الرئيسية ما يربو على الأربعمائة ، بينما كانت وقائع الندوة تنقل عبر دائرة تليفيزيونية مغلقة الى مدرج مجاور • وأدى هذا الانفتاح الى خلق مناخ معرفى يطرح أمام الطلاب الذين انتقلت اليهم عدوى العنف المجتمعى والجدل بالأيدى ، نموذجا للحوار العقلى الذى أسعدنى كثيرا أن ألاحظ أنه انتقل للطلاب أنفسهم ، وأثر على نوعية لغتهم وأسلوب تفكيرهم فى الحوار ، كما تبدى بوضوح من خلال مشاركتهم فى جدل الندوة وهى المشاركة التى أخذت فى التصاعد والنضوج حتى بلغت ذروتها فى اليوم الأخير على وجه الخصوص • كما أتاح لهم الاطلاع على كثير من الأجتهادات والتيارات الفكرية التى خيل لهم أنهم يعرفونها ، وقد تجسدت أمامهم بصورة بعيدة عن الخلط والتشويش ، ومطروحة فى ساحة الحوار العقلى الهادىء مع التيارات الأخرى • تقارع الحجة بالحجة وليس باليد والعنف • ومن هنا أضافت الندوة الى الجانب المعرفى ارساء نموذج للجدل العلمى بالحجة وبالمنطق العقلى الهادىء •

وقد دارت أعمال الندوة على مدى ست جلسات حافلة بالاستقصاءات الحادة والمناقشات الخصبة • بدأت أولاها والتى رأسهاالباحث التونسى حمادى صمود وكانت جلسة تونسية خالصة ، ببحث فرحات الدشراوى عن « الحداثة فى تفكير خير الدين الاصلاحى » حاول فيه بلورة الصلة الجوهرية بين مذهب خير الدين وبرنامجه الاصلاحى فى سياقه التاريخى وبين نزعة التحديث التى عرفتها تونس بعده ، وخاصة اذا ما فرقنا فى التحديث بين النوع السطحى الذى يعرض عن كل قديم ويتعلق بكل جديد والنوع العميق الذى يجرى مجرى التحول الفكرى والتقدم العلمى المحقق لنمو المعرفة • فقد أدرك خير الدين أن التحديث ينهض على جدلية الماضى والحاضر ، وعلى القدرة على التحول وخاصة فى مجال ادماج القيم الحديثة المقتبسة من المدنية الأوروبية فى مجرى الفكر الاسلامى • ويناقش البحث أفكار خير الدين فى سياقها من ناحية ، وفى محاولتها من ناحية أخرى لحل المعضلتين اللتين واجهتا أغلب مفكرى النهضة فى الماضى ، وهما: كيف يمكن الانتساب للعالم العصرى مع المحافظة على خصائص الأمة وأصالتها : وكيف يمكن الحد من استبداد الحكم ، مع ضمان تحقيق

العدالة • وعن هاتين المعضلتين تتفرع الكثير من الأسئلة الهامة التى طرح خير الدين الكثير منها حول ماهية منوال الحكم الذى يحسن الاقتداء به ، ونوعيــة المؤسسات الغربيــة سياسية كانت أو اجتماعيــة التى ينبغى اقتباسها ، وطبيعة الجدل بين التأخر والتقــدم ، وغير ذلك من الأسئلة التى تتبدى عبرها عملية التحديث على أنها نظرة للحياة والمجتمع تنحو منحى الشك فى التراث •

وكان البحث الثانى لأحمد الحــذيرى عن « الحداثــة بين الاتباع والابداع » الذى انطلق من مجموعة من تعريفات الحداثة تشير الى أننا مازلنا حتى فى مناقشاتنا لتلك المشكلة متخلفين خطوات عن الغرب الذى يناقش الآن مشاكل ما بعد الحداثة • ويرى أن الحداثــة تتبدى للعقــل العربى عبر مسيرته معها على صورة أسئلة ، لأن هذا العقل يعتبر الحداثة اشكاليه عربية أساسا • ثم حاول بعد ذلك أن يبلور تصورا لهذا المفهوم كما يتبدى فى الثقافة العربية من خلال رفضه التعريف بالماهية لصالح التعريف بالخصائص المميزة له • وأهــم تلك الخصائص فى رأيــه أن الحداثه أكبر من آن يمكن اختزالها فى اشكالية القديم والحديث وآن مفاهيم الحداثة العربية مرتبطة بالحداثة العالمية ، وأنها سؤال يكتسب شرعيته من تكلس آليات التحول فى الواقع العربى ، لأنها تجاوز للوثوقيات دون التورط فى التنكر للتراث • لأن من الضرورى لنا أن تتضح الصورة التى نمتلكها عن الماضى حتى لا نقع فى المنوالية : أى النسج على منوال القدامى• لكى يمكن لنا اقامة جدل بين عناصر الثبات وعناصر التحول حتى لا تصبح حداثتنا عالة على الغرب • وكى نحقق ذلك لابد من التحرر من الذاكرة الغربية الى النسيان الفاعل حتى تتواصل الحداثة كصيرورة دائمة أبدا •

أما آخر أبحاث هذه الجلسة فكان عن « شروط الحداثــة » لعــلى الشنوفى ، الذى أراد ــ كما قال لنا ــ أن يتناول معوقات الحداثة فوجد نفسه باحثا فى شروطهــا • وأهم هذه الشروط لديــه هى تجاوز الزمن العادى عن طريق التجذر فى زمن الذاكرة وانفتاح على زمن الآخر فى آن • وضرورة مقاومة كتلة الأجوبة الراسخة التى تستهدف طمس تطلعاتنا ، والبحث فى طبيعة تناقضاتنا بجرأة والتخــلى عن الأجوبــة السياسية الضيقة • والتخلص من الثنائيات التقليدية الحاكمة لتفكيرنا من أصالة ومعاصرة ، قــديم وجديــد ، ماض وحاضر • الــخ والتحــرر من كابوس التقليد • والاهتمام بالنقد الذى يرمى الى مزيد من الوعى ، وعدم اقصاء أى طرف من أطراف الحوار • وطرح الاستخدامات اللامعقولة للعقل جانبا• والتخلى عن استراتيجية شغل الناس بالثانوى عن الجوهرى • والاهتمام بالحوار الخصب الذى يوضــح ما كان مطموسا ويبلور ما كان مكبوتــا •

أى أن كل هذه الشروط تنطوى على الاهتمام بالعقلانيـة وارهاف الوعى القادر على التغيير .

أما الجلسة الثانية التي رأسها الكاتب التونسى المنجي الشمل فقد كانت هي الأخرى تونسية اذ بدأت ببحث لحمادي صمود عن « معوقات الحداثة » انطلق من النظر في أدبيات الحداثة المكتوبة بالعربية وخاصة في مجال الأدب الذى وجد فيه أن خطاب العرب حول الحداثة يدور حول مفهوم القطيعة الذى يرى أن الحداثة تحول يبدأ من محاصرة كل أشكال السلطة التى تمنع هذا التغير حتى يمكن الخروج على القائم . ويتساءل عما اذا كانت الحداثة تنهض حقا على البتر والانقطاع ، أم أننا لم نفهم منها غير جانبها الظاهرى المتمرد . وعما اذا كان بالامكان أن نتصور الحداثة حركية تمازج وتداخل وتآلف . ذلك لأن مآل الحداثـة فى العالم الثالث يطرح على الباحث فى أمورها أنها لا تكون دائما قطعا وانما يمكن اعتبارها حركية تمازج وتداخل وتآلف . ذلك لأن مآل الحداثـة فى العالم الثالث على القطع تؤسس نفسها على هيئة أشكال ثابتة ما تلبث أن تستثير الحاجة الى تجاوزها . لأن الحداثة تنطوى فى داخلها على قوى الحركة والسكون فى وقت واحد . وهناك تناقض يطرحه السؤال الهام : هل بالامكان نقل ما يسمى بالتكنولوجيا والاستفادة من المؤسسات التى نجمت عن الحداثة للحاق بالحضارة دون الانغماس فى السياق الذى ولـد تلك المنتجات ؟ وهل يمكن فصـل التكنولوجيا عن الثقافة المرتبطة بها ؟ الجواب عنده لا ، ولكننا نتصرف بهـذه الطريقة التى تفصـل بينهما لأسباب قائمة فى مجتمعاتنا تحملنـا على الاستفـادة من تلك المنجـزات دون الاستفادة من سياقها ، بل ورفض هذا السياق بوعى أو بدون وعى . وهذا يعنى أننا غير قادرين حقا على الدخول فى طمس الحداثة لعـدم قدرتنـا على الوعى بالاختلاف . وهنا يطرح سؤالا هاما : هل تسمح الأصول المعرفية التى تكون ما يسمى بالوعى العربى الاسلامى بأن يعيش الفرد أو الوعى العربى وعى الاختلاف وأن يكون وجدانه مهيأ لذلك ؟ ويجيبه على ذلك بأن الثقافة العربية ليست ثقافة الاختلاف ، لأنها ثقافـة النموذج الفـرد الذى يرد المختلف الى المؤتلف . وهذا ينطبق على الفـكر وعلى السلطـة معا حيث لا منازعة للسلطان ولا قبول للمختلف . ولهذا كان فهم المسار التاريخى عندنا تراجعيا ، غايته السير المعكوس رجوعا للأصول الأولى .

وكان ثانى أبحاث هذه الجلسة وآخرها هو بحث الحبيب شبيـل « عرب الحداثة أم حداثة العرب » الذى افترض أن البحث فى الحداثـة يخـرج عن كل اختصاص لأنها أصبحت هاجس الجميع . ولأن العربى لم يختر العبور الى الحداثة ولكنها فرضت عليه . ويبدأ من رحلة الطهطاوى

فى (تخليص الابريز) ورحلة خير الدين التونسى فى (أقوم المسالك) ليلاحظ اتفاقهما مع كثير من مفكرى النهضة على الدعوة العلنية لعدم الاكتفاء بالعلوم الشرعية وضرورة الأخذ عن الآخر • لكن هذا الاتجاه سرعان ما تقاطع مع عنصر آخر هو الاستعمار الذى أنشأ أنساقا من المدينة الحديثة، وحصر مشروع الحداثة العربية فى جدلية الأنا والآخر ، دون جدلية الحاضر والماضى ، مما أدى الى انفصام المشروع العربى التحديثى عن جذوره ، وحتى لغته • ومن هنا يطالب بضرورة حسن تقدير اللسان العربى كأساس للحداثة • حتى تتخلق من خلال ذلك أساسيات حوار عقلى مع مفردات العصر لا يجهز على تفرد الذات ، ويعترف بمشروعية الخلاف ، وهذا ما أنجزته اليابان •

أما الجلسة الثالثة التى رأسها الكاتب الكبير محمود أمين العالم فقد كانت بداية المشاركة العربية الهامة فى الندوة • فقد بدأت بدراسة الباحث السورى المتميز عزيز العظمة «مفهوم الأصالة فى علاقته بالحداثة» • وهو بحث على درجة كبيرة من التماسك والعمق ، واستقرائه لواقع الظاهرة الفكرية العربية ، وفى طرحه لمختلف أبعاد مفهوم الأصالة وعلاقته بنرجسية الذات الفكرية من ناحية ، وبالتورط فى فرض رؤى ثابته على الواقع من ناحية أخرى • ويقدم البحث تحليلا نقديا لمختلف الخطابات الفكرية ، التى تستخدم مفهوم الأصالة بدءا من الخطاب المسلم وصورته فى مرآة الخطاب الاستشراقى وآليات نفى أحدهما للآخر حتى صور الخطاب الأيديولوجى المتنوعة من قومية وشعوبية وليبرالية • كاشفا عن كيفية نفى خطاب الأصالة فيها جميعا لخاصية التحول وعنصر الزمن الحركى • وعن نوعية البنى التوفيقية التى تمت الغلبة فيها لفهم الأصالة الثابت ، مما أنتج مقدرة الخطاب العربى المستخدم لتلك الأصالة على التلون وتدجين الأطروحات الفكرية الأخرى • فتحولت الأصالة الى مسلمة مضمرة يندرج فيها حتى الخطاب العقلى الذى يذعن لها • اذ يلاحظ وجود تحول سوسيولوجى طرأ على المثقفين وأدى الى الحاجة للتماهى مع الشعب ورفض النخبوية • وبعد نقد تفصيلى لنماذج اضافية من مختلف الخطابات الفكرية العربية التى استخدمت الأصالة يخلص هذا البحث الى أن سبب هاجس اختراع الاتصال مع الماضى هو هاجس التسمية ، أو اعادة التسمية ان تغليب الرمزى على الحسى فى عملية ازاحة أيديولوجية تورطت فيها معظم الفرق الفكرية العربية •

وكان ثانى أبحاث هذه الجلسة للباحث المغربى عبد الصمد بلكبير : « جدل الحداثة والتقليد فى التجربة العربية » الذى طرح مسألة تخفى الحداثة طوال تجربتها العربية فى صور مختلفة من صور التقليد • وهذا

التخفي الذى يزيده التباسا غموض مصطلح الحداثة الدلالى فى استخداماته العربية بما يزيد الأمر تلغيما ، لأننا نجد فرقا أيديولوجية متناقضة الى حد التناحر ترفع هذا الشعار وتستخدمه ، من الدولة حتى أكثر أعدائها شططا. وكان ارتباط التحديث بوجود الاستعمار بداية لاستلاب أدخل العربى فى سياق تاريخي يصنع فى غيبته . وسببا للربط بين التحديث والعسكرة فى أحيان كثيرة ، وللجدل بين المستوردات الحديثة وتشكلات الذات القومية . وكان تكريس التقليد بصيغ جديدة وتأطيره بأطر حديثة نتيجة للتحديث فى ظل المرحلة الاستعمارية . كما نتج عنه كذلك جدل التقليد والحداثة . فبعد أن كان التقليد وسيلة والحداثة هدفا فى المرحلة الأولى انعكس الأمر فى المرحلة التالية . فلا يعاد انتاج التقاليد ، ولا تنجح اعادة الانتاج تلك الا اذا مست حاجة اجتماعية للقيام بالتحديث بصورة نحتاج معها الى غطاء التستر بالماضي . ومن هنا لابد من تمحيص الأمر بشكل جديد لأن الحداثة قد تنطوى على ردة بينما ينطوى التقليد فى بعض الأحيان على موقف ثورى . وهذا ما حاول بلكبير بلورته من خلال دراسته للاجتهادات الفكرية العربية المعاصرة .

أما آخر ابحاث هذه الجلسة فكان للتونسى أحمد الطويلى « التحديث فى آثار المفكرين التونسيين فى القرن ١٩ » طرح فيه ، كما يشير عنوانه، أفكار التحديث لدى عدد من المفكرين التوانسة من خير الدين الى أحمد ابن ضياف ومحمد بيرم الخامس ومحمود قبادو والجنرال حسين وغيرهم. واذا كانت الجلسات الثلاث الأولى من ندوة العرب والحداثة قد استأثرت بجل الأطروحات النظرية والاجرائية والتاريخية فى الندوة وببعض الاشكاليات الفكرية التى تطرحها الحداثة فى علاقتها بالأصالة أو بالتقليد، فقد توزعت الجلسات الثلاث الأخيرة بين العلم والأدب والفكر بالتساوى.

فقد بدأت الجلسة الرابعة التى رأسها كاتب هذه السطور بـ « الحداثة والثورة العلمية والتقنية » للباحث التونسى نور الدين النيفر الذى يتناول فيه من منظور المتخصص فى الأبستمولوجيا (نظرية المعرفة) مسألة الحداثة باعتبارها حركية اجتماعية ناجمة عن نشوء علاقات جديدة بين البشر . يحتل فيها الجسد مكانة رئيسية فى النظر الى الذات ، ويصبح فيها لعلم النفس دور كبير ، لارتباط الحداثة بمسألتى الذاتية والهوية وبانتهاء التأويلات المتعالية للانسان . والحداثة من ناحية أخرى هى مرحلة متميزة فى حوار الانسان مع الطبيعة تتسم بثلاثة مقومات أساسية أولها العقل والاعتماد على السببية والمنطق الرياضى وملاءمة الوسائل للغايات ، وثانيها الشرعية العلمية والحوار التقنى مع الطبيعة بغية الهيمنة عليها ، وثالثها الديموقراطية بما تنطوى عليه من اعتراف بالرأى الآخر وعدم

احتكار الحقيقة والايمان بنسبيتها • هذه المقومات الأساسية أسبغ عليها كانت ـ الذى يعتبره النيفر فيلسوف الحداثة الأوروبية ـ تصورا فلسفيا دخلت معه التقنية كوسيط فى الحداثة الغربية ، يستهدف تقصير الزمن وتطويع الفضـاء وتقليص المسافة • فالتقنية هنـا تعنى تطبيق المعرفـة واستخدامها فى الحوار مع الطبيعـة • وفى هذا المجال استطاع الغرب احتكار قسم كبير من الاحتياطى التقنى العالمى الذى تمتلك منه الولايات المتحدة وحدها أكثر من ستين بالمائة • ووقعت مشاريع الحداثة فى العالم الثالث فى انشوطة آليات العلاقـة بين المركز والهوامش • وازداد الأمر تفاقما لتعاملنا مع المنجزات التقنية بصورة سحريـة وغير علميـة • فلم ينجح مشروع الحداثة العربى فى تغييب الطبيعة كقوة سحرية غير مفهومة• بل واستخدم التقنية لاعادة انتاج مايسميه الباحث بالمخيال ماقبل التقنى الجمعى • ولهذا فان اهمـال العقـل العربى لاشكاليـة تعميـق الوعى التكنولوجى وانعدام الممارسة العقلية فى البنى الثقافية هى التى تحول دون تحقق الحداثة العربية بشكل حقيقى •

أما البحث الثانى فى هذه الجلسة فكان « نحن وأشياء الحداثـة » لأستاذ الحضارة التونسى نجيب عياد الذى حاول أن ينزل فيه من سماء المجردات الى أرض الوقائع والمحسوسات • وأنطلق فيه من سؤال : أين نحن من زمن العالم ؟ وقادته الاجابة عليه للبحث فى العلاقة التى تقوم بين الانسان العربى وأشياء الحداثة • وكانت أولى مفارقات تلك العلاقة أنه بينما ينطوى تفكيرنا على أشكال متعددة من الانغلاق عن فكر الغرب فان واقعنا يشير الى الانفتاح الكلى على أشيائه • فكيف يحيا الانسان العربى مع أشياء الحداثة الغربية ؟ وكيف فصل بينها وبين سياقاتها ؟ وما هى طبيعة العلاقة التى أسسها معها ؟ فأشياء الحداثة ليست الا تجليات مختلفة لبنية أعمق هى البنية التقنية فالعلاقة بين الأشياء والتقنية كالعلاقة بين التبديات الكلامية وبين البنية النحوية فى اللغة • ومن هنا فان تلك الأشياء تنطوى، اردنا أم أبينا ، على مدلولات بالأصل كما يقول ابن سينا وليست بالاستعارة• والدلالة بالأصل هى التى تعبر عن كنه الشىء وغايته ، أما بالاستعارة فهى المعانى التى يضفيها الشخص على الأشياء • ومن هنا فان الانتقال من عالم حافل بأشيائنا الى عالم مزدحم بأشياء صنعها غيرنا ينطوى على نقلة كيفية فى نوعية الحياة ودلالتها • ويبحث الدارس بالتفصيل فى نوعية علاقة التونسى بالسيارة والغسالة والفيـديو وغيرها من أشـياء الحداثة ليكشف كيف أن هذا التعامل قد ألغى الأسـاس العقلى والعلمى لتلك الأشياء ، ومن هنا نعامل مع مفردات لغة دون ادراك لأجروميتها •

وكان آخر أبحاث الجلسة « العرب والحداثة : مفارقات العلاقة » للباحث التونسى حمادى بن جاء بالله الذى انطلق من أن تحديث العقل العربى لابد من أن ينطلق من مصالحته مع التاريخ وبداية تاريخه هو ، حيث لا يمكن ادراك الحداثة الا بالبحث عنها فى مغارسها العقلية لا فى تجلياتها الحديثة وخاصة لدى علماء النهضة الأوروبية وخاصة كوبرنيكوس وجاليليو لادراك معنى الفكر وليس ضربا من العلماوية · وكذلك الحال بالنسبة للواقع العربى ، الذى يشكل فيــه التراث الأساس الذى تقوم عليه الحضارة العربية · والبحث فى هذا الأساس وفى كل ما يرافقه من دعاوى التفوق فى الماضى ، يكشف لنا عن جهل مزدوج بحقيقة تراثنــا العلمى وبحقيقة العلم الحديث معا · ولا يمكن الخروج من هذه الأزمــة الا بقراءتهما معا قراءة نقدية واعادة النظر فى مقولات الأفكار المستوردة ، من الشرق والغرب ، حتى تعى الأمة تحولاتها الثقافية وتسيطر عليها ·

وكانت الجلسة الخامسة التى رأسها عزيز العظمة أدبية خالصة بدأت بـ « الحداثة والرواية : شهادة ذاتية » للروائى المصرى صنع الله ابراهيم ربط فيها بين رؤى الحداثة المطروحة فى الساحة الأدبية وبين تقوض عالم قديم وبزوغ عالم جديد بعد الحرب العالمية الثانية ، وبين ميلاد التيار الواقعى الجديد فى الشعر والنثر والرسم ، وتقلص نفوذ الكتابة الرومانسية ، ومعركة النقد الواقعى حول الدلالــة الاجتماعيــة للأدب ، وبداياته الأدبية الأولى فى هذا المناخ · وروى لنا صنــع الله تفاصيــل بداياته الأولى ، وكيف قادته الى التخلى عن الكتابة التقليدية على غــرار نجيب محفوظ ومحاولة البحث عن شكل جديد ولغة روائية جديدة قدمها فى روايته الأولى (تلك الرائحة) · ثم كيف تغيرت البنية والرؤية لديه مع كل رواية جديــدة ، حيث تفرض الرواية عنــده لغتهــا وتستعير من موضوعهــا وظروفهــا بنيتها منذ (نجمــة أغسطس) حتى (اللجنــة) و (بيروت بيروت) ·

وكان البحث الرئيسى فى هذه الجلســه والذى توسط شهادتــين ابداعيتين هو بحث كاتب هذه السطور عن « القصة العربية والحداثة : دراسة فى آليات تغير الحساسية الأدبية وتجلياتها » وهو بحث حاولت فيه التعرف على مجموعة العناصر التى ساهمت فى تغيير الحساسية الأدبية فى الأدب العربى فى العقود الأخيرة للمرة الثانية بعــد أن تغيرت للمرة الأولى فى بواكير عصر النهضة · وسعيت الى صياغة مجموعة من المحددات التى تتيح لنا التفرقة بين الأعمال الأدبية لكل من الحساسيتين ، والتمييز بين خصائص كل منهما ومعرفة طبيعة علاقة كل منهما بالأطر المرجعية التى تصدر عنها ، من الواقع الاجتماعى ، حتى المجتمع النصى الذى تنتمى

اليه او تدير حواراتها معه ، والوصول فى هذا المجال الى أن هناك نوعين أساسيين من العلاقة فى هذا المجال أولاهما ذات طبيعة كنائية ، وثانيتهما ذات طبيعة استعارية وهى التى تتسم بها الحساسية الجديدة ٠

أما الشهادة الثانية والأخيرة فى هذه الجلسة الأدبية فقد ادلت بها القاصة الفلسطينية ليانة بدر عن تجربتها القصصية وتجربة الكتابة الفلسطينية من خلالها ٠ وهى تجربة تتبدى لها الحداثة فيها على أنها اصغاء لروح العصر واستخدام للمنهج العلمى فى الرؤية ٠ فهذا المنهج هو الذى يتيح لها التعرف على تفاصيل الواقع ودوافع الشخصيات فى صيرورتها الاجتماعية من ناحية ، وهو الذى يمكنها من ناحية أخرى بلورة ان شخصياتها هى نتاج الوضع الاجتماعى ، وبنت الخصوصية الفلسطينية التى تتمثل على الصعيد القصصى فى البتر الزمانى والمكانى معا ٠ لتجسيد طبيعة استجابة الفلسطينى للحرب التى يتعرض لها ، وبلورة جغرافيا الدمار كعنصر باتر فى النص القصصى ٠ حيث يستحيل المكان الفلسطينى أحيانا بمجرد قرار عسكرى من العدو الصهيونى الى ثقب فى الذاكرة ، وحيث يصبح الشتات وضعا انسانيا على الفلسطينى لا أن يتعايش معه فحسب ، وانما أن يحوله كذلك الى وضع انسانى يتحقق فيه ولو نسبيا من أجل القتال والدفاع عن حقه فى الوجود ٠ فالتحول السريع واحدة من سمات الوضع الفلسطينى الذى يفرض شروطه لا على موضوع التناول فحسب ، وانما على اللغة والبنية القصصية ذاتها ٠

أما الجلسة الخامسة والأخيرة فقد رأسها الباحث المغربى عبد الصمد بلكبير وكانت جلسة حافلة للفكر اذ بدأت هذه الجلسة ببحث الناقد التونسى الكبير توفيق بكار « الحداثة فى الأدب : حركة التجديد الأدبى فى تونس » ٠ وهو بحث استهدف الرجوع الى حركة التجديد التى يعزى اليها تأسيس الأدب الحديث فى تونس لاستيعاب دروسها بصورة يؤسس معها هذا الاستيعاب الملامح النظرية والفلسفية لمفهوم الحداثة العربية فى الأدب ، والذى بدأ من خلال تحليله له أنه مفهوم ملتبس مليىء بالتناقض لأنه ينهض على النمط الغربى ، وعلى الاحتذاء والاتباع لا الخلق والابداع٠ فنحن نتكلم عربيا ولكننا نفكر غربيا ، لأن ثقافتهم بطان أذهاننا ، ولغتهم قاموس مصطلحاتنا ٠ وأصبح وضعنا بكل قسوته هو وضع من يعيش عالة على غيره ، يأخذ منه ويحتذيه ولا يكاد يسهم بشىء ٠ والمطلوب منا فى رأيه العمل على أن نكون عربا محدثين لا أشباه غرب مضحكين ٠ فالمفروض أن نخترع ذاتنا من جديد ليتوقفوا على مدى انجازاتنا ٠ وحتى يتم هذا الاختراع لابد من اعادة النظر فى كثير من مفاهيمنا بما فى ذلك مفهوم الحداثة ذاته ٠ ذلك لأن ثمة قصائد ونصوصا تقع فى العصر وهى

ليست منه ، لأنها الماضى مازال يتضاءل فى الحاضر . وهناك نصوص قديمة لكنها لاتزال معاصرة وقادرة على اختراق الدهور متجددة أبدا ، تنطق بمعانى عصرنا وكأنها من مواليده . فالأدب شيء غير بسيط ولايمكن استسهال معنى الحداثة فيه .

وكان البحث الثانى فى هذه الجلسة للمفكر العربى الكبير محمود أمين العالم عن « اشكالية الحداثة فى الفكر العربى المعاصر » والذى انطلق من أن مفهوم الحداثة مفهوم مراوغ طرحه من خلال ثلاث استعارات هى الحقيبة والفخ والصنم . فهو أشبه بالحقيبة من حيث أنه يتضمن فى داخله أكثر من مكون . لأن الحداثة كامكانية مفتوحة على آفاق شتى تجمع فى داخلها الكثير من التناقضات من ماركسية الى بنيوية ووضعية وتوفيقية ، وشعبوية وقومية ولكنها تتفق جميعا على أنها تتسم بالحرية والعقلانية . وهو فخ لأنه لا ينطوى على تغيير جذرى وانما على تغيرات شكلية ناتجة عن مرحلة الاستعمار والتبعية . فالفخ الأكبر الذى تقدمه الحداثة هو فخها المطروح فى أفق الدول النامية ، اذ تقدم لها تغييرا مظهريا سطحيا يخفى وراءه شتى أشكال التبعية والتخلف والاستبداد . وعلاوة على هذا كله تحول مفهوم الحداثة الى صنم مقدس ، أى قيمة مطلقة . ثم يحاول البحث بعد هذا الاستقراء البارع للمفهوم تقديم تحليل نقدى لاجتهادات مختلف التيارات الفكرية فى التعامل معه بدءا من التيار الليبرالى الذى انطلق من (مناهج الألباب) عند الطهطاوى ووصل مرحلة النضج فى (مستقبل الثقافة المصرية) عند طه حسين و (تجديد الفكر العربى) عند زكى نجيب محمود والذى لم تفض مسيرته الى تحديث حقيقى فى مسيرة الفكر العربى . مرورا بالجهد الدينى الذى استهله الأفغانى ومحمد عبده وواصله على عبد الرازق وخالد محمد خالد حتى وصل الى طارق البشرى وعادل حسين وحسن حنفى . وهو تيار يتفق مع التيار الليبرالى فى توفيقيته ويختلف معه فى نقطة الفرقة مع الغرب لا الالتقاء معه . وقد أخفق التياران لاغفالهما حقيقة أن لا حداثة ولا تجديد بدون تنمية معبرة عن المصالح الحقيقية للناس . ولأن التنمية التى يطرحها الاتجاه الاسلامى ليست فى جوهرها الا تنمية رأسمالية مرشدة وتحت مظلة التبعية للغرب . كما أن برنامجه السياسى تنطوى على قمع كل فكر آخر عداه .

وينتقل البحث بعد ذلك الى الاجتهاد الثالث الذى قدمه التيار القومى منذ الكواكبى وطاهر الحداد والأرسوزى والعازورى والريماوى حتى نديم البيطار وعصمت سيف الدولة . ويرى هذا التيار أن السبيل لتحقيق الحداثة والتنمية هو الوحدة ، وأنه لا حداثة بدونها بصورة تحول آلية الوحدة الى سبيل للتحرير والتقدم . لكن الوحدة لا يمكن أن تكون شرطا

للتحديث والتقدم برغم أهميتها البالغة • ويجد العالم أن القاسم المشترك بين مختلف طروحات هذا التيار هو التلفيقية • أما التيار الرابع الذى يحلله فهو ما يدعوه بتيار تجديد البنية الثقافية وعصرنتها بصورة تدعو الى الاندماج فى الحضارة القائمة منذ شبلى شميل وفرح أنطون وسلامة موسى حتى العروى والجابرى وأدونيس وفؤاد زكريا والخطيبى وبرهان غليون الذى يعده أنضج تلك الأمثلة ، وان كانت به مسحة قومية • اذ يدعو غليون الى حرية الثقافة ، والى العقلانية ، والى تجديد البنية الثقافية بالصورة التى تتحقق بها النهضة • لكن العالم يخلص من خلال تحليله النقدى لتلك التيارات الأربعة الى اخفاقها جميعا فى تحقيق المشروع التحديثى • ويطرح بدلا منها جميعا ما يدعوه بتيار حداثة التغيير الجذرى الشامل • وهى حداثة جديدة ثورية غير نخبوية تتجنب سلبيات تلك التيارات كلها وتستفيد من ايجابياتها •

أما آخر أبحاث الندوة فكان بحث محمد محجوب عن «فينومينولوجيا الحداثة العربية » وهو بحث فلسفى يتعرف على مجموعة من تبديات المفهوم للذهن وللواقع العربى على السواء • وأخيرا ومن خلال سبعة عشر بحثا طرحت فى الندوة ، وأكثر من ثمانين تدخلا أثناء المناقشات ، تتجلى لنا طبيعة مفهوم الحداثة العربى العامر بالاشكالية ، والذى تؤكد كل استقصاءاته الجادة أنه لم يتحقق بعد بشروطه الأساسية من عقلانية حرة ذات طبيعة علمية وليست تقنية فحسب • فقد وقعت كثير من الاجتهادات المختلفة التى استهدفت تحديث المجتمع العربى فى قبضة نقيضها الذى يتبدى على أنه الأصالة ، والذى استطاع أن يخلق استقطابا تعارضيا بين كل ما هو حديث ، ينزع الى تحقيق التغيير ، وبين ما هو كائن ينحو الى ترسيخ آليات الاستبداد والتخلف والتبعية • لكن المجتمع العربى لم يستطع برغم هذا التعارض أن يتجنب انجازات الحداثة الغربية التى تعامل معها كمستهلك ، ولم يتمكن من استيراد أشياء الحضارة واستبعاد سياقاتها الفكرية والعملية بل والأيديولوجية التى تجلبها معها • ومن هنا حاول جاهدا أن يسبغ عليها شيئا من اللاعقلانية ليدخلها فى اطار تصوره التقليدى عن العالم • مما وسم الواقع العربى الراهن بنوع من الانفصام الذى تتبدى مظاهره النفسية ، والفكرية والحضارية فى شتى مناحى الحياة العربية وفى أساليب التفكير العربى كذلك ، وحتى فى نوعية الخطاب الأدبى الذى يعبر عن حاضرنا • ومن هنا فقد كانت قدرة الندوة على توصيف اشكاليات المجتمع العربى مع الحداثة ، وعلى تحليل مسيرته معها أكبر من قدرتها على طرح اجابات ناجعة لأسئلة هذا الواقع الأليم ، وعلى تقديم مخرج من أزمة مجتمعنا المزمنة مع الحداثة •

القيروان ـ تونس   سبتمبر ١٩٨٨

● السفر العشرون

ندوة أغادير ومهرجان الابداع العربى

ما أجمل العود الى المغرب مرة أخرى ، هـذا البلد الزاخر بالدفء الانساني والجمال الطبيعي ، وبعمق التطلع الحضاري وخصب المغامرة الفنية • والذى يمس شيئا أصيلا في زائره فيدفعه الى التشوق للعودة اليه من جديد • وقد مس المغرب شيئا فى نفسي منذ زرته لأول مرة قبل خمسة أعوام • بجدية المغامرة الأدبية فيه ، وبعمق رغبته في صياغة اسهامه المتميز فى مسيرة الثقافة العربية • وتأكد تأثيره بعد أن عدت اليه فى العام الماضي للمرة الثانية مشاركا فى ندوة « أسئلة الرواية العربية » • وما أطيب أن تكون تلك العودة الجديدة الى المغرب العربى من أجل المشاركة فى الملتقى الأول للابداع الأدبى والفنى فى أغادير والذى عقد من ٢١ ـ ٢٥ أكتوبر ١٩٨٨ • فاذا كانت الزياراتان السابقتان للمغرب بدعوة من اتحاد كتابه الذى يتفرد باستقلاليته ويسعى لبلورة هويته التى يطمح من خلالها الى تقديم نموذج متفرد للعمل الثقـافى العربى الذى تصبـح استقلاليته وجها من وجوه قوميته ، وتفاعله مع بقية أجنحة الثقافة العربية، فان هذه الزيارة الجديدة جاءت بدعوة كريمـة من شعبـة الابداع الأدبى والفنى بالمجلس القومي للثقافـة العربية • وهو المجلس الذى جعـل من الرباط مقـرا له منـذ سنوات قـلائل • كما جاءت هذه الدعوة تجسيدا لطموحات هذا المجلس الذى يعد من التشكيلات الثقافية الفريدة فى الوطن العربى ، والتى نحتاج الى وقفـة قصيرة للتعرف عليها قبـل تناول أول نشاطاتها الفنية والأدبية الكبيرة •

وقد أنشيء المجلس القومي للثقافة العربية قبل أربعة أعوام ، ويتولى أمانته الأسـتاذ عمر الحامدى • بينما يشرف على شعبة الابداع الأدبى والفنى فيه القاص والروائى الليبى المعروف أحمد ابراهيم الفقيه•ويختلف هذا المجلس عن غيره من المجالس الثقافية التى تنتشر فى شتى ربوع الوطن العربى ، والتى تعد فى معظمها جزءا من مؤسسات الدولة الثقافية• صحيح أن انشاء هذا المجلس كان بمبادرة من الجماهيرية العربية الليبية ، لكننا لا نستطيع القول بأنه مجلس ليبى • فقد أرادت الجماهيرية منه فيما يبدو أن يكون بحق مجلسا « قوميا » للثقافة العربية • ومن هنا

سعت الجماهيرية ، برغم تحملها للعبء الأكبر من نفقاته . الى أن يكون مقر هذا المجلس في دولة عربية أخرى دون أن يكون احـدى مؤسسات تلك الدولة المضيفة ، بل كيانا ثقافيا قوميا مستقلا . يعمل على تأكيد هويته من خلال تدعيم استقلاله الفكرى والثقافي والمؤسسى معا . ويسعى الى تأكيد وحدة الثقافة العربية باعتبارها أقوى تعبير عن وحدة الأمة العربية ذاتها . والى أن يكون وعاء تنظيميا تستطيع من خلاله طليعة الأمة العربية أن تبرهن (على الصعيد الثقافى على الأقل) أن الوحدة العربية ليست بأى حال من الأحوال من أضغاث الأحلام العسيرة على التحقيق ، ولكنها واقع فعلى متجسد على مستوى الطليعة الثقافية للأمة العربية الممتدة من المحيط الى الخليج . ومع أن اختيار الرباط مقرا لهذا المجلس جاء ، فيما أظن ، نتيجة لمجموعة ملابسات سياسية وتنظيمية . فانه ينطوى بقوة وجوده فى تلك البقعة ذاتها على دلالة رمزية تشير الى رغبة الطليعة الثقافية فى التشبث بوطنها القومى العريض من أقصى الغرب الى أقصى الشرق ، والى توقها للبرهنة على أن أبعد مكان فيه جغرافيا مازال نابضا بكل عنفوان الرغبة العارمة فى الوحدة وفى الاتصال بأقصى الأطراف الأخرى منه .

وقد كان هذا المعنى القومى الكبير من المغانى الأساسية التى جسدها الملتقى الأول للابداع الأدبى والفنى الذى عقد فى أغادير لبحث « قضايا الابداع والهوية القومية » ، والذى يعد باكورة الأعمال الكبيرة لشعبة الابداع الأدبى والفنى . ليس فقط لأن مجموعة كبيرة من مثقفى العـالم العربى وفنانيه جاءوا الى تلك المدينة الجميلة الواقعة على شواطىء المحيط الأطلسى من شتى بقـاع الوطن العربى . بمـا فى ذلك الكويت والعـراق المطلتان على الخليج العـربى فى أقصى المشرق ، وليس أيضا فقط لأن الموضوع الأساسى الذى تباحث حوله الملتقون تمحور حول قضايا الهوية القومية والذاتية العربية الخالصة وهى من أكثر القضايا العربية أهمية والحاحا . ولكن أيضا لأن عقد هذا الملتقى الأول فى مدينة أغادير الواقعة على مشارف الصحراء فى أقاصى الوطن العربى . والتى دمرتها الزلازل ، ثم بنتها السواعد العربية من جديد . كان ارهاصا بأن العواصف العاتية التى هبت على الوطن العربى ، طوال عقود التجزئة والتشتت لن تصمد أمام عزم الارادة الثقافية العربية على التشبث بهويتها القومية . وعلى اعادة بناء قسماتها الاصيلة بالابداع الخلاق والجهد المخلص .

فقد ارادت شعبة الابداع الأدبى والفنى بالمجلس من عقدها لهذا الملتقى أن تؤكد أولا على مكانة الابداع الأدبى والفنى فى صياغة الوجدان القومى وتعميق الوعى بالمصير المشترك لدى أبنـاء الوطن العربى . وأن تؤكد ثانيا على أهمية الوشائج التى تربط بين مختلف مجالات الابداع الفنى

والتعبير الأدبى فى الوطن العربى . لأن هذه الابداعات جميعا تصدر عن حس قومى واحد بهوية أساسية مشتركة . وتسعى من خلال تكاملها وتفاعلها وتمازجها الى تحقيق هدف كبير واحد . هو بلورة قسمات تلك الهوية القومية . وتعميق ملامح انجازها ووعيها الحضارى . أما ثالث أهداف الملتقى فهو تعزيز التلاحم بين المبدعين العرب فى شتى المجالات الأدبية والفنية لترسيخ مفهوم العمل المشترك ، والبحث عن صيغ لاستثمار جهودهم الموحدة فى خدمة قضايا الابداع الملتزم بقضايا الوطن العربى . ولهذا كان رابع أهدافه هو السعى لتأسيس مدرسة عربية متميزة الملامح والقسمات فى مجال الابداع الأدبى والفنى . لأن تأسيس هذه المدرسة ظل لأمد طويل هاجساً ملحا يراود عقول المشتغلين بقضايا الفن والأدب فى الوطن العربى . كما أن بلورة تمايزها الدال على تفرد الهوية القومية العربية كان من مشاغل كل العاملين فى هذا المجال لعقود طويلة . وحتى يحقق المبدعون العرب هذا الهدف الأسمى فلابد لهم من المناداة بحرية الابداع ومشروعية المغامرة الأدبية والفنية وحقها فى الممارسة الخلاقة . ولهذا كان الدفاع عن حرية المبدع العربى هو الهدف الخامس لهذا الملتقى الثقافى الكبير .

والى جوار هذه الأهداف الخمسة الكبرى كان هناك هدفان آخران. أولهما يتعلق بشعبة الابداع الأدبى والفنى التى دعت الى تنظيمه . والتى لم يمض على تأسيسها عامان . وهو الاستعانة بجهود الأدباء والفنانين لوضع أسس استراتيجية العمل الثقافى للشعبة . والمساهمة فى تنفيذ برامجها مستقبلا . وثانيهما هو دراسة امكانية عقد هذا الملتقى كل عامين أو ثلاثة حتى تخلق دوريته أو انتظامه اطارا ثابتا لتفاعل المبدعين العرب فى شتى المجالات الأدبية والفنية . والواقع أن هذا الهدف الأخير من أهم الأهداف التى أريد أن أتوقف عندها هنا قبل الحديث عن بقية أهداف الملتقى . أو عن مدى اقتراب فعالياته من تحقيقها . لأن تحقق هذا الهدف هو الذى سيكفل لبقية الأهداف الحد الأدنى المطلوب من المتابعة والتحقق. ولهذا فاننى أتمنى أن يستمر هذا الملتقى ، حتى يتابع على الأقل مواصلة المسيرة التى بدأها من ناحية . وحتى يحقق هذا الاستمرار هدف الملتقى الثالث على المدى الطويل من ناحية أخرى . لأن اللقاء الواحد الذى لا يتكرر بشكل منتظم لا يخلق أواصر تلاحم عضوى متينة بين المبدعين العرب . وحتى ندرك مدى اقتراب فعاليات هذا الملتقى من تحقيق أهدافه . علينا أن نتريث قليلا ازاء وقائع الأيام الخمسة التى شهدت فيها أغادير أكبر تجمع ثقافى عربى فى تاريخها الحديث . وأن نستعرض أحداث هذا الملتقى وما فيه من قضايا ومناقشات حتى نستطيع الحكم على مدى اقتراب الانجازات من المطامح .

وقد بدأ الملتقى فعالياته بجلسة بدأهـا الدكتور محمد خلف الله رئيس المجلس القومي للثقافة العربية الذى تحدث عن تاريخ هذا المجلس الذى انشىء أولا فى باريس • وظل لفترة غير قصيرة يبحث له عن مقر عربى ، حتى قبل المغرب استضافتـه بالربـاط التى فتحت له صدرهـا ليمارس جل نشاطاته الرامية الى تعزيز أواصر العمل الثقافى والفكرى القومي • وأشار بايجاز الى أهداف المجلس والى بعض الندوات الفكرية التى عقدها • وتحدث بعده الراضى ابراهيم رئيس المجلس البلدى لمدينة أغادير الذى استضاف الملتقى ، وعقد فعالياته فى قاعته الكبرى ، متحدثا عن وضع أغادير • وعن دلالات انعقاد مثل هذا الملتقى الثقافى الكبير بها • لأن أغادير تلك المدينة المطلة على الأطلسى عند مشارف الصحراء المغربية هى فى الواقع مدينة بربرية ، ولكنها برغم بربريتها تلك تعتز بانتسابها الى الأمة العربية الكبرى • وبرؤيتها القومية الشاملة التى تتسع رحابة صدرها لقدر هائل من التنوع والعددية • فعقـد مثل هذا الملتقى بتلك المدينة تأكيد ساطع لعروبتها برغم اختلاف ميراثها الحضارى ومأثوراتها الشعبية أو اللغوية •

ثم قدم عمر الحامدى الأمين العام للمجلس القومى للثقافة العربية كلمة المجلس المنظم للمتلقى • بادئا بالترحيب بالحاضرين الذين يشاركون المجلس تحقيق حلمه بتجميع قوى الابداع فى مختلف مجالات الأدب والفن• ومن شتى ساحات الأمة العربية مشرقا ومغربا • انه حلم القضـــاء على الفصام الذى يفصل بين مجالات الابداع • وخلق التواصل الضرورى بين مختلف الأنشطة الأدبية والفنية • فقوة أى أمة تقاس • لديه • بقوة ابداعها وطاقاتها الخلاقة • ولهذا لابد من تكاتف طاقات الأمة الابداعية لتغيير المجتمع العربى وتحقيق مطامحه • ولن تستطيع تلك الطاقـات تحقيق هذا الا اذا ما بلورت ملامح هوية هذا المجتمع القومية التى تتبـدى فى أوضح تجلياتها فى ابداعات الفنانين والأدباء• فالابداع يعبر عن خصائص الأمة القومية فى نفس الوقت الذى يصوغ فيه نوازع انسانية عامة • وهو بتعبيره عن هوية الأمة القومية يدرأ عن الأمة هجمـات الغزو الثقـــافى الامبريالى والصهيونى الشرسة • والمدعمة بآخر منجزات التقنية الحديثة وبأقوى الاحتكارات المالية والقلاع الاعلامية والأدمغة الاليكترونية • مما يجعلها قادرة على التسلل الى كل بيت وعلى المشاركة فى صياغة تصور العربى لنفسه وللعـالم الخارجى من حـوله • وركز الحامدى فى كلمته على أهمية تأسيس مدرسة عربية للابداع الفنى والأدبى تساهم بتميزها وتفردها فى اثراء الابداع الانسانى • كمـا تشارك فى ابراز قوة الأمة العربية ، وارهاف قدراتها على دخول معركة العصر الجديث • والانتصار

على تجديداته • فالمبدعون هم وارثو تقاليد الأمة العريقة وهم المعبرون عن صبواتها • لأنهم هم حراس الأمن الثقافي الذى لايقل أهمية عن الأمن السياسى • وكان أهم ما تضمنته كلمة الأمين العام للمجلس هو أنه أكد أن دور المجلس الأساسى كان تمكين المبدعين من اللقاء ليتولوا بأنفسهم رسم المسار الذى يريدونه ، وأنه ليس للمجلس أى تصورات مسبقة الا ما يقوم المشاركون بوضعه من تصورات • وهو أمر بالغ الأهمية لأنه يضع شعار الحرص على حرية المثقف العربى موضع التنفيذ منذ اللحظة الأولى بأن يترك له كل الحرية فى الممارسة والحوار •

وبعد ذلك ألقى محمد بن عيسى وزير الثقافة المغربى كلمة ترحيب أخرى نوه فيها بأن الابداع العربى الذى توج دوليا فى شخص نجيب محفوظ له أكثر من دلالة فى حياتنا الاجتماعية والثقافية • لأنه ينطوى على اعتراف عالمى بالمكانة التى تحظى بها الثقافة العربية فى عالم اليوم • وأن هذا الاعتراف يدعو الى تعميق احساس المثقف العربى بهويته القومية والتزاماته حيالها ، والى تأكيد ادراكه لمدى تغلغل البنيات الثقافية الغربية فى جسد الثقافة العربية وسعيها الى تنميطها وافراغها من مضامينها • وهذا كله يتطلب بلورة مشروع ثقافى قومى يستجيب للرغبة العربية فى ارهاف وعيها بتراثها وتعزيز قدراتها على مجابهة تحدى العصر • فهذه من الغايات المهمة فى عصر كثرت فيه التكتلات • وتناءت فيه التحديات • وتعاقبت الهجمات الشرسة على الشخصية الحضارية القومية • وتعددت فيه أساليب الاحتواء التى تفرزها الأنساق الثقافية الأخرى • وقد أكد ابن عيسى على استحالة تبلور هذا المشروع الثقافى العربى الكبير الذى يدعو اليه فى غياب الحرية وممارسة العمل الديموقراطى ، ولأنه لا يتحقق الا بازدهار الحوار الخلاق ، واقرار حق الآخر فى الاختلاف • كما أشار الى أنه لا يمكن التطلع للمستقبل فى هذا المجال دون تأمل الماضى واستخلاص العبر من تجارب الخمسينات المثقلة بالاجهاضات وصور القمع • وحدد الوزير المغربى طبيعة هذا المشروع الذى يدعو اليه بأنه مشروع منفتح على العالم • يتفاعل مع العطاءات الثقافية الأخرى دون تعال أو دونية • كما أكد على أهمية الاعتراف بأن وحدة الهوية القومية – تماما كوحدة المغرب نفسه – تنهض على التعددية • لأن التنوع فى هذه الحالة مصدر من مصادر الخصوبة والنماء ، وليست هذه هى المرة الأولى التى أسمع فيها السيد وزير الثقافة المغربى وهو يؤكد على أهمية الحرية وحق الآخر فى الاختلاف ، وهو تأكيد أحمده له ، ولا أملك الا الثناء عليه • ولكنى أود لو شفع هذا التأكيد النظرى بالممارسة وبذل جهدا ملحوظا من أجل الافراج عن الكتاب المغاربة الذين مازالوا فى السجون وفى طليعتهم الأديب المغربى عبد القادر الشاوى •

أما آخر كلمات الجلسة الافتتاحية فقد كانت كلمة الدكتور محى الدين صابر الأمين العام لمنظمة جامعة الدول العربية للثقافة والعلوم (أليسكو) التى كانت كلمة ترحيبية بالدرجة الأولى • أكدت على سياقية الثقافة العربية ، وعلى أن لهذه الثقافة استمراريتها التى تتأبى على محاولات الانقطاع • وقد كانت هذه الكلمة من الكلمات التى لم تحمل دلالاتها الهامة فى نصها • وانما فى تمثيلها لحالة الأزمة التى تعانى منها المنظمة التى يمثلها الدكتور صابر والمنظمة الأم نفسها (منظمة جامعة الدول العربية) التى أخذت تتقهقر • وتتخلى عن دورها الريادى فى الساحة السياسية والثقافية على السواء • فمثل هذا الملتقى الأدبى والفنى الكبير الذى قام بتنظيمه المجلس القومى للثقافة العربية كان من المهام التى يجب على الأليسكو العربية أن تضطلع بها • ولكن ها هى الأليسكو تخفق فى القيام بدورها ، وها هى تجيىء الى أغادير مدعوة كغيرها من الأفراد • ربما ولكن وجودها فيها شهادة على أن هذه المنظمة لم تعد قادرة على النهوض بدورها المناط بها • وأن آليات الواقع العربى تتطلب مجموعة من التغيرات الأساسية فى البنى المؤسسية المعبرة عن الارادة العربية بشتى مناحيها ، وفى رسم استراتيجيات السياسات الثقافية العربية وخلق الأطر المؤسسية التى تتيح لها التعبير عن نفسها • ويبدو أن المجلس القومى للثقافة العربية هو احدى الاستجابات لتلك المتغيرات العربية التى تتسم بالحركة وسرعة التغيير • ولكن تلك قضية أخرى كما يقولون علينا أن نتركها الآن جانبا لنتفرغ للتعرف على مادار فى جلسات الملتقى الأساسية والتى خصصت كل جلسة منها لواحد من مجالات الابداع الأدبى والفنى المختلفة •

ما أن بدأت الجلسة الأولى لفعاليات الملتقى الأول للابداع الأدبى والفنى فى أغادير حتى تفجرت فى ساحتها أهم قضايا الهوية القومية • فقد كان من الطبيعى أن يبدأ ملتقى من هذا النوع بقضايا الفكر • وكان من الطبيعى أيضا أن يثير الطرح الفكرى لهذه القضية الحساسة والجوهرية « قضية الهوية القومية » عاصفة ساخنة من الجدل والنقاش • خاصة وأنها تطرح على الصعيد العام الذى لا يقتصر على التناول الفكرى وحده بين مجموعة من المفكرين المتخصصين•وانما يفتح المجال لكل المبدعين العرب من مختلف الفنون الأدبية والتعبيرية ومن شتى الخلفيات الثقافية والفكرية للادلاء بدلائهم فى هذا الأمر الخطير • وقد بدأت هذه الجلسة بكلمة للدكتور أحمد ابراهيم الفقيه أمين شعبة الابداع الأدبى والفنى بالمجلس أوضحت أن فلسفة الشعبة تنهض على ضرورة انبثاق كل الرؤى والأفكار والبرامج والتصورات من المثقفين أنفسهم • وترمى الى توحيد جهود المبدعين العرب • وتجميع قدراتهم ، وتوظيفها لتأكيد الشخصية الحضارية

الواحدة للأمة العربية . وابراز خصائصها القومية . والكشف عن مكونات هويتها الخاصة ، والتصدى للتيارات الاقليمية . ومحاربة الفن التجارى الرخيص ومظاهر التبعية والاستلاب فى مختلف مجالات الآداب والفنون. وتسعى من خلال هذا كله الى تحقيق المشاركة الجماهيرية فى الفنون والآداب لضمان أقصى حد من التفاعل بين المبدع والمتلقى ، وتأكيد جماهيرية الفنون والآداب . كما تسعى الشعبة الى العمل وسط المبدعين العرب من أجل اغناء الأعمال الابداعية بالمضمون القومى التقدمى ، وصيانة للتراث الثقافى العربى واحيائه فى مجالات الأدب والفن المختلفة ، والانفتاح على الانتاج الانسانى من نتاج الشعوب الأخرى ، والعمل على نقله للغة العربية .

وأشار الفقيه كذلك الى اهتمام الشعبة بالبحث عن صيغة موحدة لاستثمار الجهود الابداعية فى خدمة قضايا الهوية القومية . والى سعيها لايجاد مدارس عربية فى كل فرع من فروع الابداع . وبلورة مدرسة نقدية عربية متميزة تستخلص الملامح الأساسية لكل فن . ثم أكد من جديد ما بدأ به وهو ضرورة انبثاق كل الرؤى والتصورات من المثقفين أنفسهم . وأن يتحول الملتقى الى ساحة للحوار والنقاش حتى تتوفر فيه حرارة تفاعل الخبرات الخاصة . وأن هذا هو السبب فى أن الملتقى انتهج أسلوب ورقة العمل التى ترمى الى طرح مجموعة من النقاط للمناقشة فى كل موضوع من الموضوعات المطروحة على المنتدين . ومع أن طرح ورقة العمل للنقاش كان الأسلوب الذى أعلن عنه المنظمون لمسار العمل فى هذا الملتقى ، فان الجلسة الأولى نفسها سرعان ما حادت عن هذا المسار . لأنها بعد أن طرحت ورقة العمل التى قدمها محمد سبيلا حول موضوع الابداع والهوية القومية ، أتاحت للأستاذ محمود أمين العالم أن يقدم طرحا خاصا حول القضية ذاتها بعنوان « جدل العلاقة بين الابداع والخصوصية » ما لبث أن أثار عاصفة من المناقشات . واستأثر باهتمام المتناقشين كلية حتى دفع بورقة العمل الأساسية الى دائرة الظل والنسيان . ولكن انصافا لتلك الورقة التى كتبها الباحث المغربى محمد سبيلا بدقة وعمق سأعرض لها هنا قبل الحديث عن بحث المفكر العربى الكبير محمود أمين العالم . والذى أثار كعهده دائما عاصفة عاتية من الفكر الحر الجرىء .

وقد بدأ محمد سبيلا ورقة العمل بالتأكيد على أن الابداع فعالية انسانية خلاقة تتغيا التجاوز ، ومن هنا كانت من الحوافز الأساسية وراء كل أشكال الحضارة والتقدم التى عرفتها الانسانية . وأشار الى أنه اما أن يتقوقع فى ذاتية الفرد أو ينصهر فى حركة الجماعة ، وقد أنتج التيار الأول المنهج النفسى الفردى الذى يركز على أولوية العوامل الذاتية.

بينما أفرز التيار الثاني المقترب الاجتماعي الذى يبرز جماعية الابداع واجتماعية مكوناته وتوجهاته على السواء • دون أن يغفل دور العوامل الذاتية • برغم تضارب هذين المنطلقين فان الابداع فى رأيه لايمكن أن يستمد مصداقيته وقدرته التجاوزية الا فى مجتمع منفتح لأنه فى حقيقة الأمر جدل صراعى بين قوى المحافظة والاجترار ، وقوى التجاوز والتقدم • ومن هنا فان كل ابداع متجذر في تربته الثقافية والحضارية ، ومن هنا يدلنا الى تناول مسألة الهوية التى يمكن النظر اليها من منظور سكونى يعتبر هذه الهوية شيئا مكتملا ومتجمدا ليس على الأجيال الراهنة غير التغنى بها ، وآخر حركى مستقبلى يعتبرها معطى ديناميا متطورا • وهذا هو المنظور الذى يتعامل مع الأمم الحية التى تصبح هويتها مقولة حركية متطورة • ومن هنا فان السبيل الوحيد للربط بين الابداع والهوية هو من منظورها الحركى المستقبلى هذا • فمن خلال هذا المنظور وحده يستطيع الابداع الاسهام فى بلورة قسمات الهوية القومية • وفى رسم معالم الطريق المستقبلى أمامها • فمن خلال هذا الابداع المتجاوز لانجازاته دائما تستطيع الأمة العربية أن تكون أمة مبدعة تشارك فى صياغة التاريخ الانسانى المعاصر ولا تكتفى باجترار ماضيها التليد • وقد أكد محمد سبيلا على أن مسألة الانفتاح على المستقبل وتوجيه الابداع نحوه ليست مسألة سهلة لأنها تنطوى على صراع اجتماعى بين القوى التقليدية فى مجتمعنا ، والقوى الطليعية فيه • لأن كل حديث عن الابداع لابد له من أن يراعى مختلف التحولات والثورات المعرفية والجمالية التى يشهدها عالمنا المعاصر • وأن يكون قادرا على التعبير عن نفسه من خلال استخدام أدوات الحداثة السائدة فيه • ومن هنا فان الابداع العربى عنده يواجهه تحديان : أولهما داخلى يتمثل فى التيارات الفكرية المحافظة : وثانيهما خارجي يتمثل فى قوى الاختراق الاستعمارى • التى تهدف الى اعاقة الأمة عن كل تطور ونهوض • وحتى يستطيع الابداع التصدى لهذين التحديين لابد على المبدعين من تبادل التجارب والهموم وتأكيد القواسم المشتركة • وتعزيز مناخ الحرية وضمانات حقوق الانسان حتى تتعمق العلاقة بين الابداع والصبوات القومية •

أما بحث الأستاذ محمود أمين العالم فقد بدأ من الوهلة الأولى وكأنه طرح مغاير لنفس المسألة • اذ بدأ من قضية العلاقة بين التراث والتجديد، أو الأصالة والخصوصية ، ثم انطلق الى تناول الآراء الأساسية فى هذا المجال ، من الرأى القائل بأن التراث هو المرتكز وهو المعيار الى الرأى القائل بأن المعاصرة والاستجابة لانجازات العصر هى المسار الجدير بالتعامل معه • الى تلك الثنائية التوفيقية التى تحاول الجمع بشكل تلفيقى بين العنصرين أى الموقف النقدى من الموقف المعرفى القديم، ومن

انجازات العصر الحديث معا · وقد انطلق العالم من هذا المسح للمنطلقات الفكرية في التعامل مع القضية ، الى تناول الكيفية التي تركت بها العلاقة بين الابداع والخصوصية الحضارية آثارها على آليات وحركية تلك العلاقة· من خلال قراءته لواقع الفكر العربي في العقود القليلة الماضية ، ولجدليات العلاقة بين هذا الواقع وبين تردى الأوضاع فى الحاضر العربي المعاصر نتيجة للتحولات الدلالية والموقفية للاتجاهات الفكرية والمذهبية السائدة أثناء تعاملها مع معطيات الحركة التاريخية العربية المعاصرة · وميز العالم فى هذا المجال بين أربعة تيارات أساسية : أولها التيار الدينى الذى يتخذ العقيدة الدينية مرتكزا يستمد منهموضوعيته ومرجعيته للابداع الأدبى والفني والفكرى وحتى فى العلوم الانسانية ، كما هو الحال لدى سيد قطب ومحمد الغزالى ومحمد عمارة وحسن حنفي · وثانيهما التيار القومى المثالى الذى يستمد من الفكرة القومية موضوعيته ومرجعيته فى الابداع الأدبى والفنى والفكرى كما هو الحال عند عصمت سيف الدولة وطارق البشرى وعادل حسين وأنور عبد الملك · وثالثها التيار الجمالى التجاوزى الخالص القائم على القطيعة المعرفية مع التراث ، وعلى التجاوز والمغايرة ، والذى نجده عند عبد الكبير الخطيبى وأدونيس وأنور عبد الملك وغيرهم · ورابعها التيار النقدى الجدلى الذى يتعامل نقديا مع التراث من أجل توسيع أفق الرؤية لا من أجل الانغلاق عليه ، والذى يتفاعل مع مكونات الواقع ومعطياته التاريخية والاجتماعية من أجل اقامة حوار جدلى معها ·

بعد ذلك يعود العالم الى البدايات التى لا يمكن العودة الحقيقية اليها الا بعد تمحيص المنطلقات وفرزها كما فعل فى تلك التقسيمات الأربعة· وتوشك تلك العودة ان تكون تمحيصا نقديا للتيارات الثلاثة الأولى وتأسيسا فكريا لمرتكزات التيار النقدى الجدلى الرابع · وتعنى العودة للبدايات اعادة تأسيس التعريفات : ما هى الخصوصية ؟ وما هو الابداع؟ وترجع الخصوصية عنده الى عوامل ذاتية وأخرى موضوعية · بينما ينبثق الابداع عن اجتهاد ذاتى مرتبط ببيئة محددة وبعصر محدد وبانعكاس هذا كله فى القيمة الدلالية والجمالية للتعبير · ومن هنا يرفض التيار الدينى لاخفاقه فى تقديم تعريف مقنع للخصوصية أو الابداع ، ويرفض القوميين المثاليين ، ويرفض كذلك الماركسيين ضيقى الأفق لأنه يأبى أحتجاز الخصوصية فى اطار ثابت محدد لأنه ليس فى عصرنا ذات روحية مستقلة خالصة · ويطرح بدلا من هذا كله التحديدات المتداخلة ذات المكونات المتفاعلة ، فخصوصية الأنا المطلقة فى مواجهة الآخر المطلق مرفوضة أيضاً لديه · بسبب ثنائية الخصوصية ، فضرورة تحرير الأنا من سيطرة الآخر ·· لا تقتصر على حل تلك الثنائية الصراعية من الأنا القومى والآخر الاستعمارى أو الصهيونى ، ولكنها تتطلب كذلك حل

الثنائية بين الأنا الوطنية والأنا المقنعة التي هي بعض تجليات الآخر داخل الأنا • فالقول بالثنائية الاستبعادية بين الأنا والآخر مرفوض لأنه ينطوى على فكر عنصرى ، ولأن قصر الثنائية على الأنا والآخر تغييب للصراع بين الأنوات المتعددة داخل كل منهما وتغييب للصراع الطبقى ، واسقاط لآليات الصراع التاريخي • فليس ثمة قطيعة حضارية مطلقة بين الأنا والآخر • فكل منهما موجود فى نقيضه • وانما هناك عالم النحن الحافل فى مواجهة هذه الثنائية التبسيطية •

ولا يعنى هذا بأى حال من الأحوال طمس الخصوصية ، فالعالم يقول بأهمية الخصوصية ، ولكن الخصوصية عنده ليست أقنوما مكتمل الملامح ، وانما هى مشروع تاريخى منفتح • فالخصوصية فى العمارة العربية مثلا تخضع لمجموعة من العوامل منها البيئية الجغرافية والاجتماعية والدينية • وليست الخصوصية هى القول بالوسطية كما يزعم الذين ينادون بأن مصر سيدة الحلول الوسطى ، وأن خصوصيتها هى الوسطية مثل زكى نجيب محمود أو محمد عمارة أو عبد الحميد ابراهيم أو حتى جمال حمدان • فليست الخصوصية كينونة ثابته مغلقة ولا هى تجميد للصراعات ، انما هى الأنا القومية والاجتماعية فى صيرورتها الاجتماعية والتاريخية فى هذا العصر • ومن هنا ينادى العالم بهوية قومية غير مغلقة على ذاتها بل منفتحة على العالم ، لأنها عنده مشروع مفتوح على امكانيات موضوعية شتى وعلى قوميات أخرى • وهى امتداد لتراثنامن غير احتجاز فى حدوده • أما مفهوم الابداع عنده فانه الابتداء فى شىء على غير مثال سابق والانقطاع عما اعتيد السير عليه من قبل كما يقول لسان العرب فى تعريفه للابداع • فالابداع هو تجديد الذات عبر تجديد الموضوع • ولا ابداع خارج نطاق الخصوصية التى عرفنا أنها حركية ومتعددة الأوضاع والأنساق• كما أن الابداع لا يقتصر على عنصر واحد من عناصر الخصوصية وانما على كل عناصرها جميعا • فهو ليس تكريسا للخصوصية بل تمرد عليها وتوسيع لآفاقها • فالخصوصية تقدم للابداع مادته ، ولكنها لا تحد دلالته •

وما أن انتهى العالم من تقديم بحثه ، بل وحتى قبل أن ينتهى من عرضه له اذ أخذت الأصوات الراغبة فى التعقيب تعرب عن نفاد صبرها لاطالته ، مما جعله يبتسر الجزء الثانى من بحثه والخاص بالابداع وبآليات علاقته بالخصوصية • حتى أخذت سلسلة طويلة من المعقبين تتوافد على المنصة للرد عليه من محمد أحمد خلف الله الى مراد وهبه ، ومن محى الدين صابر الى عزيز الحبابى ، ومن ناجى علوش الى جورج طرابيشى • ومن عمر الحامدى الى محى الدين صبحى ، ومن على المصراتى الى محمد

عياد ، ومن فردوس عبد الحميد الى على سالم . وفى غمار هذا السيل المندفع من الردود ، نسى الجميع ورقة العمل حتى ذكرهم بها محمد برادة وطالب الملتقين بالعودة اليها ولكن دون جدوى . فقد أطاح تفجير قضايا الهوية القومية بكل أمل فى تنظيم الجلسة أو ردها الى مسارها المرتجى . وبلغت عبارة بعض التعقيبات درجة عالية من الحد والسخونة . وانصب معظمها على الدفاع عن التيار القومى « المثالى » ، الذى كان ممثلوه فى القاعة من الكثرة بحيث استحال اعطاؤهم جميعا فرصة التعقيب. والغريب أن معظم التعقيبات انصبت على مقدمات العالم دون نتائجه . لأن طرحه النهائى حول الخصوصية القومية . والذى خلص اليه بعد التعامل النقدى مع كل الأطروحات السابقة . كان طرحا عميقا ومقبولا حتى من عقلاء التيار القومى نفسه مثل نديم البيطار . فلا خلاف على أن الهوية القومية، أو ما يفضل العالم دعوتها بالخصوصية ، هى ذات طبيعة حركية تعددية مشروطة بسياق جدلى . وليست أقنوما ثابتا ذا طبيعة واحدية مثالية مطلقة .

وهكذا بدا العالم أكثر قومية من القوميين أنفسهم ، وبدت كثير من التعقيبات وكأنها تجسيد فعلى للأطروحة التى انتقدها العالم فى عرضه ، أطروحة الأنا الفردية الطامحة لابراز ذاتها فى مقابل النحن الجمعية الراغبة فى تطوير المشروع القومى كله . وضاعت معظم التعقيبات العاقلة . وخاصة تعقيب الدكتور مراد وهبة حول غياب العقل الناقد فى قضايا الهوية القومية ، وسط صخب الدفاع من القومية ضد عداوة متوهمة . ولم تحظ نقطة هامة من النقاط التى طرحها العالم فى بحثه وهى مسألة تعقد العلاقة بين الأنا والآخر وعلاقة هذا كله بتصور الأنا القومية لنفسها ولدورها فى العالم ومكانتها فيه بأى نقاش يذكر . بالرغم من أننا لانزال نعانى من آثار هذه العلاقة المعقدة ، لأن جزءا كبيرا من صورة الأنا لنفسها مصنعة فى معامل الآخر . كما أن تصورها للعالم يوشك أن يكون مستعارا كلية من الآخر . وبدا من خلال هذا كله أننا لم نتخلص بعد من عقد الضيق من الحوار ، ولم نتعلم بعد كيفية تلقى الرأى الآخر والحوار معه دون حدة أو عداء . ولكن بدا أيضا أن مناخ الملتقى يتسم بقدر كبير من الحيوية والصحة ، وأن هامش الحوار الحر فيه كبير برغم تطاير كل تلك الانفعالات الساخنة التى توشك أن تكون جزءا من الخصوصية العربية ذاتها .

وأتصور أن جزءا كبيرا من سوء الفهم ، ومن صدور كثير من الكلمات بشكل تقاطعات واثبات لمواقف أفراد . أكثر مما هى اجتهادات فكرية داخل سياق حوار خصب بغية بلورة ملامح القواسم المشتركة داخل اطار تعددية الرؤى ، نبع من شكل ادارة الجلسة ومما تنطوى عليه بنيتها

التنظيمية من توتر ، فأول ما نضع منصة وقاعة نستثير آليات واشكاليات العلاقة بين كل ما هو سلطة وكل ما هو مضاد لها . وادارة الحوار في هذا الشكل التنظيمي الذى يحمل داخله دلالته المتحكمة في كل ما يدور به لا يمكن أن ينتج حوارا بل منولوجات متقاطعة وخطب عنترية . واستقطابات في المواقف بصورة لا يمكن معها بلورة المشترك أو الحد من تفاقم الخلافات . وقد اقترحت على الملتقى تغيير بنية الجلسة اذا ما أراد الخروج من مأزق تلك المنولوجية السيئة قبل فوات الأوان ، ولكن التغير كان كميا ولم يكن كيفيا . فلم يفلت الملتقى من قبضة هذه المسألة حتى نهايته .

ولاشك أن الميزة الأساسية التى يتسم بها هذا الملتقى الأول هى أنه جمع لأول مرة عددا كبيرا من المثقفين والمبدعين العرب من مختلف مجالات الفن والأدب . وهى ميزة كان باستطاعتها أن تضمن له تحقيق انجاز على صعيد العمل الثقافى ، لولا أن البنية التنظيمية للملتقى ، وأعنى بها شكل ومسار فعالياته ، قد بددت الكثير مما انطوت عليه هذه الميزة الكبيرة من وعود ، فلابد لنا أن ندرك بعد أن كشف لنا علماء « السيميولوجيا » أو « الاشارية » وهى علم العلامات وأنظمة الاتصال أن كل شكل ينطوى على رسالة أو على دلالة لا يمكن تغييرها دون تغيير الشكل نفسه . وأن العلاقة بين جزئى الرسالة ــ أى شكلها ودلالتها ــ هى علاقة حتمية أو قسرية كالعلاقة بين وجهى الورقة الواحدة ، بحيث لا يمكن تمزيق وجه من وجوهها أو طيه دون أن يحدث نفس الشىء للوجه الآخر . ومن هنا فان البنية التنظيمية لأى ملتقى أدبى أو ثقافى لا تنطوى فحسب على دلالة، ولكنها قادرة كذلك على قولبة كل ما يصب فى داخلها والتأثير عليه . وقد أشرت الى أن تنظيم الملتقى على شكل منصة مرتفعة يجلس عليها عدد من الناس ، أمام قاعة غاصة بالذين يجلسون سواسية فى مستوى أدنى ، يسبغ نوعا من الأهمية ولو للحظة على المنصة . حتى ولو كان الجالسون فى القاعة أكثر أهمية من الجالسين على المنصة . بل انه يستثير كل موروثات التوتر التاريخى بين كل ما هو سلطة وكل ما هو مناقض لها . فشكل المنصة والقاعة هو شكل المحاضرة أو الخطبة وليس شكل الحوار . واذا ما استخدم فى سياق يفترض فيه أنه سياق حوارى وليس سياقا املائيا تملى فيه المنصة ارادتها على القاعة فان هذا الشكل سيجلب الى السياق الحوارى المغاير كثيرا من توتراته . ومن العداوات الكامنة ضد المحتوى الدلالى الذى يمثله . ويتفاقم هذا التوتر اذا ما كانت العملية كلها تدور تحت أعين الجمهور ، حيث يهتم كل طرف بتسجيل المواقف أكثر من اهتمامه بتطوير الحوار وتعميق التفاهم حول القواسم المشتركة . وهذا ما حدث الى حد كبير .

وتغيير هذا الشكل مثلا الى شكل المائدة المستديرة ليس تغييرا في الشكل ولكنه تغيير في المحتوى وفي الدلالة ، وفي آليات العمل وعلاقاته نفسها • فالانسان لا يتصرف في فراغ ، ولا تتخلق استجاباته الا في سياق متعدد المكونات • وبنية هذا السياق الشكلية هي التي تتحكم في طبيعة العلاقة وفي تحديد عوامل استبعاد أو استدعاء الاستجابات المختلفة • وهذا ما تأكد في جلسة الملتقى الأولى التي دعى الى منصتها عدد كبير من الأسماء الموموقة حتى بدا وكأن منظمي الملتقى يحولون المنصة بالفعل الى سلطة مرهوبة الجانب ، ومن هنا ما أن بدا أن هذه السلطة لا تعبر عن رأى القاعة حتى انفجرت القاعة بالجدل والنقاش • وقد حاول منظمو الملتقى التخفيف من هذا الاستقطاب في الأيام التالية ، بأن وضعوا على المنصة مقرر الجلسة والمتحدث الذى يقدم ورقة العمل فقط ، أما بقية المشاركات فكانت تطرح على القاعة من منبر صغير فيها • ومع هذا ظل الشكل التنظيمي في جوهره رامزا الى أن ورقة العمل هي ورقة تطرح على الملتقين من عل • ولذا اتسمت التعقيبات عليها بدرجة من الحدة الخلافية لا التفاهم الحوارى • كما أن تنظيم الجلسات بطريقة نوعية أى بتخصيص جلسة لكل جنس أدبى أو فنى جعل الملتقين يشعرون بأن على كل منهم الادلاء بدلوه في الجلسة النوعية التي تخصص للجنس الفنى الذى يمارسه، بالصورة التي تحول معها الملتقى الى عدد من الملتقيات النوعية • فقد خصصت الجلسة الثانية لـ « الابداع المسرحى والهوية القومية » والثالثة لـ « من أجل تأسيس هوية عربية للابداع السينمائى » والرابعة لـ « آفاق تعزيز الشخصية الحضارية في مجال الموسيقى والأغنية والفنون الشعبية» والخامسة لـ « الابداع والهوية القومية في الفنون التشكيلية » والسادسة لـ « الأدب القصصى والروائى وملامح الشخصية العربية » والسابعة لـ « الابداع الشعرى والهوية القومية » والثامنة لـ « مكانة الابداع الفنى الملتزم في الاعلام العربى » •

أما الجلسة الختامية والتي خصصت للمستخلصات والتوصيات النهائية والبيان الختامى فقد كانت هي الأخرى جلسة عاصفة ، ولكن العاصفة فيها خلت من العقل والحكمة التي قادت الجلسة العاصفة الأولى الى شواطىء الأمان بلغ فيها الاسفاف مداه حينما خرج محيى الدين صبحى عن آداب الحوار ، وبدا فيها أن الآثار الوخيمة للبنية التنظيمية قد آذنت بالانفجار ، وأن الاستقطابات السياسية في الساحة المغربية حادت بالجلسة عن غايتها الأصلية • لكن تلك قضية أخرى علينا أن ننحيها جانبا حتى نتأمل بعض ما دار في هذا الملتقى الأدبى والفنى الهام • وقبل التعليق على جلسات الملتقى التسع أود أن أشير الى أن المسار الطبيعى لكل جلسة كان يتكون من : بدئها بقراءة ورقة العمل ، التي أعدها عادة أحد أعضاء

المجلس من المثقفين المغاربة ، ثم دعوة عدد من النقاد من المشاركين الى تقديم مداخلاتهم • وقد كانت تلك المداخلات فى الواقع ملخصات لأبحاث طلب منهم اعدادها حول موضوع الجلسة ، ولكن لم يتح لهم غير تقديم ملخصات لها فى مدة تتراوح بين عشر دقائق وخمس عشرة دقيقة • ثم يقوم المبدعون فى هذا الفن بتقديم شهاداتهم كل فى خمس دقائق • وبعد ذلك يفتح المجال للتعقيبات والمناقشات • وهذا فى حد ذاته تنظيم لا بأس به ، وان كان ينطوى على تصور منولوجي للمتلقى لا يتيح المجال لأكبر قدر ممكن من الحوار • وقد أكد هذه الطبيعة المنولوجية فتح الملتقى للجمهور، ولست بأى حال من الأحوال ضد فتح الملتقيات للجماهير • ولكن لابد ألا يتم ذلك على حساب مسار الملتقى نفسه ، أو على حساب خطة العمل فيه وتصوره للمهام الملقاة على عاتقه •

وإذا ما انتقلنا بعد هذه الملاحظة المبدئية الى جلسات الملتقى الأساسية سنجد أن كل تلك الجلسات قد سعت الى بحث العلاقة بين فن محدد وبين قضايا الهوية القومية • وكأننا بازاء ملتقيات مصغرة على الصعيد التخصصى تحاول القيام بنفس المهمة الأساسية التى جعلها الملتقى شعارا له ، ألا وهى دراسة قضايا الابداع والهوية القومية • وقد أدى تكون تلك الملتقيات النوعية المتعددة الى تفتت الملتقى الرئيسى •فقد شعر المسرحيون أن مهمتهم قد انتهت بعد جلسة المسرح واختفى معظمهم من قاعة المناقشة حتى نهاية الملتقى وأحس السينمائيون بنفس الشعور بعد انتهاء جلستهم ، وبدأ القصاصون ينصرفون عن الجلسات حتى يحين أوان جلستهم • وكذا الحال بالنسبة للشعراء وغيرهم • وهكذا تبعثر الملتقى الى ملتقيات جانبية، وأخذت مقاهى أغادير المحيطة بقاعة المجلس البلدى تشاهد من الضيوف أكثر من بعض الجلسات • ولا غرو فقد بدأ البعض يحسون بأن ثمة تكرارا فى الفعاليات وفى الأطروحات ، وبدأ الآخرون يضيقون بالابتسار الذى يفرضه ضيق الوقت على كل من المداخلات والشهادات • وفقد الملتقى دون أن يشعر ميزته الأساسية ، أو أهدرها • وهى أن يبحث قضاياه من خلال منظور متعدد الفنون ومتنوع الخبرات ، وأن يتيح لهذا المنظور الجديد المتعدد المكونات فرصة لتقديم أطروحات جديدة • تختلف عن محفوظ الندوات والمؤتمرات الأدبية الذى طالما زهدنا فى تكراره • وتفتح الباب أمام نوع جديد من التناول المتعدد الزوايا والمقتربات يمكن أن يخرج بقضايانا الأدبية والفكرية من عنق الزجاجة الذى أوشكت على الاختناق فيه •

ومع ذلك فان أوراق العمل المختلفة التى قدمتها شعبة الابداع للمناقشة كانت جديرة بأن تثير نقاشا ثريا لو أتيح للتنظيم أن يلحظ منعرجا

آخر . فقد كانت القضايا التي تتضمنها تلك الأوراق على قدر كبير من الأهمية والحيوية ، برغم اختلاف منطلقاتها باختلاف معديها . فقد كانت ورقة قضايا الابداع المسرحي التي أعدها مصطفى القباح ذات منعطف تاريخي . اذ حاولت ان تختصر مراحل مسيرة المسرح العربي منذ أواخر القرن الماضي وحتى اليوم في مراحل سبع من فترة الاستعمار الى مرحلة توظيف الابداع المسرحي في النضال الوطني ، الى فترة الازدهار المبكر . ومرحلة الجولات العربية الأولى . حتى مرحلة ما بعد ثورة ١٩١٩ ، ثم ثورة ١٩٥٢ ، ثم ما بعد هزيمة ١٩٦٧ حتى فترة التأزم في السبعينات . لتكشف من خلال تلك المسيرة عن مدى تردي الوضع المسرحي العربي المعاصر ، ومدى الحاجة الى العمل القومي في هذا المجال بينما حاولت ورقة « الهوية العربية والابداع السينمائي » التي أعدها نور الدين أفاية أن تتعامل مع سؤال السينما العربية من منطلق وعيها بغياب التبادل الفعلي بين السينمائيين والمثقفين العرب وبالبعد الأنتاجي التجاري لها ، وبجماهيريتها التي تجعلها هدفا للمحاصرة من قبل السلطة من جهة ، والشركات العالمية من جهة أخرى ، وتعرضها لهجمات الاستراتيجية الغربية والصهيونية من جهة ثالثة . وتبرز بعض أبعاد الأزمة الراهنة ، وان استبشرت ببروز جيل سينمائي جديد . يحمل حساسية جمالية ونقدية مغايرة . ودعت الى العمل على الخروج بالموقف السينمائي القومي من حالة الكمون الى حالة الفعل .

أما ورقة « واقع الموسيقى والغناء العربي :محاولة في التشخيص » التي أعدها محمد الرايسي فانها تنطلق من ملاحظة غياب التوازن في مجال الأغنية بين الصوت البشري والموسيقى . وأن التركيز على الصوت والأداء قد تم على حساب تطوير الموسيقى العربية . وأدى الى تحول الغناء العربي الى خليط من الصيغ والقوالب التي لم تصل بعد الى النموذج المتكامل الذي تصبح له هويته المستقلة . ومنذ انعقاد المؤتمر الأول للموسيقى العربية بالقاهرة عام ١٩٣٢ وحتى تأسيس المجمع العربي الموسيقي عام ١٩٧٠ وهناك قطيعة بين التنظيرات والممارسات العملية في المجال الموسيقي . وبسبب تلك القطيعة قسمت الورقة تناولها الى قسمين : تناولت في أولهما الوضعية النظرية ، بينما عالج الثاني الواقع العملي . وتدعو الورقة في نهايتها الى التوجيه نحو المستقبل بالتخلص من الماوسات الجامدة وفهم التراث بشكل حيوي خلاق . وهذا أيضا ما تدعو اليه ورقة « الفنون الشعبية والوحدة » . ذلك لأنها ركزت على مقومات الوحدة العربية المتجسدة في شتى التعبيرات الشعبية عن الانسان العربي . لأنها تعبر جميعا عن التحام الأفراد وارتباطهم بالأرض ، وتصطبغ بصبغة عربية اسلامية . وتتسم بتجاوزها للحدود الزمانية والمكانية وتشابهها

بسبب تبادل عوامل التأثر ، وتكاملها ، ومن هنا ترى ضرورة التأكيد على مكونات الوحدة ومقوماتها في التعامل مع الفنون الشعبية • أما ورقة « وعى الهوية في الفنون التشكيلية العربية » التى أعدها الحبيب بيده ، فانها تنطلق من التسليم بوجود الفنون التشكيلية على الوتر المشدود بين الأنا القومية والغرب ، وبين شرعيتها في الثقافة العربية • وعدم شرعيتها الدينية فيها • وترى أن التشكيليين العرب بعدما تخطوا مرحلة الاحتكاك بالغرب ، وصلوا الى مرحلة الانخراط في حركة واقعهم الاجتماعي والسياسي • وهي مرحلة اشكالية يتذبذب فيها الفنان بين التأصيل والتحديث ، وتتطلب بحثا متقصيا لأطرها وأدواتها حتى نقف على عناصر الهوية والاختلاف فيها •

أما ورقة « القصة العربية : الهوية ، التجريب ، الصيرورة » التى أعدها محمد برادة فانها تطرح عن أفقها الأجوبة الوثوقية ، ولا تنشغل بالتاريخ للقصة العربية ، أو بالبحث عن أصلها التراثي أو المستورد • لأن كينونة القصة العربية لم تعد موضع تساؤل بعد مسيرة قرن من الزمن • أكدت فيه مكانتها وعززت عبره وجودها المنغرس في صلب الأدب العربى والواقع العربي على السواء • لتناقش مجموعة من القضايا الحيوية في واقع القصة العربية القصيرة مثل قضية القصة والتجريب من حيث قدرة النص على انجاز علاقة تحويل داخل الجنس القصصى بناء على وعى مرهف بأسس التجريب وآفاقه • وقضية العلاقة بين القصة والمعرفة باعتبار أن الفن منتج معرفى • ولكنه مولد للمعرفة في الوقت نفسه • وترى في هذا المجال أن القصة العربية تواجه معضلة المعرفة المعلبة • حيث يعي القاص أنه يكتب داخل ثقافة منقسمة الى ثقافة مسيطرة مشوهة، وأخرى تطمح لمواجهة السيطرة ومقاومة ضوضاء المعرفة الاستهلاكية • كما تتعامل كذلك مع قضايا القارىء والنقد وآفاق المستقبل في محاولة منها لطرح مجموعة من الأسئلة الجديدة التى ترهف علاقة القصة بقضايا الهوية القومية • أما ورقة « الرواية العربية والوعي القومي التى أعدها أحمد اليابورى فقد حاولت رصد علاقات التناظر بين تشكل الوعى على المستوى القومي وتشكل البناء على مستوى النص الروائي • وبعد تجاوزها لتناول الرواية العربية في مرحلتها الرومانسية للخلافات الأيديولوجية في الواقع العربى ، وللقضية الفلسطينية ، حاولت تصنيف أشكال توظيف السرد التراثى في النص الروائي العربى الى ثلاثة أشكال ، أولها اندماجى لا يخرج فيه النص الحديث عن دائرة الشكل القديم • وثانيها كنائى يتم فيه التجاوز بين شكل قديم ومضمون وأسلوب جديدين • وثالثها استعارى يتحقق من خلاله امتصاص نصوص سابقة بعد تمثلها وتحويلها ونقدها • ثم طرحت الورقة بعد ذلك ثلاث خلاصات في مجال علاقة الرواية بقضايا

الهوية القومية ، أولها أن اهتمام الرواية العربية بالطبقي ، لم يكن موجها ضد القومي ، بل كان جسرا موصلا اليه ، وثانيها أن تناول الرواية للتراث كان باستثناءات فنية قليلة ينحو صوب المباشرة ، وثالثها أن الافراط في توظيف العامية في النص الروائي قد يخلق اشكاليات على المستويين القومي والابداعي معا ٠

وتجييء بعد ذلك ورقة « الشعر الحديث والهوية القومية » التى قدمها أحمد المجاطي والتى تسلم بأن الشعر هو الجنس الأدبي الذى لا يخامرنا شك في هويته القومية ٠ فهو الجنس الذى تجاوب مع هموم الأمة وأحداثها القومية عبر تاريخها الحديث كله ٠ ولكنها تلاحظ أن هذا الشعر يعاني الآن من : تصور الرسالة الشعرية وتصور وسائل التوصيل معا ٠ وتتناول التصور الأول من منظور الاجترار الذى يتمثل في الاجترار المكشوف ، والاجترار الفني ، ومن منظور الارتداد ، ومنظور التنويع على الموضوع الواحد ٠ أما التصور الثاني ففيه عامل نظري وآخر ايقاعي وثالث تناصي ٠ وتخلص من هذا كله الى المطالبة بتركيز النقاش على الرؤية القومية للذات وللمجتمع ٠ وعلى الأدوات التعبيرية المشتقة من المخزون اللغوي ٠ أما الورقة الأخيرة « وسائل الاعلام الثقافي والابداع الأدبي والفني : أسئلة في العلاقة » والتى أعدها مبارك ربيع ومحيي الدين صبحي فقد انطلقت من التسليم بتنامي سلطة وسائل الاعلام في العصر الحديث لتحليل واقع المجتمع العربي بما يحيط به من ملابسات٠ثم ركزت تناولها بعد ذلك على مجال العمل السينمائي ووسائل الاعلام المقروءة مقدمة مجموعة من الاقتراحات التى تقترب من طبيعة التوصيات العملية أكثر من اقترابها من محاور الجدل والنقاش المثيرة للتساؤلات والداعية لاعمال الفكر والنقاش ٠

ومن خلال كل هذه الأوراق ندرك مدى خصوبة القضايا التى طرحت على هذا الملتقى العربي الأول ، كما ندرك طبيعة الفرص التى ضيعها لادارة حوار جدي خلاق حول هذه القضايا الحيوية ٠

اغادير اكتوبر ١٩٨٨

● السفر الحادى والعشرون

القضايا الاجتماعية والفنية فى ملتقى القصة الخليجية

قليلة هى الندوات أو الملتقيات الأدبية العربية التى يشعر كثير من المشاركين فيها انهم قد تعلموا منها شيئا • لأن الندوات أو الملتقيات الثقافية العربية لا تحرص على توفير المعلومات الضرورية لاكساب الحوار فيها قدرا كبيرا من العمق والجدية • وان وفرت بعض تلك المعلومات ، فانها لاتنجح فى تنظيم الندوة أو الملتقى بطريقة تكفل للمشاركين الاستفادة من تلك المعلومات ، وتسمح لهم بادارة حوار حقيقى ، يستفيد منه من يطرح على الباقين بحثا ، قدر استفادة من ساهموا فى مناقشة هذا البحث، أو من اكتفوا بالانصات الى الحوار • لكن الملتقى الأدبى للقصة القصيرة فى دول مجلس التعاون الخليجى ، والذى عقد فى الكويت فى الفترة من ١٦ الى ١٨ ينـاير ١٩٨٩ وشاركت به ، قد نجح فى الجمع بين هذين العنصرين الضروريين لجعل المتلقى ساحة للحوار الجاد الذى يتعلم منه الجميع • اذ حرص منظمو هذا الملتقى فى الأمانة العامة للمجلس الوطنى للثقافة والفنون والآداب فى الكويت على تحقيق عنصرين أساسيين ، أولهما محلى فيما يبدو يهدف الى مد أواصر التعاون والحوار بين قصاصى منطقة الخليج والجزيرة ودارسى القصة فيها • وثانيهما قومى يرمى الى طرح الظاهرة الخليجية برمتها فى أفقها القومى ، وتوفير فرصة للاحتكاك الأدبى والنقدى بين كتاب القصـة القصيرة ودارسيهـا فى دول مجلس التعاون وبين المتميزين من نظرائهم فى الوطن العربى كله •

وكان هذان الهدفان الواضحان وراء الطريقة التى نظم بها الملتقى، ووجه بها الدعوات الى المشاركين فيه وحددت وفقا لها محاور البحث التى تكتب حولها الدراسات ، وتقام حولها المناقشات • وقد حرصت اللجنة المنظمة للملتقى ، والتى أحاطها الدكتور سليمان العسكرى • الأمين العام للمجلس الوطنى للثقافة والفنون والآداب بالنيابة برعايتـه منذ بدايـة أعمالها ، ورأسها الدكتور سليمان الشطى أستاذ النقد المساعد بجامعة الكويت ورئيس تحرير مجلة (البيان) الكويتية ، وكان مقررها الأستاذ عبد العزيز السريع القاص والكاتب المسرحى المعروف ، وشارك بها مجموعة متوازنة من القصـــاصين والباحثين هم الأساتذة أبو المعاطى أبو النجـا

وصدقي الحطاب ، وسليمان الخليفي ، واسماعيل فهد اسماعيل ، ووليد أبو بكر ، الذين تحقق فيهم التوازن القومي والمهني على السواء ، حرصت على توفير بحوث هذا الملتقى للمعقبين عليها قبل موعد انعقاده بوقت كاف حتى التعقيبات بأناة وروية تتيح دراسة البحث بجدية وتكفل عمق النقاش وتضمن جدواه • كما حرصت كذلك على أن يبدأ اهتمام النقاد والباحثين العرب بموضوعه قبل فترة طويلة من انعقاده • اذ وفر المجلس مشكورا مجموعة كبيرة من النصوص القصصية الصادرة لكتاب المنطقة لهم ، وبعث بها اليهم حتى يقرأوها قبل مجيئهم الى الملتقى وحتى تتكون لديهم عنها صورة واضحة تساهم في تعميق الحوار واثرائه من أرض المعرفة الحقيقية بانجازات القصة وقضاياها • كما حرصت على أن تدعوهم الى الكويت قبل بداية الملتقى بيومين أو ثلاثة حتى تتيح لهم فرصة قراءة الأبحاث والتمعن فيها قبل بدء جلسات العمل •

وقد كان الحرص على جدية هذا الملتقى الأول نابعا من احساس اللجنة المنظمة له بأنه الحلقة الاولى في برنامج التواصل الثقافي بين دول المجلس ، وعليه لذلك أن يرسي دعائم المثل الذي يحتذى في هذا المجال • اذ ستعقبه مجموعة أخرى من الملتقيات والأنشطة الثقافية في المنطقة أولها اقامة المعارض التشكيلية المحلية والدولية التي أوكل للمملكة العربية السعودية مهمة القيام بها ، ثم ندوة عن ثقافة الطفل في قطر ، وأخرى للموسيقى والغناء بالبحرين ، وملتقى فكري عن الحداثة بالامارات ، ومهرجان للشعر في سلطنة عمان • كل هذه الأنشطة القادمة كان لابد أن تبدأ بعمل جاد محكم التخطيط ترعى عبره الكويت بما لها من مكانة متميزة بين جيرانها أسس العمل الثقافي في هذا المجال • وقد بدأت أعمال الملتقى بجلسة افتتاحية قصيرة رحب فيها السيد ناصر الروضان وزير الاسكان ورئيس المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب بالنيابة عن راشد عبد العزيز الراشد وزير الدولة لشئون مجلس الوزراء ورئيس المجلس بالمشاركين ، وتمنى أن يحقق الملتقى الآمال المعقودة عليه • كما تحدث فيها الدكتور فاروق العمر أمين المجلس الذي قدم الخلفية التاريخية والتنظيمية لهذا الملتقى ، واختتم هذه الجلسة الاستهلالية السيد عبد العزيز الجلال ممثل الأمانة العامة لمجلس التعاون لدول الخليج العربية فوضع الملتقى في سياقه من النشاطات الثقافية في المنطقة • وبعد هذه الجلسة الاستهلالية التي مزجت بين مراسم الافتتاح الترحيبية والرغبة في تزويد المشاركين بالمعلومات الضرورية التي تمكنهم من معرفة السياق الذي دار فيه الملتقى والآمال المعقودة عليه بدأت الجلسات •

وما ان بدأت جلسات اليوم الأول حتى ادرك المشاركون [illegible] [illegible] لرسم الخريطة [illegible] لواقع القصة العربية القصيرة في دول

المنطقة . فقد بدأت الجلسة الأولى ببحث علي محمد راشد عن القصة القصيرة في الامارات ، وأعقبه بحث د . محمد طالب الدويك عن القصة القصيرة في قطر ثم بحث د . سليمان الشطي مدخل لتاريخ القصة القصيرة في الكويت . بينما ضمت الجلسة الثانية بحوث د . منصور الحازمي عن القصة القصيرة في المملكة العربية السعودية ، ولمحة أسرة أدباء البحرين الموجزة عن القصة القصيرة فى البحرين ، وبحث ابراهيم ابن حمود الصبحي عن تاريخ القصة القصيرة وتطورها في عمان ، ثم بحث يوسف الشاروني عن القصة القصيرة في سلطنة عمان . وهي كلها أبحاث تهدف الى رسم معالم الخريطة الأدبية التي يتحرك فوقها المتحاورون حول واقع هذه القصة وقضاياها ، وتتسم في معظمها بوفرة المعلومات ، وبقدر يتفاوت من بحث الى آخر من الموضوعية والصرامة العلمية . ولكنها جميعا أبحاث ضرورية ومفيدة ؛ يتعلم منها الانسان الكثير عن واقع القصة في هذا الجزء العزيز من الوطن العربي . وأهم ما يتعلمه المتابع من هذه الأبحاث هو أن القصة العربية القصيرة تشهد حالة ازدهار تتفاوت درجتها بين قطر وآخر ، لكنها حالة ازدهار في جميع الأقطار . فبعد أن بدأ فن القصة في الظهور في تلك الأقطار ما بين خمسينات هذا القرن وستيناته نتيجة لمجموعة من العوامل الحضارية التي شهدتها المنطقة بعد التغير الاجتماعي في أنماط الوجود بها ، وتبدل طبيعة الحياة الاجتماعية فيها عقب اكتشاف النفط خاصة ، وبعد دخول المطبعة وظهور الصحيفة ، وتغير طبيعة النظام التعليمي ، وظهور جمهور جديد من القراء ذو احتياجات ثقافية جديدة ، وغير ذلك من العوامل التي ساهمت في ميلاد القصة القصيرة في المشرق العربي قبل ذلك التاريخ بأكثر من سبعين عاما ، أخذ هذا الفن يقطع رحلة التطور التى قطعتها القصة العربية القصيرة في أقطار المشرق العربى فى عقود كثيرة . في سنوات معدودات ؛ وقد أدى تلاحق التطور وتسارع ايقاعاته الى عدد من القضايا وعديد من الاشكاليات التى اتسمت بها معظم هذه الأبحاث ، والتى طرحها بعضها وخاصة قضية صعوبة التصنيف الى المدارس الأدبية التقليدية ، والناجمة عن قصر فترة التاريخ من ناحية ، وعن تعاصر التيارات والمؤثرات وتداخلها حتى لدى الكاتب الواحد من ناحية أخرى .

لكن اهم الإشكاليات التى تعرضت لها معظم هذه الأبحاث دون أن يجد لها معظمها حلا مقنعا هى مشكلة الحداثة التى استغربت ، ولا أقول استهجنت ، معظم الأبحاث ظهورها المبكر فى واقع قصة لم تكد تتجاوز بعد مخاض الميلاد ، ولم يصل بعضها الى مرحلة النضج الواقعى والاستقرار ؟ وهنا تتضح أهمية العلاقة الجدلية بين انجاز جل القصة الخليجية وقضايا القصة العربية فى المشرق خاصة ، وبين هذا الانجاز وتغير الحساسية

الأدبية الذى أدى الى ظهور القصة الحداثية فى المشرق العربى عامة وفى مصر خاصة ، فى الفترة التى كانت فيها القصة الخليجيه لا تزال فى لفائف الميلاد • كما تتضح كذلك أهمية العلاقة بين هذه القصة الوليدة وبين التحولات الاجتماعية التى اعترت أغلب المجتمعات الخليجية فى الفترة ذاتها • فاذا كانت الحداثة هى الأسلوب الذى استجاب لما حل بأوروبا من اضطراب شامل ، ولما عاناه انسانها من فقدان اليقين وانعدام المطلق ، ولما أصاب مدنها من خراب ابان الحرب العالمية الأولى ، ولما طرأ على فكرها من رؤى وتفسيرات جذرية فى جدتها عقب كشوف داروين وماركس وفرويد ، ولما انتاب لغتها من تبدلات ، ولما جلبته عملية التغير التكنولوجى الكاملة من أشكال جديدة للخبرة والوجود ، ولما أسفرت عنه حالة تبدد الأفكار القديمة المتوارثة حول وحدة الشخصية الفردية وثباتها النسبى وتماسكها ، وحلول الفوضى العامة فى جسد اللغة ، وتحول الحقائق الموضوعية الى مجرد تخيلات شخصية ، كما يقول برادبرى وماكفارلين فى كتابهما الشهير عن (الحداثة) والذى استشهد به د • منصور الحازمى فى بحثه فان الظروف المشابهة ـ مع قدر كبير بالطبع من الاختلافات والتحويرات ـ والتى عاشتها منطقة الخليج العربى من اضطراب فى أنساق الحياة التقليدية وتخلخل فى بنية المدينة القديمة ، وتغير جذرى فى التصورات والرؤى الناجمة عن عمليات التحديث المتسارعة الايقاع ، وانفتاح التجربة القصصية على التجارب العربية التى بدلت لغة القص وغيرت مواضعاتها هى التى تفرض انبثاق الحداثة بقوة فى ساحتها بعد سنوات قليلة على ميلاد هذا الشكل الأدبى الجديد بها • لكن تغير الحساسية الأدبية فى مجال القصة صاحبته مجموعة من التوترات الناجمة عن سيطرة الرؤى المحافظة على الواقع ، وعن صراعها الدائم مع الجديد ، مما وسم الحداثة فيها بقدر كبير من الاشكالية •

لهذا كان من الطبيعى أن تتفجر قضية الحداثة فى ساحة الملتقى فى اليوم الثانى مباشرة مع جلسة الصباح التى خصصت لبحث الناقد السعودى المرموق د • سعيد السريحى « تطور البناء الفنى فى القصة القصيرة : جدل المكتوب والشفهى » الذى ينطلق من محاولة تلمس الملامح العامة التى تجمع بين بدايات القصة فى مختلف أقطار المنطقة ، والسمات المشتركة التى تؤكد انطواء المحاولات القصصية الأولى فيها على أسس ذات بنية واحدة وعلى أشكال تعبير فنية لها مدلولاتها الثقافية • ويبدأ من اتفاق الباحثين والمؤرخين لهذا الفن فى المنطقة على تزامن بدايات هذا الشكل الأدبى فى معظم دولها ، وتواقت تلك البدايات مع ظهور الصحافة وبزوغ طبقة جديدة من المثقفين الذين انجبتهم المدارس • التى استحدثت فى المنطقة وفق أنظمة تعليمية جديدة ، وتشابه البدايات القصصية التى جاء

تأكيدها للمضمون على حساب الشكل واتسامها بالتقريرية على حساب النضج الفني • وهو اتفاق لا يختلف الباحث حوله ولكنه يطمح الى نقض مسلماته واعادة طرح مقولاته بطريقة لا تقول ببدايات هذا الفن في المنطقة ، وانما ببداية تحول القص فيها من فن شفهي الى فن مكتوب • هذا الذي أدى الى تلبس القصة الوليدة في رأيه بادبيات الكتابة وانفصالها عن أدبيات الفن الشفهي • كما أن حداثتها جعلتها غير قادرة بعد ، على خلق تقاليد أدبية خاصة بها • ولما كان المقال هو الفن الكتابي السائد والذي تمت المصادقة على مشروعيته في تلك المرحلة ، فقد كان طبيعيا أن تجييء البدايات القصصية امتدادا له • بهذه الطريقة يربط الباحث بين تقريرية البدايات وغلبة السرد الوعظي عليها ، وبين بعض سمات النص الشفهي من ناحية ، ومواضعات المقال الصحفي من ناحية أخرى •

ويواصل د • سعيد السريحي بحثه بطرح تصوره الناضج لفكرة التطور التي لا يراه حركة خطية بل حركة دائرية ، أو بالأحرى حلزونية تتم فيها العودة دائما الى الانجازات السابقة ولكن على مستوى آخر • ومن خلال هذا المفهوم الناضج للتطور يواصل التعرف على جدلية الأدبيات الشفهية والمكتوبة أثناء تفاعلها داخل النص القصصي لبلورة بنيته الخاصة من ناحية ، ولخلق أدبياته المتميزة من ناحية أخرى • وذلك من خلال تناول مجموعة من النصوص القصصية من مختلف دول المنطقة باعتبارها نماذج دالة على تغير أدبيات النص القصصي فيها • خالصا الى أن القصة في تلك المنطقة تنحو باستمرار نحو مسارين متعارضين : أولهما هو العودة الى أدبيات الخطاب الشفهي بما له من تجذر في الموروث الثقافي متملصة بذلك الى حد كبير من أدبيات الخطاب المكتوب برغم تبنيها لأداته الرئيسية وهي الكتابة • وثانيهما هو تحقيق قطيعتها كلية مع أدبيات الخطاب الشفهي بما فيه من وعظية وتقريرية ومباشرة ، وتأسيس أدبياتها الخاصة : وهي أدبيات نص مكتوب مغايرة لأدبيات المقال الذي استعارت الكثير من خصائصه في البداية • ومن خلال التعرف على بعض ملامح هذين المسارين ، يقدم لنا الباحث السمات الأساسية لتطور البناء الفني في القصة القصيرة في دول المنطقة ، فيما يتعلق بالحدث والزمن والمكان والسرد وغير ذلك من العناصر •

ومع أن المفهوم الأساسي الذي تبناه الباحث للتطور في الفن والأدب كحركة دائرية متعاقبة كما يقول ، أو بالأحرى كحركة حلزونية كما أوثر أن ادعوها ، وليس كحركة خطية تسلسلية متعاقبة مفهوم هام ولابد من تعميقه ، فان هذا المفهوم كان يستلزم ضرورة بحث التطور في فن القصة في دول الخليج ، لا باعتباره نتيجة لجدل الشفهي والمكتوب فحسب ،

ولكن باعتباره علاقة جدلية مع نصوص القصة العربية والانسانية كذلك، وليس كحركة معزولة منغلقة على نفسها . كما كان يستلزم ضرورة التعرف على نوعية التغيرات التى انتابت قواعد الإحالة ، وعلى شتى تجليات تلك التغيرات . وقواعد الاحالة هي القواعد التى تتحكم فى منهج احالة النص الى الواقع ، والى كل الأطر المرجعية التى يصدر عنها ويمارس فعاليته فيها ، والتى تطرح بنية فنية مختلفة كلما تغيرت لأنها هي التى تسيطر على آلية تلك البنية وتتحكم فى قوانين شفرتها . أما تطور التقنية الفنية وتغير استراتيجيات التعبير فانه لا ينطوى بالضرورة على تغير البنية، وانما على تبدل تجلياتها فحسب . كما كان ضروريا استقصاء طبيعة التغيرات التى طرأت على الشكل الأدبى من زاوية دور هذا الشكل فى تشكيل التجربة الانسانية ، وبالتالى فى صياغة محددات الوعى بها ؛ فالشكل الأدبى ليس وعاء للتجربة كما يظن الكثيرون ، ولكنه التجربة ذاتها وقد غير تشكلها بهذا النسق المعين محتواها ذاته . هذا بالاضافة الى أن الاقتصار على جدلية الشفهى والمكتوب جنى على بعض الجدليات الأخرى الفاعلة فى نفس العملية ، كما أدى الى اغفال بعض العناصر الهامة. اذ يبرر الباحث مثلا شيوع المقدمات الطويلة غير المحذوفة فى قصص البدايات بأنها من بقايا أدبيات الخطاب الشفهى ، وبرغبة الفن القصصى اكتساب المشروعية من خلال فن تمت المصادقة على مشروعيته ، وهو فن المقال . بينما تقوم تلك المقدمات بمجموعة من الوظائف الأخرى مثل تأسيس التقاليد الأدبية ، وموضعة القصة فى واقعها ، وخلق احساس بمشاكلة الواقع ، وتدريب القارىء على قواعد التلقى الجديدة واطلاعه على قواعد الاحالة التى ما أن يعرف شفرتها حتى تفقد تلك المقدمات وظيفتها، وتختفى بفقدانها . هذا وقد أدى اقتصار البحث على تطور البنية الفنية وحدها الى اغفال جدلية البنية والموضوع واهمية تغير الحساسية الأدبية وهي الأكثر فاعلية فى تطور البناء الفنى من غيرها . ولا ينفى هذا كله بأى حال من الأحوال اهمية جدلية الشفهى والمكتوب ، كجدلية قادرة على الكشف عن التغير في استخدام استراتيجيات القص وأدوات تعامل النص الأدبى مع المادة التى يصوغ من خلالها عالمه .

كانت القضيتان الأساسيتان اللتان طرحتا فى ملتقى القصة القصيرة فى دول مجلس التعاون الخليجى هما القضية الاجتماعية والقضية القومية. وقد طرحت القضية الأولى فى دراسة الباحث الفلسطينى وليد أبو بكر الضافية « أثر البيئة والمتغيرات الاجتماعية فى القصة القصيرة فى دول مجلس التعاون » وفى تعقيب القاص والناقد الكويتى المعروف اسماعيل فهد اسماعيل عليها . وقد بدأ البحث بقسم نظرى مطول يتناول فيه كل مكونات العمل القصصى من مكان وزمان وسرد ووصف وشخصية الى

آخره ، وإن ركز فيه على أهمية البيئة بمفهومها الواسع الذي يشمل كلاً من المكان والمناخ الاجتماعي والنفسي الذي تتحرك فيه الشخصيات . وعلى الجزء النظري يريد فيه وليد أبو بكر أن يؤكد على أن القصة برغم أنها عمل متخيل الا أنها تطرح نفسها على القارئ ضمن بيئة معينة ومكان معين لأن البيئة والمكان من العناصر الأساسية التي تمكن القارئ من الاستجابة للشخصية والحدث وبقية مكونات العمل القصصي ، كما أنه هو والبيئة بمعناها الشامل من عوامل تطور الشخصيات وحل القصة ، ومن مكونات جغرافيا النص الأساسية . ومن هنا فالبيئة التي يتعامل معها في بحثه هي البيئة التي تتفاعل مع كل مكونات العمل القصصي وتساهم في صياغة الكثير من تفاصيله . ثم ينتقل البحث بعد ذلك في قسمه الثاني الى الجانب التطبيقي الذي يتناول فيه قصص منطقة الخليج العربي من زاوية البيئة والمتغيرات الاجتماعية فيها .

وكان طبيعيا أن يبدأ أي حديث عن البيئة في تلك المنطقة العربية بالحديث عن الصحراء ، مهد الفكرة العربية ذاتها . لكن الصحراء العربية في تلك المنطقة قد عرفت حدثا باترا جعل حياتها قبله مغايرة كلية لما عاشته بعده ، ألا وهو النفط . فقبل النفط كانت الحياة في المنطقة تسير في ثلاثة اتجاهات : حياة البداوة الصحراوية التقليدية بخيامها وترحالها الدائم في الفضاء الصحراوي الرحب ، حيث سيولة المكان تقابل ثبات الزمان النسبي . وحياة البحر التي استبدلت بشساعة الصحراء انفتاح البحر ، الذي تتطلب حياته مرتكزا أرضيا قريبا منه يحيل سيولة المكان الصحراوي الى ثبات شاطئي في المدن الساحلية الصغيرة التي تسودها حياة مغايرة كلية للحياة البدوية وان ربطتها بها مجموعة من الوشائج القومية . أما النمط الثالث من الحياة الصحراوية فهو النمط الذي تطرحه الواحة فيها ، أي تلك الجيوب الزراعية المستقرة التي يرتبط انسانها بالأرض والزراعة ، لا الرعي والترحال . كل هذه الأنماط الصحراوية الثلاثة التي عرفتها المنطقة لمدة طويلة سرعان ما تغيرت بشكل جذري بعد اكتشاف النفط الذي اكتسحت موجته العارمة كل شيء : صحيح أن الجغرافيا الطبيعية لم تتغير ، لكن البيئة الاجتماعية كلها سرعان ما انقلبت رأسا على عقب الى الحد الذي تحولت معه جغرافيا الفضاء الخليجي كله ، وتغيرت كل رواسيه القيمية والبشرية والانسانية .

لقد أخذت أشكال الوجود التقليدية تلك في الزوال بصورة سريعة ، وحلت مكانها أشكال جديدة ذات طبيعة حضرية بالدرجة الأولى . وكبرت المدن القديمة وفرضت المدينة الجديدة منطقها على كل شيء ، خاصة بعد أن خرجت تلك المجتمعات ـ بعد النفط وبسبب ثرواته ـ من عزلتها

القديمة وقذفت بها تلك الثروة الطائلة والطارئة معا فى مهب رياح العالم. وأخذ المجتمع الخليجى يمر خلال عقد واحد من الزمان بما مر به غيره من المجتمعات فى قرون . مما جعل بعض أجيال المنطقة تعيش عصرين مختلفين من حيث الايقاع والتركيبة القيمية ذاتها . مما وسم حياتها بقدر كبير من الصراعية . وكانت هذه الصراعية الناجمة عن التحولات السريعة هى المنطقة التى اقتنصها عدد كبير من كتاب القصة فى المنطقة . وبرغم تداخل الزمنين فان القصة ـ ربما بسبب عودها الغض ـ تحاول أن تفصل بينهما. فظهرت المجتمعات القديمة فيها داخل زمنها القديم ، ولكنه فى اغلب الأحيان زمن مستعاد من الذاكرة ، حتى تستحيل سيولته الدائمة الى ثبات فى الزمن المستعاد . أو هى حالة مواجهة دائمة مع المدينة التى تحاول أن تقتحمها أو أن تسلبها سحرها وثروتها معا ، ولكنها ـ أى المدينة ـ لا تستطيع أن تستغنى عن الصحراء . لكنها قليلةهى القصص التى تحاول أن تكشف لنا عن أن الحياة فى الصحراء أصبحت هى الأخرى غير قادرة على الاستغناء عن المدينة . لأن آليات الاعتماد المتبادل بين البيئتين قد أخذت هى الأخرى فى التغلغل فى واقع الحياة الجديدة . فبعد بزوغ المدينة لم تعد الصحراء مكانا صالحا للعيش ، لأن المدينة القابعة على حدودها أفسدت على بنيها دعة حياتهم القديمة . فحتى الفضاء الصحراوى البعيد عن المدينة لم يعد قادرا على تجنب تأثيراتها عليه . وان كان لايزال قادرا على أن ينفث فيها غضبه عبر رياحها السافية التى تغير وجه المدينة فى عواصفها الناقمة .

هذا الاحساس بقوة الصحراء ونقمتها يستمد عنفوانه فى أغلب القصص من حنين البدوى اليها بعد أن غادرها ، دون أن يخلع جذوره منها . فقد ظلت الصحراء مسيطرة على ذاكرة من غادروها وعلى أحلامهم. لكن البيئة الصحراوية ليست وحدها النقيض الحاد للمدينة المعاصرة فى القصة الخليجية ، لأن هناك البيئة الريفية فى الواحات ومناطق الاستقرار الزراعى القديمة فى السهول والجبال . وهى بيئة ترتبط فى القصص عادة بالنزوعات الرومانسية للعودة الى الطبيعة من ناحية ، وبالرفض الصارم لزحف الحضارة الوافدة من ناحية أخرى . وان ارتبطت فى بعض القصص بمجموعة أخرى من موضوعات الصراع الريفى ، وكشفت عن وضع المرأة المتميز فى كلا المجتمعين الصحراوى والريفى على السواء . وهناك موضوع آخر يوحد بين القرية والصحراء هو زحف المدينة عليهما لنهب خيراتهما . وهذه المدينة بكل قضاياها هى البيئة الثالثة التى تستقطب اهتمام القصاص الخليجى كما يرى وليد أبو بكر ، لأنها البيئة التى طرحت على القصاص مجموعة من التغيرات الأساسية ليس فى المكان الذى يدور فيه الحدث فحسب ولكن فى سلم القيم الاجتماعية وطبيعة

العلاقات الانسانية التى تجرى فيهـا ، والتى توشك أن تكون مناقضـة كلية لما اعتاد عليه الانسان الصحراوى أو الريفى فى تلك المنطقة من قبل. وان فرقت القصة الخليجية فى هذا المجال بين مدينتين : المدينة الساحلية القديمة (مدينة الماضى) التى لم تقتحمها تيارات التحديث الوافدة مع النفط ، ولم تتغير طبعـة الحياة فيها بشكل جذرى عن القريـة ، والتى يلعب فيها البحر والصيد واقتحام المجهول دورا كبيرا • والمدينة الجديدة التى اجتاحتها التغيرات النفطية ، والتى كان بزوغهـا على حساب تلك المدينة القديمة ذاتهـا ، وعلى حساب نشاطاتها الاقتصادية والاجتماعيـة معا • وهى مدينة تتميز بقدر كبير من القسوة ، وترتبط بموت الأب بكل ما يعنيه هذا الموت من غياب الحماية والسلطة الأبوية من ناحية ، ومن نضج وتحرر من ناحية أخرى • عبر كل هذه التنويعات البيئية المختلفة قدم لنا وليد أبو بكر قراءة ضافيـة ومستوعبة لانجاز القصـة فى تلك المنطقة فى تعامله مع مختلف قضاياها البيئية والاجتماعية •

لكن مسح الباحث الحاذق لكل تلك التنويعات البيئية فى اشتباكها بقضايا الحياة والتغير الاجتماعى قد فاته ادراك أن أى فضاء بيئى لا يدلف الى ساحة القصة كمجرد جغرافيا ، وانما كبنية متفاعلة مع مختلف العناصر وصانعة للرؤيـة فيها كما برهن باشلار فى كتابه الهام عن (جماليات المكان) ، مما أدى الى اغفال أهم جدليات البنية فى المكان • فتغير الفضاء البيئى ليس مجرد تغير فى المكان ، ولكنه تبدل لشروط الوجود الانسانى فيه ، ولايقـاع الحياة ، ومحددات الرؤية • فالوجود فى المكان هو حالة تفاعل بين كل مكونات المكان وبين الانسان الذى يتحتم عليه أن يعيد كل حساباته المادية والقيمية حتى تتخلق معها وبها حالة الوجود الجديدة • وعلى هذا فان العلاقة بين تلك الفضاءات هى علاقة بين حالات وجود متباينة، بل ومتصارعة أحيانا • كل هذا لمسناه بوضوح فى بحث وليد أبو بكر لكن الذى افتقدنا بعض ملامحه هو كيف أن التحولات التى انتابت تلك الفضاءات ما تلبث أن تؤدى الى تغير طبيعة الخطاب القصصى عنها ، وتبدل بنيته ذاتها وتفرض تحولا فى كل استراتيجيـات القص • فالوجود فى المكان يشارك فى صياغة المحددات القيمية ، بما فى ذلك الجوانب الجمالية• فاذا كانت بعض الفضاءات تتسم بالثبات الجغرافى ، فان هذا الثبـات غالبا ما تسود فيه بنية مستقرة تتسم بسيطرة العلاقات الأبوية قيميا ، وتسود خطابات هذا الفضاء علاقات ذات طبيعة استاتيكية وبنية تعاقبية تنهض على التراتب والتسلسل المنطقى • بينما تسود العلاقات الحركية خطاب الفضاءات التى تعج بالحركة والتحول ، وتتسم بنيته بالصراعية والاجتزائية مما يجهز على التتابع المنطقى ويشيع تفتتا له منطقه الخاص فى التماسك • فتجليات تغير الفضـاء البيئى على البنية القصصيـة هى

السبيل الأمثل للتعرف على كيفيـة تغلغل هذا التغير فى بنية الوجود والتفكير معا .

أما القضية الثانية التي طرحت فى مساحة هذا الملتقي الأدبي فهي القضية القومية التى تناولتهـا دراسة البـاحث البحريني د . ابراهيم عبد الله غلوم « الانتماء من العزلة : دراسة في امكانات استجابة شكل القصة القصيرة لقضايا بلورة الهوية القومية في الخليج العربي » والذي قدم الناقد المصرى المعروف رجاء النقاش تعقيبا هاما عليها . وقـد بدأ الباحث دراسته بمهاد نظرى يتناول فيه بعض اشكاليات العلاقة بين الشكل الفنى للقصة القصيرة وبين ضرورات التعبير عن القضية القومية ، التي تتناسب عنده مع شكل القصيدة التقليدية بجنوحها صوب الكليـات ، أو مع الرواية أو المسرحية باحالاتهما الموضوعية واسقاطاتهما التاريخية والسياسية ، أكثر من ملاءمتها لشكل القصـة بذاتيتها وميلهـا الدائم للخاص فى المكان والزمان والشخصية على السواء . ولكنها تجد مخرجها من هذه الأزمة فى ثلاثة مداخل يتعرف أولها على الكيفية التى ينحل بها الموضوع القومى العام والخبرة الذاتية والزمن الخاص ، ويبحث ثانيها فى ظاهـرة توظيف الموروث الشعبى فى القصة لخلـق حوار بين الذات والموضوع القومي ، بينما يعهد ثالثها الى استبعاد البحث المباشر عن الهم القومى فى القصة واللجوء الى الكشف عن طبيعة تشكله فى منطقة اللاوعى لدى كل من القاص والشخصية القصصية على السواء . ويقسم الباحث دراسته بعـد ذلك الى قسمين وخاتمـة : يدعو أولهمـا بالتجربـة الأولى أو « العزلة الأولى عن الانتماء المباشر » ويتناول فيه التجارب القصصية الباكرة فى عزلتها عن القضايا القومية العامة التى لم تتجسد فى انتاج المنطقة من القصة القصيرة فى هذا الوقت ؛ فقد عزفت القصة القصيرة فى بداياتها الأولى عن ارتياد الموضوع القومى واتجهت الى المشكلات الاجتماعية العامة ، بينما عبر كتابها عن القضية القومية فى مقالاتهم ، كما تجلت أبعادها بشكل قوى فى نفس المرحلة في الأشكال الأدبية الأخرى من شعر ومسرح ورواية يقدم لنا اطلالة سريعة على بعض تجسداتها فى الروايـة خاصـة ؛

أما القسم الثانى فانه يدعوه « بالتجربة الثانية : امكانات الاستجابة وسط امكانات النضج والازدهار » ويربط فيه بين تجريب القصة الخليجية وازدهارها وبين مجموعة من الأحداث الاجتماعية والسياسية التي ساهمت فى اذكاء جذوة الصراع القومي ، واعلاء شأن القضية الوطنية العامة فى المنطقة فى أواخر الخمسينات وبدايات الستينات . ومن هنـا أخـذت تجليات الموضوع القومي تأخذ أشكالا ناضجة كان أولها تحويل التجربة

العامة الى تجربة خاصة من خلال تناول موضوع القهر السياسى وآثاره المدمرة على الافراد ، أو موضوع السجن كمصير ومحطة انتظار للانطلاق من جديد تتطلب بطبيعتها الخاصة تأملا متقصيا للذات ومراجعة متأنية للماضى . اما الشكل الثانى فهو التعامل مع الرموز العربية والوطنية بالصورة التى يتحقق بها الاحتكاك بين المحلى والقومى ، وخاصة فيما يتعلق بالموضوع الفلسطينى الذى يندر أن نجد قاصا خليجيا لم يتعرض له بشكل أو بآخر . لكن موضوع الاحتكاك بالآخر القومى من ابرز موضوعات القصة الخليجية لأن طبيعة الواقع الاجتماعى والتاريخى فى المنطقة جعلها تعيش نزوحا كبيرا للعمالة العربية اليها ، بما يستتبعه هذا النزوح من مشاكل . وهنا تجدر الاشارة الى أن دراسة صورة الآخر القومى فى القصة الخليجية لا تكتمل ملامح دلالاتها القومية الا اذا ما وضعنا تلك الصورة فى مواجهة صورة الآخر الأجنبى فى تلك القصة ، سواء أكان هذا الأجنبى آسيويا أم أوروبيا .

وقد طرح تعقيب رجاء النقاش الجاد على هذا البحث مجموعة أخرى من الاعتراضــات ، بـدءا من رفض المنطلق المنهجى الذى يرى أن شكل القصــة القصيرة غير مناسب للموضوع القومى ، وحتى الكشف عن أن الكثير من اشكاليات هذا البحث ناجمة عن قصر الموضوع القومى فيه على القضية السياسية أو الوطنية المباشرة . وهذا خلط بين الموضوع القومى والموضوع السياسى المبـاشر الذى لا ينتج فنا جيـدا فى أى ثقافـة من الثقافات . ويقترح رجاء النقاش ضرورة توسيع الموضوع القومى ليصبح موضوع الخصوصية أو الذاتية القومية التى تترك ميسمها على كل ملامح العالم القصصى . فبهذه الطريقة يستطيع البحث أن يتناول مجموعة من القضايا التى تكشف عن تجذر الهوية القومية فى شتى أشكال الممارسات الحياتية ، وبالتالى فى جل موضوعات القصة الخليجية من مشاكل المرأة وحتى قضايا الصراع السياسى . هذا ويقترح المعقب على الباحث مجالا آخر من مجالات تجلى الموضوع القومى فى القصة الخليجية وهو القصص التى كتبها كتاب عرب غير خليجيين عاشوا وعملوا فى منطقـة الخليـج واستلهموا أثناء اقامتهم بها عددا كبيرا من القصص من تجربتهم فيها . ففى هذا القصص يتحول الموضوع الاجتماعى العادى ، وموضوع الحوار بين الأنا والآخر الى بعد من أبعاد الموضوع القومى فى القصــة الخليجية خاصة والقصة العربية عامة .

واذا كانت قضايا الحداثة والبيئة والهوية القومية هى القضايـا الأساسية التى نوقشت فى ساحة ملتقى القصــة فى دول الخليج ، فان مختلف الأبحاث والمناقشات الثرية بما فى ذلك قراءة جبرا ابراهيم جبرا

فى عينة ضافية من ستين قصة من أبرز ابداعات المنطقة ، والتى اتسمت بشىء من المجاملة أو الرعاية الأبوية غير المطلوبة ، قد تناولت هى الاخرى ابعادا مختلفة لهذه القضايا الثلاث ، بصورة ساهمت فى اثراء معرفة المشاركين جميعا بواقع القصة فى تلك المنطقة ، وأرهفت وعيهم بانجازاتها وطموحاتها معا وبتجارب كتابها وطبيعة القضايا التى يتعاملون معها ، والمشاكل الخاصة التى يواجهونها • وخرج الجميع من هذا الملتقى الخصب وقد أدركوا أن للقصة العربية القصيرة فى هذه المنطقة رافدا هاما يصب فى نهرها الدفاق ، ويثرى مغامرتها مع التجريب ، وطموحها للاقتراب بفعالية من هموم الذات العربية والتعبير باقتدار عن شتى مطامحها وصبواتها •

الكويت　　　　　　　　　　يناير ١٩٨٩

● السفر الثانى والعشرون

برشلونة .. المدينة والثقافة والمؤتمر

للمرة الثانية أذهب الى برشلونة بدعوة من وزارة الثقافة فيها للمشاركة فى الندوة الدولية السنوية التى ينظمها قسم نشر الثقافة الكتالونية فى حكومتها وللمرة الثانية يطرح السؤال نفسه لماذا برشلونة؟ ويكتسب هذا السؤال أهميته لأن القارىء العربى لا يعرف الكثير عن تلك المدينة الأوروبية الهامة ولا عن دورها الحضارى والتاريخى ناهيك عن الثقافة الكتالونية المتميزة التى يمثلها وتسعى الى تعريف بقية ثقافات العالم بها ، وقبل أن أحاول الاجابة على هذا السؤال أرجو أن يكون القارىء الكريم قد لاحظ أننى قلت وزارة الثقافة فيها وحكومتها ، ولم أقل وزارة الثقافه الأسبانية أو الحكومة الأسبانية لأن وصف برشلونة التى تعتز بكتالوتيتها بالأسبانية لايقل استفزازا لأهلها عن وصف مدينة أدنبرة مثلا بأنها مدينة أنجليزية • وقد ذكرتنى برشلونة فى الواقع بادنبرة التى عشت فيها عاما كاملا لوجود عدد من وجوه الشبه والاختلاف بينهما ولأن كلا منهما عاصمة لقومية تشكل أقلية كبيرة داخل البنية متعددة القوميات فى المجتمع الأكبر الذى تنتمى اليه كل منهما أى المجتمع الأسبانى بالنسبة لبرشلونة والبريطانى بالنسبة لأدنبرة اذ تتسم كلاهما بالغنى الواضح من الناحية المعمارية والتاريخية بل ان عناصر التشابه بين القوميتين أكثر من أن نلم بها كلها هنا لانها تشمل الكثير من الملامح العامة لتاريخ الأقليات القومية فى أوروبا وللصراعات الدامية التى اتسم بها هذا التاريخ والتى تؤكد أن معظم الوحدات الأوروبية الراهنة تمت بقوة السلاح بينما ينزعج الغرب من أى وحدة ولو سلمية فى عالمنا العربى ، لكن تلك قضية أخرى •

١ ـ برشلونة حاضرة لقومية متميزة :

فهناك تقارب ومفارقة بين البلدين أيضا من حيث الحجم وعدد السكان ، فبينما تقل مساحة كتالونيا قليلا عن تصف مساحة اسكتلندا نجد أن عدد الاسكتلنديين يزيد قليلا عن خمسة ملايين نسمة بينما يصل عدد الكتالونيين الى ستة ملايين • لكن بينما يعيش فى برشلونة ما يقرب من مليونى نسمة ، وعلى وجه الدقة ٣٦٪ من السكان ، يقل عدد سكان

أدنبرة عن نصف مليون ، أى ٩٪ من السكان · غير أن الفارق الهام بين المدينتين هو أنك تحس في برشلونة بأنك بالفعل فى حاضرة أوروبية لا تقل من حيث الغنى الثقافى والحضارى عن أى من العواصم الأوروبية التى تضارعها من حيث المساحة أو الأهمية أو تعداد السكان · وهذا ما لا تحس به فى أدنبرة التى تشعر فيها بأنك فى مدينة أقليمية جميلة لا فى حاضرة أوروبية مترعة بالحيوية والاعتداد الثقافى والتاريخى بالنفس · صحيح أن أدنبرة التى تتسم بجمال معمارى فائق تنظم كل صيف واحدا من اهم المهرجانات المسرحية فى العالم ، لكن ما أن ينفض هذا المهرجان حتى نعود المدينة الى خمولها الاقليمى وعزلتها التى تتضاعف تحت ضربات رياح خليج فيرس الباردة السافية التى ينخر زمهريرها المثقل بالرطوبة العظم ويدفع أهلها الى اغلاق الأبواب على أنفسهم معظم شهور السنة بعد انصراف الصيف مع انفضاض « مولد » المهرجان الكبير ·

لكن برشلونة مختلفة ، وهذا الاختلاف نفسه هو الذى يقودنا الى أول خيوط الاجابة على السؤال : لماذا برشلونة ؟ وما هو سر أهتمام حكومتها بأن تقدم للعالم ثقافتها ؟ فبرشلونة عاصمة كتالونيا ، وهى ليست كأى عاصمة من عواصم المقاطعات أو الاقاليم أو قل المحافظات الأسبانية ، ولكنها عاصمة لأقلية قومية متميزة داخل أسبانيا هى القومية الكتالونية يبلغ تعداد أفرادها ستة ملايين نسمة تشكل ١٦٪ من سكان أسبانيا ينتجون ١٩٪ من انتاجها القومى و ٢٥٪ من انتاجها الصناعى · لكن المهم ليس نشاط تلك الأقلية الانتاجى · بل قدرتها على المحافظة على لغتها وثقافتها وتمايزها داخل اطار الوطن الأم، وهذا ما يميزها عن القوميات الأسبانية الاخرى ، وعن القوميات التى يتشكل منها المجتمع البريطانى مثلا من الأسكتلندية والويلزية والأيرلندية التى تضعضعت لغاتها بل وانقرض معظمها أمام زحف الانجليزية الكاسح · بل ان الكتالونية هى اللغة السائدة فى قسم كبير من الاقليم المجاور فالينسيا وفى بعض أرجاء مورشيا وأرجون وفى جزر الباليريك بل وفى أجزاء من جبال البرانس الفرنسية وخاصة فى قسمها المعروف بالبرانس الشرقية وفى جزيرة سردينيا · وبهذا يقترب عدد الناطقين باللغة الكتالونية والمنتمين الى تراثها الثقافى من عشرين مليون نسمة ، يعتبرون برشلونة جميعا العاصمة الثقافية والروحية لهم ، وان لم تكن عاصمتهم الاقليمية أو حتى القومية · هذا البعد اللغوى من الأبعاد الهامة فى صياغة طبيعة الجواب الذى تطرحه برشلونة · لكنه لا يكفى وحده لتبرير أهميتها ، فقد حافظت القوميات السويسرية المختلفة على لغاتها لكن هذا لم يؤد الى تميز حواضر تلك القوميات · ربما لأن لكل قومية من تلك القوميات لغة أم تنحدر من بلد آخر مثل ايطاليا بالنسبة للأقلية الايطالية وفرنسا بالنسبة للفرنسية

والمانيا بالنسبة للألمانية ، بينما تتفرد اللغة الكتالونية ، وهى من اللغات اللاتينية ، بأنها ليست لغة بلد آخر كبير يقع خارج حدود كتالونيا ، وانما بأنها هى العاصمة الرئيسية لثقافة تلك اللغة وحضارتها وهى لغة لها تراثها الحضارى المتميز الذى يمتد فى التاريخ لأكثر من ثمانية قرون. فقد وجدت عدة ألفـاظ كتالونية فى مخطوطات لاتينيـة متعددة يعود تاريخها الى القرنين العاشر والحادى عشر ، بينما يرجع أقدم المخطوطات الكتالونية الى القرن الثانى عشر . لكن ما هى كتالونيا وما الذى يمنحها خصوصيتها القومية والتاريخية ؟

٢ ـ كتالونيا والأبعاد الثقافية الثلاثة :

تقع كتالونيا فى الشمال الشرقى من شبه الجزيرة الأيبيرية وفى ركنها الملاصق لفرنسا والمطل على البحر الأبيض المتوسط . وتتكون من مثلث صاغت أضلاعه الثلاثة شخصيتها المتفردة . اذ يطل الضلع الشمالى منه على فرنسا حيث تنفتح من خلاله على القارة الأوروبية ويتصل تاريخها عبره بتواريخها المضطربة وخاصة فى العصور الوسطى حيث كانت معبر الوندال والقوط وطريقـا مألوفا للهجرات والفتـوحات . بينما يلاصق ضلعه الغربى اقليمى أرجون وفالينسيا باسبانيا فيشدها ذلك مصـيريا لا الى أسبانيا وحدها ، وانما الى شبه الجزيرة الأيبيريـة برمتهـا حيث يتأرجح تاريخها القديم والوسيط كله بين الاستقلال أو التوسع أو الوقوع تحت سلطة الحكم الأسبانى والمعاناة من صراعات السلطة فيه . أما قاعدة هذا المثلث الشرقية والتى يزيد طولها عن خمسمائة كيلو متر فانها تشرف على البحر الأبيض المتوسط فيكسب ذلك كتالونيا ملامحها المتوسطة ، ويجعلها همزة الوصل بين شبه الجزيرة الأيبيرية وبين الشرق العربى خاصة . هذا التثليث الجغرافى يقابله تثليث تاريخى وثقافى مشابه . ولا يكشف هذا التثليث عن نفسه بنصاعة بقدر ما يظهر ابان فترة الحكم العربى فى الأندلس . فقد وقع ثلث كتالونيا الجنوبى الغربى تحت الحكم العربى ، بينما وقـع الثلث الشمالى تحت الحـكم الفرنسى وبقى الثلث الغربى فى اطار الدولة الأسبانية وقتها ، الذى امتدت عدوى صراعاتها الداخلية الى المنطقة العربية التى سرعان ما انقسمت فى مطالع القرن الحادى عشر وعقب سقوط الخلافة فى قرطبة الى مملكتين فى عصر ملوك الطوائف أحداهما فى طرطسة Tortosa والأخـرى فى يعيـدة Lleida وهذا ما مهد لسقوط الحكم العربى كله فى كتالونيا بعد وقوع المملكتين فى أيدى كونت برشلونة القوى فى منتصف القرن الثانى عشر ، وفى بقية الأندلس بعد ذلك بقرنين . وبرغم معاناة المنطقة العربية من الانقسام فى عصر ملوك الطوائف فان المؤرخين الكتالونيين أنفسهم يعترفون بأن فترة الحكم العربى

كانت من الفترات الثقافية والحضارية الزاهية فى تاريخهم • وربما لهذا السبب تحرص وزارة الثقافة الكتالونية على مشاركة ممثلى الثقافة العربية فى فعاليتها الثقافية المختلفة •

٣ ـ الذات وأهمية الحوار مع الآخر :

وننتقل الآن الى السؤال الثانى : ما هو سر اهتمام حكومة كتالونيا بضرورة أن تقدم للعالم ثقافتها ؟ الاجابة على هذا السؤال تكمن فى أن الحكومة الكتالونية قد أدركت أن السبيل الأمثل للحفاظ على هويتها القومية هو الاحتكاك بمختلف الثقافات حتى تبلور من خلال هذا الاحتكاك خصوصيتها وترهف عبره وعيها بهويتها • فليس أفعل فى ارهاف وعى الذات بنفسها من التفاعل مع الآخر ورؤية مختلف تبدياته كما تنعكس على مراياه • كما اكتشفت كذلك أن السبيل الأوفق لاثارة اهتمام الآخر بالذات القومية للتعرف على نتاجها الثقافى وطموحاتها المعرفية والقومية هو دعوته للمشاركة فى حوار حول القضايا التى تهم الذات • فمن خلال هذا الحوار الذى تسعى فيه الذات القومية الى طرح اشكالياتها على نفسها وعلى الآخرين يكتشف الآخر حقيقة الذات ويتعرف على خصوصيتها الثقافية • وهناك جانب آخر فى هذه المسألة يعود الى تاريخ كتالونيا القريب • فبعد أن استيقظ الحس القومى من جديد ابان الحرب النابليونية فى مطلع القرن الماضى والتى قامت فيها كتالونيا بدور متميز فى المقاومة ضد الاحتلال النابليونى لقسم كبير من أسبانيا ، اشتدت الحركة القومية التى أذكى الاحتلال الفرنسى وعيها بذاتها وهويتها فى عصر القوميات آنذاك • ولما عادت المنطقة مرة أخرى الى الحكم الأسبانى بدأ هذا التميز فى بلورة قاعدته الصناعية والاقتصادية المتميزة والتى كانت عماد الازدهار الثقافى الذى أعقبها • فأعيد تأسيس جامعة برشلونة وأكاديمية الآداب وغيرها من المؤسسات التى بثت الروح من جديد فى الثقافة الكتالونية التى عانت من كثير من الضربات خلال القرون الأربعة التى سقطت فيها كلية تحت التاج الأسبانى • وبلغت هذه النهضة الاقتصادية والثقافية أوجها فى الثورة الكتالونية البرجوازية التى وقعت عام ١٨٤٨ بعد أعوام من القهر القومى الذى عانت فيه من القمع والارهاب الأسبانى • وكان شعارها هو وحدة كتالونيا واستقلالها الذاتى •

وقد استمرت الحركة الوطنية التى أثارتها تلك الثورة فى النمو والتصاعد بفضل قوة الحركتين العمالية والثقافية طوال القرن الماضى حتى أصبحت كتالونيا بؤرة الأفكار التحررية والتقدمية وصانعة أسئلة الجدل الحاد بين دعاة الملكية المطلقة وأنصار الحكم الدستورى ، وصانعة المؤسسات

المحلية التى تحولت الى نواة للاتحاد الفيدرالى للجمهوريات القومية عام ١٩١٠ وهو الاتحاد الذى انبثقت عنه الحركة الديموقراطيـة المناهضـة للملكية المطلقة والداعية لتأسيس جمهورية رئاسية ٠ وهي الحركة التى نجحت فى تأسيس أول جمهورية فى كتالونيا عام ١٩٣١ وفى انتزاع اعتراف أسبانيا باستقلالها الذاتى فى العلم التالى ٠ وقد كانت هذه الحركة الجمهورية التقدمية النموذج الذى ألهب خيال أسبانيا برمتها ووضـع حجر الأساس لجمهوريتها الفتية التى تأسست عام ١٩٣٦ والتى أعلن اليمين الحرب الأهلية عليها فى ذلك الوقت ٠ وفى هذه الحرب الأهلية الشهيرة التى تحالف فيها اليمين الاسبانى مع النازية الألمانية والفاشية الايطالية كانت كتالونيا فيها آخر قلاع الجمهوريين وأشد الأقاليم صلابة فى محاربتها لكتائب فرانكو ٠ وهو الأمر الذى لم ينسه لها طوال فترة حكمه التى دامت ستا وثلاثين سـنة ، فأبطل استعمال اللغة الكتالونية وفرض على الجميع اللغة القشتالية « الاسبانية » وقوض كل المؤسسات الثقافية والاجتماعية التى بلورت الهوية الكتالونية أو أبرزت خصوصيتها، واضطهد رموز الوطنية الكتالونية أو سجنهم أو أعدمهم ، وكان من بين المعدمين رئيس الجمهورية الكتالونية ٠ ومن استطاع منهم الفرار هرب ، وشكل عدد من اللاجئين حكومة فى المنفى استمرت فى مواصلة نضالها حتى عـاد رئيسها الى البلاد بعـد موت فرانكو ليواصـل السعى من أجل استعادة الاستقلال الذى سحقته مرحلة العنف الفاشى أثناء حكم فرانكو ٠ فشكل مجلسا ضم كل القوى الكتالونية السياسية وسرعان ما استعادت كتالونيا استقلالها ، ،وتشكل مجلسها التشريعى فى عام ١٩٧٧ وعقب تشكيله أعيد تأليف الحكومة الكتالونية التى أصبحت اللغة الكتالونية هى لغتها الرسمية من جديد ٠ وارتفع العلم الكتالونى على قصر الحكومة الذى يعتبر واحدا من الرموز المعمارية والسياسية الهامة فى تاريخ المدينة بسبب ارتباط تاريخ الحركة الوطنية به ٠ ثم أجريت انتخابات عامة فى ١٩٨٠ أرست دعائم البنية السياسية لتلك القوميـة المعتزة بتاريخهـا وتفردها ٠ وهكذا وبعد نضال أكثر من خمسين عامـا عاد الحق لأهله ، فما ضاع حق وراءه مطالب مهما كان العسف ومهما طال أمد الظلم ٠ وهذا مثل أسوقه لشعبنا الفلسطينى الذى مازال يطالب بحقه المهدور منذ عام ١٩٤٨ ، فقد حصلت كتالونيا على حقوقها المهدرة منذ ١٩٣٦ ، فمتى يحصل الفلسطينى هو الآخر على حقه ٠

٤ ـ دروس التاريخ القريب :

هذا التاريخ القريب الذى حاولت فيه الفاشية أن تستأصل ملامح الهوية الكتالونية ، كما تحاول العنصرية الصهيونية أن تفعـل بالنسبة

للشعب الفلسطيني ، هو الذى يدفع حكومة كتالونيا الجديدة الى الاهتمام بتعريف ثقافات العالم المختلفه بملامح ثقافتها واشراكها فى همومها المعرفية واشكالياتها الحضارية • ليس فقط ليعرف العالم حقيقة التجربة التى يعيشها هذا الشعب الصغير • أو ليدرك طبيعة اسهام هذا الشعب فى عطاء الثقافة الأوروبية وفى انتاج تجربة الحداثة فيه بشكل عام ، وهو النتاج الذى أود أن أعود اليه فيما بعد بشىء من التفصيل ، ولكن لأن معرفة العالم بتلك الخصوصية وادراكه لأهميتها هو أفضل ضمان لها فى المستقبل ضد أى عسف ينجم عن انتكاس التجربة الديموقراطية فى اسبانيا كما انتكست من قبل عام ١٩٣٦ ، وكان من بين ضحاياه كل تجليات تفرد القومية الكتالونية وكل المؤسسات الصانعة لهويتها والمعبرة عن أحلامها • لأن الحكومة الكتالونية تدرك أن العالم قد أصبح قرية كونية على حد تعبير ماكلوهان ، وأنه كلما ازداد وعيه بعناصر قضية معينة كلما أصبح من العسير على أية قوة مناهضة أن تجور على هذه القضية ، أو أن تزيف الوعى بها أو تلغيه • ومن هنا أسست ادارة مستقلة فى وزارة الثقافة دعتها بادارة نشر الثقافة الكتالونية ووضعت على رأسها شخصية واعية نشيطة هى مارتا بيسارودونا التى تعرف أن من الضرورى أن يكون نشر تلك الثقافة من خلال أكثر من قناة فقد أصدرت دورية ثنائية اللغة، بالكتالونية والانجليزية ، تقدم للقارىء خلاصة الابداع الأدبى والفنى لهذه الثقافة وتعرفه بانجازاتها وأهم رموزها ، كما عمدت الى تنظيم تلك المؤتمرات الدولية الدورية التى يجلب خلالها عددا من مثقفى العالم وفنانيه للتعرف على بعض مظاهر الثقافة الكتالونية وللحوار حول واحدة من القضايا التى تهم الانسان فى عصرنا الحاضر •

ويبدو من محورى المؤتمرين اللذين كان لى حظ المشاركة فيهما ان هناك اهتماما حقيقيا بقضية الهوية الثقافية ، لأن الخيط الأساسى الذى يربط موضوع مؤتمر العام الماضى حول « التنوع الثقافى فى الحوار بين الشمال والجنوب Cultural Diversity in the North-South Dialogue وموضوع مؤتمر هذا العام عن « الجنس والهوية الثقافية "Gender and Cultural Identity هو دور الحوار فى بلورة الهوية سواء أكانت تلك الهوية فردية تتعلق بمعرفة كل من الجنسين بنفسه كما فى مؤتمر هذا العام لأن المقصود بالجنس فيه هو انقسام الجنس البشرى الى رجال ونساء تتمايز نظرة كل منهما للعالم ويختلف وفقا له تعامل المجتمع معه ، أو كان الأمر يتعلق بالجانب الجمعى فيها وبالحوار بين دول الشمال الغنية ودول الجنوب النامية أو التى يصعب عليها النمو فى عالم تمسك فيه الدول الغنية بزمام الأمور • فالقاسم المشترك بين المؤتمرين هو هاجس الهوية الذى يتبدى تحت سطح الموضوع الظاهرى لكل منهما • لكن

علينا قبل الحديث عن أى من المؤتمرين أن نتناول علاقة برشلونة الخصبة بتجربة الحداثة الأوروبية والتى تشكل أبرز ملامح اسهاماتها فى الثقافة الأوروبية المعاصرة ٠

٥ ـ تجربة الحداثة الأوروبية :

لاشك أن الدهشة التى تنتاب من يزور برشلونة للمرة الأولى عندما يكتشف مدى غنى هذه المدينة بالفنون ومدىضخامة اسهامها فى حركة الفن الحديث عامة ، وفى تجربة الحداثة فيه بصفة خاصة ، تعادل تلك التى تفجأ المتابع لتيارات الحداثة فى الأدب عندما يتعرف على اسهام أمة صغيرة أخرى فيه هى أيرلندا ٠ ففضل هاتين الأمتين على حركة الحداثة الأوروبية يعادل ان لم يفق فضل أمم كبيرة أخرى كانجلترا وفرنسا وألمانيا ٠ فاذا كانت أيرلندا قد قدمت للحداثة الأدبية عمالقة كبارا مثل جويس وييتس واليوت وسينج وأوكيسى ، فان كتالونيا قد قدمت للحداثة الأوروبية عمالقة مماثلين ولكن فى ميدان آخر غير ميدان الأدب هو ميدان الرسم والعمارة ، ففى الرسم قدمت ثلاثة من كبار رسامى هذا القرن : بابلو بيكاسو عملاق القرن العشرين بلا منازع ، وسالفادور دالى وخوان ميرو ، وفى العمارة قدمت أكبر معمارى الحداثة الأوروبية وأكثرهم أصالة أنطونى جاودى بالاضافة الى ديمينيتل وبريجى ٠ ولا مراء فى أن تبلور انجاز الحداثة الكتالونى فى المجال المرئى لا التعبيرى أو المكتوب له دلالاته على أن هذه الثقافة التى عانت من اشكاليات اللغة المهمشة أو المضطهدة لم تستسلم للمشاكل التى حالت دونها والتعبير عن نفسها باللغة ، وسعت الى الاستعاضة عنها بلغة أخرى مرئية تجسدت فى تلك المواهب العديدة فى الرسم وفى تلك الموهبة الفريدة فى العمارة، والتى أود أن أتوقف عند اسهامها الذى أدهشنى بتفرده وجماله ٠ فليس لى هنا أن أضيف جديدا الى معلومات القارىء العربى عن عمالقة الرسم الذين قدمتهم كتالونيا للعالم من بكاسو الى ميرو والذين يعرف المثقف العربى عنهم قدرا لا بأس به ، ولكن باستطاعتى وبعد جولة واسعة فى برشلونة وفى البلدان المجاورة التى ضمت بعض أعماله المعمارية ٠ وزيارة لمسقط رأسه تاراجونا ، أن أقدم شيئا عن جاودى للقارىء العربى الذى لم يسمع كثيرا عن هذا المعمارى الكبير ٠

ولا يمكننا الحديث عن جاودى دون الحديث عن تجربة الحداثة التى ساهم فى بلورة أهم انجازاتها فى العمارة ، أو دون المامة قصيرة بالسياق التاريخى الذى ظهر فيه ٠ فقد ظهر جاودى فى فترة زاهرة فى تاريخ كتالونيا وهى الفترة التى شهدت فيها ازدهارا اقتصاديا وصناعيا كبيرا

فى العقدين الأخيرين من القرن الماضى ، وهو الازدهار الذى نجم عن تطور الثورة الصناعية في كتالونيا بمعدلات أسرع وأوسع كثيرا من بقية أسبانيا ، وصاحبته يقظة قومية كبيرة تبلورت فى اعادة تأسيس جامعة برشلونة وأكاديمية الأدب فيها ، وتمثلت على الصعيد الأدبى فى الحركة الرومانسية ذات المحتوى القومى الواضح ٠٠ وعلى الصعيد السياسى فى تنامى الحركة الفيدرالية التي دعت عقب عزل ايزابيلا الثانية الى تكوين أنظمة محلية لها استقلالها النسبى عن الحكومة المركزية ولا تربطها بها غير روابط اتحادية فيدرالية ، وقد عزز هذا كله من النزعة القومية الكتالونية وعضد دعوات الاستقلال الذاتى التى كانت تكسب قوة اضافية من ضعف الحكومة الأسبانية المركزية عقب سقوط أماديو الأول السريع واعلان الجمهورية الأسبانية الأولى التى سرعان ما أحبطها الجنرال بافيا **Pavia** وأعاد الملكية منصبا الفونسو الثانى عشر ابن ايزابيلا المخلوعة ملكا على البلاد ٠ لكن كتالونيا ظلت بعيدا عن تلك الانتكاسات ، وعاشت بالعكس حالة من الازدهار الاستثنائى الذى بلغ ذروته ابان معرض برشلونة الدولى الشهير عام ١٨٨٨ ، وعبر اقامة المركز القومى الكتالونى الذى كان تعبيرا عن انتصار القومية الكتالونية فى وجه كل المعارضة التاريخية لها ٠ وقد نمت العاصمة برشلونة بشكل استثنائى فى تلك الفترة وأخذت فى التوسع العمرانى الذى أسفر عن بناء حى « الانسانشا » الذى يعد قلب المدينة الجديدة والذى احتفظ فى خرائطه المعمارية بالكثير من انجازات الحداثة الكتالونية ٠

فى فترة التوسع العمرانى الشديدة تلك ، ومن خلال نشوة الانتصار القومى وتلك القوة الاقتصادية النامية أخذ أنتونى جاودى (١٨٥٢ ـ ١٩٢٦) فى انشاء مبانيه التى أحالت مفاهيم الحداثة الأوروبية من مجرد مفاهيم ثقافية أو عقلية خالصة الى جزء حى من جغرافيا المدينة والى أحد معالم ذاكراتها القومية التى تعتز بها ، والواقع أن فترة الحداثة فى الثقافة الكتالونية والتى تعود الى أواخر القرن الماضى والعقدين الأولين فى هذا القرن تضع تجربة الحداثة الكتالونية فى طليعة التجارب الأوروبية من الناحية التاريخية فقد كان الوازع القومى لخلق فن متميز يبث الروح فى القوالب الجامدة ويميزها عن الفن الأسبانى عامة من القوى الدافعة للحركة، كما كانت الرغبة فى تحديث الفن الزخرفى التقليدى وتطويره بحيث يتلاءم مع التقنيات الجديدة ويوسع من آفاقها الوظيفية من العوامل المساعدة على تطويرها ٠ فقد كانت تلك الحداثة فى بعد من أبعادها جوابا على مجموعة من الحاجات المادية والقومية التى أرادت تطويع المواد الصناعية الجديدة للتقنات التقليدية بالصورة التى تحورت معها تلك التقنيات وتغيرت ٠ كما كانت الكثير من سمات تلك الحداثة نوعا من رد الفعل على تعقيدات

الفن القوطى ومبالغاته الزخرفية التى بلغت حدا من التهويل يشارف حدود القبح فى بعض الأحيان · وقد وجد جاودى الحل فى بساطة الفن العربى الآسرة ، لكن قرب هذا الفن الوثيق من التاريخ الاسبانى · وارتباطه بمجموعة من الدلالات الدينية والتاريخية هو الذى حال بينه وبين اللجوء مباشرة الى الحلول الفنية العربية التى تناقض فى منهجها وطبيعتها ومفهومها الفن القوطى · ومن هنا عمد الى استلهام روح الفن العربى ونقل وحداته الدائرية والزخرفية ولكن فى تكوينات وتشكيلات وحلول تشكيلية جديدة لا تعتمد على السمترية وانما على اللجوء الى الخط المنحنى والى الأقواس العربية دون الالتزام بتكراريتها وتطعيمها بتكوينات تستمد وحداتها الزخرفية من العناصر الطبيعية وحدها فى الزخرفة العربية دون العناصر الهندسية ·

وقد كان جاودى عملاق هذه الحركة التحديثية فى الفنون الزخرفية والمعمارية على السواء لأنه استفاد من فترة عمله الباكرة فى الخدادة قبل أن يدرس الهندسة المعمارية ، وطوع تكوينات الحديد الزخرفية لهذا المفهوم المعمارى الجديد الذى لا تتكامل فيه البنية المعمارية دون ان تسرى روحها وتفاصيلها فى كل جزئيات المبنى وحتى فى الأثاث الذى يضمه وفى تكوينات الزجاج الذى تتسرب من خلاله الاضاءة ، وتتحدد عبره درجات الظل والنور · هذا المفهوم المعمارى الذى يهتم بكل دقائق الكتلة المبنية كاهتمام النحات بشتى تفاصيل تمثاله هو الذى حول عمائر جاودى الى أعمال فنية متكاملة تتسم بنوع من الجمال الفريد الذى ينطلق من جسارة المغامرة فى المجهول دون أن يضحى أبدا بالجوانب الوظيفية للعمارة ، وانما يحقق نوعا من التوازن الخلاق بين الوظيفة والجمال ، لكن الذى أحال جاودى الى شخصية قومية وأتاح له نفوذا واسعا مكنه من العثور على أكثر من ممول لمشاريعه المعمارية الطموحة والغريبة بأى مقياس من المقاييس المعمارية التقليدية هو أنه استطاع أن يمزج بين المفاهيم الحداثية فى الفن والعمارة على السواء وبين النزعة القومية الكتالونية ·
فقد استقى الكثير من تشكيلاته ورموزه من صور وصيغ تشكيلية لها ايحاءاتها التاريخية والقومية ، وترتبط فى كثير من الأحيان بكل ما يتضمن جوهر الشخصية الكتالونية ورؤاها ومعتقداتها وخرافاتها وأساطيرها الدينية ، وخاصة تلك التى تتصل بالقديس جورج حامى كتالونيا وقديسها الأثير الذى امتزجت قصته الدينية بأساطير كتالونيا الشعبية القديمة ، وهو نفس ما حدث مع القديس مارى جرجس فى التراث القبطى المصرى ·

وهناك عنصر آخر ساعد على نجاح تجربة الحداثة الكتالونية تلك

وهو أنها استطاعت أن توثق عرى العلاقة بين كتالونيا وسائر أوروبا ٠ فمن خلال اسهامات أبناء كتالونيا فى تلك التجربة استطاعت الثقافة الكتالونية أن تخلق لنفسها مكانا متميزا في حركة الفن والثقافة الأوروبية آنذاك ، وهو المكان الذي وفر الحماية بعد ذلك لقضاتها الكبار عندما فروا من عنف ديكتاتورية فرانكو المعادية خاصة لكتالونيا ٠

٦ ـ قضايا الجنسين والهوية الثقافية :

وقد ضم المؤتمر الدولى الذى نظمته ادارة نشر الثقافة الكتالونية بوزارة الثقافة في برشلونة ثلاثة وثمانين مشاركا من ثلاث وعشرين دولة كان بينها معظم الدول الأوروبية بما فى ذلك الاتحاد السوفيتى وبعض دول أوروبا الشرقية وعدد من دول الأمريكتين وأربع دول عربية هى مصر والعراق والمغرب والجزائر ودولة أفريقية واحدة هى السنغال التى مثلها مختار أمبو الأمين العام السابق لليونسكو ، وان زعمت كندية سوداء أن هوية السود فى الأمريكتين هى بالدرجة الأولى هوية أفريقية قبل أن تكون كندية أمريكية ٠ ولأن سياسة هذه المؤتمرات الاهتمام بتنوع تخصصات المشاركين أو انتهاج مايسمى بالمقترب متعدد المناهج أو متنوع التخصصات ومتغاير الثقافات والخلفيات فقد توزع اهتمـام المشـاركين من الكتابة الابداعية الى النقد الى المسرح الى السينما الى عدد من العلوم الانسـانية وخاصة الفلسفة وعلم النفس ، بل وكان بين المشاركين عدد من الأطباء كان أحدهم من المشاركين الخمسة عن بريطانيا وهو الرئيس السابق للجمعية الملكية لأطباء أمراض النساء وجراحيها ٠ والواقع أن نوعية الموضوعات التى تختارها تلك المؤتمرات محورا لها من النوع الذى تثريه مسألة تنوع التخصصات وتباين المقتربات المنهجيـة من العلمية التجـريبية ، وحتى الحدسية التى تعتمد على استبصـارات المبـدعين أكثر من اعتمادها على استقصاءات الدارسين ٠ فاذا كان الهدف من تلك المؤتمرات هو اجراء نوع من الحوار بين مختلف الثقافات فان الفائدة المرتجاة من مثل هذا الحوار لا تتحقق الا اذا ما مثلت فيه مختلف اجتهادات الثقافة من علمية ونقدية وابداعية٠كما أن الدرجة المبتغاة من الاحاطة بشتى أبعاد القضية المطروحة لا تتم دون التعرف على آراء مجموعة متباينة من المثقفين الذين يختلف تناولهم لجوانبها بتنوع مشاربهم وتباين همومهم وتغاير هواجسهم وتبدل اهتماماتهـــم ٠

وقد كان موضوع مؤتمر هذا العام هو واحد من الموضوعات التى حظيت باهتمام المثقفين الغربيين عامة فى العقدين الأخيرين وهو « الجنس والهوية الثقافية Gender and Cultural Identity

والجنس هنا هو مسألة الذكورة والأنوثة ، وهى المسألة التى ثار الاهتمام بها منذ اندلاع حركة تحرير المرأة باعتبارها حركة فكرية شاملة متعددة الاهتمامات ، وليس مجرد حركة سياسية تطالب للمرأة بمجموعة معينة من الحقوق ، وان كان هذا أيضا من مجالات اهتمامها أو من النتائج الجانبية لها • فقد اهتمت هذه الحركة بأبراز أن الفوارق الطبيعية أو التشريحية بين الرجل والمرأة ليست هى أهم العناصر فى علاقة الجانبين • لأن توزيع الأدوار الطبيعى الذى تحدده الطبيعة من البداية ما يلبث أن يترتب عليه مجموعة أخرى لا من تحديد الأدوار والوظائف الاجتماعية فحسب • وانما من تحديد المكانات وتكييف شبكة العلاقات وتراتب مراكز القوى فيها • وهى كلها عمليات مشروطة اجتماعيا أكثر من كونها مشروطة طبيعيا أو بيلوجيا • ومن هنا فقد أثار ربط هذا الموضوع بمسألة الهوية الثقافية مجموعة كبيرة من الاشكاليات عما اذا كان للثقافة الواحدة هوية ثقافية واحدة أم أن هذه الهوية تختلف باختلاف منظور الرجل ومنظور المرأة لها داخل الثقافة الواحدة • وما هى نوعية الآليات التى تتحكم فى حركية تصور كل من الجنسين لهويته الثقافية والقومية وبالتالى • ولأن طبيعة هذا الموضوع تتطلب تناوله من الجنسين على السواء فقد حرصت الادارة المنظمة له على أن يكون عدد المشاركين من النساء مساو تقريبا لعدد المشاركين من الرجال وأن تتنوع مسألة الجنس داخل كل ثقافة من الثقافات حتى نتعرف على البعدين أو التطورين المختلفين لرأى هذه الثقافة فى الموضوع ولتصورها المتكامل له •

والواقع أن هذا المنظور لتناول هذه القضية يطرح بداءة درجة عالية من النضج فى التعامل مع قضية الجنس ، لا باعتبارها نوعا من التمرد الأنثوى على سلطة الذكر ، أو المواجهة الصراعية بين النساء والرجال بغية اتاحة الفرصة لهن بعد أن عانين طويلا من اضطهاد الرجل للانتقام من مضطهديهن ، وانما باعتبار أن قضية الجنس هى فى الواقع مدار اهتمام شقى الجنس البشرى ، لا حكرا على جنس منهما دون الآخر • وهذا المنظور فى حد ذاته يتجاوز بالقضية مرحلة التمرد والصراعات بين الجنسين ، الى مرحلة اكتشاف الذات لحقيقتها فى عالم ثنائى الجنس ، هذا علاوة على أن تنظيم الجلسات حرص على أن تتوفر لكل جلسة مجموعة متجانسة ولكنها فى الوقت نفسه متغايرة ، متجانسة من حيث الحرص على تمثيل الجنسين بشكل جيد ، ومتغايرة من حيث الاهتمام بأن تبرز الجلسة أصوات مجموعة مختلفة من الثقافات حتى تتنوع الرؤى وتتعدد المنطلقات • فقد كان فى كل جلسة تقريبا عدد من الأوروبيين من الغرب والشرق ، واحد الأمريكيين ، وأحد أبناء الثقافة العربية ، وكاتب آسيوى أو أفريقى الى جانب واحد أو اثنين من أبناء الثقافة الكتالونية

الذين وقع عليهم علاوة على ذلك عبء رئاسة الجلسات · وهو تنظيم أتاح للجلسات قدرا من الخصوبة والتنوع · ولأن معظم المشاركين قدموا اما أبحاثا ، طبعت وكان عليهم أو عليهن القاء ملخصات لها ، أو مداخلات قصيرة تتيح لكل مشارك التعبير عن رأيه باختصار ، فليس باستطاعتنا هنا أن نستعرض كل ما قدم فى هذا المؤتمر من أبحاث ومداخلات · والا تطلب الأمر سلسلة متعددة من المقالات · ولهذا سأكتفى هنا باستعراض الاتجاهات العـامة التى كشفت عنها مختلف المداخلات ساعيا الى رصد مجموعة من العلاقات بين بعض الاهتمامات وبعض الثقافات أو البلدان التى صـدرت عنها ·

ومن البداية نجد أن عنوان المؤتمر ذاته « الجنس والهوية الثقافية » يطرح تساؤلا هاما عن مدى مشروطية الهوية الثقافية بالجنس ، وهل أن تصور النساء فى ثقافة معينة لهويتهن يختلف عن تصور الرجال من أبناء الثقافة نفسها لتلك الهوية · وهل ثمة هوية منفصلة عن الجنس ؟ واذا كانت هناك عدة عوامل تاريخية وثقافية وسياسية تشارك فى بلورة الهوية القومية للبشر فأين هو مكان الجنس بين تلك العوامل وما هى مكـانته فيها ؟ وهل يؤدى تغيير الجنس الى تغيير فى قيمة أى من تلك العوامل الفاعلة الأخرى وفى قدرتها على المشاركة فى صياغة هذا المفهوم الواسع والمعقد للهوية أو الخصوصية أو الذاتية الثقافية والقومية على السواء · وقد كان أوسع الاتجاهات التى تجلت فى عدد من أبحاث هذا المؤتمـر ومداخلاته انتشارا بين المؤتمرين هو الاتجاه الى تناول هذا الموضوع من منطلق تاريخى · وقد تميز داخل هذا الاتجاه تياران أساسيان : تبلور أولهما من خلال عدد كبير من الأبحاث والمداخلات التى كتبتها النساء · والملفت للنظر أنه يمكن ملاحظة مدى قوة هذا التيار وتغلغله فى الفـكر النسائى بصرف النظر عن تخصصات معتنقيه أو عن الخلفيات الثقـافية التى ينحدرن منها · وتعمد اللواتى ينتهجن هذا المنهج الى ربط كل تجليات الثقافة بمفهوميها المعرفى والاجتماعى بنوعية العلاقة السائدة فى مجتمع من المجتمعات : أى من حيث كون البنية الأساسية لتلك العلاقة بنية مجتمع أمومى ، أى المجتمع الذى تحتل فيه الأم أعلى المكانات ويصبح دورها أهم الأدوار ، أم مجتمع أبوى وهو العكس والأكثر سيادة فى تاريخ البشرية · اذ يقمن مجموعة من التعارضات بين البنيتين ، فالسمة الأساسية للمجتمع الأمومى عندهن تعاونية بينما هى فى الأبوى تنافسية ، وهو مجتمع واحدى ليس فيه انفصال بين الخارج والداخل بينما الأبوى ثنائى يتخلف عنه تعارض زائف بين الداخل والخارج على كل المستويات الاجتماعية والأخلاقية والاحرائية والمجتمع الأمـومى مشـاعى بينمـا الأبوى تملكى وفـردى ، ومركزية المرأة الأم فيه لا تتحول الى بنية تراتبية بينما ينهض الأبوى على

تراتب المكانات والعلاقات الهرمية • بل ويتجاوزن ذلك الى ارجاع الديانات السماوية كلها الى البنية الأبوية للمجتمع ، لأن المرأة فى تلك الديانات هى مصدر الغواية وهى منفذ الخطيئة ومثال الضعف الجسدى والأخلاقى على السـواء •

ومن خلال ابراز شتى تجليات هذا التعارض نخلص الى أن ثمة أخطاء أساسية في البنية الأبوية للمجتمع لأنها تنهض على استعباد المرأة والنظر اليها بقدر من الاستخفاف أو التجنى ، وأنه بدون تخلص المجتمع البشرى من هذه البنية ومن كل ما يترتب عليها من علاقات وبنى فلا أمل فى تحقيق أى قدر من المعاملة المتوازنة بين الجنسين ومن هنا تنظر بعض مقدمات تلك الرؤى الى التغيرات التى حدثت فى المجتمع الأوروبى خاصة من حيث السماح للمرأة بالعمل والانتخاب وغير ذلك على أنها تغيرات سطحية لم تتناول البنية الاجتماعية العميقة بالتغيير • فقد تمت ضمن آليات الأبوية التى تسمح للمرأة بالعمل وببعض الحقوق السياسية دون أن تسمح لها بتغيير قواعد اللعبة الاجتماعية • أى لعبة وضع الأنساق والبنى • وقد نتج عن هذا ما سمته احداهن بنسونة الفقر فى المجتمعـات الأوروبية الحديثة ، أى ان غالبية الفقراء من النسوة ، وأن درجة الفقر داخل الطبقة الواحدة أعلى بين النساء منا بين الرجال • وليس الفقر هنا فقرا اقتصاديا فحسب ، ولكنه يمتد ليشمل الجوانب الثقـافية والاجتماعية والنفسية الأخرى التى تتقلص من حيث القيمة والمساحة بالنسبة للنسوة اذا ما ثبتنا العوامل الأخرى من المتغيرات •

ولا شك فى أن المنظور التاريخى فى هذا التيار يختلط الى حد كبير بالمنظار الأيديولوجى الذى يقيم استقطابا واضحا بين الجنسين فى محاولة لفرز تاريخ الجنس النسائى من تاريخ الرجل ، أو مما اصطلحنا على تسميته بالتاريخ ، لأن جل ما عرفناه من تواريخ هو فى نظرهن تواريخ رجالية صرفة،لم تهمل المرأة فحسب ولكنها احترفت التجنى عليها والصاق كل التهم الجائرة بها ، سواء أكانت تلك التهم اجتماعية أم اقتصادية أم أخلاقية ، وينطوى هذا الخلط على أغلوطة أساسية تنحو الى الغاء التاريخ نفسه ، أو على الأقل الى التحلل من المسئولية التاريخية ، فالقول بان التاريخ هو تاريخ الرجل • وليس تاريخ الجنس البشرى كله ، يخفى فى تضاعيفه محاولة هؤلاء النسوة للتملص من مسئوليتهن عما دار فى مجتمعاتهن ، وبالتالى لطرح الدرس التاريخى وراء ظهورهن واكتساب نوع من البراءة الخادعة والمشـكوك فيها • ومن أبرز الأبعاد التاريخية التى لا تستطيع المرأة التملص من دورها فيها هو البعد العنصرى ، وهو أحد الأبعاد التى ترددت أكثر من مرة فى أبحاث الأوروبيات اللواتى يدركن أن مركزية الذات الأوروبية قد أدت الى نفى الآخر واضطهاده • وأن شتى

أشكال التعصب العنصرى من المعاداة للسامية فى الماضى الى معاداة الملونين وكراهية العرب والمهاجرين وأبناء العالم الثالث عامة فى الحاضر . وهى أشكال تقوم فيها المرأة بدور فاعل ولا تستطيع التخلص من مسئوليتها عنها ، هى أخطر على الجنس البشرى من ذلك التناقض التاريخى بين الرجل والمـــرأة .

أما التيار الثانى داخل هذا الاتجاه التاريخى الشائع فقد تجلى فى أبحاث ومداخلات عدد من المشاركين من العالم الثالث سواء فى ذلك الرجال أو النساء . وهو أن العامل الفاعل فى تحديد الهوية من بين عوامل الميراث التاريخى المتعددة هو العامل الاستعمارى ، حيث ان اخضاع الشعوب التى عانت من الاستعمار أثر بشكل جذرى على تصور كل من رجالها ونسائها لهويتهم على السواء . صحيح أنه كان هنــاك من يرون أنه اذا ما كان للميراث الاستعمارى أى فضل حضارى كما يقـول دعاة هذا النظام فان الذى استفاد به هم الرجال وحدهم دون النساء ، وهذا رأى لا يختلف كثيرا عن ذلك الذى يريد التحلل من تاريخيته فى الكتابات النسائية . الا أن الرأى السائد بين عدد كبير من المشاركين من العالم الثالث والذين انتهجوا هذا المنهج فى التفاعل مع الموضوع هو أن تجربة الهوية فى تلك المناطق مشروطة بعلاقات القوى الأكبر بين القاهر والمقهور ، أكثر من كونها مشروطة بجدل العلاقة بين الجنسين ، ذلك لأن الاشكالية الأبرز فى علاقة من هذا النوع هى أنها علاقة بين هويتين ثقافيتين مختلفتين تحاول احداهما اخضاع الأخرى وطمس خصوصيتها . فاذا كانت علاقة الجنسين بكـل ما فيها من سلبية هى علاقة تتم داخل اطار البنية الثقافية الواحدة وتطمح الى بلورة حركيتها، فانها فى حالة الاستعمار لاتكتفى بالاستغلال الاقتصادى أو الاجتماعى وانما تختلف فى الذات المقهورة مجموعة من الآثار والعصابات النفسية التى كان فرانز فانون من أوائل الذين تنبهوا الى مدى تأثيرها فى النفس البشرية ، ومدى تغلغل آثارها المدمرة فيها حتى بعد زوال الاستعمار بفترات طويلة .

وينقلنا هذا الى الاتجاه الثانى الذى تناول الموضــوع من منظـور التحليل النفسى والفلسفى والذى انطلق عدد كبير من مداخلاته من تلك القاعدة الرائدة التى أرساها فانون فى تحليل العلاقة النفسية بين القاهر والمقهور . وفى الكشف عن آثارها فى الثقافة وفى صياغة الهوية . صحيح أن عددا كبيرا من المشاركين الذين تبنوا هذا الاتجاه قد بنوا تحليلاتهم على أساس نظرية التحليل النفسى عند فرويد ، وخاصة بعد الاضافات الأساسية المغيرة التى ادخلتها عليها كشوف جاك لاكان الهامة فى هـذا المجال ، وخاصة من خلال ادخال البعد اللغوى فى عملية التحليل النفسى . لكن المنحى الأساسى لتحليل تلك العلاقة المعقدة بين الجنسين لم يكن يهتم

بمدى تأثيرها على الصحة النفسية للأفراد كما هو الحال عند فرويد ، وانما بدورها الأساسى فى صياغة تصورها لذواتهم ولثقافتهم ولمكانتهم فى العالم وهذا كله من آثار الاضافات اللاكانية • وقد امتزج هذا التناول بشىء من الطبيعة الفلسفية لدى عـدد من المشاركين الفرنسيين والألمان الذين حاولوا الدخول الى الموضوع من مدخل الفلسفة ، وقد اتسم مدخلهم فى أغلب الأحيـان بالطابع البنيوى الذى ينظـر الى الثقافة على أنهـا الخصوصيات التى تنطوى على العموميات ، وأنها شبكة من العـلاقات والأنســاق التى تتحكم فى بنيــة التفكير وتوجه مساره ، وأن بعض هذه الأنساق مذكر وبعضها الآخر مؤنث بينما يتخفى بعضها الثالث خلف قناع من الحياد • ويؤدى تجاهل تباين هذه الأنساق والبنى ، أو بالأحرى تجاهل جنسها الى اغفال جزء كبير من محتوى الثقافة ذاتها ، والتغاضى عن مجموعة من الآليات الفاعلة فى تشكيل ملامح الهوية فيها •

هذا وكان هناك اتجاه ثالث لتناول الموضوع من منظور علم اجتماع الثقافة والنظرية الأدبية ، وهو اتجاه جنح الى التعامل مع الموضوع باعتبار أن طبيعة البنية الاجتماعية لأى ثقافة تؤدى الى تكوين تيارات ثقافية سائدة وأخرى هامشية ، والى تكوين ما يسمى بالثقافات الثانوية وهى ثقافات مجموعات الأقليات فى كل ثقافة سائدة ، والثقافة فى تعريف هذا الاتجاه هى مجموعة المعارف والأعراف والعادات التى تتكون من خلالها خصوصية متميزة تنطوى على مفهوم عام للعالم • ودائما ما تحمل الثقافات الثانوية تلك ملامح القهر أو التهميش فى بنيتها ذاتها وفى مسار تطورها التاريخى • ومن الملاحظ فى هذا المجال أن الثقافة النسائية ، وبرغم أن النساء هن الأغلبية فى معظم المجتمعات ، تحمل فى بنيتها وفى مســار تطورها معا ملامح الثقافة الهامشــية أو المقهورة • وتمر الثقافة الثانوية فى تطورها بمراحل أساسـية ثلاثة ، تعمـد فى أولاها الى تبنى الثقافة الســائدة واستبطانها ، بينما تتسم فى ثانيتها بالتمرد عليها ورفضها ، ثم تجنح فى المرحلة الثالثة الى اكتشاف الذات ومعرفة حدودها ، وهذا هو الحال مع الثقـافة النسائية والأدب النسائى ، بل والاسهام النسائى فى العلوم الاجتماعية عامة حيث يمكن أن نحللها فى أى مجتمع من المجتمعات وفقا لتلك المراحل الثلاث •

برشـــلونة   مايو ١٩٩٠

● السفر الثالث والعشرون

مؤتمر دراسات الشرق الأوسط وأوروبا الموحدة

عقد في باريس في الفترة (٩ ـ ١١ يوليو / تموز ١٩٩٠) أول مؤتمر مشترك تعقده الجمعيتان البريطانية لدراسات الشرق الأوسط ، والفرنسية لدراسة العالم العربي والاسلامي • فقد كانت كل جمعية من الجمعيتين المذكورتين تعقد مؤتمرا سنويا لها يقتصر عادة على الباحثين المحليين ، والباحثين الضيوف • اذ تحرص كل جمعية من الجمعيتين على دعوة عدد من الباحثين العرب أنفسهم ، لا لتقديم وجهة نظر المشاركين في الواقع المدروس ، والصادرين في رؤيتهم عن آلياته المعقدة فحسب • ولكن أيضا لأن الاستشراق الحديث يحرص على أن يرد عنه اتهامات كثيرا ما وجهت الى الاستشراق القديم الذى كان يشرقن الظاهرة التى يدرسها ، ويفصلها من خلال تلك الشرقنة عن الواقع الذى صدرت عنه • كما يحرص على أن يكون فهمه للظواهر التى يدرسها متعدد المقتربات ، لأنه أيقن أن تعدد المقتربات المنهجية والتخصصية هو السبيل الى المعرفة الحقيقية الشاملة بأى موضوع • هذا فضلا عن أن الاهتمام بالعالم العربي المعاصر، أو حسب التعبير الانجليزى بالشرق الأوسط حتى لا يغضب الأتراك أو الفرس ، ناهيك عن الصهاينة الذين أعطاهم الانجليز وطنا لا حق لهم فيه ، يتطلب ملاحقة سريعة لما يدور فيه • فأول ما يتسم به هذا العالم هو سرعة تلاحق الأحداث فيه ، وتغير اتجاهاتها وايقاعاتها بشكل مستمر يستعصى على المتابعة البعيدة ويتطلب ملاحقة مستمرة ودقيقة • كما أن هناك الكثير من الأمور التى لا يمكن تفسيرها بشكل دقيق وصحيح دون العودة الى الرأى المحلي فيها ، والنظرة الداخلية النابعة من قلب الأحداث •

وهنا لابد من التريث قليلا عند دلالات وجود مثل هذه الجمعيات العادية التى نفتقر الى تنظيمها في عالمنا العربي ، ناهيك عن عقد مؤتمرات سنوية لأعضائها للتشاور فيما يبحثون فيه وعرض رؤاهم على بعضهم البعض حتى تكتسب من خلال الاحتكاك العلمي صلابة وتماسكا • فأول ما تطرحه هذه الجمعيات على المثقف العربي هي أن الغرب لا يزال جادا في دراسته لنا ، بالرغم من انصرام عهد الاستعمار القديم الذى كانت هذه الدراسات من الزم اللوازم له • وأن الغرب لا يدرس واقعنا العربي

بمختلف نشاطاته من أجل « سواد عيوننا » كما يقولون ، ولا نتيجة لمحبته الخالصة لنا ، والتى لا يطيق معها الانصراف عن الاهتمام بنا ، بالرغم من أننا طردناه من مجتمعاتنا بالقوة • وانما يدرسنا من أجل مصلحته هو فى المحل الأول ، ومن أجل مواصلة التدخل المباشر مرة ، وغير المباشر أخرى فى شئون مجتمعاتنا ، ومن أجل معرفته هو بذاته ، وبمكانه فى العالم ومكانته فيه • ولابد لنا ان كان علينا أن نقيم علاقة ندية مع الغرب من أن نقيم فى بلادنا نفس النوع من الجمعيات العلمية التى تتخصص فى دراسة المجتمعات والثقافات الغربية المختلفة من أوروبية وأمريكية ، لأننا بدون دراسة هذه المجتمعات والثقافات الغربية المختلفة من أوروبية وأمريكية ، لن نعرف ماذا يريدون لنا وما الذى يتوقعونه منا ، ناهيك عن ادراك ما نريد نحن منهم • وبدون أن يعرف كل من الجانبين الأمر معرفة عملية دقيقة لا سبيل الى اقامة جسور حقيقية من التفاهم المشترك ، والعلاقات القائمة على الندية والاحترام المتبادل • ودراسة مجتمع من المجتمعات من جانب واحد ، تعنى أن الفاعلية فى العلاقة بين الدارس والمدروس هى فى حقيقة الأمر فاعلية فى اتجاه واحد ومن طرف واحد ، لكن تلك قضية أخرى كما يقولون • أشير لها هنا لأنبه الضمير الثقافى العربى الى ضرورة تحقيق التوازن فى علاقاتنا مع الغرب على الصعيد العلمى ، قبل أن نطمح فى انجازها على أى مستوى آخر ، أعود بعدها للموضوع الأصلى •

وقد جرت العادة على أن تعقد كل جمعية من الجمعيتين مؤتمرها السنوى فى جامعة من جامعات البلد نفسه ، وان كانت الجمعية الفرنسية بسبب اقتصارها على العالم العربى والاسلامى وحده ، كانت هى الأقرب الى الاهتمام اللصيق بالرأى العربى المحلى ، ومن هنا أقام الفرنسيون مراكز للأبحاث فى عدد من البلدان العربية فى مقدمتها مصر والمغرب ، لتحقيق قدر وثيق من التعاون بين الباحثين الفرنسيين والباحثين العرب فى دراسة المنطقة ، وهذا جزء من سياسة فرنسية نشيطة لابد من التوقف عندها والتعرف على مراميها • هذا فضلا عن أن التوجهات المنهجية الفرنسية ذاتها تحبذ النشاطات البحثية القائمة على التعاون بين باحثين من جنسيات مختلفة ومن خلفيات علمية ومهنية متباينة كذلك • كما أننا لا نستطيع أن نتناسى كلية أن فرنسا تحرص فى السنوات الأخيرة ، وبعد الهجمة الأمريكية الكاسحة على العالم العربى ، على توثيق علاقتها بالمثقفين العرب ، بعد أن فاتها توثيق تلك العلاقات بصانعى القرار السياسى فى المنطقة • أما الجمعية البريطانية ، وهى أكثر عددا من حيث الأعضاء ، ومن حيث التنوع أيضا لأن بها الكثير من الباحثين العرب الذين ارتبطوا بالجمعية

بعلاقات تاريخية ، أو حتى الذين يريدون الاستفادة من دعواتها لتيسير الحضور لهم الى بريطانيا ، أو لاقناع المؤسسات العلمية التى يعملون فيها بدفع تكاليف رحلتهم لالقاء أبحاث فى مؤتمرها السنوى المرموق ، والذى يكتسب أهمية متزايدة منذ أن أصدرت هذه الجمعية فصلية علمية جيدة، تهتم بدراسات الشرق الأوسط ، وتنشر أهم الأبحاث الجامعية الجديدة عنه ٠

وقبل الحديث عن المؤتمر المشترك هذا وما دار فيه ، لابد لنا من تناول الدوافع التى حدت بالجمعيتين الى عقد اجتماع مشترك بينهما ، وما هو الهدف المرتجى من مثل هذا الاجتماع ؟ ومن البداية لا نستطيع الفصل بين هذه المبادرة وبين الاستعدادات التى تجرى على قدم وساق لتحقيق الوحدة الأوروبية ، وما فعلته الأحداث الأخيرة فى أوروبا الشرقية فى دفع تلك الاستعدادات الى المسارعة فى التنفيذ ، والى تغيير ايقاعات هذا التنفيذ ذاته ٠ ذلك لأن المتابع لما دار فى هذا المؤتمر يجد أنه برغم اعتماده أساسا على الباحثين الفرنسيين والانجليز العرب ، فانه دعا اليه عددا من الباحثين الأوروبيين الذين يمثلون الهيئات والجمعيات العلمية المشابهة فى كل من ألمانيا وهولندا والبلدان الاسكندينافية وعدد من بلدان أوروبا الشرقية وعلى رأسها الاتحاد السوفيتى ٠ كما أن احدى الجلسات الأساسية فيه ، وهى جلسته الختامية قد كرست لمناقشة دستور تأسيس الجمعية الأوروبية لدراسات الشرق الأوسط ، وهى جمعية تنطوى على كل تلك الجمعيات معا ، وتسعى الى أن تحقق قدرا من التعاون والتنسيق المشترك بينها ٠ ومن هنا فان من الطبيعى الربط بين هذا المؤتمر وبين اجراءات الوحدة الأوروبية التى لابد أن تكون الوحدة العلمية ، ووحدة المثقفين والباحثين من الأمور الأولية والأساسية فيها ٠ كما أن هذه الوحدة، وان صادفتها بعض العقبات فيما يتعلق بالأمور الداخلية ، فلابد أن يكون فيها قدر من الاتفاق المبدئى فيما يتعلق بدراسات أوضاع المناطق المختلفة فى العالم الخارجى ، والوصول الى نوع من التعاون المشترك فى صياغة هذا الرأى أو الموقف ٠ وهذا من المؤشرات الأساسية على أن أوروبا تنسق جهودها ليكون لها ما يمكن تسميته بالبنية التحتية لكيان دولى كبير ، ولا أقول لدولة عظمى فحسب ، بل للدولة العظمى فى القرن القادم ، بأداة التعريف المفخمة ٠

وليس غريبا أن يبدأ الأمر فى هذا المجال بمنطقة الشرق الأوسط ، وبجمعياتها المختلفة فى أوروبا ٠ وان كنت لا أعلم اذا ما كانت جمعيات الشرق الأوسط هى التى تحمل لواء البداية أم أن هناك جمعيات أو هيئات أخرى قد سبقتها فى هذا المضمار ٠ المهم ، ومهما كان الأمر ، فان علاقة

أوروبا بالشرق الأوسط لابد وأنها ستكون علاقة من نوع خاص ، أقل ما فيها أنها علاقة جوار جغرافى ، وتعامل تجارى على قدر كبير من الأهمية • وعلاقة العرب بأوربا من العلاقات القديمة والهامة والتى حظيت ، وما تزال تحظى بقدر كبير من الاهتمام • لهذا كله كان من الطبيعى أن يبدأ التعاون فى هذا المجال باكرا ، وأن يمهد للوحدة الأوروبية من خلال تأسيس تلك الجمعية الفيدرالية الموحدة التى تضم كل الجمعيات الأوروبية فى هذا المضمار ، والتى ستكون أولى خطواتها العملية هى تأسيس بنك أوروبى للمعلومات التى تتعلق بالشرق الأوسط ، فمتى ننشىء نحن أول بنك عربى للمعلومات التى تتعلق بمنطقتنا ، ناهيك عن المعلومات التى تتعلق ببقية المناطق الأخرى من العالم ، وفى مقدمتها أوروبا التى لابد وأن توحيدها الوشيك سيكون له أبلغ الأثر على شتى مناحى الحياة العربية من اقتصادية وسياسية وثقافية ؟ هذا سؤال ملح أطرحه على المهتمين بالتخطيط للمستقبل فى واقعنا العربى ، ان كان ثمة من يعنيهم أمر المستقبل بيننا • وقد كان من الأمور اللافتة للنظر أن أحد الباحثين العرب طالب فى الجلسة الختامية للمؤتمر بأن يقوم العرب بانشاء اتحاد للجمعيات العلمية العاملة فى مجال دراسات الشرق الأوسط ، من أدبية وسياسية وتاريخية واجتماعية ، وأن تتوثق العلاقة بين هذا الاتحاد المقترح واتحاد الجمعيات الأوروبية الذى جرى تأسيسه فى الجلسة الختامية للمؤتمر ، وهو أمر رحب به المؤتمرون ، فهل من جهة تتبنى تنفيذه ؟

واذا انتقلنا بعد هذا للحديث عن المؤتمر نفسه ، فسنجد أن هذا المؤتمر قد عقدت جلستاه الافتتاحية والختامية فى قاعة المحاضرات الفخمة فى مبنى معهد العالم العربى المطل على نهر السين عند جسر سان برنار ، وهو المعهد الذى تحدثت عنه بقدر من التفصيل فى فصل سابق من هذا الكتاب ، بينما عقدت بقية جلساته فى قاعات المحاضرات بجامعتى باريس السابعة والثالثة فى « جيسييه » المجاورة للمعهد • وشتان ما بين المبنيين والفضاءين الثقافيين والمكانيين • فقد كان معهد العالم العربى ومزا للجمال المعمارى والرفاهية التى يمتزج فيها صفاء الروح العربية بتقنيات التقدم الأوروبى ، بينما كانت مبانى « الجيسيه » القبيحة على غاية من التقشف وفساد الذوق المعمارى • ولا أدرى كيف يستطيع الأساتذة المحاضرة فى تلك القاعات التى يسمع من فيها ما يدور فى القاعة المجاورة بوضوح مشوش • والتى تتسم مسألة الصوتيات فيها بقدر كبير من البدائية لا تجدها فى أبسط مبانى الجامعات العربية الاقليمية ، ناهيك عن جامعة باريس العريقة فى تاريخها ، لكن هذه فيما يبدو هى نتائج الثورة الطلابية الثقافية ، أو هى من العقوبات التى حاقت بالجامعة بعدها• ومن لديه الخبر اليقين فى هذا الشأن فليخبرنى ، علنى أفهم سر هذه

الفوضى المكانية التى عانيت منها بعض الشيء لمدة أيام متعاقبة ، أثناء انعقاد هذا المؤتمر العلمى الكبير ٠

واذا كنت قد بدأت بالسلبيات فلأكملها ٠ وأهم السلبيات بالاضافة الى تلك الفوضى التنظيمية الفرنسية الطابع ، هى أن هناك نوعا من سوء الفهم بين ما يسميه الفرنسيون بالورشة Atelier وما يقصده الانجليز بنفس المصطلح Workshop لأن الفرنسيين يقصدون بها نوعا من الحديث غير المنظم بين مجموعة من الأطراف المشاركة فى بحث واحد للتعريف بما يدور فيه ، ولتقديم ما تم اكتشافه عبره ، وما أنجز منه ٠ وهى جلسة تلقائية ينقصها الكثير من التنظيم وتفتقر الى التحضير، وتعتمد نتائجها كلية على مقدار علم المشاركين فيها ، لا على اجتهاداتهم فى الوصول الى مجموعة محددة من القضايا والأطروحات ٠ أما الفهم الانجليزى لها ، فهو مختلف تماما ، ليس فقط لأن الانجليز نقلوا المصطلح عن الأمريكيين الذين كانوا أول من بلوره ، ولكن أيضا لأن نسبة الأبحاث المشتركة فى الجانب الانجليزى ما زالت ضئيلة للغاية بل وتوشك أن تكون معدومة ٠ فالمفهوم الانجليزى لورشة العمل هو تحضير مجموعة من الأفكار والرؤى المعدة والمبلورة سلفا حول قضية بعينها٠وافساح المجال بعد عرض هذه الرؤى والأفكار لقدر أوسع من المناقشات بغية بلورة نوع من التفكير المشترك ، وتحسس اتجاه التيار فى هذا المجال ٠ بل ان المفهوم الانجليزى لهذا الشكل من أشكال الحوار العلمى لا يختلف فى كثير من الأحيان عن مفهوم الندوة التى تقدم فيها أبحاث كاملة التبلور ، يجمعها خيط واحد هو خيط الموضوع عادة ٠ ومن هنا كانت « الورش » الفرنسية خاصة أقرب الى الورشة بالمعنى العامى للمصطلح ، وبلغ التفاوت منتهاه فى تلك التى شارك فيها عدد من الباحثين الانجليز والفرنسيين معا ٠ أما الورش الفرنسية الخالصة فقد تفاوت مستواها من ورشة الى أخرى ، وأن جنحت معظمها الى عرض أفكار نصف مبلورة ، ورؤى غير مدروسة ، واستقصاءات لم تتوفر لها فرص النضج بعد ٠

واذا كنا قد فرغنا من أبرز السلبيات فلنعد الآن لايجابيات المؤتمر ، أو على الأقل لالقاء نظرة سريعة على ما دار فيه ٠ فقد كان فى المؤتمر ٤٢ ورشة أو جلسة عمل ، بالاضافة الى ٢٧ حلقة بحث ، وقد شارك فيها جميعا أكثر من ٣٠٠ باحث من أكثر من عشرين جنسية ٠ وقد توزعت الموضوعات بين الأدب والتاريخ والسياسة ٠ فقد كانت هناك عدة حلقات فى مجال الأدب ، عن الأدب العربى الحديث ، والأدب العربى القديم ، والأدب النسائى العربى والفارسى ، والمسرح العربى ، والأدب المكتوب فى المنافى ، وأدب اللغة البربرية فى شمال أفريقيا ، وهو أدب يهتم الفرنسيون بدراسته

أكثر من اهتمامنا نحن العرب به ، برغم أنه أدب أشقائنا فى المغرب والجزائر ، وكذلك بعض فنون الأدب الشعبى • وكانت هناك عدة ورش وحلقات بحث للغة العربية ، يتناولها البعض من منطلق علم الألسنيات بجوانبه المختلفة ، بينما يركز البعض الآخر على تعليم اللغة العربية للأجانب والمشكلات الناجمة عن ذلك • لكن التاريخ والعلوم السياسية هى التى كان لها نصيب الأسد من جلسات العمل وحلقات البحث المختلفة، فقد خصصت أكثر من حلقة لمصر وحدها ، وحلقات عدة لكل من سوريا ولبنان وفلسطين والأردن ، والسعودية والعراق ومنطقة الخليج وتركيا ، والمرحلة العثمانية وما تخلف عنها فى الضمير التاريخى للمنطقة من ناحية ، ولعلاقتها بأوروبا من ناحية أخرى •

وبالاضافة الى هذا كله كان هناك أكثر من حلقة عن الشريعة والقانون والاتجاهات الجديدة فى الفكر الاسلامى ، وخاصة ما يترتب على تلك الاتجاهات من نشاط سياسى ملحوظ • وكان للعمارة هى الأخرى نصيب، وللمشكلات المترتبة على الهجرة ، سواء فى ذلك الهجرة الداخلية من الريف الى المدينة فى الوطن الواحد ، أو الهجرة القومية مابين أقطار الوطن العربى المختلفة ، فى محاولة لاعادة توزيع الثروة التى وزعتها الجغرافيا توزيعا جائرا ، أو الهجرة بين الدول العربية وأوروبا والتى تحظى فرنسا بنصيب الأسد منها • وكانت هناك عدة حلقات للقضايا الاقتصادية ، من آثار المشكلة السكانية ، الى مشكلات الديون ، الى العلاقات غير المتوازية بين الغرب والعالم العربى ، الى مشكلات الأقليات والعواقب الاقتصادية المترتبة عليها • والواقع أن غنى هذا المؤتمر بالأبحاث ، وثراء بعض الاستقصاءات التى طرحت فى ساحته ، هو الذى دفع المشاركين الى الغضب من سوء تنظيمه ، لأن هذا الأمر انتقص من قيمته كثيرا •

واذا كانت كثرة أبحاث هذا المؤتمر وتعدد اهتمامات الباحثين فيه لا تتيح لنا فرصة تناول جلساته بشكل تفصيلى ، لسببين : أولهما أن هذه الجلسات كانت تدور كل ثلاثة أو أربعة منها متواقتة ، بمعنى أن تدور ثلاث أو أربع جلسات فى نفس الوقت وفى عدة قاعات مختلفة ، مما استحال معه على أى مشارك أن يحضر أكثر من ربع ما دار فى المؤتمر أو خمسه ، وثانيهما أن كثرة عدد الباحثين وتنوع الموضوعات المطروحة يجعل أى محاولة حتى لاستعراض ما فى كتاب الملخصات نوعا من السرد للعناوين والموضوعات ، ما لم نتريث عند بعضها ، وهذا أمر يحتاج الى صفحات وصفحات ، فان من المهم هنا أن نتوقف عند بعض المؤشرات العامة التى خرجت بها من متابعتى لما تيسر لى متابعته من جلسات هذا المؤتمر • أقول متابعتى لما تيسر لى متابعته ، لأن تعدد الجلسات المتواقتة افتقر فى

كثير من الأحيان للتنظيم المنطقي ، فحرم هذا الافتقاد المشاركين من ارضاء الحد الأدنى لمطامحهم التخصصية المحدودة • وحتى يتضح هذا الأمر سأضرب مثلا بحالة الأدب العربي في هذا المؤتمر • فقد كانت هناك ست جلسات للأدب العربي ، وكان المنطقي أن توزع تلك الجلسات الست على أيام المؤتمر الثلاثة بحيث لا يكون ثمة تعارض أو تضارب بينها ، بحيث نجد أن هناك جلستي أدب في اليوم الواحد احداهما صباحية والأخرى مسائية • ومن هنا يتاح للمتخصص في هذا الميدان أن يحضر كل الجلسات التي تدور في تخصصه لو أراد ذلك • لكن هذا الأمر المنطقي البسيط لم يتحقق ، اذ وجدنا أن هناك يوما لا أدب فيه ، بينما تكدست أربع من جلسات الأدب في يوم واحد ، وتواقت معظمها بحيث استحال على أي مشارك حضور أكثر من ثلث جلسات الأدب •

ولنعد الآن الى الملاحظات العامة التي خرجت بها مما تيسر لي حضوره من جلسات المؤتمر ، وأهمها أن وعي أوروبا بأهمية دراسة الآخر العربي، لا ينفصل عن وعيها بأهميـة أخذ زمام المبادأة في يدها وهي تدلف الى القرن القادم • فالوعي بالوحدة الأوروبية ، وهي أول وحدة تتحقق سلميا بعد أن بلغ الوعي الانساني نفسه احدى ذرى التعقل في هذا القرن ، وبعد تجربة حربين عالميتين طاحنتين،هو الذي يحرك أوروبا على جميع المستويات العقلية لأخذ زمام المبادأة في يدها • فاذا كان نصف القرن الأخير كان حقبة الاستقطاب الحاد بين المعسكرين الاشتراكي والرأسمالي ، وحقبة التأثير الأمريكي المدمر على شطر كبير من بلدان العالم الثالث ، التي لم ينقذ بعضها من شره الداهم الا وجود المعسكر الاشتراكي كقوة ردع صارمة تحول دون استئثار العربدة الأمريكية بالتحكم في العالم ، فان نصف القرن القادم سيكون بلا نزاع هو حقبة بزوغ القوة الأوروبية من جديد ، وفق تصورات جديدة ومنطلقات مغايرة لتلك التي احتدم فيها التناقض في أوروبا ، ولعب شطر كبير منها دورا تابعا للمصالح الأمريكية • فقد أسفرت الأحداث الأخيرة في أوروبا في الأعوام القليلة الماضية ، ومنذ وصول جورباتشوف الى الحكم في الاتحاد السوفيتي عن مجموعة من التغيرات الجذرية التي بلغت ذروتها في أحداث أوروبا الشرقية التي تعاقبت منذ سقوط سور برلين في نوفمبر ١٩٨٩ ، ولا يزال ايقاع حركتها يتنامى حتى اليوم •

فالتغيرات التي دارت في أوروبا منذ مجيىء جورباتشوف الى السلطه في الاتحاد السوفيتي عام ١٩٨٥ ، وبلغت ذروتها في أحداث العام المنصرم التي تغيرت فيها مؤسسات الحكم في كل من ألمانيا وتشيكوسلوفاكيا ورومانيا وبلغاريا ، وكانت بولندا قد سبقتها ، ثم لحقت بها انفصالات

الجمهوريات البلطيقية في الاتحاد السوفيتي ، ليست مجرد متغيرات سياسية كالتي شهدنا الكثير منها من قبل ، ولكنها في الواقع تغييرات راسمة لخريطة عالمية مختلفة ، ولموازين قوى سياسية واقتصادية وحضارية من نوع جديد • فهذه التغيرات هي التي طرحت امكانية تكوين أوروبا الكبرى الموحدة ، التي لن تستوعب دول السوق الأوروبية وحدها ، ولكن كل دول القارة الأوروبية التي يسكنها ما يقرب من ستمائة مليون نسمة يقترب دخلها من نصف دخل سكان الكرة الأرضية كلها • فقد حلت هذه التغيرات المتعاقبة الكاسحة في أقل من عام واحد الكثير من التناقضات التي استعرت منذ نهاية الحرب العالمية الثانية بين أعداء الأمس في أوربا التي انقسمت الى معسكرين متناحرين • فلم يعد التناقض الآن بين شرق أوروبا وغربها ، أو حتى بين أيديولوجيتين اقتصاديتين وسياسيتين متناقضتين ، وانما بين تلك الأوروبا الجديدة التي لاتزال في مرحلة التشكل والتخليق والتي تضم كل القارة بما فيها الجمهوريات الاوروبية من الاتحاد السوفيتي وكل البلدان النوردية التي تشمل البلدان الاسكندينافية وفنلندا وأيسلندا ، وبين حليف الأمس لقسمها الغربي، وهو الولايات المتحدة الأمريكية • وهو التناقض الذى وصل الى حد اعلان الحرب الاقتصادية في أروقة « الجات » وما سوف ينكشف عنه المستقبل من صراعات ستتفاقم صورتها وتزداد حدتها بين أوروبا الموحدة الجديدة وبين حليف قسمها الغربي السابق المتمثل في الولايات المتحدة •

ووعى أوروبا بهذا كله هو الذى كان وراء تأسيس الرابطة الأوروبية الموحدة للدراسات الشرق الأوسط ، وهو الذى يقدم لنا أهم دروس هذا المؤتمر ، بعيدا عن المؤشرات المختلفة التي تشي باهتمام فرنسا بأن يكون لها دور الريادة في كسب أكبر عدد من الأنصار ، وأفترض حسن النية ولا أقول من مناطق النفوذ ، في عالمنا العربي ، وانتزاع هذه المناطق من أيدى الولايات المتحدة الأمريكية ، عدو أوروبا الجديدة ، وعدو عالمنا العربي القديم والجديد على السواء • وأرجو أن نعى هذا الدرس ، وأن نعمل على استيعابه ومواجهة المتغيرات الناجمة عنه والاستعداد لها قبل حدوثها ، حتى نخرج من أنشوطة ردود الأفعال التي حكمت تصرفات العقل العربي على مد فترة طويلة من الزمان ، وحتى يكون لنا دور في المستقبل يتسم بالوعي بمصالحنا ، والعمل على تحقيقها بشكل مخطط وسليم •

باريس　　　　　　　　يوليو ١٩٩٠

● السفر الرابع والعشرون

السياسة الثقافية العربية وضرورات العمل الجمعى

يدرك المهتمون بقضايا الثقافة العربية أن واحدة من أكبر مشاكلها هى غياب السياسة الثقافية من واقع الاهتمام الثقافى والفكرى وحتى السياسى العربى • وها هو العقد الذى كرسته الأمم المتحدة واليونسكو لتنمية السياسات الثقافية يوشك أن ينصرم دون أن تحقق الثقافة العربية أى تقدم على هذه الساحة • فليس ثمة دولة عربية واحدة تستطيع القول بوضوح أن لديها سياسة ثقافية متكاملة • سياسة بالمعنى الاستراتيجى العميق لهذه الكلمة ، والذى ينطوى على تصور متكامل للحاضر ، ووعى واضح بامكانيات المستقبل ، وادراك شامل لذاتية الأمة العربية،ولما يحاك لها من مخططات ، ورد مستوعب لكل هذا على تحديات العصر ، واستجابة سليمة لصبوات الانسان العربى الثقافية والفكرية • وقد يمكننا القول فى مجال السياسة أن لدى دول عربية معينة استراتيجيات سياسية محددة ، لكننا لا نستطيع ، حتى بالنسبة لهذه الدول نفسها ، أن نزعم أن لديها سياسات ثقافية على نفس الدرجة من التبلور والوضوح •

وحينما أتحدث هنا عن السياسة الثقافية ، فاننى أشير الى ضرورة استيعاب مفهوم السياسة الثقافية وأبعادها المختلفة • بما فى ذلك علاقة هذا المفهوم بالهويتين القومية والثقافية ، لأننا لا نستطيع الحديث عن سياسة ثقافية دون أن نكون قد فرغنا من مناقشة قضايا الهوية القومية ، وعلاقاتها المتشابكة بالهوية الثقافية ، وبالتراث الثقافى وأشكال التعبير الخاصة عنه من الأدب (النقد والنظرية الأدبية وأشكال الكتابة الابداعية) الى العمارة والموسيقى والفنون التشكيلية والفنون البصرية (السينما والمسرح والتلفزيون) والموروثات الشعبية وحتى الاسهام القومى فى العلوم الانسانية • ولا يمكن الحديث عن تلك السياسة دون أن نكون قد فرغنا من بحث مصادر التراث الثقافى المشارك فى صياغة الهوية القومية• فاذا كنا بصدد رسم سياسة ثقافية لمصر ، مثلا ، فلابد لنا من دراسة كل مصادر تراثها الثقافى المميز من المصدر المصرى القديم (الفرعونى) والمصدر القبطى والمصدر العربى والمصدر الشعبى ومكونات الثقافة الشفهية المرئية منها والمسموعة وكل ما يساهم فى صياغة تراث تلك

الدولة الثقافى ، دون أن يكون فى ذلك أى تعارض مع تأكيد هويتها العربية أو أى تناقض بين ذاتيتها الخاصة وهويتها القومية العامة ·

بل ولابد كذلك من بحث عناصر تكوين الهوية الثقافية فى تذبذباتها بين الثقافة السائدة والثقافات الهامشية من ثقافات الأقليات العرقية الى ثقافات الأقليات الأيديولوجية · وفى كيفية ادارتها للعلاقة الحوارية أو الجدلية بين الذات (كمتشكل ثقافى) والآخر (كمتشكل معرفى) من خلال دراسة التيارات الوافدة والمؤثرات الثقافية ومختلف صور الحوار مع الثقافات الأخرى وأسباب الحوار مع ثقافات بعينها دون غيرها من الثقافات الأخرى · ولابد كذلك من دراسة العلاقة بين السياسة الثقافية والسياسة التعليمية فى مجالين أساسيين : أولهما هو مجال الأمية والثقافة ، والذى يتناول مفهوم الأمية ومفهوم الثقافة القومية ، وقضايا الأمية الثقافية والأمية الكتابية وعلاقتها بتيارات الثقافة التحتية والتعليم · وثانيهما هو اللغة وعلاقتها بالثقافة القومية من حيث سياسات تعليم اللغة القومية وسياسات تعليم اللغات الأجنبية ، ومن حيث العلاقة بين اللغة واحتياجات العصر فى كل من الدائرتين القومية والعالمية · ولابد من بحث العلاقة بين السياسة الثقافية والاعلام (الصحافة والاذاعة والتلفزيون) ولا اقول والسياسة الاعلامية ، لأن السياسة الاعلامية الحقة لا تنهض الا على أساس من السياسة الثقافية · ولابد اخيرا من دراسة الصلة بين كل من السياسة الثقافية والأيديولوجية السياسية ، وبالتالى بين المؤسسة الثقافية والمؤسسة السياسية ، بما فى ذلك تأثير المناخ السياسى على التجليات الثقافية له ، وتأثير توجهاته وتحالفاته فى المجالين القومى والدولى على السياسات الثقافية ، وطبيعة تصور المؤسسة السياسية لدور المؤسسة السياسية الثقافية بما فى ذلك دراسة الجهاز الثقافى ومهامه السياسية وبحث العلاقة بين سلم القيم الاجتماعية وسلم القيم الثقافية ، وبين انتاج الثقافة وانتاج القيمة الاجتماعية والقيمة السياسية · فبدون هذا كله لا يمكن أن نرسم خطة ثقافية ، بل ولا يمكن أن نحصل على تحقيق أى نوع من التنمية لأن هناك علاقة وثيقة بين الثقافة والتنمية · فالانسان هو غاية التنمية ،وهو الذى يتأثر بايقاعها وآثارها السوسيو ثقافية · كما أن التنمية ذاتها تخضع لجدل استراتيجيات التنمية والمعطيات الثقافية ·

ولأن افتقارنا الى السياسة الثقافية بهذا المعنى الواسع والمدروس مسألة قومية عامة ، وليست من الهموم التى يعانى منها بلد عربى دون الآخر ، فاننى أدعو الى عقد مؤتمر ثقافى دورى كبير يواصل الحوار حول قضايا الثقافة العربية بغية رسم سياسات ثقافية قومية شاملة · ولا أريد

أن يكون هذا المؤتمر بأى حال تكرارا للقاءات المكرورة التى نعرفها كل حين فى بقعة من بقاع الوطن العربى · فقد سبق أن شاركت فى عدد كبير من الملتقيات والندوات والمؤتمرات الأدبية ، وكانت تلك اللقاءات تختلف من حيث حظها من التوفيق والاخفاق ، أو من العمق والتعجل ، أو من الشمول والتقلص ، ولكنها كانت جميعا تترك فى النفس احساسا بأنها لقاءات مجموعة ذات هموم مشتركة مهما كانت دعاواها العقلية ، أو طموحاتها الفكرية للتعبير عن هموم الأمة قاطبة وصياغة أحلامها وصبواتها · وكان مثل هذا الاحساس يترك بصماته على آليـات عمـل مثل تلك اللقاءات ومدلولات خطاباتها ، دون أن يشعر الكثيرون بمدى تحكم تلك الآليات فى نتائجها ، أو منتجاتها العقلية النهائية من بيانات وتوصيات · ولا أريد هنا بأى حال من الأحوال التقليل من أهمية اللقاءات ذات الطبيعة المهنية، أو من أهمية التجمعات النوعيـة التى تتدارس موضوعا معينا فى مجال محدد من مجالات الابداع الأدبى أو الفنى ، فلابد من عقد ندوات للشعر أو القصة أو المسرح أو الفنون الشعبية أو الرواية أو النقـد أو غيرها · ولابد من اقامة مهرجانات للفيلم والمسرح والفنون المرئية الأخرى · ولابد من تنظيم معارض للفنون التشكيلية أو للمأثورات الشعبية · لكن هذه كلها شىء وما أريد أن أدعو اليه هنا شىء آخر يتبثق عنه ويصب بالقطع فيـه ·

فمع اننا نعرف جميعا أن الغالبية العظمى من الطليعة العربية المثقفة تؤمن بقوميتها العربية ، وتدعو لها من خلال ممارساتها الثقافية العديدة فان عوامل التجزئة التى تفت فى عضد الوطن العربى تحول بين تلـك الطليعة وبين متابعة ما يدور على مختلف أجزاء الساحة العربية الثقافية العريضة ، ولا توفر لها بحق فرص الاحتكاك الدورى بين بعضها والبعض الآخر ، بالصورة التى تدعم أواصر العلاقة الحميمة التى تربط بين أجزاء الجسد القومى والثقافى الواحـد · ولهذا فاننا فى حاجة الى لقاء دورى سنوى على الأقل يضم المبدعين من شتى أجزاء الوطن العربى ومن كل الفنون الأدبية والتعبيرية ، ليكون بحق بؤرة تتجمع فيها كل طاقات العقل العربى ، وتتحاور فيها كل انجازاته · ولابد لهذا الملتقى أن يكون عابرا للفنون ، وعابرا للمدارس الفكرية ، وعابرا للخلافات والحواجز السياسية والجغرافية ، أى أن تلتقى فيه كل الفنون مهما اختلفت اتجاهات مبدعيها أو تنوعت مغامراتهم الابداعية مادامو يؤمنون بهويتهم القومية ، ويستلهمون قضايا واقعهم العربى ، ولابد لهذا الملتقى الكبير أن يكون عابرا للحواجز السياسية والجغرافية ، لان على الطليعة الثقافية العربية أن تكون جديرة باسمها وبطليعيتها ، وذلك من خلال ارتفاعها فوق الخلافات السياسية والمذهبية · ومن خلال تجاوزها للعوائق السياسية ، وبرهنتها على أن

عوامل الوحـدة والتجميع فى الأمة العربية أقوى من عوامـل الفـرقة والتشـتت ٠

ولابد لمثـل هذا الملتقى من أن تكون له طبيعة دورية ، فاستمراره ليس استمرارا للقاء آخر من اللقاءات المتعددة التى تعـرفها السـاحة الثقافية ، ولكنه بالأحرى تأسيس لنوع جديد من اللقاءات التى تختلف كيفيا عما اعتدنا عليه حتى الآن ، لأن هذا الملتقى يتيح أن يلتقى المبدعون العرب ليتدارسوا قضـاياهم ويرسـموا ملامح السياسة الثقافية العربية المبتغاة ٠ والواقع أن هذه الميزة توشك أن تكون شكلا ابداعيا من أشكال المؤتمرات المعروفة فى الغرب باسم لقاءات المقتربات المعرفية المتعددة ٠ فقد أدرك الغرب أن الافراط فى التخصص قد أدى الى تضييق منظـور الرؤية ، مما أسفر عن الكثير من العواقب الخطيرة ٠ وأن السـبيل الى العـودة من جـديد الى رحابتها لن يتحقق الا بالعـودة الى المنظـور الموسوعى الشامل الذى كان السمة الغالبة على مثقفى العرب القدماء ٠ ولأن الكم المعرفى الذى يتعامل معه انسان عصرنا قد تجاوز امكانيات الفرد الواحد الذى يستطيع أن يحيط وحده بكل ثمار المعارف المتاحة ٠ فقد بلور الغرب أسلوب بحث الظاهرة الواحدة من خلال مجموعة من المتخصصين الذين ينتمون الى مناهج بحثية مختلفة داخل الحقل المعرفى الواحد ، أو الى حقول معرفية متباينة ٠ فهذه وحدها هى الطريقة التى تكفل التناول الشامل للموضوع ، وتتغلب على ضـيق الأفق المنهجى الذى كانت له عواقب عملية وفكرية وخيمة ٠ وهذا هو ما يمكن أن يتحقق للملتقى المرجو من خلال لقاء كل الفنون الابداعية وحوار كل منجزات العقل العربى فى اطـاره ٠

ولأن الحواجز السياسية والمذهبية قد تكون من أقوى العراقيل التى تقف فى سبيل دورية مثل هذا الملتقى وانتظامه،فاننى أطالب هنا بضرورة أن ينعقد هذا المؤتمر كل عام فى عاصمة أو فى مدينة عربية جديدة ، حتى تشهد كل العواصم والمدن العربية الكبرى بشكل دورى وملموس صورة من صنور التجمع الثقافى العربى الذى سيكون له بلا شك تأثيره على جماهير تلك المدن ، والذى سيشعر أبناؤها بأن الحديث عن القومية العربية ليس من غابر الكلام ، ولكنه واقع حى مؤتلق ٠ وحتى يعرف المثقف والفنان العربى مختلف أجزاء وطنه العربى الكبير ويدرك بشكل حسى مدى ما فيها من تجانس وتنـاغم ٠ فما أكثر الكتاب والمبـدعين العرب الذين يقضون حياتهم وقد عرفوا من بلدان الغرب أو الشرق أكثر مما عرفوا من ثغور وطنهم العربى الكبير وحواضره ٠ وحتى تتوزع نفقات هذا الملتقى الكبير بين شتى البلدان العربية كما تتوزع فوائده وايجابياته عليها ٠ ولا أظن

إن تكاليف عقد مثل هذا الملتقى الابداعي الكبير مهما بلغت ستثقل كاهل أى دولة كلفت ، حتى ولو كانت من أفقر الدول العربية : فما أكثر الملايين التى تنفق كل عام فيما لا طائل من ورائه فى كل البلدان العربية ؛ فقيرها وغنيها على السواء • ولو أدركت الدول العربية مدى ما سيعود عليها من عقد مثل هذا الملتقى لتنافست كل دولة على استضافته وعلى الانفاق عليه كل عام ولكنى لا أطالب أى دولة عربية بأكثر من استضافة مثل هذا الملتقى مرة كل عشر سنوات ، فلو فعلت الدول العربية العشرون ذلك لأمكن عقد هذا الملتقى الكبير مرتين كل عام لا مرة واحدة • ولأصبح للعرب المعاصرين سوق عكاظهم الحديثة التى لا يمكن للنهضة العربية الحديثة أن تقوم بدونها !

ولا أحسبنى قادرا هنا على تعديد الفوائد التى يمكن أن تعود على الأمة العربية وعلى الثقافة العربية من عقد هذا الملتقى بشكل دورى وبصورة لائقة • فضلا عن دوره الأساسى فى بلورة سياسة ثقافية عربية ، فان هناك العديد من الفوائد التى تعود منه على المبدع العربى ، وعلى الجماهير العربية ، وعلى الدولة المضيفة ، وعلى الواقع السياسى العربى فى الوطن العربى ككل وفى كل دولة على حدة • بل لا أغالى ان قلت أن مثل هذا الملتقى لا يقل عن مؤتمرات القمة العربية التى تنعقد وتنفض ، وتنفق عليها ملايين الدنانير أو الريالات أو الجنيهات أو الدراهم ، دون أن تتمخض فى غالب الأحيان الا عن تأكيد الخلافات وتدعيم الفرقة • فالسياسة العربية ساحة خصبة للتوترات المحلية وللألاعيب والمؤامرات الدولية ، بينما الابداع الفنى والأدبى وعاء قوميا وجماهيريا تتجمع فيه كل طاقات التوحيد والترابط • فاذا كان من العسير لأسباب لا داعى للخوض فيها هنا توحيد الأمة العربية سياسيا فى الوقت الراهن ، فان من الممكن أن ندرأ عنها بعض أدواء الفرقة التى تضعف كل جزء على حدة ، وتفت فى الروح العربية ككل حتى توشك أن توهنها • ومن الممكن أيضا أن نصوغ من خلال هذه الملتقيات استراتيجية ثقافية عربية شاملة ترمى الى النهوض بالضمير العربى ، والى ارهاف وعى الانسان العربى بذاتيته القومية ، وبصبواته وأحلامه التى طالما عانت من الضربات الفاجعة التى توجه اليها باستمرار • ولابد من البداية الحاسمة فى هذا المجال • لأنه اذا ما كان الحاضر هو نصف المستقبل فلابد من تغيير صورة الحاضر اذا ما كان لنا أن نأمل فى مستقبل مغاير ، لا يعيد فيه هذا الحاضر الكئيب انتاج نفسه بصور أخرى • وهذا الملتقى ضرورى كذلك لان فقدان المركز الثقافى والقومى العربى يتطلب أن تخلق تجمعات المثقفين نواة جديدة لمراكز جديدة متحركة وذات طبيعة مغايرة للمراكز القديمة التى جرى تدميرها من خلال الضربات التى وجهت الى القاهرة وبيروت •

وحتى يمكننا أن نوكل لمثل هذا الملتقى الدورى الدائم الذى تتجمع فيه النخبة الابداعية والثقافية من أجل بلورة أفضل انجازات العقل العربى ومن أجل رسم سياسة ثقافية عربية ذات طبيعة مستقرة ودائمة ، علينا أن نخلق له اطارا تنظيميا ثابتا • ذلك لأن خلق الاطار التنظيمى الثابت الذى يضم أبرز العناصر الابداعية فى شتى مجالات التعبير الأدبى والفنى هو الذى يكفل لبقيـــة الأهداف الأخرى الحـد الأدنى من الاسـتمرار والتحقيق • كما أن دورية هذا اللقاء هى التى تفرض على المبدعين العمل على تنفيذ توصـياته حتى يجيئوا للدورة القادمة بتقرير عمـا دار بين الدورتين • كما أن أهميته ترتوى من تجسيده الفعلى لتلك الوحدة القومية المبتغاة للفنون الابداعية المكتوبة أو المرئية أو المسموعة ، لأن مجرد اجتماع هذا الحشد الكبير من الفنانين والأدباء فى بقعة واحدة من بقاع الـوطن العربى ولو لمدة أسبوع واحد لبرهان ساطع على أن الوحدة العربية المبتغاة ليست أمرا مستحيلا ، وأنها ممكنة التحقيق ولو مؤقتا أثناء تلك اللقاءات • فمثل تلك اللقاءات تجسيد ملموس لتحقيق تلك الوحدة القومية فى أكثر من مستوى من مستويات التعبير ، وبرهان على تجذرها فى مختلف الهواجس الابداعية التى تشغل المبدع العربى فى شتى أرجاء الوطن العربى ، وعبر مختلف أشكال التعبير الفنى • فهل آن أوان تأسيس أمانة هذا المؤتمر ، أو بالأحرى تأسيس جامعة الثقافة العربية التى سيكون دورها فى رعاية مستقبل الأمة أهم وأجدى من دور جامعة الدول العربية ؟!

● ألسفر الخامس والعشرون

مشكلاتنا الثقافية وصورة العالم وعلاقات السيطرة

لا شك أن العقدين الأخيرين قد طرحا على مسرح الحركة الثقافية العربية مجموعة من المشكلات التي تنبثق عن تردي الواقع الثقافي وتفاقم اشكالياته . وكان آخر هذه المشكلات تلك التي يدور حولها حوار حاد في القاهرة الآن ، بشأن مسألة انتقال مركز الثقل في الثقافة العربية، من الحواضر القديمة كالقاهرة وبيروت الى الأطراف أو الهوامش العربية الأخرى في المغرب وبلدان الخليج النفطية . وطرح القضية بهذا الشكل الغريب هو أحد أعراض العلة الأساسية التي تصدر عنها معظم مشكلات واقعنا الثقافي : هذه العلة التي لا تتجسد في اتجاه التفكير ، بقدر ما تتجلى في طبيعته ، والقواعد الحاكمة لمنطقه ، وسلم الأولويات القيمية المضمرة فيه . والواقع أن البحث عن الأسباب الكامنة خلف الأزمة الثقافية التي يعاني منها الواقع العربي المعاصر سيقودنا الى التنقيب في طبقات الوعي الثقافي الدفينة للتعرف على المنابع التي ترتوي منها أكثر مشكلات واقعنا الثقافي الحاحا ، وأشدها استعصاء على العلاج ، بدءا من اشكاليات التناقض التاريخي الحاد بين المثقف والمؤسسة السائدة : سواء أكانت مؤسسة السلطة ، او غيرها من المؤسسات الاجتماعية الراسخة ، حتى مشاكل حرية التعبير ، وعزلة الكتابة عن جماهير الشعب العريضة ، واخفاق الحركة العقلية في تحويل انجازاتها الى مؤسسة ، تبني الأجيال اللاحقة فيها على انجازات الأجيال السابقة ، ولا تحتاج الى اعادة خوض معاركها من جديد وفي ظروف أسوأ عادة .

ولابد أن يؤدي بنا هذا التنقيب الى التعامل مباشرة مع الجذر الأساسي الذي تنبثق عنه الكثير من مشكلات واقعنا الثقافي ، وهو غياب « تصور عربي للعالم » ولمكان الذات العربية فيه لدى معظم مثقفينا ، وتقبل العقل العربي للصورة التي وسمتها أوروبا للعالم ، ثم تبناها الغرب عامة فيما بعد ـ بشرقه وغربه ـ باعتبارها « صورة العالم » ، لا مجرد « تصور » بين « تصورات » عديدة له . ذلك لأن تقبل هذه الصورة باعتبارها « الصورة » التي يتجلى عليها العالم ينطوي على مجموعة من المسلمات الاشكالية أولها افتقاد العقل العربي من رسم صورة خاصة به للعالم ، يحدد فيها مكانه به .

ومكانته فيه ، والاستنامة الى دعة تقبل تلك الصورة الأوروبية دون الوعي بضرورة التعامل مع المشاكل التي تطرحها ، أوحل الاشكاليات التي تنطوى عليها • وثانيها أن مكـانة العالم العربي ، بل والعالم الذى يدعى ثالثا برمته في هذه الصورة مكانة متدنية الى أقصى حد • لا تسمح له حتى بالوقوف على قدميه ، ناهيك عن التميز والتحقق الفعلي • وثالثهـا أن قبول هذه الصورة هو في حقيقته عقد اذعاني باضفاء الشرعية على السيطرة الغربية على العالم • بل ان السـيطرة الأوروبية الحقيقية على العالم لا تتحقق بالفعل ، لا في مرحلة السيطرة الاستعمارية المباشرة ، ولا حتى في المرحلة الحديثة التي اتسمت فيها تلك السيطرة بشيء من اللامباشرة ، الا بتقبل هذه الصورة •

فتقبل الصورة التي يقدمها الغرب للعالم ـ ولابد لنا هنا من توسيع مفهوم الغرب نفسه ليشمل الشمال المتقدم كله باستثناء اليابان ، لأنها لم تحقق نهضتها وتفوقها على الغرب نفسه ، الا بحفاظها على تصورها الياباني الخاص للعالم ـ هي الأساس الأول لتبرير مشروعية سيطرته على المجتمعات التي تعرف باسم العالم الثالث ، أو بالأحرى لمجتمعات الجنوب كلها ، باختلاف القارات التي تنتمي اليها أو الحضارات التي انحدرت منها ، وليس استثناء اليابان هنا شيئا عرضيا ، وانما لأن اليابان هي الاستثناء الوحيد في دول العالم المتقدم التي تمسكت بتصورها القومي الخاص للعالم ، وحافظت على ذاتيتها الثقافية ، مخضعة كل شيء لهما ، من مؤسسة السلطة حتى نظام الانتاج في المصانع • ولذلك فلا غرابة في أنها استطاعت لا منافسة الغرب فحسب ، وانما الانتصار عليه في عقر داره • بصورة يؤكد تأملها أنها بحق الاستثناء الذى يدعم القاعدة العامة ، التي تقول بأن التخلي عن صياغة صورة قومية للعالم هو في الواقع تخل عن طموحات الذات القومية في التطور والتقدم • وبرغم عمومية هذه الظاهرة بل ومعاناة بعض البلدان الغربية ذاتها منها فيما يتعلق بالتناقضات داخل بلدان الشمال نفسه ، فان ما يهمنا هنا هو مدى تأثيرها على مشـكلات الواقـع الثقافي العربي • ولذلك سيتسـم تناولنا لتبدياتها بشيء من التركيز على خصوصيتها العربية بشكل أساسي ، حتى ولو كانت هناك عموميات مشتركة بيننا وبين غيرنا من بلدان العالم •

فبدون التقبل الطوعي ، أو الاذعاني لتلك الصورة تتأزم مجموعة كبيرة من علاقات القوى الاجتماعية والسياسية في العالم وتبدأ صورته في التغير • ذلك لأن وجود الغرب الفكرى في عالمنا العربي واحتلاله لمكانة اجتماعية راقية فيه ، هي احدى ثمار اخضاعه للعقل العربي نفســه ، وتحكمه في آليات تفكيره • وهي نتيجة مباشرة لتجذر هذه الصورة في

الوعى الجمعى العربى ، وتنفيذه لما يترتب على تبنيها من اجراءات • وقوة هذا الوجود هى التى تعفى العقل العربى من اشكاليات العمل على رسم صورة للعالم خاصة به ، والدخول بهذه الصورة فى عملية جدل خلاقة مع الصورة الغربية له • لأن الثقافات تزدهر بالحوار المستمر لا بالانغلاق ولا بالتبعية • ويزداد الأمر تفاقما اذا ما لاحظنا أن صـورة العالم التى يقدمها الغرب ، والتى يحتل فيها بطبيعة الحال أرقى المكانات ، تجعل نمط الحياة الغربى الذى يعرض على شاشات التليفيزيون فى كل بلدان العالم عبر مسلسلات (دلاس) و (دايناستى) و (أهل القمة وأهـل القاع) وغيرها هو المرادف العصرى للفردوس الأرضى • بينما لا تظهر بلاد العالم الثالث ، حتى على شاشات تليفزيوناتها الخاصة ، الا باعتبارها موطنا طبيعيا للكوارث ، والمجاعات ، والفظاعات ، والحروب • حيث تدور فى ساحتها أشد الأعمال الانسانية فظاعة ووحشية ، وتفيض علاقاتها فيما بينها باللا منطق والغباء • ومن هنا تقوم الذات القومية بتكريس آليات القضاء عليها ، أو ابقائها فى مرحلة الدونية دون أن تعى ذلك •

وبرغم كل تناقضات هذه الصورة بل وبسببها يضعنا اعفاء العقل العربى نفسه من مشاق تخليق هذه الصورة فى قلب حركة النهضة أو بالأحرى فى مواجهة مع ما اصطلح على تسميته بالمشروع التحديثى برمته• فلا يمكن أن تكون ثمة نهضة حقيقية ، الا اذا قامت عبرها الذات القومية برسم صورة للعالم ، تحتل فيها تلك الذات مكانة كفيلة باشباع مطامحها، وتحقيق هويتها • ولا تنفصل صورة العالم عن مسالة الهوية القومية بأى حال من الأحوال • لأنها تشتبك بمختلف العناصر المشاركة فى صياغة هذه الهوية من دين ولغة وتاريخ وأنساق للعلاقة الاجتماعية • واذا كان النيل من الدين من أكثر هذه العناصر حساسية بالنسبة لأى شعب من الشعوب ، ناهيك عن الشعب العربى الذى كان مهد الأديان السماوية الثلاثة ، فان المؤسسات التعليمية ، التى صيغت على النمط الغربى ، استطاعت أن تتعامل مع عنصرى اللغة والتاريخ • وأن تكسر شوكتهما الى حد ما • صحيح أن الرباط الوثيق بين الدين الاسلامى واللغة العربية لم يمكن الغرب طوال سنوات الاستعمار فى المنطقة من القضاء على اللغـة القومية كما فعل بنجاح فى اماكن كثيرة من العالم ، لكن تركيز النظام التعليمى نفسه على أهمية اللغات الاوروبية ما لبث أن تحول مع الزمن ، لمرارة المفارقة ، الى أحد المطالب « الشعبية » • وأصبح تعليم الأبناء فى مدارس اللغات الأجنبية من مظاهر التحقيق والوجاهة الاجتماعية فى كثير من أرجاء الوطن العربى • وبعد موجة الاعتزاز بالشخصية القومية واللغة القومية ، فى الخمسينات والستينات ، شهدت السبعينات تراجعا كئيبا أسفر عن نفسه فى تسييد اللغة الأجنبية والزراية باللغة القومية فى كثير

من مناحي الحياة ، ولا سيما تلك التي تتصل مباشرة بالعلاقة مع العالم الخارجي أو بجانب من مشكلاته التي تحاول التجذر في المنطقة . فلا نرى حيث الذاكرة التاريخية للشعوب القوية تطلع عن ضمنها بلا نوع . فليس ثمة اهتمام بالتاريخ القومي أو بتكوينه بشكل ملامحه بصورة تصبح معها من المكونات الأساسية للشخصية الفردية . فنحن لا نعرف شوارعنا وميادينا وشوارع بيوتنا وعلاقاتنا الوثيقة بصور أبطال وعينا القومي والثقافي كما هو الحال في كثير من البلاد التي تهتم بأوصاف ذاكرة شعوبها التاريخية ناهيك عن مناهجنا التعليمية ومطبوعاتنا ومتاحفنا وإعلامنا .

وإذا كان من المكرور تعديد شتى أشكال استهداف اللغة والتاريخ العربي عبر المراحل الأخيرة ، فإن من الضروري التعرف على بعض أشكال إيهان القاعدة التي ينهض عليها النسيج القومي أو أنساق العلاقات الاجتماعية ، وأهمها تغيير البنية الاقتصادية ، وتفكيك الروابط الاجتماعية القديمة . فبالرغم من أن عددا من مفكري الغرب أنفسهم قد اعترفوا بوجود نمطين اقتصاديين مختلفين : نمط غربي وآخر آسيوي ، فإن عملية فرض النمط الغربي على العالم العربي قائمة على قدم وساق منذ بدايات الحركة الاستعمارية قبل عدة قرون وحتى الآن . وحينما أتحدث عن الحركة الاستعمارية ، فإنني أتحدث هنا عن الأساس الفكري لحركة التاريخ أكثر مما أتحدث عن وقائع ، أو مراحل تاريخية معينة . وفرض هذا النمط الاقتصادي قد أدى ، بالتالي ، إلى فرض نمط حضاري برمته ، بكل ما به من مؤسسات للدولة ، ونوعية لأسلوب الحكم ، وتنظيم للعلاقات بين المؤسسات المختلفة ، وتسييد لسلم معين للقيم الاجتماعية والثقافية . ومن هنا أزداد الصراع بين المثقف والسلطة ، وانعزلت الجماهير الواسعة عن هذا الصراع ؛ وكانت عزلتها شكل من أشكال المقاومة السلبية للاكتساح الذي جرف المثقف في طريقه . وانتظار عن بعد لما تسفر عنه المسيرة الثقافية من حصاد قد يخرج بالذات القومية من الدوران في فلك الآخر ، ويحل بالتالي بعض اشكالاتها ، وتناقضاتها . وكأن الجماهير الشعبية تعي لا جدوى الانخراط في فلك الآخر ، لأن هذا الانخراط لا يؤدي إلى تغيير الصورة ، ولا يلحق بتولية صورة جديدة ، أو حتى بتحول الذات لتلحق إلى الآخر ؛ وإنما كل ما يمكن أن يؤدي إليه هو خلق مسخ مشوش الهوية والملامح . تفقد فيه الشخصية القومية أصالتها وذاتيتها الثقافية ، ولا تفلح في أن تصبح جزءا من الثقافة الجديدة . وفي هذا المجال بالذات تقدم اليابان درسها المدهش الذي يحاول الغرب نفسه الآن أن يتعلم منه . وهو درس استطاع فيه الحفاظ على الذاتية القومية أن يبلغ بها أرقى ما حققه الغرب ، دون الوقوع في أضرار التقدم الغربي الجانبية المزعجة : من انتشار رهيب للعنف والجريمة والتحلل الأخلاقي ، ودون التضحية

بالروابط الأسرية المتينة . أو التركيز بشكل سليم على الذات والاستقلال الشخصى القومى أو الاجتماعى .

ولا تكفى استحالة السؤال فى تلك الأخرى لى عاد الشخصية القومية أو تلبزها عن « استيعاب » أسس الحضارة الجديدة ، وانما تعود أساسا الى أن مكانة العالم العربى فى تلك الصورة الغربية التى تبنيها للعالم مكانة متدنية الى أقصى حد ، ولا تسمح له حتى بالوقوف على قدميه . ولأذكر هنا بعض الأرقام الاحصائية الدالة التى تسمح بتجسيد ما أعنيه من ناحية ، وتأكد التناظر بين القوة الاقتصادية والقدرة على رسم صورة العالم وفرضها على الآخرين . اذ تقول احصاءات منظمة الأمم المتحدة ان العالم المتقدم ـ أو العالم الأول الذى يضم الولايات المتحدة وكندا وأوروبا الغربية واليابان واستراليا ونيوزيلندا وجنوب أفريقيا ـ يعيش فيه خمس سكان العالم ولكنه يتمتع بـ ٦٠٪ من انتاجه الاجمالى . بينما يعيش فى العالم الثانى أو الاشتراكى والذى يضم الاتحاد السوفيتى وأوروبا الشرقية والصين وفيتنام وكوبا ثلث سكان العالم ، ويستهلك أقل من ٣٠٪ من اجمالى انتاجه . أما العالم الثالث أو بالأحرى بقية العالم من الدول النامية والذى يمتلك نصف مساحة الكرة الأرضية ويعيش فيه نصف سكانها ، فان عليه الاكتفاء بما تبقى من فتات الانتاج العالمى الذى لا يصل الى ١٣٪ من اجمالى الانتاج العالمى . واذا ما وضعنا هذه الاحصاءات الهامة بجوار مجموعة أخرى من الاحصاءات الثقافية التى لا تقل عنها دلالة نستطيع أن نتعرف على طبيعة العلاقة الجدلية بين الواقع والانتاج الثقافى . اذ تقول تلك الاحصاءات الأخرى الصادرة عن منظمة اليونسكو أن هذا النصف الفقير من سكان العالم ، ومعه الجزء الأسيوى الاشتراكى يشكل ثلثى سكان العالم ، ولكنه لا يصدر الا أقل من نصف صحفه ، وأقل من سدس مجموعة النسخ المطبوعة منها . ولا يصدر الا ١٦٫٩٪ من الكتب الصادرة فى العالم . أما الثلث الآخر ، وهو الثلث الغربى فانه يحتكر انتاج ٨٣٫١٪ من كتب العالم ، ويصدر أكثر من نصف صحفه ، ويقرأ خمسة أسداس النسخ الصادرة من كل الصحف فى العالم . ولا يقتصر الأمر على ذلك ، فانه من بين ٤٠٠ مليون جهاز تليفون فى العالم عام ١٩٧٧ كان ٨٠٪ من هذه الأجهزة فى عشرة دول متقدمة .

والغريب أن هذه الدول العشرة ذاتها هى الدول التى تمتلك مصادر تزويد العالم بالأنباء ، أى مصادر صناعة صورة العالم . لأنها هى الدول التى تمتلك وكالات الأنباء الخمس الكبرى فى العالم (أسوشيتد برس ، ويونايتد برس ، ورويتر ، وفرانس برس ، وتاس .) وحينما فكرت دول العالم النامى فى أن يكون لها وكالة أنبائها العالمية ، ودعت الى نظام اعلامى

جديد قامت الدنيا ولم تقعد حتى أطاحت بكل من سولت له نفسه من أبناء العالم الثالث التفكير فى هذا الأمر ، وعلى رأسهم رئيس منظمة اليونسكو السابق ، ورئيس ادارة حرية تدفق المعلومات فيها · لأن امتلاك بلدان العالم الثالث لوكالة عالمية للأنباء هو الخطوة الأولى نحو مشاركتها فى رسم صورة العالم الذى احتكر الغرب رسمها بالنيابة عن بقية سكان الكرة الأرضية ·· ولأن امتلاك أدوات المعرفة لا يقل خطرا عن امتلاك أدوات الحرب ، فالمعرفة قوة · ولأن طرح أكثر من صورة للعالم فى ساحة الاعلام الدولى ليس أقل خطرا من قيام حرب عالمية لا يعرف أحد نوعية نتائجها · وإذا كان من العسير علينا أن نأخذ على عاتقنا طرح صورة جديدة للعالم من منظور العالم الثالث كله ، فلا أقل من أن نستوعب بعض دروس المجتمع الأوروبى وسوقه المشتركة حتى نبادر بالعمل على خلق صورة عربية للعالم تتخلل مكوناتها كل مناحى حياتنا الاجتماعية والاقتصادية والثقافية · عندئذ ستتغير طبيعة طروحاتنا لكثير من القضايا ، وسنستطيع أن نحل الكثير من مشكلاتنا الثقافية التى تبدو مستعصية على العلاج ، لأننا لا نزال نفكر فيها بمنطق ليس نابعا من ذاتيتنا الثقافية ، وبطريقة لا تنبثق عن آليات تكون تلك المشكلات ·

الفهـرس

الصفحة

كتب أخــــرى للمــؤلف

أولا بالعربية :

١ ـ مسرح تشيكوف
دار الحرية للطباعة ، بغداد ، ١٩٧٣

٢ ـ الرحيل الى مدن الحلم
اتحاد الكتاب العرب ، دمشق ، ١٩٧٤

٣ ـ أحاديث مع نجيب محفوظ
دار العودة ، بيروت ، ١٩٧٧

٤ ـ التجريب والمسرح
الهيئة العامة للكتاب ، القاهرة ، ١٩٨٤

٥ ـ الأدب والثورة
دار التنوير ، بيروت ، ١٩٨٤

٦ ـ استشراف الشعر
الهيئة العامة للكتاب ، القاهرة ، ١٩٨٥

٧ ـ ديوان القطط (ترجمة عن ت٠س٠اليوت)
الهيئة العامة للكتاب ، القاهرة ، ١٩٨٦

٨ ـ القصة العربية والحداثة
دار الشئون الثقافية ، بغداد ، ١٩٩٠

٩ ـ سرادقات من ورق
هيئة قصور الثقافة ، القاهرة ، ١٩٩١

١٠ ـ محمود درويش
دار الفتى العربى ، القاهرة ، ١٩٩٢

ثانيا بالانجليزية :

(1) *Intensive Arabic Course*, (Londin SOAS Publications, University of London, 1977-79).

(2) *Colloquial Egyptian, Part I, with O. Wright*, (London, SOAS Publications, University of London, 1980).

(3) *Colloquial Egyptian*, Part II & III, with O. Wright, (London, SOAS Publications, University of London, 1983).

(4) *A Reader of Modern Arabic Short Stories*, with C. Cobham, (London, Saqi Books, 1988).

(5) *The Genesis of Arabic Narrative Discourse* : A Study in *the Sociology of Modern Arobic Literature*, (London, Saqi Books, 1992).

(6) *The Modern Arabic Short Story in Egypt*, (Cambridge Cambridge University Press, forthcomming).

هذا الكتاب هو حصاد بعض السفرات ، التى إشتركت عبرها فى عدد من مؤتمرات الأدب وندواته . بعضها سفرات إلى مؤتمر فى داخل مصر او إلى مهرجان أو ندوة فى إحدى حواضر الوطن العربى ، وبعضها اخذنى إلى أوربا او الولايات المتحدة . وكما ان هذه المهرجانات والندوات تتباين جغرافيا ، فإنها تتفاوت من حيث الحجم والمدى ما بين المؤتمرات الدولية الضخمة إلى المؤتمرات الاقليمية الكبيرة . ومن معرض الكتاب إلى الاستطلاع الثقافى او الرحلة المتشوفة إلى المعرفة . ولكنها كلها سفرات من أجل الحوار العقلى مع رؤى الآخرين المتغايرة دوماً ، المتحولة أبداً . وهذا الكتاب محاولة لجمع المتابعات التى كتبتها حول هذا الموضوع على امتداد ربع قرن من الانشغال بهموم الأدب والثقافة . وقد آثرت استخدام كلمة سفر فى الترقيم بدلا من الفصول . لأن ما أقدمه ليس فصولا فى كتاب بنى بهذا الشكل المنطقى ولكنه مجموعة سفرات فى الزمان والمكان وفى الهموم الثقافية والأدبية العربية .

٧٢٥ قرشا

مطابع الهيئة المصرية العامة للكتاب